جامعة أم القرى بمكة المكرمة
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم الدراسات العليا الشرعية

قام الطالب بتعديل وتصحيح الأخطاء التي ظهرت أثناء المناقشة
د. بركات عبد الفتاح دويدار
٢٤/٨/١٤٠٥هـ

بالتفويض باسم المشرف السابق
د. بركات دويدار

جميل عبد القراعة

الفراغ الروحي
وأثره على البشرية

إعداد الطالب
جميل عبد عبد المحسن القراعة

رسالة مقدمة إلى قسم الدراسات العليا الشرعية
لنيل درجة الدكتوراه في العقيدة

بإشراف الأستاذ الدكتور
بركات عبد الفتاح دويدار

المجلد الأول
١٤٠٤-١٤٠٥هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

شكـــــــر وتقـــد يــر

الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على من اصطفى .

((رب اوزعنى ان اشكر نعمتك التى انعمت عليّ وعلى والدى وان اعمل صالحا ترضاه وادخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين)) (١)

وبعـــد :

فامتثالا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ((من لا يشكر النـــاس لا يشكر الله)) (٢) ، وقوله ((ان اشكر الناس لله عز وجل اشكرهــــم للناس)) (٣)

فاننى أقدم خالص شكرى وتقديرى ـ اعترافا بالجميل ـ لفضيلة استاذنا العلامة الدكتور بركات عبد الفتاح دويدار ـ أمد الله فى عمره ومتعه بالعافية فقد منحنى من وقته وجهده ما كان له أثر كبير فى انجاز هذا البحـــث وقد استفدت من توجيهاته القيمة وملاحظاته الدقيقة . هذا بالاضافة لمـــا لقيته منه من حسن المعاملة وكرم الاخلاق وجميل الخلال ، فجزاه الله عنـــى كل خير .

كما اتوجه بالشكر والتقدير ايضا الى فضيلة استاذنا محمد قطب والـــى فضيلة الدكتور احمد غلوش لما قدما لى من نصائح وتوجيهات قيمة .

واتوجه بالشكر ايضا للقائمين على كلية الشريعة والدراسات الاسلاميـــة وأخص منهم بالذكر سعادة عميد الكلية صالح بن عبد الله بن حميد وسعادة وكيل الكلية الدكتور حمزة الفعر ، وسعادة عميد الكلية السابق الدكتور على الحكمى .

والى جميع من قدم لى مساعدة فى انجاز هذا البحث خالص شكرى وتقديرى

---

(١) سورة النمل : ١٩ .

(٢) رواه الترمذى فى البر والصلة ٣ : ٢٢٨ . وابو داود فى الادب ٤ : ٢٢٥ (تحقيق محيى الدين عبد الحميد) واحمد ٢ : ٢٥٨ ، ٢٩٥ ، ٣٠٣ ، ٣٨٨ ، ٤٩٢ .

(٣) رواه أحمد ٥ : ٢١٢ .

المقـــدمّـــة

ان الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات اعمالنا . من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى لـه وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

أما بعد : فان من أهم الامور التى عنى الانسان بالتفكير فيها منـذ ان وجد على هذه الارض ولم يزل يجيل النظر ويقدح زناد الفكر فيها فـى كل فترات تاريخه : قديمها وحديثها ، هى كيف يحقق لنفسه السعـادة ويبعد عن ذاته كل ما يؤدى به الى الشقاء ويلحق به التعاسة والالـم والعذاب ونحو ذلك مما يضاد السعادة من الاضرار والمنغصات ؟ ولا شـك بأن الاجابة على تلك المعضلة تتطلب أولا : التعرف على النفس الانسانيـة ما هى وما حاجاتها ولوازمها ؟ ولهذا كانت دراسة الانسان والتعرف علـى طبيعته وتحديد حاجاته ومطالبه وتفسير سلوكه وميوله ودوافعه ومخاوفـه ميدانا رئيسيا من ميادين الفلسفة ، وكان الانسان بصورة عامة ميدانا رئيسيا أو كليا لكثير من العلوم كالطب وعلم الاجتماع وعلم النفس وغيرها ، بل ان جميع العلوم الانسانية انما نشأت أصلا بدافع تقديم المنفعة للانسان أو دفـع المضرة عنه فردا أو جماعة في دنياه أو اخراه مما يجلب له السعادة ويبعـد عنه الضنك والشقاء ، أو يظن فيه ذلك .

والنفس الانسانية ـ والحياة الانسانية بوجه عام ـ تمتاز بالتعقيـد واختلاف المشارب والاذواق والميول ، وتتعدد حاجاتها ومتطلباتها فتختلف فيما بين انسان وانسان ، وقوم وقوم ، وجنس وجنس ، مما يسبب في كثير مـن الاحيان تعارضها وتصادمها ، حتى يصل الامر الى التخاصم والعداء ويبلغ العراك والنزال ، كل يبغى مصلحته هو ويطلب منفعته دون سواه ، واذا وصل الحال الى ذلك ـ ووصوله أمر مشاهد ـ فان القوة هى الحكم الوحيـد والقوى عندها هو المستحق لكل خير ، ومنزلته هى أرفع المنازل ، ورأيه هـو

الجدير بالاتباع والنفاذ لا لشيء الا لكونه قويا ، والضعيف هو المسحوق المطرود لا مكانة له ولا اعتبار لرأيه أو مصلحته ، لا لشيء الا لكونه ضعيفا .

والانسان أناني بطبعه مفضلا لمصلحته على مصلحة غيره ، وجاعلا مراده فوق مراد سواه ، يؤكد ذلك ما نراه من تناحر المصالح وتطاحنها الذى يصل الى التنكر لكل ما بين الانسان وخصمه الانسان من روابط ، واهدار كل ما بينهما من وشائج ، حتى أصبح مألوفا أن يعادى الزوج زوجه والاخ أخاه والخليل خليله ، بل ما أكثر ما سمع الناس من هذا ان يقتل الاب ابنه والابن اباه . فلما كانت الاثرة تصل الى هذا الحد كان لا بد من ضوابط وحدود تحول دون أن يطغى أحد على أحد ، أو أن يستذل أحد لاحد وتضمن للضعيف ان يعيش دون أن يضار من كل من هو أقوى منه .

ولكن من يصنع هذه الحدود وينصب تلك الضوابط ويرسم الطريق ؟ أهو القوى ؟ أهو الغنى ؟ أهو فرد معين أم جنس معين أم طبقة معينة أم جماعة معينة ؟ وهل يمكن أن يعترف الناس لشخص معين أو لجنس خاص أو لغير ذلك بهذا الحق ويسلموا أمرهم اليه تسليما ؟ أم أن ذلك سيثير بينهم النزاع والخصومة من حيث أرادوا ان يتخلصوا منها ؟

ثم هل يمكن لهذا الفرد أو لتلك الطبقة أو لغيرهما من الاجناس والاصناف والجماعات اذا أتيحت له الفرصة لوضع الضوابط والحدود ورسم الطريق المطلوبة أن يتجرد من مصلحته وهواه ويؤثر عليها خير البشرية ونفعها ؟ واذا كان الانسان كائنا من كان غير مستطيع لهذا التجرد ، فكيف يمكن اذن اقناع الناس وهم يمارسون أى نشاط من نشاطاتهم أو يقومون بأى عمل من اعمالهم أن يقف كل واحد منهم عند تلك الحدود ، وأن يسلك تلك الطريق اذا لم تكن مراعية لما يريد هو ، ومقدمة لخيره هو ، وموافقة لسعيه لما ينفع شخصه أولا ، وقومه ثانيا ؟ ، بل كيف له ان يقتنع بامتثالها اذا كان ذلك الامتثال يتطلب منه التضحية بسعادته وراحته ولذته ؟ ولعل هذا هو

ما اراده عالم القانون الاوروبي الشهير " جورج هوايت كروس باتون " عندما قال : (ان السبيل الوحيد للوصول الى معايير متفق عليها للقانون هو الاعتراف بالوحي السماوي قانونا) (١)

ثم ان تحقيق السعادة للانسان في هذه الدنيا لا يمكن أن يتم الا من خلال مراعاة كل ما في هذه النفس من أبعاد ومن حاجات ومن جوانب . ولا شك في أن تحديد هذه أو تلك انما يرتبط بالنظرة الى هذه النفس ما هي ؟ فالذي يراها شيئا لا يعدو هذا الجانب المادي المحسوس من البدهي ان لا يرى لها بعد ذلك حاجة تتجاوز الحاجات المادية من نحو المأكل والمشرب والمسكن والملبس والجنس وما شابهها ، والذي لا يرى لها مزية ولا اختلاف عن الحيوان لا يمكن ان يقدر لها من الحاجات والمتطلبات غير ما يقدر للحيوان ، والذي ينكر اهمية الدوافع المادية ويستقذرها ويسعى الى اهمالها وقمعها ، ويرى ان طريق نجاة الانسان رهن بالتخلص من هذه النوازع ، لا يمكن له ان يحقق للانسان السعادة لانه يرى الا طريق للانسان الا عبر الالام والمعاناة وتعذيب النفس وارهاقها .

لقد سيطرت على البشرية مذاهب وآراء وفلسفات وأديان شتى اتضحت في كل منها النظرة الجزئية للانسان ، وبرز فيها من ثم التنصل من الشمول في معالجة الانسان والتعامل معه ، فقامت على النظرة الضيقة التي تسلط الضوء على جانب من جوانب هذه النفس وتتعامى عما سواه ، وتتشبث بحاجة من حاجاتها أو بدافع من دوافعها ، أو بمجموعة من هذه أو تلك ، وتعرض عن كل ما سواها ، وتبرز خصيصة معينة من خصائصها وتخفى ما دونها . وبناء على هذه النظرة الجزئية تتبنى مناهجها في السعي الى اسعاد هذه النفس ودفع الشقاء عنها .

فلما سعت النصرانية بحالتها التي انتهت اليها الى تجاوز الدوافع

---

(١) الاسلام والعصر الحديث ، وحيد الدين خان : ٢٠

البدنية المادية فى الانسان ، وأرادت منه ان يستقذرها وأن يتجه الى صفاء الروح وطهارة الوجدان عن طريق الترفع عن حاجات بدنه ، لم تكن تنظر للانسان الا هذه النظرة الجزئية ولم تكن تأخذ بيده نحو التقدم الا في جانب جزئى ، فسعت الى تربية الروح واشباعها - حسب مفهومها وطريقتها بالطبع - وأغفلت بل حاربت كل ما سواها . ولكن ذلك لم يغير من الحقيقة شيئا ، وهى ان فى الانسان دوافع أخرى وله حاجات اخرى أصيلة عميقة فى كيانه لا سبيل له الى تجاوزها والتخلص منها ، ولا يمكن ان يسعد مع اهمالها ، فلم يجن الانسان من تلك النظرة الا الشقاء .

وجاءت حركة رد الفعل فى أوروبا لتبرز الحاجات الانسانية التى تجاهلتها النصرانية - بعد ان حرفت - فى شكل مذاهب ونظريات لا ترى من الانسان الا جانبه المادى، ولا تعرف له من الحاجات الا ما لسواه من الاحياء والمخلوقات الاخرى ، ولا تروم له غير متطلبات الجسد ، ولا تفسر سلوكه الا من خلال شهوات الحيوان وغرائزه ، بل ربما من خلال بعض تلك الغرائز . وأنكرت كل ما فيه من خصائص ومزايا لا تخضع للمادة ، ولا تتجاوب مع اللذة البدنية . وأصرت على تفسير سلوكه وتاريخه مذ ظهر على الارض من خلال حاجاته المادية ، بل من خلال بعض هذه الحاجات ، ولم تستثن من ذلك حتى الانبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، فكلهم فى نظرها مادى فى دوافعه، دعا الى ما دعا اليه وتحمل ما تحمل لاسباب مادية ودوافع شهوانية لا غير ، وما تاريخ الانسان كل الانسان الا تاريخ البحث عن الطعام ونحوه من حاجات البدن ، وان سلوكه وتقدمه وكل امجاده انما كانت مظهرا لهذا الدافع حتى ما لديه من أديان ومقدسات وقيم وأخلاق وفضائل لم تكن نابعة فى نظر اصحاب تلك المذاهب والنظريات الا من ذلك الدافع ونحوه من الدوافع المادية كالجنس .

ولكن هذا الانكار لكل ما ليس بمادى فى كيان الانسان لم يغير من

الحقيقة شيئا ، وهي أن في الانسان امورا لا تخضع للمقاييس المادية لانها ليست بمادة أصلا ، فلا تسرى عليها قوانين المادة ، ولا يمكن اشباعها بالوسائل المادية من نحو الاكل والشرب والجنس ، وهي أمور اصيلة في الكيان البشرى ، لا يمكن لاهمالها وتجاهلها ان يمر بسلام . ففى الانسان جانب روحي ممازج لذاته يتضح في كثير من تطلعاته وتصرفاته ونشاطاته بصورة اضطرت كثيرا من العلماء الغربيين رغم ما أحاط بهم من فلسفات وظروف وتربية كلها مادية الى الاعتراف بوجود هذا الجانب والتأكيد على أصالته وعمقه وسعة تأثيره في النفس الانسانية وفى الحياة الانسانية .

ولكن هذا الجانب مع وضوح الادلة على وجوده في داخل النفس الانسانية وظهور أثره في تصرفات الانسان ، ومع عمق الادراك للحاجة الى اشباعه ، مع كل ذلك هو مجهول الكنه والحقيقة بالنسبة للانسان ، لانه لا يخضع لوسائل الانسان ، ومن ثم فلا يمكن للانسان ان يضع له منهاجا يشبعه ويوافقه ويحقق له الراحة والطمأنينة ، اذ لا يمكن للعلم المادى ان يقدم غذاء للروح لانها خارجة عن نطاقه ، فلن تفلح كل أدواته ومحاولاته في اسباغ السعادة عليها ، ولما عجز العلم عن ذلك راح يتأرجح بين انكار وجود هذا الجانب أصلا في الحياة الانسانية وبين التخبط في التعامل معه ، وتعالت صرخات المفكرين والعلماء تعترف بهذا الفشل ، وتقرر ان في الحضارة المعاصرة ثلما لم تستطع رتقه ، لان الامر على حد تعبير "دالاس" وزير خارجية الولايات المتحدة سابقا : (لا يتعلق بالماديات فلدينا أعظم انتاج عالمى في الاشياء المادية ، ان ما ينقصنا هو ايمان صحيح قوى . فبدونه يكون كل ما لدينا قليلا . وهذا النقص لا يعوضه السياسيون مهما بلغت قدرتهم أو الدبلوماسيون مهما كانت فطنتهم ، أو العلماء مهما كثرت اختراعاتهم ، أو القنابل مهما بلغت قوتها .

(فمتى شعر الناس بالحاجة الى الاعتماد على الاشياء المادية فان النتائج السيئة تصبح امرا حتميا .

(وفي بلادنا لا تجتذب نظمنا الاخلاص الروحي اللازم للدفاع عنهـا . وهناك حيرة في عقول الناس وتآكل لارواحهم . وذلك يجعل أمتنا معرضة للتغلغل المعادي) (١)

ان في الانسان شعورا داخليا يجعله لا يرتاح لكل ما يخالف المنطق والحق والعدل ،ثم هو يعيش في هذه الدنيا فيشاهد ـ فيما يشاهد ـ امورا كثيرة لا يقبلها صاحب القلب السليم والفطرة المستقيمة ،فكم من مظلوم مكلوم مسلوب الحق انتهى حاله في الدنيا على هذه الصورة لا أحد ينصره ولا أحد يواسيه ،ولا أحد يرد له حقه أو يأبه به ؟ وكم من ظلوم غشوم تمتع بغير حقه وتجاوز حده وبغى وطغى وأكل اموال الناس بالباطل وسفك دماءهم بغير حق ،ثم لم يجد احدا يجزيه سوء فعلته ويقتص منه بما اقترفت يداه ؟ وكم من حق وضع ومن باطل رفع ؟ وكم من عابث باموال الناس ودمائهم وكرامتهم وأعراضهم لشهوة مرذولة تتأجج بين حنايا صدره لا يجد جزاءه في هذه الدنيا ؟

ان النفس الانسانية لا تقبل ولا ترتاح لانتهاء الامر على هذه الشاكلة غير المقبولة ولا المعقولة حتى تؤمن بأن هنالك مرحلة أخرى آتية لا محالة ستصحح فيها كل تلك المظالم والانتهاكات . فلو أن اناسا متفرجين شاهدوا مسرحية يتجبر فيها ظالم ويعتدي ويتطاول ،ويُظلم فيها الضعيف وتُرتكب بحقه اشنع المظالم ،ثم توقف العرض ،لما صدقوا ان القصة تنتهي على هذه الصورة ،ولقالوا : لا بد ان للقصة فصلا اخر تصحح فيه الاوضاع .

ان انتهاء الامر على الصورة المشهودة في الدنيا يجعل الحياة ضرب من العبث والضياع المضني للنفس الانسانية فلا ترتاح ولا تسكن اليه .

فالايمان بالله والخضوع له ،والايمان باليوم الآخر الذي يسوده العدل والحق فطرة في النفس الانسانية .

والتدين حاجة أصيلة في الكيان البشري بعيدة الغور ،يشهد على

---

(١) عن المستقبل لهذا الدين ،سيد قطب : ٨٢

ذلك تاريخ البشرية منذ أقدم العصور ،واذا تخلصنا من عدد ضئيل من الافراد لا يساوون شيئا يذكر فى مجموع البشرية ،فانه لم توجد امة الا وكان لها دين وعبادة ،قد تصيب وقد تضل ،المهم هنا ان الانسان متدين بطبعه حتى وهو يحاول ان ينكر الدين ذاته هو متدين ،نعم انه ينكر الخضوع لدين معين ثم يستبدل به خضوعا مماثلا وربما أشد لآلهة أخرى ،يشهد على ذلك أن الذين انكروا الدين فى هذا العصر خضعوا كمثل خضوع المؤمنين وربما أشد للعقل أو للحس أو للحزب أو للزعيم أو للمنفعة أو لغير ذلك من أرباب . قال العقاد (فى الطبع الانسانى جوع الى الاعتقاد كجوع المعدة الى الطعام) . (١)

وقد شهد لهذه الحقيقة كثير من الباحثين غير المتهمين بالتحيز للدين .

ولن يغنى عن الدين شيء البتة فى اشباع تلك الجوعة ،ولن يُملأ الفراغ الذى يحدثه غياب الدين لا بالمال ولا بالجنس ولا باللذة المادية . ولا بالعلم مهما ارتاد من مجاهيل المادة ،لان فى الكينونة الانسانية جانبا يستريح لتلقى الشيء والتسليم به ،كما ان فيها جانبا يستريح لتلقى الشيء وادراكه ومعرفة حقيقته وعلله وسائر اسراره ،تطلب هذا وذاك معا ،ترتاح للمجهول أحيانا كما ترتاح للمعلوم أحيانا أخرى ،ومن هنا فان العقيدة التى لا غيب فيها ليست بعقيدة ،كما ان العقيدة التى تتكون من معميات لا يدركها العقل ولا يقبلها لا ترتاح لها النفس . (٢)

وذلك لا يعنى ان الاعتقاد على اى صورة كان ،والايمان بغيب مهما تكن طبيعته ،ومهما يكن موضوعه هو عملية مجدية ونافعة وصحيحة بالنسبة للانسان . كلا ،ان من الممكن ان يكون لبعض الاعتقادات وما ينبثق عنها من سلوك آثار ضارة تفوق ما فيها من منافع ،على فرض وجود المنافع .

---

(١) الله كتاب فى نشأة العقيدة الالهية : ١٤ .

(٢) انظر خصائص التصور الاسلامى ومقوماته ،سيد قطب : ١٩٤ .

فالدين المطلوب هنا ، والذى يوءدى الى النتيجة المطلوبة على شكل تام ، ولا يحمل آثارا ضاره هو الدين الصحيح الذى يقوم على حقائق صحيحة ولا تقوم الادلة الصحيحة على بطلانه .

وغياب هذا الدين الصحيح عن تصورات الناس وعن واقعهم وما نجم عن ذلك من افلاس روحى هو سر وأساس كثير من الامراض النفسية والاجتماعية ، الفردية والجماعية ، ومصدر كثير من الانحرافات السياسية والدولية ، فكل ذلك فى حقيقة امره لا يعدو أن يكون اعراضا ونتائج للمرض الفعلى المتمثل فى عجز الحضارة القائمة عن التعامل مع روح الانسان ووجدانه وكل ما لا يخضع للحس فى كيانه ، أو بشكل أدق عجزها عن النظر الى النفس الانسانية على اساس ان فيها بعدا روحيا ممازجا لها والتعامل معها من هذا المنطلق .

اما فى الاسلام فالمسألة تأخذ وضعا اخر . انه يعترف بالروح ويقرر جهل الانسان بها وعجزه بكل وسائله عن ادراك حقيقتها ، ومن ثم لا ينتظر من الانسان ان يخترع من عنده طريقا لاسعادها واشباعها وهو يجهل كنهها أصلا ، وانما يرجع فى ذلك الى العالم بها ، وهو خالقها ، وصدق الله

((ويسألونك عن الروح قل الروح من امر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا)) (١)

((الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير)) . (٢)

ولقد خلف انكار هذا الجانب أو الاعراض عن الطريق الوحيد لاشباعه واسعاده ، وهو الطريق الذى يتلقى فيه الانسان من خالقه العليم بكل ما

---

(١) سورة الاسراء : ٨٥

(٢) سورة الملك : ١٤

ينفعه والخبير بكل ما يضره ، خلف آثارا ضاره كثيرة وكبيرة في حياة الانسان في شتى اقطاره ذكرا كان أو انثى ، فردا أو جماعة ، فاصابت عواقب هذا النقص والفراغ في الحضارة المعاصرة الفرد والاسرة والدولة والمجتمع والبشرية بأفدح الخسائر وبأشد العلل .

وايمانا منى بخطورة الآثار التى تخلفت عن هذا الفراغ فى حياة البشرية والتى لا تزال في تزايد مستمر ، وشعورا بعظم الفجيعة التى تنتظر أمتى مع ما يهب عليها من رياح التغريب ومع تصاعد خط تقليد الغربيين بين المسلمين ، تقليدهم فى افكارهم وتصوراتهم/وفى اخلاقهم وعاداتهم وفى شرائعهم ودساتيرهم ، ومع تقمص كثير من شباب المسلمين للشخصية الغربية في مزاجها ورغباتها وميولها وموازينها وفى كل ما يحلو لها ان تفعل حذو القذة بالقذة . وكما أخبر عليه السلام :

((لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لتبعتموهم ، قالوا يا رسول الله : اليهود والنصارى ، قال : فمن))(١).

مما يصبح معه من الضرورى بيان حقيقة الضريبة الباهظة التى يؤديها الغرب ثمنا للتغلغل المادى الحسى الذى يسود تلك المجتمعات ، وايضاح الملابسات والاسباب التى ادت به الى ذلك ، لعل فى ذلك بعض ما يساعد على النظرة الموضوعية الثابتة الى تقييم الحضارة الغربية وتمييز سمينها من غثها والتعامل معها على بصيرة ، بعيدا عن النظرة المنبهرة المهزومة المهزوزة التى تحس بالضآلة ازاء تلك الحضارة فيوحى لها ذلك ان كل ما عند الغرب هو خير مما عندها .

وايمانا منى أيضا بأن الاسلام هو الدين الوحيد ـ من بين كل ما على ،

---

(١) رواه البخارى فى الاعتصام ١٣ : ٣٠٠ ، ومسلم فى العلم ٤ : ٢٠٥٤ .

الارض اليوم من أديان ومذاهب ونظريات ـ القادر على تقديم العلاج الشافى للبشرية . واقتناعا بأن المسلمين مكلفون بتحمل هذه التبعة . تبعة انقاذ البشرية من الهلاك الذى تتجه اليه . وان ذلك الدور منوط بهم وحدهم لا تستطيع أى جهة أخرى ان تقوم به . وانه يمثل بالنسبة اليهم واجبا من واجباتهم ، وليس نافلة من النوافل ، فان الله الزمهم العمل على تبليغ دينه الى الناس كافة ، وجعلهم امة وسطا ليكونوا شهداء على الناس . فتقديرا منى لاهمية كل تلك الاعتبارات ، ولانى لا اعلم احدا تناول هذا الموضوع بصورة متكاملة فقد اتخذته موضوعا لرسالتى .

وقد قسمت البحث الى مقدمة واربعة أبواب وخاتمة .

المقدمة : أوضحت المراد بالفراغ الروحى وتحدثت عن اهمية الموضوع ودوافع اختيارى له وعن منهجى فيه .

الباب الاول : أسباب الفراغ الروحى فى اوروبا ، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الاول : (تحريف اليهودية) ، وقد تناولت فيه الطريقة التى تم بها نقل وحفظ أسفار العهد القديم ، وعلى رأسها أسفار موسى عليه السلام الخمسة موضحا أنها ضاعت نهائيا مرات كثيرة وانعدمت من الوجود لفترات، مستدلا على ذلك بنصوص من العهد القديم ذاته ، وبينا انه لا سند لهذه الكتب لا الى موسى ولا الى غيره ممن نسب اليه اعادة كتابتها . وبينت أن هنالك اسفارا يهودية كثيرة قد ضاعت ولا يعرف عنها شيء وذلك من خلال ايراد نصوص من الاسفار المتداولة تشير الى المفقودة وأوردت من اعترافات علماء اهل الكتاب ما يشهد على ذلك .

وتحدثت عما بين نصوص الاسفار اليهودية من تناقض وتضارب مستدلا بأمثلة كثيرة على ذلك ، واثبت امثلة واضحة فى مخالفة محتويات هذه الاسفار للعقل وللعلم .

كما تحدثت عن نماذج من الدين المذكور فى عقيدته وتصوره لالهه ولانبياء الله، وفى شريعته

وفى ما حوى من احداث وقصص مشيرا الى تهافتها وهبوطها عن كل ما يتوقع لدين الله من السمو والكمال ، ولا نبيائه من العفة والعصمة والنزاهة حتى تقوم بذاتها شاهدا على ان مصدرها بشر عجز عن ان يتصور لا لهه غير صفات نفسه ، وأومات الى دور هذه المفاهيم الهزيلة فى تشويه صورة الدين فى النفوس .

الفصل الثانى : (تحريف النصرانية) ، وقد أوضحت فيه أن كتب العهد الجديد شأن كتب العهد القديم لا سند لها ، وأن اصولها قد ضاعت وان نسبتها الى من نسبت اليه محل انكار وشك منذ عصورها الاولى وأوردت أمثلة من هذه الاسفار على ما فيها من تناقض وعلى مخالفتها للعقل . وبينت ان النصرانية تطعمت بالوثنية ولم يزل التأثر بالوثنية يتزايد حتى وصل الامر الى تبنى الكنيسة لعقيدة التثليث وغيرها من العقائد التى فارقت بها التوحيد ، وقد بينت أيضا كيف ساهمت جهود الاباطرة الرومانيين فى حسم الصراع الدائر بين الوحدانية والتثليث لصالح التعدد بعد ان كان التوحيد هو الاقوى ، واثبت تأثر النصرانية الحالية بالوثنية بصورة كبيرة بما أوردته من اوجه شبه كثيرة بينها وبين الاديان الوثنية التى كانت سائدة فى الامبراطورية الرومانية .

الفصل الثالث : (من اخطاء الكنيسة) أوردت فيه بعضا من اخطاء الكنيسة التى لعبت دورا كبيرا فى تشويه صورة الدين فى اذهان الناس ظنا منهم أن ما تمارسه الكنيسة من مظالم وما تقترفه من اخطاء فاحشة تمثل الدين ، وذلك كتحريف الشريعة وفصلها عن الحياة ، وكالتسلط والطغيان الذى كانت الكنيسة تمارسه على عقول الناس وأرواحهم ، والضرائب الباهظة التى كانت تفرضها عليهم ، وكمحاربتها للعلم ، وكتسلطها على الامراء والحكام والاباطرة ، وكالفساد الخلقى الذى استشرى بين رجال الدين ونحو محاكم التفتيش والرهبانية الجامحة وبيع صكوك الغفران .

الباب الثاني : (آثار الفراغ الروحي في اوربا) ، وقد جعلته في تمهيد ، وثلاثة فصول .

فأوضحت في التمهيد كيف تدرج الفكر الاوروبي من كراهية الكنيسة الى انكار الدين الكنسي والايمان بالدين الطبيعي مع الايمان بالوحي في الامور التي يقرره العقل ،ثم انكر الوحي وادعى انه لا حاجة له ،ثم انكر حتى الدين الطبيعي وانكر المعجزات وانكر صحة الدين،ثم اعتبره عائقا عن التقدم ومخدرا للجماهير .

الفصل الاول : (آثار الفراغ الروحي على الفرد) ، وقد بينت فيه كيف عجز الهارب من الكنيسة ان يجد اجابة مريحة مطمئنة على كثير من الاسئلة التي تنشأ في كيانه عن الكون والانسان والحياة والموت ، مما ادى الى حيرته وعذابه ، وكيف ساهمت بقايا مفاهيم المسيحية المحرفة التي لم يستطع ان يتخلص منها في زيادة مصيبته ، وكيف عجز الانسان الغربي عن ان يجد لنفسه هدفا لائقا مقبول فأنكب على المنفعة وغدا المال واللذة الحسية مقياسا لكل شيء ، ولما لم يعرف غايته لم يعرف طريقه . وأدى اتجاه النهضة الى التراث اليوناني القديم الى اشاعة الشعور بالعداء والصراع في نفس الاوروبي ، وأدى انكاره لكل ما لا يقع تحت الحس الى اهمال كثير من جوانب فطرته التي لا يسعها الحس مما ساهم في شيوع التماثل والتشابه بين الناس ، ونجم عن ذلك ضمور الخصائص الانسانية وتسرب الخصائص المادية والآلية الى طباعه ، وكان من جراء ذلك القلق والتوزع النفسي وعدم الاكتراث ونحوها من الآلام النفسية التي يحاول ان يتخلص منها عن طريق المسكرات والمخدرات والانتحار ونحو ذلك من السبل والوسائل .

الفصل الثاني : (أثر الفراغ الروحي على الاسرة):
بينت فيه كيف ساهمت نظرة النصرانية المحرفة الى المرأة في دفع حركة المطالبة بحقوق المرأة الى الشعور بأنها في صراع مع الدين ، وان هذه الحركة تحركت لهذا السبب ولاسباب أخرى بعملية رد

الفعل التى لا تعرف الحدود ، فطالبت بالمساواة مع الرجل فى الحقوق والواجبات ، وتكلمت عما نجم عن ذلك من آثار سيئة على الاسرة . وتحدثت عن دور الثورة الصناعية التى ولدت فى احضان اليهود فى دفع المرأة للخروج من بيتها وما نتج عن ذلك من آثار صعبة لحقت بالاسرة ، وتكلمت عما ترتب على شيوع النظرة المادية من تحول المرأة عن وظيفتها واخراجها من حصنها مما ادى الى تهتك الاخلاق ، وقلة الزواج ، وكثرة الطلاق وشيوع التهاجر والقطيعة فى الحياة الزوجية ، وتزايد اعداد الازواج الفارين من بيوتهم وانتشار الخيانات الزوجية ، وشيوع وسائل منع الحمل ، وتفشى الاجهاض بشكل مروع ، وتحدثت عن الاثر القاسى لغياب المرأة عن البيت بحثا عن المتعة والمال على نفوس الاطفال مما ساهم فى ظهور مشكلة انحراف الاحداث بشكل كبير ، وعن تفكك الاسرة الى غير ذلك .

الفصل الثالث : (أثر الفراغ الروحى على المجتمع والدولة) . تحدثت فيه عن الاخلاق وكيف ضُيّق مجالها شيئا فشيئا ، فأخرج منها سلوك السياسى والحاكم، ثم اخرج منها الجانب الاقتصادى . وكيف ظهرت مذاهب فى المعرفة والفكر فصلت الاخلاق والمعرفة عامة عن اللاهوت ، وقالت ان مصدرها العقل لا الوحى عند العقليين أو الحس عند الوضعيين ، ثم جاءت نظرية دارون وما كان لها من انعكاس خطير على الاخلاق فظهر من ينكر أن هنالك قيما مطلقة أو معايير ثابتة . وجاء نيتشة ليقسم الاخلاق الى اخلاق السادة وأخلاق العبيد ، ويجعل الالتزام بالفضائل حظ العبيد واعتبارها قيما هزيلة . وتتابعت الحملات ضد الاخلاق حتى جاء فرويد ليقدم نظرية يجرد فيها أخص ما يتبادر الى الذهن عند اطلاق الاخلاق من المفهوم الاخلاقى. وتحدثت عن الهبوط الخلقى المتزايد فى المجتمعات الغربية وعن مظاهره المتعددة ، وضربت على ذلك امثلة كثيرة ، ومن ذلك تبنى الكنيسة ذاتها لاساليب الحفلات الجنسية بغية جلب الشباب اليها . وتكلمت أيضا عما حل

بتلك المجتمعات من جراء الانكباب على المادة فكرا وسلوكا من ادمان على المشروبات الكحولية وعلى المخدرات، وما يترتب على ذلك من امراض واضرار وما أصابها من امراض عصبية ونفسية ، وعن الشيوع الواسع للجريمة فى تلك المجتمعات ، وعن تنامى ظاهرة الانتحار بشكل يلفت الانتباه ، وعن تزايد الارهاب ، وبروز مشكلة التمييز العنصرى ، وانتشار ظاهرة السحر والشعوذة ونحو ذلك . مبينا عند الحديث على كل ظاهرة من هذه الظواهر العرضية أثر غياب الايمان الصحيح فى نشوئها ، ومستدلا فى كل ذلك بكثير من الاحصائيات والدراسات الغربية ومستشهدا بصرخات المصلحين والمفكرين هناك .

الباب الثالث (انحراف المجتمع الاسلامى) وقد جعلته فى تمهيد وثلاثة فصول :

أوضحت فى التمهيد كيف تدرج خط الانحراف فى تاريخ هذه الامة وأوردت ابرز الانحرافات التى وقعت ، وبينت ان هذا الانحراف قد ازداد فى العصور الاخيرة ، واتخذ طريقا اخر تمثل فى خطة اعدت لذلك وظهر التجاوب واضحا مع تلك الخطة فى مجتمعات المسلمين، تلك هى الغزو الفكرى الذى تحدثت عنه الفصول اللاحقة :

الفصل الاول : (خلفية الغزو الفكرى وأهدافه) فأوضحت فيه كيف ظهر الغزو الفكرى ، وانه لون من الوان حرب الاسلام ، بل لعله أشد الوان الحرب على الاسلام ضراوة ، ابتدعه الصليبيون واليهود ، بعدما عجزوا عن القضاء على الاسلام فى ميدان القتال ، وتتلخص أهدافه فى تشويه الاسلام فى نفوس اهله ليتم عزلهم عن مصدر قوتهم ، وفى تفتيت وحدتهم والقضاء على لغتهم وافساد اخلاقهم وافساد المرأة المسلمة ليسهل بعد ذلك افساد اجيال المسلمين .

الفصل الثانى : (وسائل الغزو الفكرى) تحدثت فيه عن هذه

الوسائل ، وكيف تمكن اعداء الاسلام من استغلالها لتحقيق اهدافهم وذلك من نحو التعليم بجميع مراحله ، والاعلام بكل وسائله من صحافة وغيرها والترجمة والطب والاعمال الانسانية ونحو ذلك ، موضحا الدور الذى لعبه التبشير والنصارى عموما فى استغلال هذه الوسائل لضرب الاسلام .

الفصل الثالث : (من نتائج الغزو الفكرى) تحدثت فيه عن بعض نتائج هذا الغزو التى ظهرت فى العالم الاسلامى ، وبينت كيف ظهر نتيجة لذلك تيار فكرى اراد ان يقيم فكرة التغريب على اسس نفسية وفكرية ويتلمس لها مسوغات علمية حتى يمكن تأصيلها وتثبيتها وتقبلها وتهيئة الفرصة امامها ، فاستعرضت عددا من المؤلفات التى نحت الى هذا الاتجاه وتكلمت على تسرب كثير من آثار الفراغ الروحى فى الغرب الى حياة المسلمين من نحو انتشار المسكرات والمخدرات ، وتفشى القلق والامراض النفسية والعصبية وشيوع الانتحار وظهور الجنس الثالث ونحوها .

الباب الرابع : (الاسلام هو الطريق) وقد قسمته الى تمهيد واربعة فصول :

فتحدثت فى التمهيد عن مواصفات طريق الخلاص من خلال ما لمسناه فى الواقع الغربى من علل وامراض حين الحديث على آثار الفراغ الروحى على اوروبا ، ومن خلال صرخات المعذبين من رجال الفكر الغربى ذاتهم ، وأوضحت عجز كل المذاهب والاديان السائدة على وجه الارض مما سوى الاسلام عن تحقيقها ، كما بينت أيضا انه ليس فى طاقة العلم البشرى توفيرها ، ثم رحت استعرض وفاء الاسلام بها وتحقيقه لكل ما هو مطلوب لنجاة البشرية وذلك من خلال :

الفصل الاول (فكرة الاسلام عن الله والكون والحياة والانسان) موضحا جوانب هذه الفكرة وما فيها من استيعاب لقضايا الحياة الكبرى ولجوانب النفس الانسانية المتعددة ، وما فيها من تكريم للانسان . وتحدثت عن

طريقة الاسلام فى اصلاح النفس الانسانية ، وعن قدرته على تفجير طاقاتها واستعداداتها ودفعها للحركة على صورة لا تتأتى لسواه ولا تعرف فى غير تاريخه ، وبينت دور العقيدة الاسلامية فى اشاعة الامن والطمأنينة فى النفس الانسانية .

الفصل الثانى : (شمول الاسلام) أوضحت فيه ان الاسلام منهاج شامل للحياة مستوعب لكل جوانبها سواء أتعلقت بالفرد أم بالاسرة أم بالدولة والمجتمع ، لا يخرج شئ من ذلك عنه . وبينت ما يثمره ذلك من توحد الحياة وانسجامها وبعدها عن الانفصام ونفى فكرة الصراع عنها .

الفصل الثالث : (عالمية الاسلام) وقد بينت فيه ان الاسلام دين الله الى الناس جميعا ، وأوضحت وفاء مبادئه بهذه العالمية وصلاحيته للبشرية جميعا فى كل اعصارها وامصارها وقدرته على اسعاد الانسان بغض النظر عن جنسه أو لونه ، وأشرت الى انه الدين الوحيد الذى يملك اليوم هذه المزية ، مما يؤهله لانقاذ البشرية مما هى فيه

الفصل الرابع : (المستقبل للاسلام) أكدت فيه ان حاجة البشرية للاسلام ، وكون الاسلام هو الطريق الوحيد لنجاة البشرية ، وما يقوم فى الواقع من مبشرات على ان الزمان يسير فى صالح الاسلام كلها تؤكد ان المستقبل باذن الله سيكون للاسلام ، مؤيدا ذلك بأدلة نصية تؤكد صحة هذا الاستنتاج .

الخاتمة : وقد اوردت فيها اهم نتائج البحث .

ولقد تطلب منى اعداد هذا البحث جهدا متواصلا ووقتا طويلا لمتابعة ما نشر حول آثار هذا الفراغ ، خاصة وان غالبه منشور فى الصحف والدوريات.

كما ان الحصول على كثير من مراجع البحث قد تطلب منى وقتا طويلا ولم استطع الحصول عليها الا من خارج المملكة .

وان طبيعة الموضوع وسعته وما فيه من تداخل وتشابك بين اسبابه

ونتائجه وكيفية حصوله فى التاريخ الاوروبى ، وتعقد وجفاف موضوعات الفلسفة الغربية التى سعت الى احتلال مكان الدين فى النفوس تستلزم من الجهد ما لا يخفى على القارئ .

ولست أزعم اننى فى بحثى هذا قد بلغت الكمال أو قاربته ، فقصاراه انه جهد المقل الذى بذل وسعه وطاقته ، وما كان فيه من خير فمن اللّه ، وما سوى ذلك فهو من نفسى .

وأسأله تعالى ان يجعل عملى هذا ـ وكل اعمالى ـ خالصا لوجهه الكريم .

واللّه الهادى سواء السبيل

البَابُ الأوَّل

أسباب الفراغ الروحي في أوروبا

وفيه:

الفصل الأول: تحريف اليهودية

الفصل الثاني: تحريف النصرانية

الفصل الثالث: أخطاء الكنيسة

الفصل الأول

تحريف اليهودية

وفيه :-

كيف نقلت التوراة عن موسى عليه السلام ؟

ضياع أسفار يهودية أخرى

التناقض ومخالفة العقل

مخالفة العلم

نماذج من الدين اليهودي

تحـــريـــف اليهـــودية

تشكل الكتب المقدسة لاى دين العمدة الاساسية والركن الركين لـــــه ، وذلك لانها تعتبر الوثائق الاساسية التي يقوم بناوءه عليها سواء في العقائد او في الشرائع. وبالقدر الذى تتوفر فيه لهذه الاصول من أسباب السلامـــة من الضياع أو الاختلاط بسواها ، وبحسب ما تيسر لها من البراهين والادلة على صحتها وصلتها بالنبي الذى تنسب اليه ، بقدر ما يحكم بصحة الديـــن الذى يقوم عليها وبكونه من عند اللّه أم ببطلانه وكونه من عند البشر . ولا شيء يطمئن العقل ويريح النفس في مسألة مثل هذه كالتواتر بنقل الجمع الكثيـــر الذى يؤمن تواطوءه على الكذب عن مثله من مصدره الاصلي وهو الرسول الذى بلغه الى الناس حتى يصل الينا ، فان لم يكن مثل هذا ، فلا أقـــل من النقل الينا بطريق معروف صحيح ، يمكن معه التأكد من سلامة الطريـــق بمعرفة رواته ، واختبار درجة ثقتهم وضبطهم في كل حلقة من حلقات السند .

اما حين يفقد هذا الدين ما يشهد على صحة نقل كتبه المقدسة عمن نسبت اليه من الرسل باعتبارها وحي اللّه اليهم، وتبليغها سليمة الى مـــن جاء بعدهم من الاجيال المتلاحقة ، وحين تعوز هذه الكتب اسباب الحفظ والصيانة ولا يعرف لها سند متصل ورواة يمكن الوثوق بهم ، حين ذلك يفقد هذا الدين قداسته ، ولا يصبح حريا باعتبار تعاليمه حسبما وصلت الـــى الاجيال المتأخرة من عند اللّه .

فكيف اذا انضم الى هذه الثغرة القاتلة أدلة وشواهد أخرى على بطلان هذا الدين واستحالة أن يكون من عند من يعلم الغيب في السموات والارض، وتؤكد أن تخرصات البشر وافتراءاتهم قد خالطته حتى لم يعد يتميز السمين من الغث فيه ؟

ومما لا ريب فيه لدى أصحاب الاديان السماوية أن اللّه بعث موســـى عليه السلام الى بنى اسرائيل وأمرهم بعبادته تعالى وأنزل عليه التـــوراة ،

فهل نقلت التوراة عن موسى نقلا متواترا أو على الاقل صحيحا متصلا أم ان الامر على خلاف ذلك ؟ وهل هنالك ما يثبت كونها ـ على صورتها المتداولة ـ من عند الله من الاعتبارات العقلية والعلمية ؟

يعتمد اليهود تسعة وثلاثين سفرا مقدسا وهى مقسمة على النحو التالى :

أولا : اسفار موسى عليه السلام ، وهى خمسة : التكوين والخروج واللاويون والعدد والتثنية . ويطلق عليها أسفار التوراة .

ثانيا : الاسفار التاريخية وعددها اثنى عشر سفرا ، تتحدث عن تاريخ بنى اسرائيل وعن ملوكهم وحروبهم وقضاتهم وهى اسفار: يشوع ، والقضاة وراعوث ، وسفرا صموئيل : الاول والثانى ، وسفرا الملوك : الاول والثانى وسفرا أخبار الايام الاول والثانى ، وعزرا ، ونحميا ، واستير .

ثالثا : أسفار الاناشيد : وهى عبارة عن اناشيد ومواعظ وعددها خمسة وهى : سفر ايوب ، ومزامير داود ، وأمثال سليمان ، والجامعة من كلام سليمان ، ونشيد الانشاد لسليمان .

رابعا : أسفار الانبياء وعددها سبعة عشر هى اسفار : اشعياء وأرميا ، ومراثي ارمياء ، وحزقيال ، ودانيال ، وهوشع ، ويوئيل ، وعاموس وعويديا ، ويونان ، وميخا ، وناحوم ، وحبقوق ، وصفينا ، وحجى ، وزكريا وملاخى .

هذا بالاضافة الى اسفار التلمود التى كتبها حاخامات اليهود فى القرون التالية لبعثة المسيح وضمنوها ما يزعمون انه التعاليم الشفوية والروايات المتناقلة للدين اليهودى واعتبروه مقدسا ، بل ان بعضهم يعتبره فى منزلة اسمى من التوراة . (١)

---

(١) انظر الكنز المرصود فى قواعد التلمود ، ترجمة يوسف نصر الله : ٢٩ - ٣٠ .
التلمود شريعة بنى اسرائيل ، ترجمة واعداد محمد صبرى : ١٠ - ١١ .

كيف نقلت التوراة عن موسى عليه السلام ؟

أوحى الله تعالى التوراة الى موسى عليه السلام متضمنة لتعاليم الدين اليهودى ، فكيف تمّ حفظ هذا الكتاب المقدس ونقله عبر العصور الى الاجيال اللاحقة ، حسبما يعترف به اليهود ويتناقلونه فى أسفارهم ؟

جاء فى سفر التثنية : (وكتب موسى هذه التوراة وسلمها للكهنة بنى لاوى حاملى عهد الرب ولجميع شيوخ اسرائيل ، وأمرهم موسى قائلا فى نهاية السبع السنين فى ميعاد سنة الابراء فى عيد المظال . حينما يجىء جميع اسرائيل لكى يظهروا أمام الرب الهك فى المكان الذى يختاره تقرأ هذه التوراة أمام كل اسرائيل فى مسامعهم) . (١)

اذن فالتوراة لم تكن متداولة بين الشعب اليهودى يقرأوها من يشاء ويطلع عليها من يريد كلما رغب فى ذلك أو احتاج له ، بل لم يكن ميسورا حتى للعلماء أن يطلعوا عليها كلما احتاجوا أو ارادوا ذلك ، ولكنها محفوظة بجانب عهد الرب لا يتم الاطلاع عليها أو سماعها الا كل سبع سنوات . جاء فى السفر المذكور سابقا (٢) : (فعندما كمل موسى كتابة هذه التوراة فى كتاب الى تمامها أمر موسى اللاويين حاملى تابوت عهد الرب قائلا : خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب تابوت عهد الرب الهكم ليكون هناك شاهدا عليكم . لانى أنا عارف تمردكم ورقابكم الصلبة . هوذا وأنا بعد حى معكم اليوم قد صرتم تقاومون الرب فكم بالحرى بعد موتى)

فقد حفظت نسخة التوراة التى سلمها موسى عليه السلام للاويين بجانب تابوت عهد الرب ، فماذا كان مصيرها ؟ وهل بقيت محفوظة ؟

لقد حافظ الجيل الاول على الوصية ، ثم تغير حال بنى اسرائيل بعد انقراض هذا الجيل ، فصاروا يرتدّون حينا ويؤمنون حينا آخر ، واستمر الامر

---

(١) اصحاح ٣١ فقرة ٩ - ١١

(٢) اصحاح ٣١ فقرة ٢٤ - ٢٧

كذلك حتى سلطنة داود ثم سليمان عليهما السلام ،وقد تبين فى زمن سليمان ان التوراة قد فقدت من التابوت ،غير انه لا يعلم على وجه اليقين متى فقدت؛ فقد اجتمع الى سليمان عليه السلام جميع رجال اسرائيل وجميع شيوخ اسرائيل فى العيد ،وحمل الكهنة التابوت فلم يجدوا فيه التوراة ،وذلك حسبما يروى سفر الملوك الاول : (حينئذ جمع سليمان شيوخ اسرائيل ،وكل رؤوس الاسباط رؤساء الآباء من بنى اسرائيل الى الملك سليمان فى اورشليم لاصعاد تابوت الرب . من مدينة داود . هى صهيون . فاجتمع الى الملك سليمان جميع رجال اسرائيل فى العيد فى شهر ايثانيم . هو الشهر السابع . وجاء جميع شيوخ اسرائيل وحمل الكهنة التابوت واصعدوا تابوت الرب وخيمة الاجتماع مع جميع آنية القدس التى فى الخيمة فاصعدها الكهنة واللاويون . والملك سليمان وكل جماعة اسرائيل المجتمعين اليه معه أمام التابوت كانوا يذبحون من الغنم والبقر ما لا يحصى ولا يعد من الكثرة) (١) الى ان قال (لم يكن فى التابوت الا لوحا الحجر اللذان وضعهما موسى هناك فى حوريب حين عاهد الرب بنى اسرائيل عند خروجهم من أرض مصر) . (٢)

وكان الفلسطينيون خلال الفترة التى سبقت اكتشاف خلو التابوت من التوراة قد استولوا على التابوت فى حرب وقعت بينهم وبين الاسرائيليين وبقى عند الفلسطينيين سبعة أشهر ثم أعيد الى الاسرائيليين وذلك حسبما يروى سفر صموئيل الاول . (٣)

وبعد سليمان عليه السلام انقسمت دولة اليهود الى مملكتى اسرائيل

---

(١) ٨ : ١ - ٥

(٢) ٨ : ٩

(٣) ١ : ٥ - ٦

ويهوذا ، وكان يربعام سلطانا على مملكة اسرائيل ، ومعه الاسباط العشرة وقد ارتدوا جميعا وعبدوا الاصنام ، واستمرت هذه المملكة على الكفر وعبادة الاصنام الى مائتين وخمسين سنة ، حين أبادهم الاشوريون . وكذلك عم الكفر وعبادة الاصنام فى مملكة يهوذا ، وارتد أكثر السلاطين الى ان كان عهد يوشيا بن آمون .

ولم يرد اى ذكر للتوراة بعد اكتشاف ضياعها فى عهد سليمان عليه السلام ولم يعرف عنها خبر حتى كان حكم يوشيا بن آمون الذى كان متوجها الى الله ، وبعد مضى ثمانية عشر عاما من حكمه أعلن الكاهن حلقيا الذى أمره يوشيا بن آمون ان يحسب الفضة المدخلة الى بيت الرب أعلن أنه قد وجد التوراة ، وذلك حسبما يرويه سفرى الملوك الثانى وأخبار الايام الثانى . (١)

اما أين كانت هذه النسخة قبل ذلك ؟ وكيف لم يعثر عليها زمن سليمان عليه السلام ومن جاء بعده ؟ وكيف لم تُر فى السبعة عشر عاما الماضية من حكم يوشيا ، مع ان الملك والامراء والكهنة كانوا فى هذه الايام فى غاية الاجتهاد لاتباع الدين ، وكانوا يدخلون الهيكل باستمرار ؟ ان ذلك يثير كثيرا من الشك حول صحة هذه النسخة . ويرجح القول بأن حلقيا نفسه عند ما رأى توجه الملك الى الشريعة قام بنفسه بوضع هذه النسخة من الروايات المتداولة بين الناس ، وادعى انه وجدها ، وانها من زمن موسى عليه السلام لان ذلك أدعى لقبولها واتباعها .

ومهما يكن من ذلك ، فان المؤرخين يقررون أن حكم سليمان عليه السلام ابتدأ حوالى ٩٧٢ ق.م ، وهى السنة التى توفى فيها داود عليه السلام(٢)

---

(١) سفر الملوك الثانى ٢٢ : ٣- ٩ ، سفر الايام الثانى ٣٤ : ١٤- ٢٠

(٢) انظر مصر والشرق الادنى : نجيب ميخائيل ابراهيم ٣ : ١٢٠ ،
وانظر سفر الملوك الثانى : الاصحاح الاول .

على حين ابتدأ حكم يوشيا عام ٦٤١ ق٠م (١)، فاذا كان زعم العثور على التوراة قد تم بعد توليه الحكم بثمانية عشر عاما فمعنى ذلك انه كان عام ٦٢٣ ق٠م

يتحصل من هذا ان التوراة قد فقدت قبل عام ٩٧٢ق٠م، ولم يعرف عنها خبر حتى اعلن حلقيا عثوره عليها حوالى ٦٢٣ق٠م، فبهذا تكون قد بقيت حوالى ثلاثة قرون ونصف القرن مفقوده لا يعلم عنها شيء، وربما أكثر من هذه المدة بكثير .

ولكن هذه النسخة التى كتبها حلقيا لم تسلم من مصير سابقتها، لان أورشليم ما لبثت ان نهبت أكثر من مرة على يد الكلدانيين وملكهم بنوخذ نصّر كما يروى سفر الملوك الثانى(٢): (وجاء بنوخذ نصر ملك بابل على المدينة وكان عبيده يحاصرونها، فخرج يهوياكين ملك يهوذا الى ملك بابل هو وأمه وعبيده ورؤساؤه وخصيانه وأخذه ملك بابل فى السنة الثانية من ملكه . وأخرج من هناك جميع خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك وكسر كل آنية الذهب التى عملها سليمان ملك اسرائيل فى هيكل الرب كما تكلم الرب وسبى كل أورشليم، وكل الرؤساء وجميع جبابرة البأس عشرة آلاف مسبى وجميع الصناع والاقيان . لم يبق أحد الا مساكين شعب الارض . وسبى يهوياكين الى بابل . وجميع أصحاب البأس سبعة آلاف والصناع والاقيان الف . وجميع الابطال أهل الحرب سباهم ملك بابل الى بابل) .

ثم يذكر السفر نفسه ان بنوخذ نصر عاود السبى فى عهد صدقيا بن يهوياكين، بعد ان تمرد صدقيا عليه، وكان مما فعله جيش بنوخذ نصر حسبما فى السفر: (أحرق بيت الرب وبيت الملك وكل بيوت أورشليم

---

(١) انظر مصر والشرق الادنى ٣ : ٢١٦ ؛

(٢) ٢٤ : ١١ - ١٥٠

وكل بيوت العظماء ، أحرقها بالنار ، وجميع اسوار اورشليم مستديرا هدمها كل جيوش الكلدانيين الذين مع رئيس الشرط وبقية الشعب الذين بقوا فى المدينة والهاربون الذين هربوا الى ملك بابل (١) وبقية الجمهور سباهم بنو زرادان رئيس الشرط . ولكن رئيس الشرط أبقى من مساكين الارض كرامين وفلاحين . وأعمدة النحاس التى فى بيت الرب والقواعد وبحر النحاس الذى فى بيت الرب كسرها الكلدانيون وحملوا نحاسها الى بابل والقدور والرفوش والمقاص والصحون وجميع آنية النحاس التى كانوا يخدمون بها أخذوها . والمجامر والمناضح ما كان من الذهب فالذهب وما كان من فضة فالفضة أخذها رئيس الشرط) الى آخر ما يصفه سفر الملوك الثانى مما نهبه الكلدانيون من أورشليم . (٢)

ويصف سفر آخر ما حل ببنى اسرائيل فى هذا السبى فيقول :

(فأصعد اليهم ملك الكلدانيين فقتل مختاريهم بالسيف فى بيت مقدسهم . ولم يشفق على فتى أو عذراء ، ولا على شيخ أو أشيب ، بل دفع الجميع ليده . وجميع آنية بيت الله الكبيرة والصغيرة ، وخزائن بيت الرب وخزائن الملك ورؤسائه أتى بها جميعا الى بابل . وأحرقوا بيت الله وهدموا سور أورشليم وأحرقوا جميع قصورها بالنار ، وأهلكوا جميع آنيتها الثمينة ، وسبى الذين بقوا من السيف الى بابل فكانوا له ولبنيه عبيدا) (٣)

وكان وقوع هذا النهب والتخريب لاورشليم وما أعقبه من سبى لليهود الى بابل عام ٥٨٦ ق.م .

والذى يغلب على الظن أن السفر الذى كان حلقيا قد اعلن أنه وجده

---

(١) يقصد من هرب من الاسرائيليين الى ملك بابل اثناء محاصرتهم وقبل استسلامهم .

(٢) ٢٥ : ٩ - ١٥ .

(٣) سفر أخبار الايام الثانى ٣٦ : ١٧ - ٢٠ .

كان قد ضاع قبل هذا السبى ، ولكن مهما يكن من صحة ذلك ، فان مما لا شك ان التوراة قد انعدمت من الوجود بعد هذا السبى ولم يعرف عنها خبر الى ما بعد ان سمح كورش الفارسي لليهود بالعودة الى اورشليم حينما اعلن عزرا أنه وجد التوراة وقرأها على اليهود ، وكان ذلك عام ٤٤٤ ق.م[١] . ومعنى هذا انها بقيت على الاقل مائة واثنتين وثلاثين سنة ضائعة ، وربما أكثر من ذلك بكثير .

وضياعها هذا مسلّم عند أهل الكتاب . (قال كليمنس اسكندريانوس : (ان الكتب السماوية ضاعت فألهم عزرا أن يكتبها مرة أخرى) ، وقال : تهيو فلكت : (ان الكتب السماوية انعدمت رأسا فأوجدها عزرا مرة أخرى) ، وقال جان ملز كاثوليك في الصفحة : ١١٥ من كتابه الذى طبع فى بلدة دربى عام ١٨٤٢ : (اتفق أهل العلم على ان نسخة التوراة الاصلية وكذا نسخ العهد العتيق ضاعت من أيدى عسكر بختنصر) . (٢)

ويقول ول ديورانت مبينا ان النسخة التى كتبها عزرا ليست هى تلك التى قرأها حلقيا : (لم يكن هذا الكتاب هو بعينه كتاب العهد الذى قرأه يوشيا من قبل ، لان هذا العهد قد جاء فيه بصريح العبارة أنه قرئ على اليهود مرتين كاملتين فى يوم واحد ، على حين ان قراءة الكتاب الآخر احتاجت الى اسبوع) (٣) .

ولكن مصير نسخة عزرا لم يكن خيرا من مصير نسخة حلقيا أيضا .

يروى سفر المقابيين فى الاصحاح الاول أن نهبا وحرقا آخر وبعده

---

(١) انظر تاريخ الحضارة : ول ديورانت ٢٥ : ٣٣٦ .

(٢) هذه النقول عن أهل الكتاب فى التسليم بضياع التوراة التى كتبها حلقيا . عن اظهار الحق ١ : ٢٢٨ - ٢٢٩ .

(٣) قصة الحضارة ٢ : ٣٦٦ .

آخر أيضا تعرضت لهما أورشليم : (لما فتح انتيوكس ملك ملوك الفرنج أورشليم أحرق جميع نسخ كتب العهد العتيق التى حصلت له من أى مكان بعدما قطعها وأمر من يوجد عنده نسخة من نسخ كتب العهد العتيق أو يؤدى رسم الشريعة يقتل ، وكان تحقيق هذا الامر فى كل شهر ، فكان يقتل من وجد عنده نسخة من كتب العهد العتيق أو ثبت أنه أدى رسما من رسوم الشريعة) (١) ، ولهذا قال جان ملز : (ولما ظهرت نقولها الصحيحة بواسطة عزرا ضاعت تلك النقول أيضا فى حادثة انتيوكس) . (٢)

والحادثة المشار لها هى ما وقع فى عهد انطيوخس الرابع السلوقى الذى حكم ما بين ١٧٥ - ١٦٤ ق . م ، وقد دمر الهيكل ونهب ما فيه من خزائن وأكره اليهود على اعتناق الوثنية ونبذ اليهودية (٣)

وقبل سنة ٣٠ ق . م عُين هيردوس الادومى ملكا على اليهود من قبل الرومان ، وكان معروفا بقسوته ووحشيته ، وباندفاعه فى نشر الثقافة اليونانية والرومانية ، وانشاء معابد للاوثان فى مدن فلسطين (٤) ، وأمر بتمزيق صحف الشريعة ، وبقتل كل من يمارس عادات اليهود أو يحتفل بأعيادهم أو يرفض أكل لحم الخنزير أو يرفض السجود لالهة اليونان . (٥)

ولم يهدأ الحال باليهود بعد ذلك فان الامبراطور الرومانى تيطس دخل أورشليم عام ٧٠ م ، وأوقع فى اليهود مذبحة مروعة وأحرق الهيكل ، ثم أزاله من الوجود تماما ، حتى لم يعد يهتدى لموضعه ، وقتل الكهنة ودمر

---

(١) عن اظهار الحق ١ : ٢٢٧ .

(٢) المصدر السابق ١ : ٢٢٩ .

(٣) انظر العرب واليهود فى التاريخ : احمد سوسة : ٣٢٥ .

(٤) انظر المصدر السابق : ٣٢٦ .

(٥) انظر : القدس الخالدة . عبد الحميد زايد : ١١٢ .

المدينة ، وأخذ من بقى من أهلها عبيدا (١) ، حتى قال المسعودى فى وصف ما حل : (ان عدد القتلى من اليهود والمسيحيين بلغ ثلاثة الاف الف) (٢) ، وهو رقم نظن ان فيه مبالغة الا انه مع ذلك يصور ضخامة المذبحة .

وتعرض اليهود لمذبحة أخرى عام ١٣٥م، عندما حاول اليهود الثورة على الرومان وذلك بقيادة باركوخيا ، فهاجمهم هادريان وأزال قلاعهم وأحرق قراهم ، وأخرجهم من أورشليم ، وحظر عليهم سكناها وحولها الى مستعمرة رومانية ، وأسكن فيها جالية يونانية وغير اسم المدينة ، وبنى بدل الهيكل معبدا للاله اليونانى جوبيتر ، وقتل من اليهود مقتلة عظيمة قيل انها بلغت خمسمائة وثمانين الفا ، عدا من مات جوعا أو مرضا ، ولم يقم لليهود بعد ذلك قائمة فى العصور التالية . (٣) مما لا يسمح بالمحافظة

واذا كان هذا حال اسفار موسى عليه السلام ، وهى أساس الدين اليهودى فان غيرها اسوأ حالا منها ، والاختلاف قائم أصلا فى تحديد أسماء مؤلفيها ، فسفر يشوع الذى هو فى منزلة تلى منزلة أسفار موسى عليه السلام عندهم هنالك اختلاف كبير فى تحديد مصنفه ، والاغلب عندهم ان مصنفه يشوع ، غير انه يرد عليه ما ورد على أسفار موسى عليه السلام من انقطاع السند فضلا عن عدم تواتره . كما ان الاسلوب الذى كتب به هذا السفر لا يدل على ان مؤلفه يكتب حالات شهدها ورأها بنفسه ، فلا يعبر بضمير المتكلم كما هو متوقع لو كان الكاتب هو يوشع .

كما يلاحظ ايضا وجود التعارض ـ وسيأتى شىء من هذا فى فصل

---

(١) انظر العرب واليهود فى التاريخ : ٣٢٦

(٢) التنبيه والاشراف : ١١٠

(٣) انظر العرب واليهود فى التاريخ : ٣٢٦

التناقض بين كتب العهد القديم ـ بينه وبين اسفار موسى عليه السلام ، مما يقطع بأن هذه ليست من تصنيف يشوع أو تلك ليست من تصنيف موسى ، أو هما معا من تصنيف غير موسى ويشوع ، وليسا من تصنيف معصوم .

وذلك هو حال جميع أسفار العهد القديم الاخرى ، اختلاف كبير في تعيين مصنف كل سفر منها ، واقوال في ذلك مصدرها التخمين والظن وانقطاع في سندها التاريخي الى من نسبت اليهم ، وتناقض فيما بينها .

ولقد أدى تفحص الاسلوب الذى كتبت به أسفار العهد القديم من قبل بعض علماء المسيحية الى الاستنتاج أن هذه الاسفار كتبت في زمن واحد ، لان وقوع الاختلاف في الاسلوب نتيجة اختلاف الزمن أمر معروف (١) وقد صرح بهذا عدد من الباحثين مثل تورتن وليوسلن . (٢)

---

(١) لا يقاس في هذا على اللغة العربية ، لان أمرها مختلف عن اللغات التي كتبت بها أسفار العهد القديم ، بل عن جميع اللغات ، وذلك بسبب حيلولة القرآن بينها وبين التغير الواسع .

(٢) اظهار الحق ١ : ٦١ .

ضياع أسفار يهودية أخرى

ان المطلع على أسفار العهد القديم المتداولة يجد أنها كثيرا ما تشير الى اسفار اخرى ، ليست بين هذه الاسفار الموجودة ، ولا يعلم عنها شيء ، فأين هي وماذا فيها ومتى كتبت ومتى ضاعت ؟ لا أحد يعرف من ذلك شيئا ، ومن ذلك على سبيل المثال :

١ — جاء في سفر صموئيل الاول : ان صموئيل الكاهن كتب سفرا في قضاء المملكة ، ووضعه أمام الرب) . (١)

وليس بين الاسفار المتداولة هذا السفر ، فأين هو ؟

٢ — جاء في سفر أخبار الايام الاول : (وأمور داود الملك الاولى والاخيرة هي مكتوبة في أخبار صموئيل الرائي ، واخبار ناتان النبي ، وأخبار جاد الرائي ، مع كل ملكه وجبروته والاوقات التي عبرت عليه وعلى اسرائيل وعلى كل ممالك الارض) . (٢)

اذن فهنالك أسفار : أخبار صموئيل الرائي ، وأخبار ناتان النبي وأخبار جاد الرائي ، فأين هذه الاسفار ؟

ولو امكن الافتراض أن سفر أخبار صموئيل الرائي مراد به سفرى صموئيل الاول والثاني الموجودين ضمن اسفار العهد القديم أو احدهما فأين السفران الاخران ؟ ولهذا قال " آدم كلارك " عن هذه الثلاثة (هذه الكتب مفقودة) (٣)

٣ — جاء في سفر أخبار الايام الثاني : (وأمور رحبعام الاولى والاخيرة اما هي مكتوبة في أخبار شمعيا النبي وعدّو الرائي) (٤) .

---

(١) ١٠ : ٢٥ .

(٢) ٢٩ : ٢٩ .

(٣) عن اظهار الحق ١ : ٣١٣ .

وليس فى الاسفار المتداولة أخبار شمعيا النبى ولا عدّو الرائى .

٤ — جاء فى سفر يشوع : (فدامت الشمس ووقف القمر حتى انتقم الشعب من أعدائه . أليس هذا مكتوبا فى سفر ياشر) (١) .

وجاء أيضا فى سفر صموئيل الثانى : (وقال ان يتعلم بنو يهوذا نشيد القوس هوذا مكتوب فى سفر ياشر) (٢) . فأين السفر المشار له ؟

٥ — جاء فى سفر أخبار الايام الاول : (ولم يدون العدد (٣) فى سفر أخبار اليوم للملك داود) . (٤)

اذن فللملك داود سفر اسمه سفر أخبار اليوم ، وهو غير معروف .

٦ — وفى سفر الملوك الثانى : (وبقية أمور يهوياقيم وكل ما عمل أما هى مكتوبة فى سفر أخبار الايام لملوك يهوذا) . (٥)

فاين سفر أخبار الايام الثانى لملوك يهوذا ؟

٧ — وفى سفر أخبار الايام الثانى : (وبقية أمور يهوشافاط الاولى والاخيرة هاهى مكتوبة فى أخبار ياهو بن حنانى) (٦)

فأين هذا السفر ؟ قال آدم كلارك : (هذا الكتاب الآن مفقود رأسا وان كان موجودا فى وقت تأليف السفر الثانى من أخبار اليوم) . (٧)

---

(١) ١٠ : ١٢ .

(٢) ١ : ١٨ .

(٣) يريد عدد بنى اسرائيل .

(٤) ٢٧ : ٢٤ .

(٥) ٢٤ : ٥ .

(٦) ٢٠ : ٣٤ .

(٧) اظهار الحق ٢ : ٣١٣ .

٧ — وفى سفر أخبار الايام الثانى : (وبقية أمور عزيا الاولى والاخيرة كتبه أشعيا عن أموص النبى) . (١)

قال آدم كلارك : (وهذا الكتاب مفقود رأسا) . (٢)

٨ — وفى سفر الملوك الاول : (وبقية أمور سليمان وكل ما صنع ، وحكمته اما هى مكتوبة فى سفر أمور سليمان) . (٣)

ولا وجود لهذا السفر فى الاسفار المعروفة .

٩ — وفى سفر أخبار الايام الثانى : (وبقية أمور سليمان الاولى والاخيرة اما هى مكتوبة فى أخبار ناثان النبى ، وفى نبوة اخيّا الشيلونى ، وفى رؤيا معدو الرائى) . (٤)

وهذه جميعا ليست فى الاسفار المتداولة .

١٠ — وفى سفر الملوك الاول : (واما بقية امور يربعام كيف حارب وكيف ملك ، فانها مكتوبة فى سفر أخبار الايام لملوك اسرائيل) (٥)

وسفر اخبار الايام لملوك اسرائيل لا وجود له ، وليس لسفرى أخبار الايام المتداولة أى علاقة بالموضوع حتى يمكن حمل الاشاره على احدهما .

١١ — وفى السفر ذاته : (وبقية أمور رحبعام ، وكل ما فعل ، أما هى مكتوبة فى سفر أخبار الايام لملوك يهوذا) . (٦)

واين هذا السفر ؟ ولا علاقة لسفرى أخبار الايام المتداولة بالموضوع .

---

(١) ٢٦ : ٢٢

(٢) اظهار الحق ٢ : ٣١٣

(٣) ١١ : ٤١

(٤) ٩ : ٣٩

(٥) ١٤ : ١٧

(٦) ١٤ : ٣٩

وفي سفر الملوك الاول أيضا : (وبقية أمور أسا وكل جبروته ، وكل ما فعل ، والمدن التي بناها ، أما هي مكتوبة في سفر أخبار الايام لملوك يهوذا) . (١)

وقد وردت الاشارة كثيرا لسفرى اخبار الايام لملوك يهوذا واخبار الايام لملوك اسرائيل . (٢)

وضياع كثير من الاسفار أمر معترف به لدى أهل الكتاب ، قال " طامس انكلس " من علماء الكاثوليك في كتابه " مرآة الصدق" : (اتفق العالم على أن الكتب المفقودة من الكتب المقدسة ليست بأقل من عشرين) . (٣)

---

(١) ١٥ : ٢٣ .

(٢) ورد ذكر سفر اخبار الايام لملوك يهوذا صريحا في مواضع منها :
سفر الملوك الاول ٢٢ : ٤٥ ، وفي سفر الملوك الثاني ٨ : ٢٣ ، ١٢ : ١٩ ، ١٤ : ١٨ ، ١٥ : ٦ من السفر ذاته ، وفي غيرها ايضا . وورد ذكر سفر اخبار الايام لملوك اسرائيل صريحا في مواضع كثيرة منها : سفر الملوك الاول ١٥ : ٣١ ، ١٤ : ١٩ ، ٢٧ : ٣٩ من السفر ذاته . وفي سفر الملوك الثاني ١ : ١٨ ، ١٠ : ٣٤ ، ١٣ : ٨ ، ١٣ : ١٢ ، ١٤ : ١٥ ، ١٤ : ٢٨ من السفر نفسه ، وغيرها .
وانظر في هذا الموضوع : اظهار الحق ١ : ٣١٢ - ٣١٤ .
وتاريخ بني اسرائيل من اسفارهم : ٢٣ - ٢٤ .

(٣) اظهار الحق ١ : ٣١٤ .

التناقض ومخالفة العقل

ان المطلع على كتب العهد القديم ،لا بد وان يلحظ الاختلاف والتناقض بين اسفاره ،لا بل ان يجده واضحا فى الاصحاح الواحد ، وربما فى الفقرة الواحدة حيث تجد آخرها أحيانا يناقض أولها . ولا شك ان التناقض من علامات البطلان ،لانه يفضى الى اجتماع الشيء ونقيضه فى امر واحد . واذا كان من المستساغ ان نجد الاختلاف والتناقض بين اقوال الناس مهما سمت مداركهم واتسعت علومهم وذلك لاختلاف مستوياتهم العقلية والعلمية واختلاف انظارهم ومشاربهم ،فان ذلك ليس مستساغا ولا ممكنا بالنسبة لما ينسب لله الا اذا كانت هذه النسبة ليست بصحيحة ،بل ان الناس اذا وجدوا فى كلام الشخص الواحد اختلافا وتناقضا استدلوا بذلك على عدم معقولية هذا الكلام ، وعلى ان هذا المتناقض لا يصدر فيما يقول عن اساس ثابت ولا هو عارف تماما بما يقول، فلا يحظى قوله باحترامهم فضلا عن ان ينال قبولهم ،هذا مع علمهم بما فطر عليه الانسان من جهل ونسيان فاذا كان الامر كذلك بالنسبة للانسان ،فكيف يمكن للعاقل أن يقبل ويسلم بوجود الصحة والحق فى قولين متعارضين بخصوص امر واحد ثم ينسب هذا التعارض لله تعالى ؟

ان التناقض ولا شك انما يعود لجهل القائل لمعنى كلامه ومآله أو لنسيان القائل لما سبق ان قرر ،فيخالفه بعد ذلك ،أو لان القائل محتال مخادع يقول فى كل وقت ما تشتهيه نفسه وما يراه مناسبا لساعته بغض النظر عن مطابقته للواقع أو عدمه وعن مخالفة ما سبق من قوله ،ثم هو مستخف بعقول سامعيه وكل من ينتهى كلامه اليهم . وهذه الاسباب كلها أو بعضها متصور وممكن فى حق البشر ،فان من طبعهم الجهل والنسيان وفيهم الكاذب والمخادع ،واما فى حق الله ،فان الجهل والنسيان والكذب والخديعة كلها غير ممكنة ،ومن وصف بها فحرى به ان يكون ناقصا لا كاملا

وأى تأليه لهو انما هو تأليه مكذوب مزعوم . ومن ثم فان كلامه تعالى ليس من شأنه ان يوصف بشيء من التناقض والاختلاف ، وانما شأنه الاحكام والصدق والتناسق .

ان الحقيقة تقوم بنفسها شاهدا على صحتها ، وكل ما تحتاجه للاقناع بسلامتها ان يقف الانسان امامها متأملا متدبرا ، فمن شأن صاحبها ان يعرضها فى النور ، ويحث على تدبرها بعناية اقتناعا منه بأن ذلك سيؤدى الى نشرها لدى خصومها وسيزيدها رسوخا فى نفوس اتباعها . ولعلنا نلحظ موقف القرآن فى آيات كثيرة حاثا على اعمال العقل وطالبا للتفكير ومؤكدا ان ذلك سيؤدى للايمان كما فى قوله

((افلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفالها)) (١)

((افلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا)) (٢)

وان المطلع على كتب العهد القديم يشم رائحة التناقض ومخالفة العقل واضحة ، فاذا ما انتقل من مجرد الاطلاع الى التأمل والدراسة الفاحصة فانه واجد العجائب والغرائب ، وان تلك الدعوة التى جاء بها القرآن حاثا على تأمل اياته وتدبرها لا نجد لها مثيلا فى نصوص العهد القديم ، بل اننا واجدون عكس ذلك من تستر وتغافل عن ما فيها من اختلاف وتناقض من قبل كثير من دارسيها من رجال الدين اليهود والنصارى ، وكثيرا ما تستبدل هذه الدراسة الواجبة بحثا عن الحقيقة - التى لا يمكن لدين صحيح ان يطلب سواها - كثيرا ما يستبدل بها المدح من قبل شارحيها من رجال الدين (٣)

---

(١) سورة محمد : ٢٤

(٢) سورة النساء : ٨٢

(٣) انظر دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة لموريس بوكاى : ٥٦ - ٥٧ .

غير ان كثيرا من احرار العقل من اليهود والنصارى ، لم يقنعهم مثل تلك المواقف والاقوال التي لا تحتوى الا المديح في الوقت الذى كان عليها ان تعالج التناقض معالجة عقلية تستند الى الادلة لا الى العواطف والامانى . فقاموا بدراسات نقدية أكدوا فيها على الصعوبات المتعلقة بفوضى الاحداث وفوضى الروايات وتناقضها وفوارق الاسلوب والتأكيد على ان نصوص العهد القديم المتداولة انما تستند الى مصادر مختلفة ومتناقضة في أحيان كثيرة ، ومن هؤلاء ريشار سيمون (١٦٧٨) في كتابه «التاريخ النقدى للعهد القديم»، ومنهم ايضا جان استروك في القرن الثامن عشر وايخهورن في القرن نفسه وغيرهم (١) . غير انهم مع الاسف لم يخطوا الخطوة الاخرى في البحث عن الدين الصحيح .

ولسنا نعنى بمخالفة العقل هنا ان هذه الكتب قد حوت امورا وتحدثت عن جوانب تخرج عن ان يستطيع العقل ان يحيط بها، وانما نريد انها حوت سردا لوقائع وقررت كثيرا من الامور التي يحكم العقل ببطلانها أو عدم امكانيتها ، ولعل الفارق واضح بين ما هو خارج عن نطاق العقل وبين ما هو مخالف للعقل . فورود الاول في الاديان امر مقبول من الناحية العقلية ذاتها، وهو المتوقع من دين لا ينسب وضعه للبشر وينتظر منه معالجة الجوانب التي لا يستطيع العقل الانسانى ولوجها ، اما النوع الثانى فهو المردود .

ونحن في هذه الدراسة ليس من غرضنا ان نتتبع ما في كتب العهد القديم من هذا الباب فانه كثير جدا ، وانما الذى يعنينا ان نؤكد وجوده وان مجرد وجود التناقض ومخالفة العقل هو طعن لا مفر منه في نسبة هذه الاسفار للبارى المنزه عن النقائص ، حتى لو كان هذا التناقض متعلقا

---

(١) المصدر السابق : ٢٧ - ٢٩

بحالة واحدة ، فكيف اذا كان ذلك كثيرا جدا ، وسنكتفي هنا ببعض الامثلة ومن اراد الاستزادة فيمكنه ان يرجع الى ذلك في مظانه من الكتب والمراجع التي عنت بهذا الباب (١) .

١ — الاختلاف الفاحش بين نسخ التوراة الثلاثة العبرانية والسامرية واليونانية في مواطن كثيرة ، مما فيه احيانا زيادة الفاظ أو جمل أو نقصها أو اختلاف فيما بينها (٢) ، ومن امثلة ذلك اختلاف هذه النسخ في أعمار أنسال آدم ، مما يترتب عليه الاختلاف في وقت وقوع الطوفان من وقت ولادة آدم ، فعلي حين نجد هذه النسخ الثلاث قد اتفقت على وقوع الطوفان عندما كان عمر نوح ستمائة عام (٣) ، فان اختلافها في أعمار الانسال السابقة على نوح عليه السلام قد أدى الى الاختلاف في موعد الطوفان ، ففي حين نجد هذا الحدث يقع عام ١٦٥١ بالنسبة للنسخة العبرانية (٤) ، فانه يقع في عام ١٣٠٧ بالنسبة للنسخة السامرية (٥) ، ويقع في عام ٢٢٦٢ بالنسبة للنسخة اليونانية (٦) ، وهذه الارقام مستندة الى سلسلة أعمار انسال آدم حتى كان نوح عليه السلام ابن ستمائة عام ، وهو موعد حصول الطوفان ، وقد أوردها هنري واسكات في تفسيره للكتاب المقدس (٧) .

---

(١) انظر الفصل في الملل والنحل لابن حزم ١ / ١١٦ وما بعدها على التوراة : في مواضع كثيرة . ، رسالة في اللاهوت والسياسة لسينوزا : .... اظهار الحق لرحمة الله الهندي في مواطن كثيرة منها .

(٢) انظر اظهار الحق ١ : ٢١٧ وما بعدها ،

(٣) انظر سفر التكوين ٧ : ٦ ،

(٤) انظر سفر التكوين ،

(٥) انظر سفر التكوين في التوراة السامرية .

(٦) انظر اظهار الحق ١ : ٢١٩ فيما نقله عن واسكات ،

(٧) انظر الجدول الذي نقله عنه صاحب اظهار الحق ١ : ٢١٩

كذلك فان هنالك خلافا آخر في الفترة الزمانية الفاصلة بين الطوفان وولادة ابراهيم عليه السلام ، فالنسخة العبرانية تجعلها مائتين واثنتين وتسعين سنة (١) ، وذلك يعني انه ولد في حياة نوح الذي تتفق النسخ الثلاثة على انه عاش تسعمائة وخمسين سنة ، أما اليونانية فان ما يؤخذ منها يدل على ان هذه الفترة كانت الفا واثنتين وسبعين سنة (٢) ، وعلى وفق السامرية تسعمائة واثنتان واربعون سنة (٣) . هذا بالاضافة لخلاف آخر بين هذه النسخ حول الانسال ذاتهم ، فعلى حين تدل النسختان العبرانية والسامرية على ان ارفكشد قد أنجب شالخ وليس هنالك اى حلقة بين ارفكشد وشالخ (٤) ، فان اليونانية تفيد ان أرفكشد قد أنجب قينان فتزيد اليونانية بهذا في عدد الانسال عن النسختين الاخيرين . غير ان النسختين العبرانية والسامرية وان اتفقتا على ان ارفكشد هو والد شالخ وليس قينان ، فانهما تختلفان في موعد ولادة شالخ لارفكشد ، فتقول العبرانية ان شالخ ولد لارفكشد وعمره خمسة وثلاثون عاما ، بينما تقول السامرية : ان عمره كان وقت هذه الولادة مائة وخمسة وثلاثون عاما . (٥)

كذلك فان المعطيات التي تقدمها النسخة السامرية تؤدي الى القول بأن نوحا عليه السلام ولد في حياة آدم عليه السلام ، وان عمره حين مات آدم كان مائتين وثلاث وعشرين سنة ، وذلك انها تجعل موعد الطوفان بعد ولادة آدم بالف وثلاثمائة وسبع سنوات ، وكان نوح وقتها ابن ستمائة سنة

---

(١) انظر سفر التكوين ١١ : ١١ وما بعدها

(٢) انظر اظهار الحق ١ : ٢١٩ في الجدول الذي نقله عن واسكات .

(٣) انظر التوراة السامرية ، سفر التكوين ١١ : ١٠ - ٢٦

(٤) انظر سفر التكوين ١١ : ١١

(٥) التوراة السامرية : الاصحاح ١١ فقرة : ١٢ من سفر التكوين

حسبما تقرر النسخ الثلاث ، فهذا يعني ان نوحا عليه السلام ولد عام سبعمائة وسبعة من ولادة آدم ، ولكن عمر آدم كان تسعمائة وثلاثين سنة فلا بد ان يكون ابن مائتين وعشرين سنة عندما مات آدم عليه السلام . على حين تجعل المعطيات التي تقدمها كل من العبرانية واليونانية الامر غير ذلك ، فالعبرانية تجعل ولادة نوح بعد موت آدم بمائة وستة وعشرين عاما ، واليونانية تجعل هذه الولادة بعد موت آدم بسبعمائة واثنتين وثلاثين عاما .

كذلك فان خلافات كثيرة يمكن استخراجها من سلسلة الانسال هذه بالمقارنة بين النسخ الثلاث من حيث الاعمار ، ومن حيث أوقات ولادات الانسال . (١)

والنسخة السامرية أصلا لا تحوى ولا تعترف الا باسفار موسى الخمسة وسفرى يوشع بن نون والقضاة .

٢ — جاء في سفر التكوين (١) : (فقال (أى الرب) لابرام (٢) اعلم يقينا أن نسلك سيكون غريبا في أرض ليست لهم ويستعبدون لهم فيذلونهم اربعمائة سنة ثم الامة التي يستعبدون لها أنا ادينها ، وبعد ذلك يخرجون باملاك جزيلة) .

والمراد ما حصل لبني اسرائيل من ذهاب لمصر واستعبادهم بعد ذلك هناك ثم خروجهم منها ، فان هذا الموعد وما فيه من استعبادهم واذلالهم وخروجهم باموال جزيلة مطابق لما حصل لبني اسرائيل بمصر ، خاصة حين خرجوا بمال كثير حسبما يرويه سفر الخروج .

وجاء في سفر الخروج (٣) : (واما اقامة بني اسرائيل التي أقاموها

---

(١) الاصحاح : ١٥ فقرة ١٣ - ١٥ .

(٢) المراد ابراهيم عليه السلام .

(٣) الاصحاح : ١٢ فقرة : ٤٠ .

في مصر فكانت اربعمائة وثلاثين سنة) .

وسنغض الطرف عن ما بين السفرين من تضاد ، ونحمل ذلك على أن المراد بما في سفر الخروج هو فترة اقامتهم بمصر ، وأن المراد بما في سفر التكوين فترة الاستبعاد ، وهي جزء من فترة الاقامة .

فهل تسمح معطيات التوراة ذاتها بتصديق هذين الخبرين أم تتناقض معهما ؟

ان فترة اقامة بني اسرائيل بمصر انما تشمل من دخول يعقوب عليه السلام وبنيه اليها ، بعد حصول الجوع في أرضهم وقد ومهم على يوسف عليه السلام ، وتمتد حتى خروج بني اسرائيل من مصر مع موسى عليه السلام .

لقد أورد سفر التكوين (١) أسماء أبناء يعقوب وابناء بنيه الذين دخلوا معه الى مصر ، ومنهم قهات بن لاوي بن يعقوب عليه السلام ، وقهات هذا هو والد عمران الذي هو والد موسى عليه السلام ، حسبما تنص التوراة (٢) ، وأم موسى هي يوكابد بنت لاوي عمة عمران والد موسى ، حسبما تذكر التوراة أيضا (٣) ، أي ان عمران قد تزوج عمته (٤) .

---

(١) الاصحاح : ٤٦ فقرة : ٨ : ٢٧ .

(٢) سفر الخروج ، الاصحاح : ٦ فقرة ١٨ - ٢٠ ، وسفر العدد : الاصحاح ٢٦ فقرة : ٥٩ .

(٣) سفر الخروج : الاصحاح ٦ فقرة : ٢٠ ، سفر العدد الاصحاح : ٢٦ فقرة : ٥٩ .

(٤) تدل نصوص التوراة على تحريم نكاح العمة ، كما في سفر اخبار الايام الاصحاح ١٨ فقرة : ١٢ ، وكما في الاصحاح ٢٠ فقرة ١٩ من السفر ذاته . ولهذا فان الفقرة : ٢٠ من الاصحاح : ٦ من سفر الخروج قد حرفت في بعض التراجم العربية من (فتزوج عمران يوكابد عمته) الى (فتزوج عمران يوكابد ابنة عمه) والغالب ان هذا التحريف جاء عمدا حتى لا يقع العيب في نسب موسى عليه السلام ، خاصة وان الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٦٢٥ قد وقع فيها هذا التحريف مع انها قد خضعت لتصحيح ومراجعة عدد من القسيسين والعلماء المتمكنين من =

وهذا يعني ان فترة بقاء بني اسرائيل بمصر انما تشمل سن قهات من دخوله مصر الى ولادة عمران له ، وسن عمران حتى ولد له موسى عليه السلام وسن موسى عليه السلام حين الخروج من مصر ،لا تزيد على ذلك شيئا .

اما قهات فان سني حياته كلها الى ان مات مائة وثلاث وثلاثون سنة . حسب نص سفر الخروج (١) ، وعمران كانت سنو حياته كلها الى ان مات مائة وسبع وثلاثين سنة حسب نص سفر الخروج أيضا (٢) ، وموسى عليه السلام انما كانت سنو حياته كلها مائة وعشرين سنة حسب نص سفر التثنية (٣) قضى منها اربعين سنة مع بني اسرائيل في التيه حسب نص التثنية (٤) ، فيكون قد قضى في مصر ثمانين سنة ، وقد نص سفر الخروج على ان موسى عليه السلام حين امره الله بالذهاب إلى فرعون كان ابن ثمانين سنة (٥) .

فاذا جمعنا سني حياة قهات كلها وسني حياة عمران كلها وسني حياة موسى حتى خروجهم من مصر كان حاصل ذلك ثلاثمائة وخمسين سنة لا يمكن ان تكون اقامة بني اسرائيل في مصر أكثر من ذلك . فأين الاربعمائة وثلاثون سنة التي نص عليها سفر الخروج (٦) ؟ ، واين اربعمائة سنة التي نص سفر التكوين (٧) على استعباد بني اسرائيل فيها ؟

= اللسان العبرى واللسان اليوناني واللسان العربي . اظهار الحق ١ / ٢٧٠ . وانما يغنيهم عن هذا القول بالنسخ ، ولكنهم يتنكبون ذلك .

(١) الاصحاح ٦ فقرة : ١٨ .

(٢) الاصحاح ٦ فقرة : ١٦ .

(٣) الاصحاح ٣٤ فقرة : ٧ .

(٤) الاصحاح : ٢٩ فقرة : ٥ .

(٥) الاصحاح : ٧ فقرة : ٧ .

(٦) الاصحاح ١٢ فقرة : ٤٠ .

(٧) الاصحاح ١٥ فقرة : ١٣ .

ثم هي بعد ذلك ليست ثلاثمائة وخمسين ، لانه لا بد ان يحذف منها عدد سني حياة قهات حين دخول مصر ، وبقية سني حياته أيضا منذ ولادة عمران ، وبقية سني حياة عمران منذ ولادة موسى عليه السلام .

قال ابن حزم (١) : (وفي كتب اليهود أن قهات (٢) دخل مصر وله ثلاث سنوات ، وانه كان اذ ولد له عمران ابن ستين سنة ، وان عمران كان اذ ولد له موسى ابن ثمانين سنة)

وهذا يعني ان يحذف من مدة الثلاثمائة وخمسين عاما المشار لها ست وسبعين سنة من عمر قهات هي الثلاث سنوات التي كانت قبل دخوله مصر وثلاث وسبعون سنة بقية عمره بعد ولادة ابنه عمران ، ويحذف أيضا سبع وخمسين سنة من عمر عمران بقية سني حياته بعد ولادة ابنه موسى عليه السلام ، فعلى هذا يحذف من الثلاثمائة وخمسين عاما مائة وثلاثة وثلاثون عاما ، فيبقى مائتا عام وسبعة عشر عاما هي فترة بقاء بني اسرائيل بمصر على أكثر تقدير ، وقد نص صاحب كتاب مرشد الطالبين الى الكتاب المقدس الثمين على ان فترة بقاء بني اسرائيل بمصر كانت مائتان وخمسة عشر عاما (٣).

هذا عن فترة اقامتهم بمصر . اما عن فترة استعبادهم واذلالهم التي نص سفر التكوين على انها اربعمائة عام (٤) ، فهي أيضا أقل من ذلك ذلك بأن فترة المائتين وسبعة عشر عاما لا بد ان يحذف منها أيضا المدة التي لم يكن بنو اسرائيل مستعبدين فيها ، فانهم لم يكونوا مستعبدين ولا مستذلين في زمن يوسف عليه السلام بل كانوا أعزة مكرمين . ولم يقع عليهم الاستعباد الا بعد موت يوسف عليه السلام ، وكل ذلك الجيل بنص

---

(١) الفصل في الملل والنحل : ١/١٤٩ .
(٢) في الاصل : فاهت .
(٣) اظهار الحق : ١/٢٦٧ .
(٤) الاصحاح ١٥ فقرة : ١٣ .

التوراة ذاتها (١) .

فهل يمكن تحديد هذه الفترة بالسنوات ؟

ان مما يمكن الاشارة له هنا أن سفر التكوين نص على ان يوسف عليه السلام حينما قابل ملك مصر وولاه على أرض مصر كان ابن ثلاثين سنة (٢) . ثم مضى بعد ذلك سبع سنوات خصب وسنتان من سني الجوع فدخل يعقوب وبنوه مصر ، حسبما يفيد السفر المذكور (٣) ، فيكون بذلك عمر يوسف عليه السلام حين دخول بنى اسرائيل مصر تسعا وثلاثين سنة . وسن يوسف عليه السلام حتى موته انما كان مائة وعشرة سنوات بنص سفر التكوين أيضا (٤) . وبهذا يتضح ان يوسف عليه السلام انما عاش احدى وسبعين سنة بعد دخول بنى اسرائيل مصر ، ولم يصب بنى اسرائيل في هذه الفترة ذل ولا استعباد ، فاذا حذفت هذه المدة من فترة بقاء بنى اسرائيل بمصر ، وهى كما ذكرنا في المثال السابق مائتان وسبع عشرة سنة فيبقى بعد ذلك مائة وست واربعون سنة .

ولا بد ان تكون فترة الاستعباد أقل أيضا من فترة المائة وست واربعين سنة هذه ، لان استعباد بنى اسرائيل لم يقع الا بعد موت يوسف واخوته وكل ذلك الجيل ومجىء ملك آخر لا يعرف يوسف عليه السلام بنص التوراة ذاتها (٥) .

وأين هذا من فترة الاربعمائة سنة، فلا بد من وقوع التضاد فيما اوردته

---

(١) سفر الخروج ، الاصحاح الاول : فقرة : ٦ - ٩ .

(٢) الاصحاح : ٤١ فقرة : ٤٦ .

(٣) الاصحاح : ٤٥ .

(٤) الاصحاح : ٥٠ فقرة : ٢٣ .

(٥) سفر الخروج : الاصحاح الاول : فقرة ٦ وما بعدها .

الاسفار ولا بد من وجود الخطأ ، ولا يمكن ان يكون ذلك صادرا عن اللّه جلا وعلا (١) .

٣ — وجاء في سفر التكوين (٢) بعد حكاية قول الرب لابراهيم الذى مضى في المثال السابق : (والجيل الرابع من البنين يرجعون الى ها هنا)

فمن هم الجيل الرابع من البنين الذين وعدوا بالرجوع ؟ وهل تمّ لهم ذلك ؟ المتبادر من الخطاب أن الجيل الاول من البنين هم ابناء ابراهيم وهم اسحاق واخوته ، والجيل الثاني : هم ابناء اسحاق : يعقوب وعيسو وابناء اعمامهما ، والجيل الثالث هم أولاد هؤلاء : اولاد يعقوب ، واولاد عيسو ، ومن كان في درجتهم من سلالة ابراهيم عليه السلام ، والجيل الرابع هم اولاد الجيل الثالث مثل قهات بن لاوى بن يعقوب ومن في درجته من سلالة ابراهيم . وهؤلاء هم الداخلون الى مصر لا الخارجون منها ، وما رجع أحد منهم ولا ممن بعدهم ، بل الذين رجعوا هم الجيل السادس .

ولو قال قائل انما يبتدىء العدّ من وقوع التعذيب . أجيب بأن ذلك خلاف نص التوراة ، ومع ذلك فهو لا يرفع التناقض . فابتداء التعذيب انما كان بعد انقراض اولاد يعقوب ، حسبما نص سفر الخروج (٣) .

معنى هذا ان لا يبتدىء العد قبل أبناء اولاد يعقوب مثل قهات بن لاوى ومن في درجته ، فيكون هؤلاء هم الجيل الاول، والجيل الثاني عمران ومن في درجته، والجيل الثالث موسى عليه السلام ومن في درجته ، وهؤلاء هم الخارجون ، فاين قوله (والجيل الرابع يرجعون الى ها هنا) (٤) ؟

---

(١) انظر الفصل في الملل والنحل ١ / ١٢٥ - ١٢٧ ، اظهار الحق ١ / ٢٦٦ - ٢٦٩ .

(٢) الاصحاح ١٥ فقرة : ١٦ .

(٣) الاصحاح الاول : فقرة : ٦ - ٩ .

(٤) الاصحاح ١٥ فقرة : ١٦ .

ولو قال قائل انما يبتدىء العد من دخولهم مصر ما خرج من التناقض لان قهات ومن فى جيله هم الجيل الاول ، وعمران ومن فى جيله هم الجيل الثانى ، وموسى ومن فى جيله هم الجيل الثالث .

فلا مفر من التناقض والخطأ .(١)

٤ — جاء فى سفر التكوين (٢) : (وكان بنو يعقوب اثنى عشر : بنو ليئة : رؤابين بكر يعقوب ، وشمعون ولاوى ويهوذا ويساكر وزبولون . وابناء راحيل : يوسف وبنيامين . وابناء بلهة جارية راحيل : دان ونفتالى . وابناء زلفة جارية ليئة جاد وأشير . هؤلاء بنو يعقوب الذين ولدوا فى فدان ارام) .

فكيف يكون هؤلاء كلهم قد ولدوا بفدان آرام ، وهو قد ذكر فى السفر نفسه (٣) قبل ذلك أن راحيل قد ولدت بنيامين فى افراته التى هى بيت لحم ، وماتت هناك ؟ (٤)

وكيف أيضا يكون يوسف عليه السلام مولودا فى فدان آرام ، وامه قد ماتت قبل ان يصل يعقوب الى فدان آرام ؟

٥ — اشتملت رواية الطوفان فى اسفار العهد القديم على كثير من الاختلافات والتناقضات فيما ذكرته حول موعد دخول نوح ومن معه فى السفينة ، وعدد الحيوانات التى امر نوح عليه السلام بحملها معه ، وعدد أيام الطوفان ، وغير ذلك (٥) فمثلا :

---

(١) انظر الفصل فى الملل والنحل ١ / ١٢٤ - ١٢٥ .

(٢) الاصحاح : ٣٥ فقرة : ٢٢ .

(٣) اصحاح ٣٥ فقرة ١٦ - ١٩ .

(٤) انظر الفصل فى الملل والنحل ١ / ١٤٣ .

(٥) انظر على التوراة : ٤٨ - ٥٢ ، دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة لموريس بوكاى : ٥٢ - ٥٤ .

جاء فى سفر التكوين (١) : (وتعاظمت المياه على الارض مائة وخمسين يوما . ثم ذكر الله نوحا وكل الوحوش وكل البهائم التى معه فى الفلك وأجاز الله ريحا على الارض ، فهدأت المياه وانسدت ينابيع الغمر وطاقات السماء . فامتنع المطر من السماء ، ورجعت المياه عن الارض رجوعا متواليا) .

وهذا فوق ما فيه من ايهام نسبة النسيان لله فى قوله (ثم ذكر الله نوحا) تعالى الله عن ذلك ، فانه يدل على أن انسداد ينابيع الغمر وطاقات السماء كان بعد المائة وخمسين يوما .

غير ان ذلك يناقض ما جاء فى السفر نفسه قبل ذلك (٢) : (وكان المطر على الارض اربعين يوما واربعين ليلة) ، وفيه ايضا (٣) : (وكان الطوفان اربعين يوما على الارض) .

فوقع التناقض بين الخبرين .

٦ — يقول سفر التكوين (٤) عن يهوذا بعد ان باع هو واخوته يوسف عليه السلام - حسبما يزعم - : (ان يهوذا نزل من عند اخوته ومال الى رجل عدلامى اسمه حيرة ، ونظر يهوذا هناك ابنة رجل كنعانى اسمه شوع . فأخذها ودخل عليها . فحبلت وولدت ابنا ودعا اسمه عيرا . ثم حبلت أيضا وولدت ابنا ودعت اسمه أونان ، ثم عادت فولدت أيضا ابنا ودعت اسمه شيله)

ثم يقول السفر المذكور (٥) :

---

(١) من الاصحاح السابع فقرة : ٢٤ الى الاصحاح الثامن فقرة : ٣ .

(٢) الاصحاح السابع فقرة : ١٢ .

(٣) الاصحاح ٧ فقرة : ١٧ .

(٤) الاصحاح ٣٨ فقرة : ١ - ٥ .

(٥) الاصحاح ٣٨ فقرة : ٦ - ١٢ .

(واخذ يهوذا زوجه لعير بكره اسمها ثامار . وكان عير بكر يهـــوذا شريرا فى عينى الرب ، فأماته الرب ،فقال يهوذا لاونان ادخل على امراة اخيك وتزوج بها وأقم نسلا لاخيك ،فعلم اونان ان النسل لا يكون لــــه . فكان اذا دخل على امراة اخيه انه افسد على الارض لكيلا يعطى نســـــلا لاخيه . فقبح فى عينى الرب ما فعله فأماته أيضا ،فقال يهوذا لثامار كنتـه أقعدى ارملة فى بيت ابيك حتى يكبر شيله ابنى ،لانه قال : لعله يمـــوت هو أيضا كأخويه . فمضت ثامار وقعدت فى بيت ابيها . ولما طال الزمـــان ماتت ابنة شوع امراة يهوذا) .

ثم يروى السفر نفسه (١) أن ثامار هذه لما رأت ان شيله قد كبـــــر ولم تعط له زوجة تغطت ببرقع وتزيت بزى زانية ،وجلست على طريق يهوذا ، فزنى بها بعد ان أخذت منه رهنا هو خاتمه وعصاه وعصابته الى ان يرســل لها اجرتها ،ولم يكن يهوذا قد عرفها ،ثم ان يهوذا لما أرسل لهـــــا الاجرة لم يجدها ،فحملت منه ،ولما قيل له ان ثامار حامل اراد ان يحرقها، فكشفت عن خاتمه وعصاه وعصابته ،فعلم انها هى الزانية ،ولام نفسه لأنــه لم يزوجها بشيله بعد ما كبر ،وكف عن احراقها ،فولدت له توامين دعــــى احدهما فارض والآخر تارح .

ثم ان سفر التكوين (٢)ذكر فيمن كان قد دخل مصر مع يعقوب عليــه السلام حصرون وحامول ابنا فارض هذا . ففارض اذن كان قد تزوج وأنجــب طفلين قبل دخول بنى اسرائيل لمصر .

يتحصل من هذا ان يهوذا كان تزوج بعد فقد يوسف عليه الســـلام وانجب من زوجته ثلاثة اولاد كل منهما بولادة منفردة ،وانه زوج ابنه الاكبـر ثم مات عن زوجته ،فزوجها للثانى لكى يقيم نسلا لاخيه فعزل عنها ،شـــم مات ،ثم انتظرت فى بيت ابيها الى ان يكبر شيلة ،ولكنه كبر ولم يتخذها له زوجة ،وطال الزمان وماتت امراة يهوذا ،فتزيت زوجة اولاده له بزى زانيـــة

(١) الاصحاح ٣٨ فقرة : ١٣ - ٣٠ .
(٢) الاصحاح ٤٦ فقرة : ١٢ ,

فزنى بها ، وولدت فارض وتارح ، ثم ان فارض تزوج وانجب حصرون وحامـــول . كل هذا قبل دخول بنى اسرائيل بمصر .

ودعك مما ورد فى هذه القصة من كون الرجل يتزوج امراة أخيه بعـــد موته فتحمل منه ، ثم يكون هذا الولد منسوبا للميت ، مما يخالف الحقيقـــة والمروءة .

فهل تسمح المدة التى كانت بين غياب يوسف عليه السلام عن ابيـــه واخوته ودخولهم جميعا الى مصر ـ وحسبما تحددها التوراة نفسهـــا ـ بوقوع كل هذا ؟

يذكر سفر التكوين (١) ان يوسف عليه السلام كان يرعى الغنم مـــع اخوته قبل ان يبيعوه ـ حسبما يزعم ـ وعمره سبعة عشر عاما . ويذكر أيضـــا السفر نفسه (٢) : أن يوسف كان حين قابل الملك وعبر له الرؤيـــا وولاه على ارض مصر كان عمره ثلاثين سنة ، ثم مضى سبع سنوات خصب وسنتان مـــن سنى الجوع فدخل يعقوب عليه السلام ومن معه من بنيه وبنى بنيه مصر (٣) . فكان يوسف عندها ابن تسع وثلاثين سنة .

يتحصل من هذا أن الفترة بين غياب يوسف عن ابيه واخوته ووصولهـــم بعد ذلك الى مصر لا تزيد بحال عن اثنتين وعشرين سنة .

فلنفرض أن يهوذا قد تزوج فى يوم غياب يوسف ثم ولد له عير بعد أقـل من سنة ، ثم تزوج عير وعمره اثنتا عشرة سنة ، فهذه ثلاث عشرة سنة أو اقـــل بأشهر قليلة ، ثم مات عير وتزوج بعده أونان وعزل عن ثامار حتى لا تحمـــل ثم مات اونان ، وانتظرت ثامار فى بيت ابيها حتى كبر شيله ، ولكنه لـــــم

---

(١) الاصحاح ٣٧ فقرة : ٢

(٢) الاصحاح ٤١ فقرة : ٤٦

(٣) سفر التكوين ، الاصحاح : ٤٥

يتزوجها ، وطال الزمان ـ حسبما قالت التوراة ـ وماتت امراة يهوذا ثم زنا يهوذا بثامار ، ولنفرض جدلا ان كل ذلك قد تم فى سنة واحدة ، فهذه اربعة عشر عاما لا تقل الا أشهرا قليلة ، فحملت ثامار وولدت فارض وتارح فى أقل من سنة فهذه حوالى خمس عشرة سنة الا بضعة شهور ، فلا يبقى من مدة غياب يوسف حتى وصول بنى اسرائيل لمصر الا سبع سنوات واشهر على أكبر تقدير .

فهل يعقل ان يكبر فارض ويتزوج وينجب ولدين يدخلا مصر مع بنى اسرائيل فى سبع سنوات واشهر ؟ ثم هى فوق ذلك أقل من هذه الفترة فلا بد ان يحذف الزمان الذى وصفته التوراة بالطول بين موت اونان وزنا يهوذا بثامار فكم يبقى بعد ذلك ؟!.

وهذا لا يقبله عاقل ، ولا مما عرفه الناس فى كل اعصارهم ، وليس هو واقع معجزة لنبى او كرامة لولى فنقول هو خارق للعادة.(١)

٧ ـ ذُكر فى سفر التكوين (٢) عدد واسماء بنى اسرائيل الذين دخلوا مصر مع يعقوب ممن هم بنوه وبنو بنيه من ليئة ، فذَكر أولاد يعقوب من ليئة وهم ستة ، وذكر ما لكل منهم من اولاد .

فذكر لروابين اربعة اولاد ، ولشمعون ستة ، وللاوى ثلاثة ، وليهوذا ثلاثة ابناء وابنى ابن أى خمسة ، وليساكر اربعة ، ولزبولون ثلاثة ، وذكر دينة ابنة يعقوب من زوجته ليئة وقال :(٣) (هوءلاء بنو ليئة الذين ولدتهم ليعقوب فى فدان ارام مع دينه ابنته جميع نفوس بنيه وبناته ثلاث وثلاثون) .

---

(١) انظر الفصل : ١٤٩/١ وما بعدها .

(٢) الاصحاح : ٤٦ فقرة ٨ - ١٥ .

(٣) سفر التكوين ، الاصحاح ٤٦ فقرة : ١٥ .

وهذا غلط،فان المجتمع من هذه الاعداد اثنان وثلاثون وليس ثلاثة وثلاثين كما قال . فكيف يقع هذا الغلط فى كلام اللّه تعالى أو فى كلام نبيه موسى عليه السلام (١) ؟

٨ — جاء فى سفر العدد (٢) : (لكنه (أى الرب) لا يبرئ بل يجعل ذنب الآباء على الابناء الى الجيل الثالث والرابع)، وورد نحو هذا فى مواضع أخرى من التوراة .

وجاء فى سفر حزقيال (٣) : (النفس التى تخطئ هى تموت . الابن لا يحمل اثم الاب . والاب لا يحمل من اثم الابن . بر البار عليه يكون . وشر وشر الشرير عليه يكون)

وهذا تناقض واضح (٤) ، واذا كانت التوراة الحالية موجودة زمن حزقيال فكيف جاز له ان يخالفها ؟

٩ — جاء فى سفر العدد (٥) ذكر اعداد نسل لاوى من الذكور : وهم الجرشونيون أنسال جرشون ، وعدد ذكورهم من ابن شهر فصاعدا سبعة الاف وخمسمائة (٦) ، والقهاتيون انسال قهات وعدد ذكورهم من ابن شهر فصاعدا ثمانية الاف وستمائة (٧) ، وعشائر العراريين انسال مرارى وعدد

---

(١) انظر الفصل فى الملل والنحل ١ / ١٥٠

(٢) الاصحاح : ١٤ فقرة : ١٨

(٣) الاصحاح ١٨ فقرة : ٢٠

(٤) ولهذا فان القرآن يذكر فى صراحة عن صحف موسى ((أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وابراهيم الذى وفى . ألا تزر وازرة وزر أخرى . وأن ليس للانسان الا ما سعى)) سورة النجم ٣٦ - ٣٩ .

(٥) الاصحاح الثالث .

(٦) الاصحاح ٣ فقرة ٢١ - ٢٢ .

(٧) الاصحاح ٣ فقرة ٢٧ - ٢٨ .

ذكورهم من ابن شهر فصاعدا ستة الاف ومئتان (١) . ثم قال (٢) :
(جميع المعدودين من اللاويين الذين عدهم موسى وهارون حسب قول الرب بعشائرهم كل ذكر من ابن شهر فصاعدا اثنان وعشرون الفا) .

وهذا خطأ فان المجموع من هذه الاعداد هو اثنان وعشرون الفا وثلاثمائة ،كما هو واضح .

ولا يحسبن احد ان مراده هنا ذكر العدد لاقرب الف كما قد يقع ، فهذا ليس من طريقة هذا السفر ،ولا هو من طريقة اسفار العهد القديم ، فانها كما يلاحظ كل من اطلع عليها انما تذكر دائما العدد بكامله وتعطف العدد القليل على عشرات الالاف ومئات الالاف اذا تطلب الامر .

١٠ — جاء في سفر العدد (٣) : (وكلم الرب موسى في برية سيناء في خيمة الاجتماع في أول الشهر الثاني في السنة الثانية لخروجهم من أرض مصر قائلا احصوا كل جماعة بني اسرائيل بعشائرهم وبيوت آبائهم بعدد الاسماء كل ذكر برأسه من ابن عشرين سنة فصاعدا كل خارج للحرب في اسرائيل) .

الى ان قال في الاصحاح نفسه (٤) (كان جميع المعدودين ستمائة الف وثلاثة الاف وخمسمائة وخمسين . واما اللاويون حسب سبط آبائهم فلم يعدوا بينهم) .

فاذا كان عدد ذكور بني اسرائيل من ابن عشرين فصاعدا مثل هذا العدد فانه لا يتوقع ان يقل عدد من هم دون العشرين من الذكور عمن هم فوق العشرين ،كما يقدر ايضا ما معهم من الاناث فوق العشرين وتحت العشرين بنحو عدد الذكور فوق العشرين وتحت العشرين ، وهذا يعني

---

(١) الاصحاح نفسه فقرة : ٣٣ - ٣٤ ،
(٢) الاصحاح نفسه : فقرة : ٣٩ .
(٣) الاصحاح الاول : فقرة : ١ .
(٤) الاصحاح نفسه : فقرة : ٤٦ - ٤٧ .

ان عددهم يتجاوز المليونين واربعمائة الف غير اللاويين الذين قال عنهم سفر العدد (١) : (جميع المعدودين من اللاويين الذين عدهم موسى وهارون حسب قول الرب بعشائرهم كل ذكر من ابن شهر فصاعدا اثنان وعشرون الفا) . فاذا قدر عدد الاناث مع اللاويين بنحو عدد الذكور، فان هذا يعنى ان عدد بنى اسرائيل كان يقارب المليونين والنصف .

ولكن العهد القديم أكد فى مواضع عديدة (٢) على ان عدد بنى اسرائيل الذين دخلوا مصر مع يعقوب سبعون شخصا ، ما عدا زوجات أولاد يعقوب . فيكون هذا العدد قد تكاثر فى مصر حتى بلغ ما يقارب المليونين والنصف خلال المدة التى بيناها قريبا ، وهى لا تزيد على مائتين وسبعة عشر عاما ، مع قولهم ان الله قال لابراهيم عليه السلام (والجيل الرابع من البنين يرجعون الى ها هنا) . أى الى بلاد الشام . وقد بينا قريبا ان الذى رجع هو الجيل الثالث بالنسبة للداخلين مع يعقوب .

وهذا التكاثر الى هذا الحد قد تم مع ما صرح به سفر الخروج (٣) من أن ابناءهم كانوا قبل خروجهم يقتلون وأن اناثهم كانت تستحيا .

فهل يعقل أن يبلغ عدد نسل سبعين شخصا فى ثلاثة اجيال ، وفى مدة لا تزيد على مائتين وسبعة عشر عاما مثل هذا العدد وذلك مع ما كانوا فيه من الفاقة والذل والاستعباد وقتل الاولاد ؟

وهذا الحد من التكاثر لا يعرف له مثيل بين الناس ، ولا هو مما تقبله سنن التكاثر التى عرفها تاريخ البشرية ، فانهم لو كانوا يتضاعفون كل عشرين

---

(١) الاصحاح : ٣ فقرة : ٣٩ .

(٢) سفر التكوين الاصحاح : ٤٦ فقرة : ٢٧ ، سفر الخروج الاصحاح الاول فقرة : ٥ ، سفر الاستثناء الاصحاح : ١٠ فقرة : ٢٢ .

(٣) الاصحاح الاول .

عاما ، وغض النظر عن تقتيلهم لما وصل عددهم خلال هذه الفترة الى ستة وثلاثين الفا ، فضلا عن ان يصل عددهم الى ما يزيد على الستين ضعفا من ذلك .

وفي كتب العهد القديم مبالغات ومجازفات في الارقام كبيرة وكثيرة(١) .

١١ — جاء في سفر التثنية (٢) : (وكان موسى ابن مائة وعشرين سنة حين مات ، ولم تكل عينه ، ولا ذهبت نضارته . فبكى بنو اسرائيل في عربات موآب ثلاثين يوما فكملت أيام بكاء مناحة موسى) .

وفيه (٣) : (ولم يقم بعد بني اسرائيل مثل موسى) .

وفيه (٤) (ولم يعرف انسان قبره الى الان) .

وهذا مما لا يمكن ان يكون من كلام موسى ، بل لا بد ان يكون قد قيل بعده بزمان طويل (٥) . وقد اعترف بعض مفسري الكتاب المقدس بأن هذا لا يمكن ان يكون من كلام موسى عليه السلام ، قال آدم كلارك (وهذا الباب ليس من كلام موسى (٦)) ، وقال جامعو تفسير هنري واسكات (هذا الباب من الملحقات ، والملحق اما يوشع أو صموئيل أو عزرا أو نبي آخر من الانبياء بعدهم لا يعلم بالجزم ، ولعل الآيات الاخيرة الحقت بعد زمان أطلق فيه بنو اسرائيل من أسر بابل) (٧) . فاعترفوا بأنه ليس من كلام

---

(١) انظر الفصل في الملل والنحل : ١/١٦٥ - ١٦٨ ، اظهار الحق ١/٦٣ - ٦٦ .

(٢) الاصحاح : ٣٤ فقرة : ٧ - ٨ .

(٣) الاصحاح نفسه فقرة : ١٠ .

(٤) الاصحاح نفسه فقرة : ٦ .

(٥) انظر الفصل ١ : ١٨٦ .

(٦) اظهار الحق ١/٢٤٦ .

(٧) المصدر نفسه : ١/٢٤٦ - ٢٤٧ .

موسى ، وان قائله غير معروف ، وقولهم الحقها فلان أو فلان او نبي آخر هو من التخمين الذى لا دليل عليه .

ومثل هذا ما جاء فى السفر المنسوب ليشوع فغيه :(١) (مات يشوع بن نون عبد الرب ابن مائة وعشر سنين . فدفنوه فى تخم ملكه فى تمنة سارح التى فى جبل افرايم شمالى جبل جاعش . وعبد اسرائيل الرب كل ايام يشوع ، وكل أيام الشيوخ الذين طالت أيامهم بعد يشوع) .

فهل يعقل أن يكون هذا الكلام صادرا عن يشوع ، فيتكلم عن مكان دفنه وعن عبادة اسرائيل أيام الشيوخ الذين طالت أيامهم بعده ؟

وليس الكلام فى هذا والذى قبله مسوقا على طريقة الاخبار عما سيقع فانه لو كان كذلك لقلنا لعله مما تخبر عنه الانبياء مما سيأتى من حوادث الدهر ، ولكن الكلام انما هو عن احداث وقعت كما هو واضح من طريقته واسلوبه .

١٢ — جاء فى سفر اخبار الايام الاول (٢) فى بيان أولاد بنيامين : (لبنيامين بالع وباكر ويديعئيل ثلاثة) .

وقال فى السفر نفسه فى مكان آخر (٣) : (وبنيامين ولد بالع بكره واشبيل الثانى واخرخ الثالث ونوحة الرابع ورافا الخامس)

وفى سفر التكوين (٤) بعد ان ذكر أن أبناء راحيل زوجة يعقوب هما يوسف وبنيامين ، وانه ولد ليوسف منسى وافرايم : (وبنو بنيامين : بالع وباكر واشبيل وجيرا ونعمان وايحى وروش ومفيم وحفيم وأرد ، هؤلاء بنو

---

(١) الاصحاح : ٢٤ فقرة : ٢٩ - ٣١ .

(٢) الاصحاح : ٧ فقرة : ٦ .

(٣) الاصحاح : ٨ فقرة : ١ .

(٤) الاصحاح : ٤٦ فقرة ١٩ - ٢٣ .

راحيل الذين ولدتهم ليعقوب ، جميع النفوس اربع عشرة) وهذا تناقض في الاسماء وفي العدد ، فسفر أخبار الايام الاول مرة جعل عددهم ثلاثة ومرة خمسة ، وسفر التكوين جعلهم عشرا .

قال آدم كلارك معقبا على ما جاء في العبارة الاولى من سفر أخبار الايام الاول : (كتب ها هنا - لاجل عدم التمييز للمصنف - ابن الابن موضع الابن وبالعكس . والتطبيق في مثل هذه الاختلافات غير مفيد ، وعلماء اليهود يقولون ان عزرا الذي كتب هذا السفر ما كان له علم بأن بعض هؤلاء بنون أم بنو الابناء ، ويقولون أيضا ان اوراق النسب التي نقل عنها عزرا كان اكثرها ناقصا ، ولا بد لنا ان نترك امثال هذه المعاملات) (١) .

وندع ما يقوله هذا المفسر من أن التطبيق في مثل هذه الاختلافات غير مفيد ، وانه لا بد من ترك امثال هذه المعاملات ، لنقف عند اعترافه بأن عزرا كان ينقل عن اوراق ناقصة ، وانه كان يكتب ما لا علم له به . فاذا كان قد كتب في هذا المكان ما لا علم له به ، فما الذي يمنع ان يكون قد كتب ما لا علم له به امكنة أخرى ؟ وما الذي يمنع ان يكون ذلك شأنه في كل الاسفار التي تثبت له كتابتها ؟

وما دام عزرا قد أخطأ هنا فالخطأ جائز في حقه ، فليس هو بمعصوم ولا يكتب بالهام .

ثم كيف يكون هذا الامر مما لا علم له به ما دام هو بنفسه قد قرأ سفر شريعة موسى عليه السلام على اليهود ، وفسرها هو وغيره من احبار اليهود للشعب حسبما يروى سفر نحميا ؟ (٢)

ان هذه المخالفة بين ما كتب عزرا في سفر اخبار الايام الاول وما جاء

---

(١) اظهار الحق : ١/٢٢٧ - ٢٢٨

(٢) الاصحاح الثامن فقرة : ١ - ٨

فى سفر التكوين تطعن فى القول بأن التوراة الموجودة اليوم هى التوراة التى كانت على زمن عزرا ، والا فكيف جاز لها ان يخالفها ، وهو متبع لها؟ وخاصة اذا علمنا ان جمهور اهل الكتاب يقولون ان سفرى اخبار الايام الاول والثانى هما من تصنيف عزرا باعانة الرسولين حجّى وزكريا ، فكيف جاز لهؤلاء الثلاثة مخالفة ما فى اسفار موسى عليه السلام لوكان ما فيها اليوم هو الذى فيها فى ذلك الوقت ؟ (١)

١٣ — جاء فى سفر صموئيل الثانى (٢) أن داود لما امر باحصاء بنى اسرائيل بدون أن يأمره الرب بذلك ، جاءه جاد النبى وأخبره ان اللّه يأمره ان يختار واحده من ثلاثة ، هى بنص السفر المذكور (أتاتى عليك سبع سنى جوع فى ارضك ، أم تهرب ثلاثة أشهر أمام أعدائك وهم يتبعونك أم يكون ثلاثة أيام وباء فى ارضك) .

وفى سفر أخبار الايام الاول (٣) فى سياق كلامه على الحادثة نفسها أن جاد النبى طلب لداود عليه السلام أن يختار واحدة من ثلاثة وقال له (اما ثلاث سنين جوع) وذلك بدل قوله فى سفر صموئيل الثانى سبع سنين . وهذا تناقض .

وفى سياق الحادثة نفسها فى سفر صموئيل الثانى (٤) : ان داود عليه السلام اشترى من رجل اسمه ارونه بيدره وبقره ليقيم فى البيدر مذبحا للرب بخمسين شاقلا من الفضة . وفى سفر اخبار الايام الاول (٥) : أن

---

(١) انظر اظهار الحق : ١/٥٨ - ٥٩

(٢) الاصحاح : ٢٤ فقرة : ١٣

(٣) الاصحاح : ٢١ فقرة : ١٢

(٤) الاصحاح : ٢٤ فقرة : ٢٤

(٥) الاصحاح : ٢١ فقرة : ٢٥

داود عليه السلام اشترى البيدر من ارونه بذهب وزنه ستمائة شاقل .

وهذا تناقض في حادثة واحدة .

١٤ — جاء في سفر اخبار الايام الثاني (١) عن يهورام الملك : (كان ابن اثنتين وثلاثين سنة حين ملك ، وملك ثماني سنوات في اورشليم ، وذهب غير مأسوف عليه ، ودفنوه في مدينة داود ، ولكن ليس في قبور الملوك) .

ومعنى هذا ان يهورام مات وعمره اربعون سنة .

وجاء بعد هذه الفقرة مباشرة في الاصحاح التالي (٢) لهذا الاصحاح : (وملك سكان اورشليم اخزيا ابنه الاصغر عوضا عنه) . ثم قال بعد ذلك بقليل (٣) : (كان اخزيا ابن اثنتين واربعين سنة حين ملك) .

وكيف يكون يهورام يموت وعمره اربعون سنة ، ويملك بعده مباشرة ابنه اخزيا ويكون عمر هذا الابن اثنتين واربعين سنة ، فيكبر بهذا اباه بسنتين ؟ وهو بعد ابنه الاصغر فما بالك بابنه الاكبر ؟!

فهل يعقل ان يصدر هذا عن الله أو عن نبي من انبيائه ؟!

وما جاء في السفر المذكور مناقض لما جاء في سفر الملوك الثاني (٤) : (وكان اخزيا ابن اثنتين وعشرين سنة حين ملك) .

والاختلاف والتناقض في اسفار اليهودية في موضوع الاعداد كثير جدا ولهذا قال المفسر آدم كلارك : (الاحسن ان نعترف بوقوع التحريف في العدد نظرا لهذه الاختلافات) (٥) .

---

(١) الاصحاح : ٢١ فقرة : ٢٠ .

(٢) الاصحاح : ٢٢ فقرة : ١ .

(٣) الاصحاح نفسه فقرة : ٢ .

(٤) الاصحاح : ٨ فقرة : ٢٦ . وانظر اظهار الحق : ١/ ٨٨ .

(٥) المصدر السابق : ١/ ٩٢ .

مخـــالفـــة العلـــــــم

ان الحقيقة واحدة لا تتغير ، مهما اختلفت الظروف ، ومهما تعددت حولها وجهات النظر ، وانما يختلف الناس في ادراكها ، وفي التعبير عنها وقد يسيئون فهمها ، ويخطئون في تحديدها ، وتتناقض وجهات نظرهم في الوصول اليها ، وقد يصر كل منهم على رأيه بحسن نية أو بغير ذلك . ولكن ما من صاحب راى أو مبدأ الا ويدعى أن رايه هو الموافق للحقيقة والصحة . وحين يفقد مذهب ما الاستناد الى الصحة والحقيقة ، وتظهر مفارقته للحقيقة واضحة ، فانه يغدو في غاية الوهن والضعف .

واذا كان هذا لازما لكل مبدأ أو فكر مهما كان مصدره ، فانه في ما يستند الى الله – جل وعلا – ألزم وأظهر ، لان الناس لا يمكنهم – وهم بلا شك محقون في ذلك – ان يتصوروا ان يصدر عن الخالق الا الحق ، ولا ينتظرون من انبيائه الا ان يكونوا أصدق الناس ، وأحرصهم على الحق ، وأبعدهم عن كلّ ما يخالفه ، ولهذا كان الاتفاق بين معطيات العلم ومعطيات الدين امرا لازما ، وحين يصل الامر الى المخالفة بين الكتب السماوية وحقيقة علمية ثابتة فان ذلك يعني الطعن في نسبة هذه الكتب للوحي الالهي . فان الكتاب السماوى ما دام صادرا عن الله تعالى الموصوف بالعلم التام والذى لا يخفى عليه خافيه فلا ينتظر منه الوقوع في الخطأ ومخالفة الحقيقة .

ثم ان هذه الامور التي يتناولها البحث مما يتعلق بخصائص الكون وسنن الله وكيفية عملها في الكون ما دامت كلها خاضعة لله وموجوده بمشيئته ، فلا يتصور وقوع المعارضة بينها وبين ما يصدر عنه من بيان لها طالما نقل هذا البيان من طريق شخص يتمتع بالعصمة من الخطأ ، ثم نقل بعد ذلك نقلا ثابتا صحيحا يؤمن معه من التفريط به أو الزيادة عليه ، فاذا وقع التعارض بين معطيات الدين ومعطيات علمية صحيحة ، فلا بد ان يكون ذلك راجعا لبطلان نسبة هذا الدين لله اصلا ، أو لتحريف وخلط اصابه اثناء النقل .

والدين اليهودى - والنصرانى أيضا - لا نشك فى ان نسبته لله فى الاصل صحيحة ، بل ذلك أصل من أصول عقيدتنا ، فان أى معارضه للحقيقة توجد فيه ، ليس مصدرها الا تدخل البشر بالزيادة أحيانا والنقص احيانا اخرى ، أو بتأويله على غير وجهه الصحيح .

ولقد كان هذا واضحا فى القديم لدى كثير من الباحثين والمختصين بدراسة اللاهوت كالقديس أوغسطين الذى جاء فى خطابه الذى يحمل رقم اثنين وثمانين ما يؤكد اعتباره التام لهذا المبدأ ، فهو يقول :

(ان مؤلفات الكتب المقدسة هذه التى تعرف بالقانونية ، هى فقط التى تعلمت أن اعطيها انتباها واحتراما ، كاعتقادى الجازم بأنه ليس هناك أحد من كتابها قد أخطأ ، فعندما التقى فى هذه الكتب بدعوى تبدو مناقضة للحقيقة ، فاننى عندئذ لا اشك فى ان نص نسختى لا يحتوى على خطأ أو ان المترجم لم يترجم النص الاصلى بشكل صحيح ، أو ان مقدرتى على الفهم تتسم بالضعف) (١) .

فلم يكن مقبولا لدى القديس اوغسطين ان يحوى نص مقدس شيئا يضاد الحقيقة .

غير انه مع تقدم العلوم وظهور التعارض بينها وبين معطيات العهد القديم والعهد الجديد على الصورة التى اختارها الاحبار والرهبان ، وما نشأ من جراء ذلك من وضع محرج وخطير ، صعب فيه على كثير من العقول أن تقبل من رسالة الهية ان تنص على واقع غير صحيح ، مع وقوع هذا التعارض، رأينا ان كثيرا من هؤلاء الرهبان والقساوسة ، يجابهون العلماء العداء - وللكنيسة تاريخ طويل فى اضطهاد العلماء ومحاربة العلم سنأتى على بعض منه فى موضع آخر ان شاء الله - ويواجهون هذا التعارض بمواقف

---

(١) دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة : ٥٧

وأجوبة غير منطقية ولا تخدم الحقيقة في شيء ولا يمكن قبولها من رجال العلم.

فالاب ديفو مثلا ـ يقول ازاء مالا يتفق مع العلم من معطيات الاصحاحات الاحد عشر الاولى من سفر التكوين : (ان التوراة لا تنتمى الى أى من هذه الدراسات العلمية ، واذا اردنا ان نقابلها بمعطيات هذه العلوم فاننا لن ننتهى الا الى تعارض غير حقيقى او توافق مصطنع) (١) .

اما لماذا لا تنتمى التوراة الى الدراسات العلمية ؟ أو ليست التوراة تنشد الحقيقة والعلوم ايضا تنشد الحقيقة ؟ واذا كان نشدان الحقيقة قاسما مشتركا بين التوراة والعلم أو من المفروض أن يكون ذلك، فلماذا لا تنتمى التوراة للدراسات العلمية ؟ ذلك ما لا نجد عليه اجابة عند امثال الاب ديفو .

والعجب من هذا الاب انه مع تجاهل هذه العقبة الكؤود في طريق معطيات التوراة بعبارات لا رصيد لها من الحقيقة ، ولا هى تقدم شيئا في سبيل حل المشكلة ، انه مع ذلك لا يمتنع عن استغلال معطيات العلم اذا لاح له فيها ما يمكن ان يؤيد الروايات الدينية ، فهو يقول : (ان الشكوك التى غيمت على هذه الروايات يجب ان تخلى المكان امام الشهادة المؤيدة التى يأتى بها التاريخ أو علم الآثار الشرقيين) (٢) .

ومعنى هذا ان العلم ما دام يعارض الروايات الدينية في التوراة ، فلا داعى للمقارنة بين العلم وهذه الروايات ، لان النتيجة التى تترتب على ذلك غير حقيقية لا لشيء الا لكونها مخالفة للروايات الدينية التى لا تنتمى للدراسات العلمية ، واما اذا لاح فى العلم ما يمكن ان يؤيد هذه الروايات فالمقابلة بينهما وبين العلم مقبولة ما دامت مؤيدة لما يعتقد الاب ، ولا يقال

---

(١) مدخل الى سفر التكوين : ٣٥ نقلا عن دراسة الكتب المقدسة : ٨٥

(٢) مدخل الى سفر التكوين : ٣٥ نقلا عن دراسة الكتب المقدسة : ٨٥

هنا انها لا تنتمى للدراسات العلمية ، وما هذا الا تناقض وتحكم ووزن بميزانين .

ان قول الاب ديفو (ان التوراة لا تنتمى الى هذه الدراسات العلمية) هو قول فى حد ذاته صحيح ،غير انه اعتذار يزيد الامر سوءا ، فما دامت لا تنتمى الى الدراسات العلمية ، فما الذى يمنع ان تكون منتمية الى الظن والوهم والخرافة ؟ ان الفاصل العميق فى تفكير هذا الاب بين الدين والعلم الذى استقاه من تاريخ المسيحية البولصية هو الذى جعله يعتذر بهذا الاعتذار .

غير ان وضوح المفارقة بين معطيات اسفار العهد القديم من جهة وبين العلم والمنطق من جهة أخرى كان أكبر من ان يتناسى او يتغافل عنه بمثل هذه المواقف المديحية والعبارات الرنانة التى لا تعد و ما قيل : (تسمع جعجعة ولا ترى طحنا) ، فتبدا ذلك فى اعترافات صريحة مثل ذلك الاعتراف الذى ظهر فى قرار المجمع المسكونى للفاتيكان الثانى الذى عقد بين (١٩٦٢ - ١٩٦٥) وبعد ثلاث سنوات من المناقشات اتفق على الصيغة النهائية للمجمع ، وتم اقرارها باغلبية ٢٣٤٤ مقابل ٦ أصوات وكان مما جاء فيه :
(بالنظر الى الوضع السابق على الخلاص الذى وضعه المسيح ، تسمح أسفار العهد القديم للكل بمعرفة من هو الله ومن هو الانسان بما لا يقل عن معرفة الطريقة التى يتصرف بها الله فى عدله ورحمته مع الانسان غير ان هذه الكتب تحتوى على شوائب وشىء من البطلان ، مع ذلك ففيها شهادة عن تعليم الهى) (١)

ولهذا الاعتراف قيمته العلمية لكونه صادرا عن مجمع مسكونى يضم هذا الحشد الكبير من رجال الدين وعلمائه ، ولا ينقص من قيمته ووضوحه تلك العبارات من المديح التى غلف فيها هذا الاعتراف .

---

(١) دراسة الكتب المقدسة : ٦٠

على اننا لا نعنى هنا بالعلوم كل ما اتخذ هذا الاسم بغض النظر عن حقيقته، وهل ما قاله العلم فيه هو الكلمة النهائية أم ان الامر ما زال قابلا لاعادة النظر والمراجعة ؟ ان الذى نريده هنا هو الحقائق التى ثبتت بشكل كاف، ولا يخشى من الرجوع عنها فيمكن استخدامها دون خوف الوقوع فى الخطأ، وليس من شرط ذلك ان يكون العلم قد حدد اجابة شافية فى الموضوع، فقد يتوصل العلم الى بطلان قول ما دون ان يتوصل الى اجابة محددة فى الموضوع نفسه، ذلك بان العلم قد يقيم الدليل على ان تفسير واقعة معينة على وجه معين لا يمكن ان يكون صحيحا وان لم يتمكن العلم بعد من بيان التفسير الصحيح لوقت أو كيفية وقوع الحادثة التى هى موضع البحث. فحكم العلم مثلا بأن الانسان لا يمكن ان يحدد وجوده على الارض بثمانية وخمسين قرنا من الزمن، وانه لا بد ان يكون أسبق من ذلك بكثير، لا يطعن فى هذا الحكم كون العلم لم يحدد بشكل دقيق تاريخ ظهور الانسان على الارض.

وكما سبق ان قلنا ان هناك فارقا بين ما يخالف العقل وما لا يدركه العقل، فان هنالك ايضا فارقا بين ما يعارض العلم ويحكم العلم ببطلانه وبين ما لم يتمكن العلم من ادراكه، اما الاول فهو باطل، واما الثانى فان وجوده امر معهود حتى فى عالم المادة والمحسوسات.

وليس من هدفنا هنا ان نستقصى ما فى اسفار العهد القديم من هذا الباب، وانما الذى يعنينا أن نؤكد أن فى هذه الاسفار كثيرا منه، وانه بلا شك ما كان يوجد فيها لو لم تعبث يد التحريف فيها بالزيادة والنقص والخلط، وسنكتفى ببعض الامثلة :

١ — مخالفة العهد القديم للعلم فى موضوع عمر الانسان على الارض وعمر الكون.

يمكننا ان نحدد عمر الكون استنادا الى معطيات العهد القديم وذلك حتى عهد ابراهيم عليه السلام ، فان سفر التكوين قدم معلومات وافية في ذلك ، فانه يذكر تسلسل الابناء منذ آدم الى ابراهيم عليهما السلام ذاكرا عمر كل واحد منهم ، ومتى ولد له ابنه ، ومتى ولد لهذا الابن ابنه أيضا ، فآدم مثلا عاش تسعمائة وثلاثين سنة ، وقد ولد له شيث وعمره مائة وثلاثون سنة ، وشيث عمره تسعمائة واثنتا عشرة سنة ، وقد ولد آنوش وعمره ثلاثمائة وخمس وعشرون سنة ، وانوش عاش تسعمائة وخمس سنوات ، وقد ولد قينان وعمره ثلاثمائة وخمس وعشرون سنة ، وهكذا تستمر سلسلة الانسال محددة الاعمار على هذا النحو حتى ابراهيم عليه السلام ، وبحساب هذه الارقام يكون ابراهيم عليه السلام قد ولد عام ١٩٤٨ من وجود آدم عليه السلام ، ويكون قد توفى عام ٢٢١٣ من وجود آدم .

ولكن المصادر التاريخية تقول ان وجود ابراهيم عليه السلام كان حوالى القرن الثامن عشر قبل الميلاد .

ومعنى هذا ان بين المسيح وآدم عليهما السلام حوالى تسعة وثلاثين قرنا ، وان بيننا وبين وجود آدم حوالى تسعة وخمسين قرنا ، ولما كان آدم هو اول البشر كان هذا هو عمر الانسان على الارض استنادا الى معطيات اسفار العهد القديم .

وقد كان بعض الناشرين فى العصور الماضية حينما ينشرون الكتاب المقدس يرفقون به جدولا توضيحيا ، يحتوى على تاريخ الاحداث التى وقعت منذ خلق العالم حسب معطيات الاسفار ، وكانت هذه الجداول متقاربة فى توقيتها للاحداث ، والخلافات التى تقع بينها طفيفة ، وقد كانت الجداول المذكورة تعطى الانسان عمرا على الارض مشابها تقريبا للرقم الذى ذكرناه اذا أخذ بعين الاعتبار وقت صدور تلك الطبعات . ولكن دور النشر فيما بعد ولما أظهر العلم خطأ محتويات هذه القوائم عادت وحذفت هذه

القوائم من طبعاتها اللاحقة . غير ان ذلك لا يغير من الامر شيئا لان المعلومات التى استقيت هذه القوائم على اساسها ما تزال موجودة فى سفر التكوين (١) .

وما دام الكون كله قد خلق فى ستة أيام ، وحسبما يشير سفر التكوين (٢) بوضوح فانها ايام كالايام المعتادة لدينا ، حيث يقسم هذا السفر هذه الفترة الى ايام،بالمعنى الدقيق لايام الاسبوع ، ويجعل محور الرواية يوم السبت الذى يجب ان يستريح فيه الناس كما فعل الرب .
وما دام الامر كذلك فان الزمان الذى اشرنا له باعتباره عمر الانسان على الارض ، حسبما تحدده اسفار العهد القديم ، هو بنفسه عمر الكون كله منذ وجوده .

هذا فيما يتعلق بعمر الانسان والكون حسب معطيات العهد القديم فماذا يقول بشأن ذلك العلم ؟

يبدو أن العلم لم يحدد بشكل دقيق رقما معينا من السنوات هو عمر الانسان على الارض ، ولكن اكتشافات لبقايا يبدو انها انسانية عثر عليها فى مناطق عديدة من العالم يقدر عمرها بمئات الالوف من السنين ، وظهرت اكتشافات أخرى أثبتت وجود أطلال لانسانية مفكرة وعاملة ، ومختلفة تشريحيا عن الكائنات الحية الاخرى المقاربة للانسان ، ويقدر عمرها بعشرات الالوف من السنين .

ومهما يكن فان المعطيات العلمية حول هذا الموضوع تؤكد أن وجود الانسان على ظهر الارض أبعد بكثير جدا مما حدده سفر التكوين ، حتى وان لم يستطع العلم ان يقول كلمته الاخيرة فى تحديد التاريخ اليقينى

---

(١) المصدر السابق : ٥٠ - ٥١ .

(٢) الاصحاح : ٢ فقرة : ٢ .

لوجود الانسان على الارض ، فان المعلومات المتوفرة تسمح بالتأكيد على أنه وجد منذ فترة اكبر بكثير من تلك التي يحددها أى جدول زمانى يوضع على اساس من معطيات العهد القديم ، ولهذا قال موريس بوكاى : (هناك استحالة واضحة بين ما يمكن استنتاجه من المعطيات الحسابية لسفر التكوين الخاصة بظهور الانسان على الارض وبين اكبر المعارف تأسيسا فى عصرنا (١).

واما عن تاريخ نشوء الكون فالاجابة فيه أعسر منالا ، وكل ما يمكن تحديده فى هذا من ناحية علمية ، هو تكون النظام الشمسى الذى حدد بشكل تقريبى بمليارات السنوات ، ومهما قيل حول دقة هذا التحديد فانه من الواضح استحالة التوفيق فى هذا الامر بين معطيات العلم ومعطيات سفر التكوين (٢) .

٢ — مخالفة العلم لمعطيات العهد القديم حول الطوفان

قصة الطوفان حسبما يرويها سفر التكوين فى الاصحاحات السادس والسابع والثامن ، تؤكد أن الله قرر تدمير البشر وكل المخلوقات الحية التى على الارض لما عمّ الفساد ، فيما عدا نوح عليه السلام ومن امره الله تعالى بحملهم معه فى السفينة ، وهم زوجاته واولاده وزوجات اولاده وكائنات حية اخرى ، تناقضت فقرات العهد القديم فى بيان عددها بين كونها زوجا واحدا من كل نوع أم سبعة أزواج من كل نوع من الحيوانات المساة بالطاهرة وزوج واحد من الحيوانات المساة بغير الطاهرة (٣) .

---

(١) دراسة الكتب المقدسة : ٥١ ،

(٢) انظر المصدر السابق : ٤٧ - ٥١ ،

(٣) قارن بين ما جاء فى الفقرات ١ - ٣ من الاصحاح ٧ من سفر التكوين والفقرات ٨ - ٩ من الاصحاح نفسه . وانظر : على التوراة : ٤٦-٤٧ ، ودراسة الكتب المقدسة : ٥٢ ،

وتضيف رواية السفر المذكور أن الماء غطى قمم الجبال وأعلى منها وان التدمير عمّ كل الحياة الى ان رست السفينة على جبل ارارط بعد انحسار الماء ،على تناقض بين فقرات الاصحاح المذكور في تحديد مدة الطوفان ـ حسبما مر (١)

ويحدد هذا السفر عمر نوح حين وقع الطوفان بستمائة سنة (٢)، واذا رجعنا الى جدول اعمار انسال آدم الذي تقدمه معطيات سفر التكوين بشكل متسلسل ـ حسبما اشرنا سابقا (٣) ـ فانه يمكن تحديد تاريخ الطوفان بشكل دقيق . فان نوحا يكون قد ولد عام الف وواحد وخمسين من خلق آدم عليه السلام (٤) ،وما دام الطوفان قد وقع وعمر نوح ستمائة عام فهذا يعني أن الطوفان وقع عام الف وستمائة وواحد وخمسين من خلق آدم عليه السلام. كما ان معطيات هذا السفر تعني ان الطوفان قد وقع قبل ولادة ابراهيم عليه السلام بمائتين وبضع وتسعين سنة ،فان ولادة ابراهيم عليه السلام تحددها التوراة بموجب سلسلة الاعمار المتتالية المشار اليها عام ١٩٤٨من خلق آدم عليه السلام .

واذا كان الطوفان قد دمر كل الحياة على الارض عدا من في السفينة قبل أقل من ثلاثة قرون من مجيء ابراهيم ،فان هذا يعني ان البشرية قد كونت نفسها في مجتمعات متحضرة متعددة وكثيرة ،خلال ما يقل عن ثلاثة قرون تفصل بين الطوفان وولادة ابراهيم ،لان اسفار العهد القديم ذاتها قد روت أن ابراهيم عليه السلام خالط وساكن اقواما كثيرة .

ولعل القول بتكون هذه المجتمعات على الصورة التي يحسبها من يقرأ

---

(١) راجع ص: ٤٦ – ٤٧ .

(٢) الاصحاح ٧ فقرة : ١١ .

(٣) راجع ص : ٦٤ .

(٤) انظر اظهار الحق : ١/ ٢١٩ .

سيرة ابراهيم عليه السلام فى العهد القديم خلال ثلاثة قرون فحسب يبدو امرا غير مقبول من الناحية العقلية ، فان البشرية تحتاج الى قرون طويلة حتى تتمكن من مثل هذا التعدد والانتشار ، فلازم هذا ان حصول الطوفان فى التاريخ المذكور غير ممكن ولا معقول .

وعصر ابراهيم عليه السلام يحدد من الناحية التاريخية حوالى ١٨٠٠- ١٨٥٠ قبل الميلاد ، واذا كان الطوفان قد وقع قبل ابراهيم عليه السلام بما يقل عن ثلاثة قرون ، فان ذلك يعنى أن اعداما شاملا لكل اشكال الحياة التى كانت على الارض ولمختلف الحضارات التى ترعرعت على الارض فى ما بين القرن الحادى والعشرين والقرن الثانى والعشرين قبل الميلاد . غير ان دراسة تاريخ الحضارات فى تلك الفترة تقطع بخطأ هذا الاستنتاج ، وتؤكد بأن حضارات كثيرة كانت قائمة فى مصر وفى بابل وفى غيرهما من مناطق العالم خلال تلك الفترة . ومن المعلوم جيدا انه لم يحدث انقطاع فى تلك الحضارات ولا انعدام لاجيالها فى الفترة المشار لها (١) .

٣ — احتواء العهد القديم على احداث مرفوضة من الناحية التاريخية ومثل هذا كثير فى هذه الاسفار ، فسفر التكوين (٢) مثلا يذكر ان ابراهيم عليه السلام ذهب الى ابيمالك (٣) ملك الفلسطينيين فى جرار وتغرب فى ارضهم . ويذكر لاسحاق عليه السلام ايضا مثل ذلك .

غير ان الدراسات المبنية على الاكتشافات الاثرية الاخيرة تقطع بخطأ هذه المعطيات ، فتشير هذه الدراسات على وجه التأكيد الى أن عهد ابراهيم عليه السلام كان يقع فى القرن التاسع عشر قبل الميلاد ، بينما يرجع

---

(١) انظر دراسة الكتب المقدسة : ٥٢ - ٥٤ .

(٢) سفر التكوين ٢٠ / ١ - ٨ ، ٢١ / ٢١ - ٣٤ ، ٢٦ : ١ - ١١ .

(٣) اسم عام لملوك الفلسطينيين كفرعون لملوك مصر .

عهد الفلسطينيين الذى سميت فلسطين باسمهم الى القرن الثانى عشر قبل الميلاد) وهذا ما يجعل فاصلا بينهم وبين عهد ابراهيم عليه السلام ومن بعده ابنه اسحاق عليه السلام يصل الى حوالى سبعة قرون (١) .

ولقد ذكر الاستاذ محمد عزة دروزة انه وجد على عمارة فى طيبة يعود انشاؤها الى عهد منفتاح الاول انشودة ذكر فيها تنكيله ببنى اسرائيل فى جملة من نكل بهم من سكان فلسطين، بسبب ثورة ثاروها ضد السلطان المصرى وقال تعقيبا على ذلك (والانشودة المار ذكرها دليل أثرى وقطعى على تسمية بنى اسرائيل باسمهم قبل تدوين سفر التكوين (٢) الذى يذكر ان يعقوب سمى باسرائيل فكان ذلك اصل تسمية ذريته بنى اسرائيل) (٣)

٤ — ورود اسماء لاماكن لم تكن قد اطلقت عليها حتى وفاة من نسبت لهم كتابة الاسفار ، وبهذا فهذه الاسماء لا يمكن ان تكون من كتابة من نسبة لهم الاسفار ، فهى ممن جاء بعدهم ، واذا كانت هذه الاسماء قد كتبت من غيرهم فما الذى يمنع ان تكون فقرات اخرى غيرها ايضا قد كتبت فى ازمنة متأخرة عمن نسب لهم كتابة الاسفار ؟ وهذا كثير فى العهد القديم وهذه بعض امثلته :

جاء فى سفر التكوين (٤) : (ومات هاران قبل تارح فى ارض ميلاده فى أور الكلدانيين) وفيه (٥) : (واخذ تارح ابرام ابنه ولوطا بن هاران بن ابنه وساراى كنته امراة ابرام ابنه فخرجوا معا من أور الكلدانيين) .

---

(١) العرب واليهود فى التاريخ : ١٨١ - ١٨٢ ،

(٢) ٣٢ : ٢٨ ،

(٣) تاريخ بنى اسرائيل من اسفارهم : ٦٩ - ٧٠ ،

(٤) ١١ : ٢٨ ،

(٥) ١١ : ٣١ ،

فقد ورد في هاتين الفقرتين لفظ أور الكلدانيين ، وانما أطلق هـــذا الاسم نسبة للكلدانيين الذي ظهروا بعد سقوط نينوى سنة ٦١٢ قبـــل الميلاد . (١)

وأين هذا من ابراهيم عليه السلام ؟ فان بينه وبين الكلدانيين أكثر من اثنى عشر قرنا ، وأين هذا التاريخ ايضا من موسى عليه السلام الذي ينسب له سفر التكوين ؟ فان بين ظهور موسى عليه السلام وبين ظهور الكلدانيين ما لا يقل ستة قرون ونصف القرن .

وجاء في السفر نفسه (٢) : (حتى انه يقال اليوم في جبل الرب يرى) . ولم يطلق على هذا الجبل (جبل الرب) الا بعد بناء الهيكل زمن سليمـــان عليه السلام ، أي بعد حوالي اربعمائة وخمسين سنة من موت موسى عليه السلام أو أكثر ، ولهذا قال مفسر الكتاب المقدس آدم كلارك انها الحاقية - اى مما الحق بعد موسى - وقال : (وهذا الجبل لم يطلق عليه ذلك الاسم الا بعد بناء الهيكل) . (٣)

فاعترف بأنها الحقت بعد موسى عليه السلام ، واما الملحق فالله اعلم به من يكون ؟

وفي سفر التكوين أيضا (٤) : ورد في مواضع عدة لفظ حبرون وهو اسم لقرية كان اسمها قرية رابع ، وغيَّر بنو اسرائيل اسمها القديم رابع الى اســـم حبرون ، فلم تكن في زمان موسى تعرف بهذا الاسم ، وانما عرفت به في زمان يوشع (٥) الذي جاء بعد موسى عليه السلام .

---

(١) العرب واليهود في التاريخ : ١٨٢ .

(٢) ٢٢ : ١٤ .

(٣) اظهار الحق : ١ / ٢٤٢ .

(٤) ١٣ / ١٨ ، ٣٥ / ٢٧ ، ٣٧ / ٣٤ .

(٥) سفر يوشع اصحاح : ١٤ .

وجاء في سفر التكوين (١) أيضا اسم دان، وهو اسم لبلدة انشئت في عهد القضاة، بعد ان فتح بنو اسرائيل بلدة ليث، وقتلوا أهلها واحرقوها وأنشاوا بدلها بلدة دان المذكورة، كل هذا كما دلت عليه اسفار العهد القديم (٢).

ولهذا قال هورن في تفسيره تعقيبا على هذا والذى قبله : (يمكن ان يكون موسى كتب قرية رابع وليث، لكن بعض الناقلين حرف هذين اللفظين حبرون ودان). (٣)

وهكذا فالمسألة يمكن ان تكون كذا ثم حرّفت، وهذا يدل على ان هذا الاحتمال مبناه الظن والتخمين، ثم من الذى حرفه ؟ فلا أحد يعرف. ومن طالع اسفار العهد القديم وجد مثل هذا فيها كثير (٤)

---

(١) ١٤/١٤.

(٢) القضاة - اصحاح : ١٤.

(٣) اظهار الحق : ١ / ٢٤٥.

(٤) انظر المصدر السابق ١ / ٢٤٦ وما بعدها.

نمـاذج مـن الـديـن اليهـودى

ان هذه الامثلة التى اوردناها فى التناقض ومخالفة العقل ومخالفة العلم ، وغيرها كثير مما اشار له كثير من الباحثين ، ومما يمكن ان يستخرج من أسفار العهد القديم ، بقيت امورا مجهولة بالنسبة للغالبية من الناس ، يساعد على ذلك تغافل رجال الدين وغيرهم عن الاشارة لها ، بل ومحاولة التستر عليها ، كما ان القارئ العادى الذى يمثل الغالبية العظمى من اتباع هذا الدين ، وممن يؤمنون بقدسية اسفاره لا يعنون بالمقابلة بين النصوص والمقارنة بين الفقرات المتباعدة فى الاصحاحات المختلفة ، ولا هم يقارنون معطياتها بما انتهى اليه العلم من كشوف ونتائج ، لكى يدركوا من ذلك مدى التناقض ومخالفة العقل ومخالفة العلم فى محتويات الاسفار .

غير ان هذا القارئ لا بد ان يجد فى اثناء قراءته لهذه الاسفار امور تتعلق بصفات الله وافعاله ، واخرى تتعلق بصفات انبيائه واخلاقهم وافعالهم وتاريخهم ، واخرى تتعلق بما فيها من اوامر وتكليفات ، الى غير ذلك من الامور التى تحتويها الاسفار ، ولا بد ان يكون لهذه المعطيات التى تتعلق بصفات الله تعالى وصفات رسله بشكل خاص ، وبالدين الذى تمثله هذه الاسفار بشكل عام ، لا بد ان يكون لها أثر كبير فى تشكيل نظرة القارئ لهذا الاله ، وتقدير مكانة هذا الاله فى نفسه وشعوره نحوه ، وللايحاءات التى يتركها هذا الاعتقاد فى النفس ، فالذى يؤمن مثلا باله تام القدرة والعلم ومخالف للحوادث وليس كمثله شئ ، ولا يأخذه النعاس والنوم ولا يمسه التعب والنصب ، لا يمكن ان يكون شعوره تجاه الهه كشعور من يؤمن باله كثيرا ما يندم ويحزن ويجزع وينسى وينام ويلعب ويبكى وتصيبه الحيرة والدهشة ويمسه التعب ، ونحو ذلك من النقائص ، فان من يصف الهه بهذه الاوصاف ـ مهما يكن امره ـ لا يشعر انه يعيش فى كنف اله يضفى على نفسه الرضا والطمأنينة ، ويبعد من نفسه الخوف والوهم ، لان ثقته بالهه مهزوزة ، واما

من يؤمن برب تام القدرة والعلم ، لا يكون منه الا الحق ، ولا يشرع الا عن حكمة ، فثقته بربه تامة ومحبته له تفوق كل محبة ، وخوفه منه يفوق كل خوف .

وكذلك الحال بالنسبة لمن يؤمن بنبي معصوم ، ليس هو كمن يؤمن بنبي يقع منه الظلم ، وتقع منه الكبائر ، ويقع منه ما لا يقع احيانا من افسق الناس ، بل ويقع منه احيانا الكفر والارتداد .

ونحن لا ننوي هنا ان نستقصي لا فيما نسبته الاسفار المقدسة لله من صفات ، ولا فيما نسبته لانبيائه عليهم صلوات الله وسلامه من اخلاق وافعال ولا فيما سوى ذلك مما فيها من تشريعات واخلاق ، ولا في غير ذلك مما حوته من تشريعات وقصص ، وانما مرادنا ان نقتبس بعض الامثلة من كل ذلك حتى نرى هل تملأ هذه المفاهيم عن الله وأنبيائه وكتبه هل تملأ النفس بكل ما هو ايجابي ونافع أم لا ؟ وهل تساعد هذه المفاهيم ذاتها على الاقتناع بصحتها وصحة الاسفار التي حوتها ؟ وهل تمنح النفس ما يقنعها بالجدية في التعامل مع هذه المفاهيم ؟

اولا : صفات الله تعالى :

نسبت هذه الاسفار لله تعالى كثيرا من النقائص ، ووصفته بكثير من صفات الحوادث والمخلوقات ، بل انها وصفته بصفات الضعفاء والعاجزين من المخلوقين ، ومن هذه الصفات

١ — التعب : نسبت صفة التعب لله تعالى عن ذلك — في هذه الاسفار في اماكن متعددة منها :

(استراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل) (١) . والاستراحة انما تعني انه تعب قبل ذلك ، وقد جاءت نسبة التعب له بلفظ صريح في قوله : (لقد اتعبتم الرب بكلامكم ، وقلتم بم اتعبناه ؟ بقولكم : كل من

---

(١) التكوين : ٢/٣ .

يفعل الشر فهو صالح في عيني الرب) (١) . وسيأتي مثل هذا في النص اللاحق .

٢ ـ التنفس كما ورد في :(وفي اليوم السابع استراح وتنفس) (٢) .

٣ ـ الندم والتردد ، وقد ورد في فقرات كثيرة منها :

(وكان كلام الرب الى صموئيل : ندمت على أني قد جعلت شاول ملكا ، لانه رجع من ورائي ولم يقم كلامي) (٣) .

(لعل الله يعود ويندم عن حمو غضبه فلا نهلك فلما راى الله اعمالهم (٤) انهم رجعوا عن طريقهم الرديئة ندم على الشر الذي تكلم ان نصنعه بهم فلم يصنعه) (٥) .

وورد في سفر التكوين (٦) ان الرب خلق الانسان فلما راى شروره قد كثرت ندم على خلقه (٧) . وورد في سفر عاموس (٨) : ان الرب لما صنع الجراد ، فأكل عشب الارض ، عاتبه موسى على ذلك فندم على صنعه . وكثيرا ما تروى الاسفار انه يفعل الشيء فيتندم على فعله ، أو ينوى فعله ثم يرجع

---

(١) ملاخي : ٢ / ١٧

(٢) الخروج : ٣١ / ١٧ . وأين هذا من قول الله تعالى : ((ولقد خلقنا السموات والارض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب)) ؟
سورة ق : ٣٨ .

(٣) صموئيل الاول : ١٥ / ١٠ - ١١ .

(٤) اعمال أهل نينوى .

(٥) يونان : ٣ / ٥ - ١٠ .

(٦) التكوين : ٦ / ٥ - ٧ .

(٧) وأين هذا من قول الله تعالى ((واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال اني اعلم ما لا تعلمون)) ؟
سورة البقرة : ٣٠

(٨) ٧ / ١ - ٣ .

عنه ،او يباشر فعله ثم يتردد ويندم (وارسل الله ملاكا على اورشليم لاهلاكها ،وفيما هو يهلك ،راى الرب فندم على الشر وقال للملاك المهلك كفى الان رد يدك)(١) .

وهذا مع ما ورد في سفر العدد (٢) : (ليس الله انسانا فيكذب ولا ابن انسان فيندم) .

٤ ــ الجهل : ان صفة الندم التي تكلمنا عنها ،لا تكون الا كنتيجة لصفة الجهل ،ولكون النادم على ما فعل لم يكن يعلم الغيب ،لان الجاهل بما ينتهي اليه الشيء يفعله ثم يتبين له خطأ فعله ،لانه اطلع على ما لم يكن يعلمه ولا يظن وقوعه من قبل،فيندم على ما كان منه ،واما عالم الغيب الذي لا يخفى عليه ما سينتهي اليه الامر ،فالندم في حقه غير متصور .

وتنسب الاسفار لله تعالى كثيرا من الافعال التي تدل على الجهل وعدم علم الغيب : فآدم وحواء بعد ان أكلا من الشجرة وسمعا صوت الله يمشي في الجنة اختبأ ،فناداهما وسألهما أين انتما ؟ فهو بهذا لا يعلم مكانهما ـ تعالى عن ذلك ـ وعندما اراد الرب أن يضرب المصريين عقوبة لهم على امساك بني اسرائيل أمر موسى أن يأمر بني اسرائيل أن يأخذ كل واحد شاة بحسب بيوت الآباء شاة للبيت ،وان تذبح في العشية ،ثم (يأخذون من الدم ويجعلونه على القائمتين والعتبة العليا في البيوت التي يأكلون فيها) الى ان قال : (ويكون لكم الدم علامة على البيوت التي أنتم فيها فأرى الدم وأعبر عنكم . فلا يكون عليكم ضربة للهلاك حين أخرب ارض مصر)(٣) . وما دام الغرض من وضع الدم هو تمييز بيوت بني اسرائيل ،فهو لا يعلم الغيب.

---

(١) أخبار الايام الاول : ٢١/١٤ - ١٥ .

(٢) ٢٣/١٩ .

(٣) الخروج ١٢/٢١ - ٢٣ .

٥ — العجز ، ورد في سفر التكوين (١) : (فبقي يعقوب وحده وصارعه انسان حتى طلوع الفجر ، ولما رأى انه لا يقدر عليه (اي على يعقوب) ضرب حق فخذ يعقوب في مصارعته معه ، وقال اطلقني ، لانه قد طلع الفجر . فقال : لا اطلقك ان لم تباركني . فقال له ما اسمك ؟ فقال : يعقوب فقال : لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل اسرائيل ، لانك جاهدت مع الله والناس وقدرت . وسأل يعقوب وقال أخبرني ما اسمك ؟ فقال : لماذا تسأل عن اسمي . وباركه هناك . فدعا يعقوب اسم المكان فنيئيل قائلا : لاني قد نظرت الله وجها لوجه ونجيت نفسي) .

واي اتهام بالضعف والعجز أكبر من ان يتهم الرب بالعجز عن صراع انسان ، وان يتهم انه اعترف لهذا الرجل بالقدرة في قوله (لانك جاهدت مع الله والناس وقدرت) ثم يذعن لشرطه ويباركه ؟

والذي يعتقد ربه على هذا النحو من العجز كيف له ان يتوكل عليه ويفوض امره اليه ؟ وكيف له ان يحس له بهيبة أو يشعر بخوف منه ؟ وكيف له ان يلجأ اليه ويحتمي به عندما تنزل به المصائب وتتقطع به الاسباب وهو اضعف من ان يخلص نفسه من رجل حتى يستجيب لشرطه ؟

ولقد تعلق اليهود بهذه الخرافة ، فهم لا يأكلون من لحوم الحيوانات الذي على حق الفخذ الى الآن (٢) .

٦ — الحزن والاسف والدهشة كما في قوله : (فحزن الرب انه عمل الانسان في الارض وتأسف) (٣) . (من أجل سحق بنت شعبي انسحقت حزنت اخذتني دهشة) (٤) . وكما في النص الاتي :

---

(١) ٣٢/٢٤ - ٣٠ .

(٢) التوراة العقل والعلم والتاريخ لبدران محمد بدران : ٥٨ .

(٣) التكوين : ٦/٧ .

(٤) أرمياء : ٨/٢١ .

٧ ـ السقم كما في قوله : (من مفرج عني الحزن قلبي فيّ سقيم).(١)
فاذا كان الرب ينشد مفرجا لحزنه ، فلماذا ينشده الانسان لتفريج كروبه وجلاء همومه واحزانه ؟

٨ ـ النوم والاستيقاظ كما في نسبتهم لله أنه قال (٢) : (لاني أرويت نفس المعيية ، وملأت كل نفس ذائبة ، استيقظت ونظرت ولذا لي نومي) .
وكما في قولهم (٣) : (اسكتوا يا كل البشر قدام الرب لانه استيقظ من مسكن قدسه) . وقولهم (٤) : (استيقظ لماذا تتغافى يا رب ؟ انتبه لا ترفض الى الابد) . وقولهم (٥) : (فاستيقظ الرب كنائم جبار معيط من الخمر) .

والقلب الذي يعتقد في الهه أنه ينام ويغفو لا ينتظر منه ان يشعر باحساس دائم انه في رقابة دائمة من الله ولا احساس بأنه دائما في معية الله ، لا يكون منه شيء الا احاط الله بعلمه ، فأي دافع يدفعه بعد ذلك للحرص على التزام امره وامتثال دينه (٦) ؟

٩ ـ الحيرة وذلك كما في قولهم : (فرأى الرب وساء في عينيه انه ليس عدل . فراى انه ليس بانسان ، وتحير انه ليس شفيع) (٧) .

---

(١) ارمياء : ٨ / ١٨ .
(٢) ارمياء : ٢١ / ٢٦ .
(٣) زكريا : ٢ / ١٣ .
(٤) مزامير : ٤٤ / ٢٣ .
(٥) مزامير : ٧٨ / ٦٥ .
(٦) أين هذا من قول الله تعالى ((الله لا اله الا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم)) سورة البقرة : ٢٥٥ ، ومن قول رسوله صلى الله عليه وسلم : ((ان الله لا ينام ولا ينبغي له ان ينام)) رواه مسلم في الايمان ١ : ١٦٢ ، واحمد ٤ : ٤٠١ ، ٤٠٥ ، وابن ماجه في المقدمة ١ : ٧١ .
(٧) التكوين : ٩ / ٧ - ١٣ .

فاذا كان الرب يتحير ،فمن يجير الانسان اذا احتار ؟

١٠ — التخمة كما فى قولهم : (اتخمت من محرقات كباش وشحم مسمنات)[١].

والتخمة مذمومة بالنسبة للبشر ،فما بالك بها بالنسبة لله ؟

١١ — النسيان كما تدل عليه فقرات كثيرة مثل : ما جاء فى سفر التكوين ان الله بعد الطوفان أقام ميثاقا مع نوح ،ومع كل ذوات الانفس الحية التى معه ان لا يكون طوفان ليهلك كل ذى جسد ويخرب الارض ، وجعل لهذا الميثاق علامة ،كلما ابصرها الرب ذكر الميثاق (وقال الله : هذه علامة الميثاق الذى انا واضعه بينى وبينكم ، وبين كل ذوات الانفس الحية التى معكم الى اجيال الدهر . وضعت قوسى فى السحاب فتكون علامة ميثاق بينى وبين الارض . فيكون متى انشر سحابا على الارض وتظهر القوس فى السحاب ، انى اذكر ميثاقى الذى بينى وبينكم وبين كل نفس حية فى كل جسد . فلا تكون المياه طوفانا لتهلك كل ذى جسد فمتى كان القوس فى السحاب أبصرها لاذكر ميثاقا ابديا بين الله وبين كل نفس حية فى كل جسد على الارض)[٢].

وهذا يعنى ان النسيان منه تعالى معكن ،والا لما وضع علامة كلما رآها تذكر الميثاق .

(فسمع الله انينهم ،فتذكر الله ميثاقه مع ابراهيم واسحاق ويعقوب)[٣]

والنسيان ضد العلم ،وهو صفة نقص ،والذى يؤمن ان الهه ينسى لا ينتظر منه يكون مكثرا من الطاعة مبتعدا عن المعصية ،لان هذه وتلك يمكن ان تنسى ولا يترتب على التقيد بالاوامر والنواهى اذا كان ذلك معرضا للنسيان فائدة (٤) .

---

(١) اشعياء : ١/ ١١ .

(٢) تكوين : ٩ /٨ - ١٧.

(٣) الخروج : ٣/ ٢٤ .

(٤) اين هذا من قوله تعالى ((لا يضل ربى ولا ينسى)) سورة طه : ٥٢ ، وقوله ((وما كان ربك نسيا)) سورة مريم : ٦٤ ؟ .

١٢ — الخداع : وذلك جاء في الفقرة التي تقول على لسان ارمياء :(فقلت : آه يا سيدي الرب انك خداع حقا ، خادعت هذا الشعب (يقصد بني اسرائيل) واورشليم قائلا يكون لكم سلام ، وقد بلغ السيف النفس) (١)

فهذا اتهام بالخداع ، بل بالكذب أيضا ، فان قوله عن ربه (قائلا يكون لكم سلام ، وقد بلغ السيف النفس) هو اتهام بالكذب يصدر عن نبي - حسبما يعتقدون في أرمياء - فهل عرفت جراءة على الله كهذه الجراءة ؟ واذا كان ارمياء صادقا في ذلك فتلك بلية ما فوقها بلية ان يكون الرب خادعا كاذبا - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا - ، وان لم يكن صادقا فان هذه الاسفار تحوى الكذب .

١٣ — ومما يوصف به الاله في هذه الاسفار انه يتنسم رائحة المشويات من الذبائح كما ورد في فقرات كثيرة منها : (وبنى نوح مذبحا للرب ، وأخذ من كل البهائم الطاهرة ، ومن كل الطيور الطاهرة وأصعد محرقات على المذبح . فتنسم الرب رائحة الرضا ، وقال الرب في قلبه لا أعود العن الارض أيضا من اجل الانسان ، لان تصور قلب الانسان شرير منذ حداثته) (٢) .

(وكلم الرب موسى قائلا : اوص بني اسرائيل وقل لهم قرباني طعامي مع وقائدى رائحة سروري ، تحرصون ان تقربوه لي في وقته) (٣) .

فالرب يتنسم رائحة الذبائح المشوية ويسميها طعامه (٤) .

١٤ — اللعب : لم يتورع اليهود عن وصف الله تعالى بهذه الصفة ، وقد

---

(١) ارمياء : ٤ / ١٠ .

(٢) التكوين : ٨ : ٢٠ - ٢١ .

(٣) العدد : ٢٨ / ١ .

(٤) واما القرآن فيقول ((لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم)) سورة الحج : ٣٧ .

وردت في التلمود : (ان النهار اثنتا عشرة ساعة ، في الثلاث الاولى منها يجلس الله ويطالع الشريعة . وفي الثلاث الثانية يحكم .
وفي الثلاث الثالثة يطعم العالم . وفي الثلاث الاخيرة يجلس ويلعب مع الحوت ملك الاسماك) . (١)

ونسبة اللعب لله تعالى مضادة لوصف افعاله بالحكمة (٢)

١٥ — الرقص : وهذه ايضا وردت في التلمود : (ولم يلعب الله مع الحوت بعد هدم الهيكل . كما انه من ذلك الوقت لم يمل الى الرقص مع حواء بعدما زينها بملابسها وعقص لها شعرها) (٣) .

فاذا كان لم يمل بعدم هدم الهيكل الى الرقص مع حواء ، فمعنى ذلك انه كان يرقص معها قبل ذلك ـ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ـ وماذا ينتظر ان تكون اخلاق وتصرفات من يصف ربه بمثل هذه الاوصاف ؟ وهل هذا يتناسب مع وصفه تعالى بصفات الكمال (٤) ؟

١٦ — البكاء والدمع : وقد وردت ايضا في التلمود : (يتندم الله على تركه اليهود في حالة التعاسة ، حتى انه يلطم ويبكي كل يوم فتسقط من عينيه

---

(١) الكنز المرصود في قواعد التلمود ليوسف حنا نصر الله : ٤٩ ؛
التلمود شريعة بني اسرائيل ترجمة واعداد محمد صبري : ١٣ .
(٢) واين هذا من قوله تعالى : ((وما خلقنا السموات والارض وما بينهما لاعبين)) الدخان : ٣٨ ، وقوله ((وما خلقنا السماء والارض وما بينهما لاعبين . لو اردنا ان نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين)) الانبياء : ١٦ - ١٧ ؟ .
(٣) الكنز المرصود في قواعد التلمود : ٥٠ .
(٤) واين هذا من قوله تعالى ((ولم تكن له صاحبة)) الانعام : ١٠١ ، وقوله : ((وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً))
سورة الجن : ٣ ؟ .

دمعتان في البحر ، فيسمع دويهما من بدء العالم الى أقصاه ، وتضطرب المياه ، وترتجف الارض في اغلب الاحيان فتحصل الزلازل) (١) .

والبكاء والدمع حيلة الضعيف والخائف ، وعلامة العجز والخور ، وكيف لمن يصف الهه بذلك ان يطمئن الى حمايته ، ويطمئن الى عدله ويتوجه اليه عند الحاجات ؟ فان القادر على ذلك انما هو القوى .

فاذا كانت هذه هي صفات الاله الذي تدعو الاسفار لعبادته ، وفيها التعب والجهل والعجز والندم والحزن والسقم والخداع واللعب والرقص والبكاء والدمع ونحوها ، وكل ذلك بنص الاسفار ، فان من يتوجه لاله هذه صفاته لا ينتظر أن يكون توجهه تاما وجادا ، ولا يمكن ان يكون من آثار هذا الاعتقاد النفسية ما يملأ النفس بالطمأنينة والامن ، ويزيل ما فيها من الهموم والاحزان ، ويحول بينها وبين التعلق بأي شيء سوى الله .

ان المؤمن حين تضيق به الحياة ويحس بعجزه أمام كثير من مآسيها انما يتجه الى الله طالما اعتقد فيه القدرة التامة والعلم الكامل ، ولكن اذا كان يعتقد فيه انه قد يعجز عن ان يفرج كربته ، او يشفي سقمه ، أو ينتصر له من ظالمه ، فليس من وراء ذلك من آثار تنعكس على النفس كنتيجة لهذا الاعتقاد ، الا اليأس والانطواء والعقد النفسية .

واذا كان الاله قد عجز عن صراع رجل ، فهو اذن لا يستطيع أن يفعل ما يشاء ، وبالتالي فلِمَ لا يمكن للمرء ان يفلت من عقاب اله عاجز ؟ وليس وراء مثل هذا الاعتقاد من آثار تنشأ في النفس الا الشعور بعبث الحياة وهزلها ، وانه لا طائل من وراء الالتزام بآية فضائل فيها . خاصة اذا ضم لذلك عدم اهتمام اسفار هذا الدين بالايمان باليوم الآخر .

وان هذه الصفات التي تنسبها الاسفار لله تعالى ، هي بنفسها دليل

---

(١) الكنز المرصود : ٥٠ ، التلمود شريعة بني اسرائيل : ١٤ .

قوى على ان مصدرها انما كان يتمثل فى وصفه لله تعالى صفات نفسه ، وكان يصف ما يشاهده ويحسه فى نفسه وفى الناس من حوله ، وما يمكن ان يصل له عقله المحدود بدنيا الناس وصفات الناس ، وماذا يمكن لذهنه ان يتوقع لربه من صفات سوى ما عهده فى البشر ، فليست هى الا صفات بشرية تحمل بذلك شهادة اكيدة على ان مصدرها البشر .

ثانيا : صفات الانبياء وافعالهم :

لما كان الانبياء هم المبلغون لشرع الله ، وكانوا فى انظار الناس انما يمثلون الصورة العملية لما يدعون ، فهم القدوة التى أمر الناس باتباعها فى كل ما يصدر عنهم من افعال واوامر ، فان اتباعهم انما ينتظرون منهم ان يكونوا اسمى الناس فى اخلاقهم ، وأحسنهم فى افعالهم وتصرفاتهم ، وأشدهم فى امتثال امر الدين الذى يبلغونه للناس ، وان يكونوا ينبوع الفضائل ، فليس هم الا القمة السامقة التى يأمل ان يقترب منها كل طالب لرضا الله حريص على اتباع شرعه ، ولكنه على يقين انه لن يساوى تلك القمة ابدا ، ذلك بأن الله الذى اصطفى رسله من الناس واختارهم من بينهم ، لابد لاختياره ان يقع على خيرة الناس واكثرهم امانة ((الله اعلم حيث يجعل رسالته)) (١) .

واما اذا كانت الكتب المقدسة لدين ما تصور رسل هذا الدين على غير الصورة التى ترتضيها للاتباع فضلا عن الرسل ، وتنسب لهم من الافعال ما يخرجهم احيانا من الايمان الى الكفر ، فماذا يمكن ان يكون حال الاتباع وهم يرون حال الصفوة المختارة ؟ وهل يجد هؤلاء الاتباع فى نفوسهم الثقة التامة فى قيادة الرسل للبشر فى الطريق الصحيح ؟ بل هل يجد الاتباع فى نفوسهم الاقتناع بصدق هؤلاء المختارين طالما انهم يخالفون ما يأمرون به ؟

---

(١) سورة الانعام : ١٢٤ .

ان الناس لا يثقون فى كل من يدعو الى مبدأ ما اذا كان عمله وحالـــه يخالف ما يدعو اليه ، فكيف اذا كان هذا الداعى الذى يفارق فعله قولـــه يتكلم باسم الدين ويشرع باسم الاله ؟

فما هى صورة الانبياء في اسفار اليهود ؟ وما هى الافعال التى تنسب لهم ؟،

وهل هى الصورة التى تملأ النفوس بالمحبة التامة والثقة الكاملة والتقديـر اللائق وما يتبع ذلك من مكانة فى النفوس تؤدى الى التأثر والطاعة والاقتداء ؟

وهل تحس النفوس ازاء هذه الصورة انها ازاء القمة السامقة التى تنتظرها وتتوقعها فيمن اصطفاه الله لدينه وامنه على تبليغه ، وجعله قائدا لركـــب النور والخير أم انها تقدم فى كثير من الاحيان صورة تأباها النفوس وتترفـــع عنها الضمائر الحية ؟ لنرى

١ — جاء فى سفر التكوين (١) عن نوح عليه السلام : (وشرب من الخمـــر فسكر وتعرى تحت خبائه . فابصر حام أبو كنعان عورة ابيه ، وأخبر اخوتـــه خارجا . فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على اكتافهما ، ومشيا الى الوراء وسترا عورة ابيهما ، ووجهاهما الى الوراء ، فلم يبصرا عورة ابيهما . فلـــم استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير . فقال : ملعون كنعـــان عبد العبيد يكون لاخوته . وقال : مبارك الرب اله سام . وليكن كنعان عبدا لهم . ليفتح الله ليافث فيسكن فى مساكن سام ، وليكن كنعان عبدا لهم)(٢).

---

(١) ٩/ ٢١ - ٢٧٠

(٢) لعل هذه أول بذره لما سمى بالسامية على اعتبار انها عرق جنســـى يتعالى على غيره من البشر ، رغم كونهم من اصل واحد ، وان كان كثيـــر من العلماء اليوم يرون ان السامية لا تعنى عرقا معينا، وانما تعنى مفهوما لغويا للشعوب التى عاشت فى منطقة الشرق الاوسط .
وقد قالت مجلة لايف فى عدد خاص لها عن الكتاب المقدس: (لا تزال حكومة جنوب افريقيا تعتمد على ما جاء فى سفر التكوين الذى يصف أحد ابناء حام (وهو كنعان) بأنه عبد العبيد لتبرير سيطرتها على السود =

فاذا كان نوح عليه السلام يسكر حتى يتعرى ويبصره ابنه ، فمن هو صاحب الذنب ؟ الشخص الذى رآه دون ان يوجد ما يشعر أنه تعمد تلك الرؤية أم الذى سكر حتى تعرى ؟ ولماذا يلعن نوح عليه السلام كنعان بن حام والذى ابصره هو حام؟ وليس من العدل ان يؤاخذ الابن بذنب الاب ، فكيف ولا ذنب ؟ وهذا التصرف لا يناسب مكانة النبوة ولا يليق بصاحبها .

٢ — وابراهيم عليه السلام صورته الاسفار بصورة تشمئز منها النفس السليمة وتأباها المروءة والكرامة ، فضلا عن النبوة . فلقد ذهب الى مصر مع زوجته وقال لها (انى قد علمت انك امراة حسنة المنظر فيكون اذا رآك المصريون انهم يقولون : هذه امراته فيقتلوننى ويستبقونك ، قولى : انك اختى ليكون لى خير بسببك ، وتحيا نفسى من اجلك)(١) . ورأى المصريون ان المرأة جميلة فذكروا ذلك لفرعون فأخذها زوجة له ، وصار لابراهيم بسببها غنم وبقر وحمير وجمال وغيرها ، ثم لما علم فيما بعد انها زوجة ابراهيم وليست اخته عاتبه قائلا : (ما هذا الذى صنعت بى ، لماذا لم تخبرنى أنها امراتك ؟ لماذا قلت : هى اختى حتى اخذتها لى لتكون زوجتى ؟ والان هوذا امراتك خذها واذهب)(٢)

وهكذا تصور الاسفار هذا النبى الكريم بصورة من يجعله الخوف والطمع يرضى ان يفرط فى عرضه ، وان تكون زوجته لغيره ، ثم يعيدها له مرة أخرى ، وتجعل فرعون الوثنى فى موقف اسمى وأنبل واكرم من موقف ابراهيم - حاشاه من ذلك - .

= واذلالهم) .

النبوة والانبياء فى اليهودية والمسيحية والاسلام ، للمهندس احمد عبد الوهاب : ٣١ .

(١) التكوين : ١٢/ ١١ - ١٣ .

(٢) التكوين : ١٢/ ١٨ - ١٩ .

ثم يمارس ابراهيم التجربة نفسها ، بعد ان رحل عن مصر الى الجنوب وسكن بين قادش وشور ، فقال عن سارة انها اخته ، فأخذها ملك جرار زوجة له ، لولا ان الله منعه منها عندما تراءى له فى المنام ، وقال له انت ميت من اجل المرأة التى اخذتها ، فقال ملك جرار له : (يا سيد أمة بارة تقتل . ألم يقل هو لى أنها اختى ؟ . وهى أيضا نفسها قالت هو أخى بسلامة قلبى ونقاوة يدى فعلت هذا . فقال له الله فى الحلم : أنا أيضا علمت أنك بسلامة قلبك فعلت هذا . وأنا ايضا امسكتك عن ان تخطىء الى . لذلك لم ادعك تمسها . فالان رد امرأة الرجل فانه نبى فيصلى لاجلك فتحيا) (١) ثم جعلوا الملك الوثنى فى صورة الشهم صاحب المروءة الذى يعاتب ابراهيم عليه السلام فيقول له : (ماذا فعلت بنا ، وبماذا اخطأت اليك حتى جلبت على وعلى مملكتى خطيئة عظيمة . اعمالا لا تعمل عملت بى) (٢) .

٣ — ومثل ما نسبت الاسفار لابراهيم نسبت لاسحاق عليهما السلام ، فقد روت عنه أنه تزوج امرأة حسنة المنظر اسمها رفقة ، وسكن فى ارض جرار ، (وسأله اهل المكان عن امرأته ، فقال هى اختى . لانه خاف ان يقول : امرأتى ، لعل اهل الارض يقتلوننى من اجل رفقة ، لانها كانت حسنة المنظر . وحدث اذ طالت له الايام هناك ، ان ابيمالك ـ ملك الفلسطينيين ـ أشرف من الكوة ونظر واذ اسحاق يلاعب رفقه . فدعا ابيمالك اسحاق . وقال : له انما هى امراتك ، فكيف قلت هى اختى . فقال له اسحاق : لانى قلت لعلى اموت بسببها ، فقال ابيمالك : ما هذا الذى صنعت بنا ، لولا قليل لاضطجع أحد الشعب مع امرأتك وجلبت علينا ذنبا ، فاوصى ابيمالك جميع الشعب قائلا : الذى يمس هذا الرجل وامراته موتا يموت) (٣)

---

(١) التكوين : ٢٠ / ٤ - ٧ .

(٢) التكوين : ٩ / ١٠ .

(٣) التكوين : ٢٦ / ٧ - ١٦ .

وهكذا جعلوا اسحاق عليه السلام ـ شأن فعلهم مع ابيه ابراهيم عليه السلام ـ فى مقام من يجعل حياته فوق عرضه ، وجعلوا الملك الوثنى فى هذا الموقف الرفيع المشرف .

٣ — تنسب الاسفار للوط عليه السلام ما هو اعظم مما سبق ، اذ تزعم ان ابنتيه قد سقتاه خمرا ، فزنا بابنته الكبرى ثم بابنته الصغرى ، وحملت كل منهما بولد ، فسمى ابن الاولى موءاب وهو أبو الموآبيين ، وسمى ابن الثانية (ابن عمى) وهو ابو بنى عمون (١) .

٤ — وتنسب الاسفار ليعقوب الخداع والكذب والاحتيال لاخذ حق الغير فتزعم أن اسحاق لما شاخ وكلت عيناه عن النظر طلب الى عيسو أخى يعقوب ان يذهب ويتصيد له صيدا حتى يأكل وتبارك نفسه عيسو قبل أن يموت، فذهب عيسو ليصطاد كما طلب منه أبوه ، ولكن رفقة أم يعقوب عليه السلام سمعت ما قاله اسحاق لعيسو ، فاتفقت مع ابنها يعقوب عليه السلام ان يحضر جديين لتصنعهما طعاما لاسحاق ويقدمهما له يعقوب على انه عيسو فيباركه بذلك، وامعانا فى التمويه قامت بإلباسه ملابس عيسو ، ووضعت على يديه وملاسة عنقه جلود الجديين ، لانه كان املس ، وكان عيسو أشعر . (فدخل الى ابيه وقال : يا أبى ، فأجاب هأنذا من أنت يا بنى ؟ فقال يعقوب لابيه : انا عيسو بكرك ، قد فعلت كما كلمتنى ، قم واجلس وكل من صيدى حتى تباركنى نفسك ، فقال اسحاق لابنه : ما هذا الذى أسرعت لتجد ؟ فقال : ان الرب الهك قد يسر لى ، فقال اسحاق ليعقوب : تقدم لاجسك انت هو ابنى عيسو أم لا ؟ فتقدم يعقوب لاسحاق أبيه فجسه وقال : الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو ولم يعرفه لان يديه مشعرتين كيدى عيسو ، فقال له : هل أنت هو ابنى عيسو ؟ فقال : أنا هو فأكل اسحاق وشرب ، وقال

---

(١) انظر التكوين : ١٩ / ٣٠ - ٣٨ .

لابنه : تقدم وقبلني ففعل فشم رائحة ثيابه واعتقد منها أنه عيسو ، فدعا له وباركه قائلا : فليعطك الله من ندى السماء ومن دسم الارض ، وكثرة حنطة وخمر ، لتستعبد لك الشعوب وتسجد لك قبائل ، كن سيدا لاخوتك وليسجد لك بنو أمك ليكن لاعنوك ملعونين ومباركوك مباركين) (١)

وتحكي الاسفار عن يعقوب ايضا انه طبخ طعاما فجاء عيسو من الحقل وقد أعيا ، فطلب عيسو من يعقوب أن يطعمه ، فاشترط عليه يعقوب أن يبيعه باكوريته فباعه (٢) . وللبكورية شأن كبير عند اليهود ، فللبكر حصة اثنين من اخوته الذكور .

وهذا انما يدل على صورة الغلظة والحرص على الدنيا التي ارادوا ان يلصقوها بيعقوب .

ونسبت أيضا له الاحتيال على خاله لابان ، وكان يخدمه فاشترط عليه أن اجرته كل شاة بلقاء ورقطاء من المعزى من كل مولود الغنم وكل شاة سوداء من الخراف ، فاستسهل لابان شرط يعقوب ، فما كان من يعقوب الا ان يصنع "قضبانا" للغنم التي (تتوحم) حسب تعبير التوراة ، فتلد له ما يريد مخططات رقطاء وبلقاء ، حتى اتسع يعقوب كثيرا واصبح له غنم كثيرة وجوار وعبيد وجمال وحمير ، وضعفت غنم خاله لابان . ثم هرب يعقوب فلحقه خاله وتحكي التوراة ان الرب كلم لابان أن يحترز من ان يكلم يعقوب بخير أو شر (٣).

وهكذا وصفت يعقوب عليه السلام بالاحتيال على خاله واختلاس اغنامه وان الرب

---

(١) التكوين : ٢٧ / ١ - ٣٠ .

(٢) انظر التكوين : ٢٥ / ٢٨ - ٣٤ .

(٣) التكوين : ٣٠ / ٢٥ - ٤٢ ، ٣١ / ٢٦ - ٢٩ . وانظر التوراة : العقل والعلم والتاريخ : ٥٢ - ٥٧ ، اليهودية لاحمد شلبي : ١٦٦ - ١٦٩ .

ساعده في ذلك وكلم لابان يحذره ان يكلم يعقوب .

٦ — ونسبت التوراه لهارون عليه السلام عبادة الاصنام ، فانها تزعم ان بني اسرائيل لما صعد موسى عليه السلام للجبل ليأخذ التعاليم من اللّه تعالى ، ورأى بنو اسرائيل انه قد ابطأ في الجبل (اجتمع الشعب على هارون وقالوا له قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا . لان هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من ارض مصر لا نعلم ماذا أصابه . فقال لهم هارون : انزعوا اقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتوني بها . فنزع كل الشعب اقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا بها الى هارون . فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالازميل وصنعه عجلا مسبوكا . فقالوا : هذه الهتك يا اسرائيل التي أصعدتك من ارض مصر . فلما نظرهارون . بني مذبحا أمامه ونادى وقال : غدا عيد للرب) (١) .

وهكذا تبلغ الجراءة ببني اسرائيل ان يصفوا نبي اللّه هارون عليه السلام بالردة والكفر .

٧ — وداود عليه السلام تدعي التوراة انه رأى امرأة احد قواده واسمه اوريا وكانت امرأة جميلة المنظر فاعجبته ، فأرسل اليها وزنا بها ، كل هذا وزوجها مشغول بالحرب ، فحملت منه واخبرته بذلك ، فأرسل في طلب أوريا فلما جاءه سأله عن الحرب وعن يوءاب ، ثم طلب اليه ان يذهب ليبيت مع زوجته ، حتى تضيع بذلك معالم الجريمة ، لكنه لم يذهب لبيته ونام بباب داود ، فلما علم داود بذلك سأله لماذا لم يذهب لبيته؟ فقال كما جاء في الاسفار : (ان التابوت واسرائيل ويهوذا ساكنون في الخيام وسيدي يوءاب (القائد الاعلى للجيش) وعبيد سيدي نازلون على وجه الصحراء ، وأنا آتي الى بيتي لأكل واشرب واضطجع مع امراتي وحياتك وحياة نفسك لا أفعل هذا

---

(١) الخروج : ٣٢ / ١ - ٦ وانظر السفر نفسه ٤ / ١٥ - ١٦

الامر) (١) .

فماذا كان جزاء هذا الموقف الكريم من أوريا ؟ وما وقع هذا الوفاء للّه ثم للوطن والقائد ورفاق السلاح الذى أبداه أوريا أمام داود ؟

تروى الاسفار ان داود حمّل القائد أوريا رسالة الى يوءاب ، يقول له فيها : (اجعلوا أوريا فى وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت) (٢) ونفذ يوءاب وصية داود ، وقتل أوريا ، وضم داود المرأة الى نسائه .

وهكذا يكون فعل النبى داود عليه السلام - حاشاه من ذلك - مع رجل من خيرة قواده ، وبهذا يكون من النبى ما يتورع عنه كل صاحب خلق أو دين على حين يكون من أوريا الذى هو واحد من عامة الناس ، هذا الموقف النبيل الوفى ،

ولم يقف الامر عند هذا ، فانهم زعموا أن هذه المرأة هى التى انجبت سليمان عليه السلام (٣) ، وبهذا يجعلون سليمان عليه السلام ابن زانى وابن زانية .

وبعد هذا ينسبون للّه انه يقول عن داود : (أنا اكون له أبا وهو يكون لى ابنا) (٤) . وتقول المزامير على لسان داود : (انى اخبر من جهة قضاء الرب قال لى : انت ابنى انا اليوم ولدتك) (٥) .

٨ — وسليمان عليه السلام نسبت له الاسفار مخالفة امر الرب ، بالزواج من

---

(١) صموئيل الثانى : ١١/١١ - ١٢ ،

(٢) السفر نفسه : ١١/١٥ ،

(٣) السفر نفسه : ١٢/ ٢٤ ،

(٤) السفر نفسه : ٧/١٤ ،

(٥) المزامير : ٢/٧ ،

الامم التي نهى الله بني اسرائيل عن الدخول اليهم ومخالطتهم ، ونسبت له عمل الشر وبناء معابد للالهة الوثنية التي كانت تعبدها نساوءه ، ومال قلبه الى هذه الالهة وقالوا : ان الله تراءى له مرتين ، وأوصاه ان لا يتبع الهة أخرى ، غير انه رغم ذلك لم يمتثل .

(واحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون ، موءابيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحيثيات . من الامم الذين قال عنهم الرب لبني اسرائيل : لا تدخلون اليهم ولا هم يدخلون اليكم ، لانهم يميلون قلوبكم وراء الهتهم . فالتصق سليمان بهوءلاء بالمحبة . وكانت له سبعمائة من النساء السيدات وثلاثمائة من السراري ، فأمالت نساوءه قلبه . وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء الهه أخرى ، ولم يكن قلبه كاملا مع الرب كقلب داود ابيه . فذهب سليمان وراء عشتورت الاهة الصيدونيين وملكوم رجس العمونيين . وعمل سليمان الشر في عيني الرب ، ولم يتبع الرب تماما كداود ابيه . حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس الموءابيين على الجبل الذى تجاه أورشليم ، ولمولك رجس بني عمون . وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتي كن يوقدن ويذبحن لالهتهن . فغضب الرب على سليمان لان قلبه مال عن الرب اله اسرائيل الذى تراءى له مرتين . وأوصاه في هذا الامر ان لا يتبع الهة أخرى فلم يحفظ ما اوصى به الرب) (١) .

ثم تذكر الاسفار ان الله توعده على عمله هذا ، ان يمزق مملكته ولكن ليس في زمانه من اجل ابيه داود ، وانما يمزقها بعد موته (٢) .

وما ادرى العجب من النبي الذى يرتد في آخر عمره ، ويبنى المعابد للاوثان ، ويتراءى له الله مرتين يدعوه ويحذره ، مما يرتاع له ويرتدع منه

---

(١) الملوك الاول : ١١/١ - ١٠

(٢) السفر نفسه : ١١/١١ - ١٣

ويتأثر بسببه الفساق ، فلا يستجيب أم من الرب الذى يغضب من فعل سليمان فيوقع العقوبة على غيره بعد موته ؟

تعالى الله عن ذلك ، وحاشا رسوله سليمان عليه السلام مما نسبوا له .

ثالثا : الاوامر والتشريعات

ان المعهود فى اوامر الله تعالى وتشريعاته والمتوقع لها ان تكون فى سموها وجمالها متناسبة مع مكانة الله تعالى فى النفوس وما يعتقد له من كمال ، فلا تكون اوامره الا متوخية للفضيلة ومكارم الاخلاق وداعية لسمو الروح والقلب ، ولا بد ان تكون هى فى ذاتها سببا لسعادة الانسان لا لشقائه ، وأن تكون انسانية فى نزعتها وطبيعتها ، عامة فى نظرتها ، لان البشر كلهم خلق الله ، لا يمت أحدهم لله بنسب أوصله ، كما يعترف بذلك اليهود ، الا ما حكى الله تعالى عن بعضهم من قولهم عزير بن الله - تعالى عن ذلك - . فأحبهم لله اتقاهم له .

كما ان من المعهود فيها صيانة الاعراض وستر العورات والسوءات ، وما يتبع ذلك من حفظ الانساب .

والمنتظر أيضا من دين يصدر عن الله تعالى ان يدعو للطهارة والبعد عن النجاسات والاقذار .

فهل كانت أوامر الله وتشريعاته حسبما ترويها اسفار اليهود - متمثلة لهذه المعانى وما شابهها من معان سامية ؟

ان كثيرا من هذه الاوامر تفتقد مثل هذه المعانى ، بل على العكس من ذلك تصطبغ بصبغة العنصرية والانحطاط والبعد عن الحكمة ومخالفة مكارم الاخلاق وكل معانى الفضيلة والحياء . وسنضرب لذلك بعض الامثلة :

١ — جاء فى سفر التثنية (١) :

---

(١) ٢٣ : ٢٠

(للاجنبى تقرض بربا ولكن لاخيك لا تقرض بربا لكى يباركك الرب الهك فى كل ما تمتد اليه يدك) .

فاذا وصل الحال الى الامر بالاقراض بالربا للاجنبى فاما ان يكون الربا جائزا وطيبا واما ان يكون خبيثا ومحرما ، فان كان طيبا فلماذا لا يقرض اليهودى بربا ؟ وان كان خبيثا فلماذا يأخذه من غير اليهودى ؟!

ان الامر لا يقوم على النظرة الجادة لذات الربا ، وانما يقوم على عاطفة البغض والانتقام من غير اليهودى .

٢ — جاء فى سفر التثنية توجيها لموسى وبنى اسرائيل فى حروبهم مع الامم الاخرى ، وكل علاقتهم مع الامم الاخرى انما تقوم على الحرب والصراع :

(حين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها الى الصلح . فان اجابتك الى الصلح وفتحت لك ، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك ، وان لم تسالمك بل عملت معك فحاصرها . واذا دفعها الرب الهك الى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف . واما النساء والاطفال والبهائم وكل ما فى المدينة كل غنيمتها فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة اعدائك التى اعطاك الرب الهك . هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا التى ليست من مدن هؤلاء الامم . واما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب الهك نصيبا فلا تستبق منها نسمة ما . بل تحرمها تحريما الحيثيين والاموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين ، كما أمرك الرب الهك) (١) .

فهل يمكن ان يصدر هذا التوجيه بالقتل الجماعى عن الله تعالى الذى وسعت رحمته كل شىء ؟ وهل ترتاح النفس لمثل هذا بان لا تستبقى نسمة ما ؟ وهل من العدل ان يكون مثل هذا التوجيه مما يجب ان تلتزم بـه

---

(١) ٢٠ / ١٠ - ١٨

البشرية فى كل أمصارها وأعصارها ؟

اننا نقطع ان مثل هذا التوجيه اما ان يكون مما اخترعه اليهود واضافوه الى دين الله ، أو هو توجيه قصد به فترة تاريخية معينة كان الله تعالى يعلم من حالها ما استدعى أن يشرع لها مثل هذا التشريع .

٣ — جاء فى سفر التثنية (١) :

(اذا سكن أخوة معا ، ومات واحد منهم ، وليس له ابن ، فلا تصر امرأة الميت الى خارج لرجل اجنبى . أخو زوجها يدخل عليها ويتخذها لنفسه زوجة ، ويقوم لها بواجب أخي الزوجة . والبكر الذى تلده يقوم باسم اخيه الميت لئلا ينمحى اسمه من اسرائيل .

وان لم يرض الرجل أن يأخذ امرأة أخيه تصعد امراة أخيه الى الباب الى الشيوخ ، وتقول : قد أبى اخو زوجي أن يقيم لاخيه اسما فى اسرائيل لم يشأ أن يقوم لى بواجب أخي الزوج . فيدعوه شيوخ مدينته ويتكلمون معه فان أصر الرجل وقال : لا ارضى أن أتخذها . تتقدم امرأة أخيه اليه امام أعين الشيوخ ، وتخلع نعله من رجله ، وتبصق فى وجهه ، وتصرخ وتقول: هكذا يفعل بالرجل الذى لا يبنى بيت أخيه . فيدعى اسمه فى اسرائيل بيت مخلوع النعل) .

هل هذه الاسرة التى تبنى على هذا الاساس تكفل السعادة للرجل والمرأة ، وتليق بانسانية الانسان ؟ ثم أى نوع من الجراءة والوقاحة تلزم هذه الشريعة المرأة به .

ان من أهم الضرورات التى تحافظ عليها الاديان هى الاعراض وما يترتب على ذلك من حفظ الانساب ، أم أن يموت الرجل عن زوجته ثم يدخل بها رجل آخر اخو الزوج كان أم غيره فتحمل من هذا الرجل الجديد ، ثم

---

(١) ٢٥ / ٥ - ١٠

ينسب الابن للميت فهذا مما يخالف الحقيقة ، ويثلم الشرف والمروءة (١) .

٤ — جاء في سفر حزقيا ل(٢) : ان رب اسرائيل امره بأمر في غاية الغرابة - وما أكثر الغرائب والعجائب في هذه الاسفار - لقد امره ان يخلط طعامه ببراز الانسان (وتأكل كعكا من الشعير على الخرء الذى يخرج من الانسان تخبزه امام عيونهم ؛ وقال الرب : هكذا يأكل بنو اسرائيل خبزهم النجس بين الامم الذين اطردهم اليهم) ولكن حزقيال يتوسل اليه فيخفف عليه ، يقول (فقال لى (الرب) قد جعلت لك خثى البقر (يريد روثها) بدل خرء الانسان)

ان هذا يخالف ما هو منتظر في دين ينتسب لله من حث على الطهارة والنظافة ، والبعد عن النجاسة . (٣)

٥ — ومن الغرائب أيضا ما جاء في سفر اشعياء(٤) : أن الرب امره ان يسير عارى الجسد تماما ثلاث سنوات ومدح اشعياء على فعله ذلك .

(تكلم الرب عن يد اشعياء بن آموص قائلا : اذهب وحل المسح عن حقويك (وهى لباسه الوحيد) واخلع حذاءك عن رجليك ففعل هكذا ومشى معرى وحافيا ، فقال الرب : كما مشى عبدى اشعياء معرى وحافيا ثلاث سنوات آية وأعجوبة على مصر وعلى كوش هكذا يسوق ملك اشور سبى مصر وجلاء كوش الفتيان والشيوخ عراة وحفاة ومكشوفى الاستاة خزيا لمصر) .

هكذا يجعل من اوامر الدين وافعال الطائعين كشف العورات والسوءات

---

(١) راجع ص ٤٨، ٤٩ من هذه الرسالة .

(٢) ٤/١٢ - ١٥ .

(٣) اين هذا من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الطهور شطر الايمان)) رواه مسلم في الطهارة ١ : ٢٠٣ ، ونحوه عن الترمذى في الدعوات ٥ : ١٩٧ .

(٤) ٢٠/ ٢ - ٤ .

لا سترها .

ثم يكون هذا التعرى وكشف السوءات خزيا لمصر ، وآية واعجوبة يمـــدح اشعياء بفعله اياها ، وذلك مما يسقط هيبة الاوامر الدينية من النفوس .

٦ — ومن هذه الغرائب العجائب ان يكون اول امر الهى يكلم الله به هوشع ان يعاشر امراة زانية ، وان يتخذ اولاد زنا ، معللا ذلك بأن الارض كلها قد زنت .

يقول سفر هوشع (١) : (أول ما كلم الرب هوشع ، قال الرب لهوشـــع : اذهب خذ لنفسك امرأة زنا واولاد زنا لان الارض قد زنت تاركة الرب .

فذهب وأخذ جومر بنت دبلايم فحبلت وولدت له ابنا ، ثم حبلت وولدت له بنتا)

فماذا ينتظر من النبوة من الفضائل اذا كان أول اوامرها أن يقارف النبى الزنا ؟

ومتى كانت أوامر الله تعالى لانبيائه اذا انتشر المنكر أن يكونوا مـــــن جنده واعوانه ومرتكبيه فيطلب للنبى ان يزنى اذا كانت الارض قد زنت تاركـة امر الله ؟ أو ليس من مهمة الانبياء اصلاح المنكر ومحاربته ؟

وجاء فى السفر المذكور (٢) :

(وقال الرب لى اذهب ايضا احبب امرأة حبيبة صاحب وزانية كمحبـــة الرب لبنى اسرائيل وهم ملتفتون الى الهة أخرى) .

٧ — فى حالة شك الرجل بخيانة زوجته ، فان سفر العدد (٣) يحـــدد الطريقة التى يمكن ان تحدد بها براءة المرأة او ادانتها ، وتتلخص هـــذه

---

(١) ١/٢ - ٦ .

(٢) ٣/١ .

(٣) ٥ : ١١ - ٢٨ .

الطريقة ،بأن الرجل اذا شك فى خيانة زوجته ـ ولو مجرد شك ـ فعليه أن يذهب الى الكاهن ، ويكشف له عما فى نفسه ، والكاهن يقوم بدعوة الزوجة ويطلب اليها ان تقدم له قربانا ، هو عبارة عن دقيق شعير ، فيحضر الكاهن ماء ، يسميه الماء المقدس ، ويضعه فى اناء خزفى، ويضع عليه من تراب المعبد ثم يكشف راس الزوجة المتهمة ، ويسقيها من هذا الماء المترب ، ويحرق دقيق الشعير المقرب على المذبح ، ويحلفها الكاهن بحلف اللعنة ، ويدعو عليها باللعن وسقوط الفخذ وورم البطن ، ويكتب هذه اللعنات فى الكتاب ثم يمحوها بالماء ، ويسقى المرأة ماء يسميه ماء اللعنة . كل ذلك بقصد اختبارها فانهم يزعمون انها ان كانت بريئة لا يصيبها اذى ، وان كانت خائنة يتورم بطنها وتسقط فخذاها ، فتصير امرأة ملعونة وسط شعبها .

فهل يمكن للعقل ان يطمئن ويرتاح لهذه الصورة من صور تبرئة المرأة أو اثبات الجريمة ضدها فى مسألة حساسة كمسألة العرض ؟

ألا يمكن للماء والتراب وما يضاف من مواد اخرى ورائحة الدقيق المحروق ان تكون هى سبب انتفاخ البطن والاصابة بالمرض ؟

واذا كانت المرأة بريئة فما ذنبها حتى تدخل هذا الاختيار المؤذى والذى ربما كلفها حياتها أو صحتها ؟

وبهذا يظهر بعد هذه التشريعات عما يتوقع للتشريع الالهى من حكمة .

رابعا : الوقائع والقصص :

حوت اسفار العهد القديم كثيرا من الوقائع وسردت كثيرا من القصص التى لا يليق بكتاب ينسب الى الله تعالى وانبيائه ، ان يحويها ، اما لم تدل عليه من معان يتنزه الله عنها ، ولا يليق نسبتها للانبياء ، واما لان الافاضة فى مثل هذه القصص مما لا يتناسب مع السمو الذى يليق بالكتاب المقدس ؟ واما لان سمات الخرافة والاختلاق واضحة عليها ، واما لغير ذلك من امور لا ينتظر ان يحويها كتاب مقدس .

١ ـ كثرة رواياتها للمذابح :

تروى الاسفار المقدسة لليهود كثيرا من المذابح البشعة ، التى أقامها ملوك اليهود لاعداء اليهود ، وفى هؤلاء الملوك انبياء ، ومن هذه المذابح ما يرويه سفر يشوع عن مذبحة اريحا (١) التى اقامها يشوع بن نون ، وقتل بها بحد السيف جميع الرجال والشيوخ والاطفال ، بل حتى البقر والغنم والحمير . ومذبحة مدينة عاى التى اقامها ايضا يشوع بن نون ، لما دخل المدينة ، وقتل كل ما فيها من رجال وشيوخ واطفال ، حتى لم يبق منهم شارد ولا منفلت ـ حسب تعبير العهد القديم ـ ومثلوا بجثة ملكهم ، وقتل فيها اثنى عشر الفا ، هم جميع سكان المدينة ، واحرق المدينة بكاملها .(٢) وكذلك فعل يشوع بشعب ومدينة مقّيدة (٣) ، وحرق مدينتهم ، وبشعب لبنة وملكهم (٤) ، و بشعب لخيش وملكهم (٥) ، وبشعب جازر وملكهم (٦) ، وبشعب عجلون وملكهم (٧) ، وبشعب حاصور وملكهم (٨) . ومجازر كثيرة غيرها يرويها هذا السفر .

فهل يليق بكتاب مقدس أن يروى مثل هذه الافعال المنكرة ، التى تدل على مبلغ الحقد والكراهية والقسوة التى تملأ نفوس مرتكبيها ، فيرويها

---

(١) ٦/١٧ - ٢٤

(٢) يشوع ٨ / ١٨ - ٢٩

(٣) السفر نفسه : ١٠/٢٨ - ٣٠

(٤) السفر نفسه : ١٠/٣٠

(٥) السفر نفسه : ١٠/٣١ - ٣٢

(٦) السفر نفسه : ١٠/٣٣

(٧) السفر نفسه : ١٠/٣٤ - ٣٥

(٨) السفر نفسه : ١١/١١

مستحسنا لها ؟

٢ ــ ما أكثر ما تروى التوراة قصص الزنا ، فراوبين أكبر اسباط اسرائيل زنا بزوجة أبيه يعقوب بلهة (١) . ودينة ابنة يعقوب عليه السلام زنا بها ابن رئيس البلد الذى خيم فيه اسرائيل (٢) . ويهوذا بن يعقوب زنا بارملة ابنه المرشحة للزواج من ابنه الاخر شيلة ، وهو يظنها زانية ، فولدت له فارض وزارح (٣) . وامنون بن داود زنا باخته ثامار ، بعد ان اعد مع ابن عمه يوناداب بن شمعى خطه للتمكن من ذلك ، تتضمن التظاهر بأنه مريض وطلب لابيه ان تأتى اخته ثامار لخدمته ، فلما جاءت اغتصبها وزنا بها ، ولم يستجب لترحمها وتوسلها اليه ، ثم بعد ذلك بغضها بغضا شديدا ، ولما علم داود عليه السلام اغتم لذلك ، ولكنه لم يفعل شيئا غير ذلك ، غير أن اخا ثامار ابشالوم بن داود غضب لفعلة امنون هذه ، وظل يتحين به الفرص حتى تمكن من قتله جزاء فعلته ، فما كان من داود عليه السلام الا ان غضب واعلنها حربا ضروسا شعواء على ابشالوم يرويها سفر صموئيل الثانى . (٤)

وكيف يسكت داود النبى على فعلة امنون التى يتورع عنها كبار الفجرة ثم يعلن الحرب على أبشالوم لثأره لكرامته ولعرض أخته ؟

هذا مع ان العهد القديم ينص (واذا اخذ رجل أخته بنت أبيه أو بنت أمه ، وراى عورتها ورات هى عورته . فذلك عار يقطعان امام أعين بنى شعبهما قد كشف عورة اخته يحمل ذنبه) (٥) .

---

(١) سفر التكوين ٣٥ : ٢٢ .

(٢) سفر التكوين ٣٤ : ١ -

(٣) سفر التكوين : ٣٨ / ١٣ - ٣٠ ، وانظر صفحة ٤٨ من هذه الرسالة .

(٤) انظر الاصحاحات ١٣ ، ١٤ ، ١٥ .

(٥) سفر اللاويين : ٢٠ / ١٧ .

فاذا كان مجرد كشف عورة الاخت يوجب الموت امام الشعب ، فلم اكتفى داود عليه السلام بالغم لا في كشف عورة الاخت فحسب بل بالزنا بها ولم غضب لقتل هذا الزاني وحارب قاتله ، وهو يستحق القتل فيما دون ذلك بكثير ؟

ومثل هذا في اسفار اليهود كثير (١)

---

(١) انظر ما سبق ص عن داود عليه السلام ، وانظر : التوراة العقل والعلم والتاريخ: ٥٩ - ٦٠ . ولقد جاء في العهد القديم وخاصة في سفر نشيد الاناشيد - ما يصبغ شفاه اجرأ الناس بحمرة الخجل مما يشكك بشكل كبير في نسبتها لله تعالى ، ولقد قال ول ديورانت عن الكتاب المقدس : (وفي هذه الكتابات الغرامية العجيبة مجال واسع للحدس والتخمين . فقد تكون مجموعة من الاغاني البابلية الاصل تشيد بذكر اشتار وتموز ، وقد تكون من وضع جماعة من شعراء الغزل العبرانيين تأثروا بالروح الهيلينية التي دخلت الى بلاد اليهود مع الاسكندر الاكبر ، لان في هذه الاغاني الفاظا مأخوذة من اللغة اليونانية ، أو تكون زهرة يهودية ترعرعت في الاسكندرية ، وقطعتها نفس محررة من ضفاف النيل ، وذلك لان العاشقين يخاطب احدهما الاخر بقوله أخي واختي كما يفعل المصريون الاقدمون . ومهما يكن اصلها فان وجودها في التوراة سر خفي ، ولكنه سر ساحر جميل . ولسنا ندري كيف غفل - أو تغافل - رجال الدين عما في هذه الاغاني من عواطف شهوانية فأجازوا وضعها بين أقوال أشعياء والخطباء) .

قصة الحضارة : ول ديورانت : المجلد الاول : الجزء الثاني : ٣٨٨

وانظر على سبيل المثال ما جاء في الاصحاح السابع من السفر المذكور.

ولقد بلغ من انحرافهم ان يعتبروا الزنا حتى في المحارم طاعة وعبادة ، فانه قد ورد في التلمود ان الولد اذا زنا بأمه الارملة فلا يؤاخذ ولا يلام بل عليه أن يستمر على ذلك حتى بعد زواجه رعاية لحق أمه ، وكذلك الاب اذا زنا بابنته التي توفي عنها زوجها فلا يلام ولا يؤخذ لانه بهذا يصون ماله عن التبذير على المومسات . الاسفار المقدسة : ٣٧ .

٣ — حوت التوراة كثيرا من القصص العجيبة التي تحمل سمات التصنع والوضع وأشبه ما تكون بالاساطير المتداولة في العصور الماضية ، بل هي الاساطير بعينها .

ومن ذلك اسطورة شمشون بن منوح الرجل الزاني صاحب القوة الكبيرة الذي قتل الف رجل بلحى حمار — حسب رواية العهد القديم — ثم احتالت عليه عشيقته حتى عرفت أن سر قوته في شعر راسه ، فتآمرت عليه مع اعدائه من الفلسطينيين وحلقت رأسه ، فلم يستطع عند ذلك أن يقاومهم لزوال قوته فقبضوا عليه وأوثقوه وخلعوا عينه ، وأخذوه يطحن في بيت السجن ، وبعد فترة ظهر شعر راسه فعادت له قوته فجاءوا اليه وأخرجوه ليلعب لهم واجتمعوا ينظرون اليه ، وكان البيت مملوءا رجالا ونساء ، وعلى السطح نحو ثلاثة الاف رجل وامرأة ينظرون له ، فهدم البناء عليه وعليهم فماتوا جميعا (١).

ولعل السينما الامريكية قد استوحت فيلم شمشون الجبار من شمشون هذا .

ومنها ايضا اسطورة يفتاح بن جلعاد ابن الزنا ، الذي طرده اخوته فسكن بعيدا عنهم ، وكان من أشد بني اسرائيل شكيمة ، فلما هاجم العمونيون بني اسرائيل ملكوه عليهم ، فانتصر على العمونيين ، وكان قد نذر ان انتصر على العمونيين أن يذبح اول من يستقبله من اهله ، فكان اول من استقبله ابنته الصغيرة والوحيدة ، فأحرقها ليصنع رائحة سرور الرب (٢) .

ومنها ايضا اسطورة ديوشيب بشبث التحكموني ، أول الابطال الذين ساعدوا داود عليه السلام في حربه ، حسبما تزعم الاسفار ، وتحكي عنه

---

(١) القضاة من ١٥/٩ الى ٣١/١٦ .

(٢) السفر نفسه : ١/١١ — ٤٠ .

العجب ، فتقول : (هو هز رمحه على ثمانمائة قتلهم دفعة واحدة) (١) .

ويعلق د / بدران محمد بدران على هذه الواقعة العجيبة فيقول :

(وهذا بالطبع شيء غريب ومستحيل الحدوث . لانه لو فرضنا أن هذا صحيحا ، وبفرض ان هؤلاء الثمانمائة رجل كانوا مقيدين بالحبال ، ورقابهم ممدودة جميعا على طاولة واحدة ، ومجهزة لهذا الامر ، فان المسافة بين اول رقبة وآخر رقبة ستكون اربعمائة مترا على الاقل . وبفرض أن الجميع كانوا من ذوى الاجساد النحيفة ـ لذا يجب على بشبث هذا ان يحمل سيفا طوله أكثر من اربعمائة متر ، فهل هذا يصدق ؟ فهل يستطيع بشبث هذا ان يحمل سيفا زنته نصف طن ، وله هذا الطول الرهيب ، دون ان يختل توازنه ، وحتى يتخيل الانسان طول هذا السيف ، لنفرض ان منزلا مكونا من مائة طابق ، وارتفاع كل طابق اربعة امتار ، فانه يلزم أن يكون طول سيف بشبث أكثر طولا من ارتفاع هذا المنزل) (٢)

ومن هذه الاساطير ايضا اسطورة ابيشاى اخو يوءاب بن صرويه الذى يقول عنه العهد القديم : (هذا هز رمحه على ثلاثمائة قتلهم) (٣) .

الى غير ذلك من الخرافات والاساطير .

ولعلنا بهذا نكون قد اوضحنا الدور الذى لعبته هذه المفاهيم السقيمة التى بدل ان تمنح الانسان تصورا صحيحا عن الالوهية والنبوة والدين بصفة عامة ، فيجد بذلك الاقتناع والثقة والطمأنينة والراحة فانها تزيده حيرة وقلقا وتساؤلا . ثم هى تعطى لدى معتنقيها جهلا مركبا بالدين ، فهو يظن ان ما يعرفه ويعتنقه هو الدين ، وان الدين لا يكون الا على هذه الصورة التى لا ترضى العقل ولا تريح القلب . بالاضافة الى كون هذه المفاهيم السقيمة حجة فى ايدى اعداء الدين على بطلانه وعدم معقوليته .

---

(١) صموئيل الثانى : ٢٣/ ٨ - ٩

(٢) التوراة العلم والعقل والتاريخ : ٩٩

(٣) صموئيل الثانى : ٢٣/ ١٨

الفصل الثانى

تحريف النصرانية

وفيه :-

تدوين أسفار العهد الجديد ونقلها

التناقض والتضارب فى كتب العهد الجديد

أثر الوثنية فى الديانة النصرانية

ان الكتب المقدسة ـ كما سبق ان قلنا هى عماد الدين وأساسه وكليته . وعلى قدر ما يقوم من أدلة وبراهين على كونها وحيا من عند الله أولا ، ثم حفظها وسلامته من التحريف والضياع ثانيا ، يمكن اعتبار الدين صحيحا أم غير صحيح . والمسلمون مؤمنون برسالة عيسى وان الله تعالى قد انزل عليه كتابا من عنده هو الانجيل . ولكن هل نقل الينا الانجيل وسائر ما هو منسوب الى عيسى عليه السلام من تعاليم نقلا متواترا أو على الاقل متصلا صحيحا ؟ فينتظر منه عند ذلك ان يكون شافيا للانسان من كل علله النفسية، مريحا له محققا للسعادة والطمأنينة والعدل، مجنبا اياه كل ما لا يليق به ، لانه عند ذلك يكون صادرا عن علم الله المحيط بكل ما يصلح الانسان ويصلح له. اما ان الامر على خلاف ذلك فيما يتعلق بالطريق الذى نقلت بواسطته الكتب والتعاليم المقدسة للمسيحية فلا ينتظر منه عند ذلك الا التخبط والاضطراب والضرب على غير هدى ؟ وهل تقوم الشواهد العقلية والعلمية والتاريخية على صحة هذه التعاليم وصحة الكتب التى تصدر عنها فى عقائدها وشرائعها ؟

والاناجيل ولا شك هى اساس النصرانية ومصدرها ، فما نصيبها من سلامة النقل وصحة السند ؟

ان من الواضح على الرغم من دعوى الكنيسة صحة النسبة بين هذه الاناجيل ومن نسبت اليهم ، أنها لا تملك اى سند يوضح الصلة بين هذه الاناجيل ومن نسبت اليهم ، ولا معرفة لديها اصلا برواتها . وان عقبات كثيرة وكبيرة تقف امام صحة هذه النسبة ، وقد وضع كثير من الباحثين المسيحيين انفسهم أيديهم على كثير من هذه العقبات . وانكروا بالتالى صحة هذه النسبة .

ولم يكن هذا الانكار وليد هذا العصر ، أو قبله بقليل ، بل هو قائم منذ القرون الاولى للمسيحية . فالفرقة الابيونية من فرق المسيحية فى القرن

الاول ، وكانت معاصرة لبولص منكرة عليه ومتهمة له بالردة والكفر ، لم تكن تسلم من كل كتب العهد الجديد الا انجيل متى ، مع حذف بعض الابواب ومخالفة فى مواضع كثيرة لانجيل متى الموجود عند غيرهم (١) .

وكانت فرقة مارسيونى - وهى ايضا من الفرق القديمة للمسيحية - تقول عن جميع كتب العهد الجديد انها غير الهامية ، ولا يقبلون عنها الا انجيل لوقا وعشرة رسائل من رسائل بولص ، مع حذف لبعض ابواب هذه الرسائل ومخالفة فى كثير من مضامين هذه الكتب عن مثيلتها الموجودة عند غيرهم(٢).

وكان فاستس - الذى هو اعظم علماء فرقة مانى كيز - يصيح فى القرن الرابع الميلادى (بأن هذا الامر محقق ، أن هذا العهد الجديد ما صنفه المسيح ولا الحواريون ، بل صنفه رجل مجهول الاسم ، ونسب الى الحواريين ورفقاء الحواريين ليعتبره الناس ، وآذى المريدين ايذاء بليغا بأن الف الكتب التى فيها الاغلاط والتناقضات) (٣)

وكان سلوس من علماء الوثنية فى القرن الثانى ينكر صحة نسبة الاناجيل ويقول : (بدل المسيحيون اناجيلهم ثلاث مرات او اربع مرات ، بل أزيد من هذا تبديلا كأن مضامينها قد بدلت) (٤) .

ويمكن ملاحظة عقبات كثيرة فى طريق اثبات نسبة كل انجيل لمن نسب له وسنتكلم عن كل واحد منها .

اولا : انجيل متى .

تنسب الكنيسة هذا الانجيل لاحد حوارى عيسى عليه السلام الاثنى

---

(١) اظهار الحق ١ : ٢٨٨ - ٢٨٩ .

(٢) المصدر السابق : ١ : ٢٨٨ - ٢٨٩ .

(٣) المصدر السابق : ١ : ٧٨ .

(٤) المصدر السابق : ١ : ٢٨٤ - ٢٨٥ .

عشر ، وهو متى العشار . وجمهور النصارى من المتقدمين والمتأخرين على أن متى كتب هذا الانجيل باللغة العبرية (١) . غير ان هذا الاصل قد فقد بسبب تحريفه ، وان الموجود منه انما هو ترجمة له لليونانية ، اما من هو صاحب هذه الترجمة ومتى حصلت وأين حصلت ؟ فليس هنالك جواب قاطع على هذه الاسئلة .

على ان الباحث المسيحي لاردنر يقول : (ان متى كتب انجيله بالعبرانية ، وترجمه كل واحد على قدر لياقته) (٢) . ومعنى هذا أن كثيرين قد قاموا بعمل ترجمات لهذا الانجيل تختلف في جودتها وضعفها اما من هم هؤلاء المترجمون ؟ ومن هو صاحب الترجمة التي تبنتها الكنيسة بعد ذلك فأصبحت متداولة فلا يعرف ذلك يقينا .

وقال جامعو تفسير هنرى واسكات : (سبب فقدان النسخة العبرانية أن الفرقة الابونية التي كانت تنكر الوهية المسيح حرفت هذه النسخة وضاعت بعد فتنة اورشليم . وقال البعض : ان الناصريين أو اليهود الذين دخلوا في الملة المسيحية حرفوا الانجيل العبرانى . واخرجت الفرقة الابونية فقرات كثيرة منه) (٣)

ولا يخفى اثر فقدان الاصل على الثقة بصحة الترجمة ومن ثم تعذر التأكد من سلامة الترجمة ودقتها ، وكان الامر يهون لو أن المترجم شخصية معروفة ، فيمكن حينئذ التأكد من كونه ثقة ومن كونه متقنا لما يترجم وعارفا باللسانين العبرى واليونانى ، بل ان جهلنا بزمان الترجمة ايضا يزيد المسألة تعقيدا ويجعلنا نتشكك في كونها حصلت قبل تحريف الابيونية لهذا الانجيل أم بعده ؟

---

(١) انظر نقول صاحب اظهار الحق عن النصارى اعترافهم ان هذا الانجيل انما كتب بالعبرية ١ : ٢٧٧ - ٢٨١

(٢) المصدر السابق ١ : ٢٧٧

(٣) المصدر السابق ١ : ٢٧٩

وقد ادى كل ذلك الى انكار كثير من الباحثين لصحة هذا الانجيل فان فاستس من علماء فرقة مانى كيز فى القرن الرابع الميلادى قال : (ان هذا الانجيل المنسوب الى متى ليس من تصنيفه) (١) . وقال البروفسور الجرمنى : (ان هذا الانجيل كله كاذب) (٢) .

وكان كثير من المسيحيين مثل فرقة مارسيونى والفرقة الابيونية وفرقة يونى والقسيس وليمس يردون البابين الاولين فى هذا الانجيل ، وكان نورتن يرد اكثر مواضعه (٣) .

ويرى فنتون عميد كلية اللاهوت بانجلترا (ان ربط هذا الانجيل بمتى تلميذ المسيح انما هو محض خيال) (٤)

ويقول ول ديورانت : (وان النقاد يميلون الى القول بأنه من تأليف أحد اتباع متى ، وليس من أقوال العشار نفسه) (٥) .

ولم تزل قضية ضياع اصل هذا الانجيل والتشكك فى صحة الترجمة المتداولة قائمة على مر العصور، حتى يذكر المؤرخون (ان البابا نيقولا الخامس (١٤٤٧ - ١٤٥٥) قد رصد مكافأة كبيرة لمن يعثر على النص العبرى الاصلى لانجيل متى) (٦)

كما ان هذا الانجيل لا يظهر من أسلوبه وطريقته فى سرد الاحداث أن كاتبه يصف حالات شاهدها بنفسه ، وسمعها باذنه ، فانه دائما يعبر عما يفترض ان يعبر فيه عن نفسه فيما لو كان هو الذى شاهد الاحداث، يعبر

(١ ، ٢ ، ٣) المصدر السابق ١ : ٢٨١

(٤) تفسير انجيل متى : ١٣٦، عن المسيح فى مصادر العقائد المسيحية لاحمد عبد الوهاب : ٥٨

(٥) قصة الحضارة : الجزء الثالث من المجلد الثالث : ٢٠٨

(٦) عصر النهضة : ٧١

فيه بضمير الغائب مما يدل على أنه لم يشاهد ذلك ، وانما يرويه عن غيره .

وهناك ايضا اختلاف واسع حول تاريخ تدوين هذا الانجيل .

فصاحب كتاب مرشد الطالبين الى الكتاب المقدس الثمين يرى انه كتب قبل خراب اورشليم ، وقبل كتابة الاناجيل الثلاثة الاخرى ، ويقول : (ولا يمكن الجزم في اية سنة كتب كل منهم انجيله بعد صعود المخلص ، لانه ليس عندنا نص الهى على ذلك) (١) .

فهو بهذا يجزم بعدم امكانية تحديد عام معين لكتابته هذا الانجيل .

ويقول ابن البطريق ان متى كتب انجيله في عهد قلوديوس (٢) .

وقلوديوس هذا انما نصب امبراطورا عام ٤١م ومات عام ٥٤م .

اما جرجس زوين اللبناني فيقول (ان كتابته كانت عام ٣٩م على ما ذهب اليه القديس ايرنيموس) (٣) .

ويقول صاحب ذخيرة الالباب : ان كتابة هذا الانجيل كانت عام ٤١م (٤) .

ويقول د/بوست في قاموس الكتاب المقدس : (ولا بد ان يكون هذا الانجيل قد كتب قبل خراب اورشليم . ويظن البعض ان الانجيل الحالي كتب بين ٦٠ - ٦٥م) (٥) .

وقال محمد فريد وجدى : (ان هذا الانجيل دون بعد عيسى بثلاثين سنة) (٦)

---

(١) انظر محاضرات في النصرانية للشيخ محمد ابى زهرة : ٥٢

(٢) المصدر السابق : ٥٢

(٣) انظر المصدر السابق : ٥٢

(٤) المصدر السابق : ٥٢

(٥) المصدر السابق : ٥٢

(٦) دائرة معارف القرن العشرين ١ : ٦٥٥

وهذا يعنى انه كتب عام ٦٣م.

وبهذا يتضح اتساع باب الخلاف فى موضوع تاريخ تدوين هذا الانجيل وانه ليس فيه الا الظن ، ولا يمكن ترجيح قول على قول ، لذلك قال هورن : (الف الانجيل الاول سنة ٣٧ أوسنة ٣٨ أوسنة ٤١ اوسنة ٤٣ أوسنة ٤٨ أوسنة ٦١ أوسنة ٦٢ أوسنة ٦٣ أوسنة ٦٤ من الميلاد) (١) .

بل ان بعض الباحثين يرجحون انه كتب بعد هذا الزمان بفترة طويلة وانه كتب فيما بين ٨٥ الى ١٠٥ م. (٢)

ثانيا : انجيل مرقس

تنسب الكنيسة هذا الانجيل ليوحنا مارقس ، وهو من أوائل من اجاب دعوة المسيح ، ومن السبعين الذى تعتقد الكنيسة أن روح القدس قد نزل عليهم بعد المسيح ، وألهموا مبادىء المسيحية ، وليس هو من الحواريين الاثنى عشر . (٣)

وقد ورد اسم "مرقس" فى العهد الجديد عدة مرات (٤) ، ومن عادة الكنيسة ان تربط جميع الاحداث التى ترتبط باسم شخص فرد كمرقس مثلا بشخصية واحدة . غير ان الباحث المسيحى " دنيس اريك نينهام " فى

---

(١) اظهار الحق ١ : ٨٠

(٢) المسيح فى مصادر العقائد المسيحية : ٦٢ .

(٣) جاء فى كتاب مروج الاخبار فى تراجم الابرار (ان مرقس واستاذه بطرس كانا ينكران الوهية المسيح). محاضرات فى النصرانية : ٥٥

(٤) ورد بلفظ " يوحنا الملقب مرقس " فى اعمال الرسل : ١٢/١٢ ، ٢٥. وبلفظ " مرقس ابنى " فى رسالة بطرس الاولى : ٥/١٣ . وبلفظ " مرقس ابن اخت برنابا " فى رسالة كولوس ٤ / ١٠ . وبلفظ مرقس فى رسالة يثموثاوس الثانية : ٤/١١ . ورسالة فليمون فقرة : ٢٤

كتابه تفسير انجيل مرقس يتشكك فى تحديد هذه الشخصية ،لان اسم مرقس كان اكثر الاسماء شيوعا فى الامبراطورية الرومانية . (١)

وهناك اختلاف آخر حول تصنيف هذا الانجيل .

فابن البطريق يذهب الى ان بطرس رئيس الحواريين قد كتب هذا الانجيل عن مرقس ، ونسبه الى مرقس (٢) ، والى هذا اشار صاحب كتاب مرشد الطالبين (٣) ، وهذا يعنى ان بطرس كتب عن مرقس ما سبق أن القاه اليه وعلمه اياه ،لان بطرس هو استاذ مرقس .

غير ان هنالك من يقول ان مرقس هذا كتب انجيله بعد وفاة بطرس كما قرره الكاتب القديم ارينيوس . (٤)

وهذا فى الحقيقة يعنى اختلافا فى حقيقة المصنف ،هل هو مرقس أم بطرس ؟

وهنالك اختلاف آخر فى زمان التأليف ،قال هورن : (الف الانجيل الثانى سنة ٥٦ أو ما بعدها الى سنة ٦٥ ،والاغلب أنه الف سنة ٦٠ أو سنة ٦٣) . (٥)

وقد أنكر بعض الباحثين المسيحيين فى القديم والحديث صحة نسبة هذا الانجيل الى يوحنا الملقب مرقس تلميذ المسيح عليه السلام ،فان بابياس الذى كان يعيش حوالى ١٣٥م قال : (ان مرقس لم يكن قد سمع يسوع ،ولا كان تابعا شخصيا له ،لكنه فى مرحلة متأخرة كما قلت اتا

---

(١) المسيح فى مصادر العقائد المسيحية : ٥٢ .

(٢) انظر الاسفار المقدسة : ٧٧ .

(٣) محاضرات فى النصرانية : ٥٥ .

(٤) المصدر السابق : ٥٦ .

(٥) اظهار الحق : ١ : ٨٠ .

- اى باباياس - من قبل قد تبع بطرس) (١) . كذلك انكر صحة هذه النسبة ا .كولمان (٢) ، وانكرها نينهام استاذ اللاهوت بجامعة لندن ورئيس سلسلة بليكان لتفسير الانجيل فى كتابه تفسير انجيل مرقس (٣) .

وبهذا فالذى يغلب على الظن ان مرقس هذا ما هو الا رجل مجهول وليس هو تلميذ المسيح .

ثالثا : انجيل لوقا .

مصنف هذا الانجيل ليس من حوارى المسيح ، ولا من تلاميذه ، ولكنه من تلاميذ بولس واحبائه ورفاقه فى تجوله كما تشير لذلك رسائل بولس (٤) ، ولم يكن من اصل يهودى ، وانما من أصل وثنى .

وهنالك كثير من الاختلافات بين الباحثين المسيحيين حول مولد لوقا هذا وصنعته ومتى كتب انجيله ولمن كتبه ؟ (٥)

فقال البعض : انه ولد بانطاكيا ، وقال غيرهم انه ولد برومانيا . وعن صناعته قال البعض : انه كان طبيبا ، وقال غيرهم : بل كان مصورا . وعن وقت تصنيفه قال هورن : (والف الانجيل الثالث سنة ٥٣ أو سنة ٦٣ أو سنة ٦٤) . (٦) وقال موريس بوكاى : (ويحدد النقاد الحاليون غالبا تحريره

---

(١) الاناجيل اصلها وتطورها : د . فريدرك كلفتن جرانت : ٧٣ - ٧٤ ،
عن المسيح فى مصادر العقائد المسيحية : ٥١ .

(٢) دراسة فى الكتب المقدسة : ٨٤ .

(٣) المسيح فى مصادر العقائد المسيحية : ٣٩ .

(٤) انظر رسالة كولوسى : ٤ / ١٤ ، رسالة ثيموثاوس الثانية : ٤ / ١١ ،
رسالة فليمون : فقرة : ٢٤ .

(٥) انظر محاضرات فى النصرانية : ٥٦ - ٥٧ .

(٦) اظهار الحق : ١ : ٨٠ .

فيما بين ٨٠ – ٩٠م . ولكن معلقين آخرين ينسبونه الى تاريخ أكثر قدما)[١].

وقد جاء في مقدمة انجيل لوقا انه يكتبه لصديقه ثاوفيلس : (رايت أنا أيضا اذ قد تتبعت كل شيء من الاول بتدقيق ان اكتب على التوالي اليك أيها العزيز ثاوفيلس) (٢) ، فمن هو ثاوفيلس هذا ؟ اختلف فيه هل هو روماني أو مصري أو غير ذلك ؟ وبهذا اختلف فيمن كتب لهم هذا الانجيل

والشيء الذي اتفق عليه الباحثون في هذا ان لوقا من تلاميذ بولس ولم يكن له أي صلة بالمسيح عليه السلام .

ولوقا هذا هو صاحب سفر اعمال الرسل الذي نجد في بعض معطياته ما يناقض ما جاء في هذا الانجيل ، فمثلا يفيد انجيل لوقا (٣) ان صعود المسيح عليه السلام قد حصل في يوم قيامته من قبره – حسبما يزعمون – وهو يوم الفصح . على حين يفيد سفر اعمال الرسل (٤)ان هذا الصعود حصل بعد ذلك باربعين يوما .

فان كان لوقا مصنف اعمال الرسل هو مصنف الانجيل فكيف يمكن ان يتناقض في هذا الامر الذي هو اساس العقيدة المسيحية ؟!!

رابعا : انجيل يوحنا

ان لهذا الانجيل اهمية كبيرة ، لان فقراته قد حوت ذكرا صريحا لالوهية المسيح التي هي اهم عقائد النصارى .

والكنيسة تنسب هذا الانجيل للحواري يوحنا بن زبدي الصياد الذي يعتقد النصارى أن المسيح عليه السلام استودعه أمه وهو على خشبة الصلب.

---

(١) دراسة في الكتب المقدسة : ٨٨

(٢) انجيل لوقا : ١ / ٤

(٣) ٢٤ / ٥١

(٤) ١ / ٣٠

غير ان كثيرا من الفرق المسيحية والباحثين المسيحيين قد رفضوا التسليم بصحة هذه النسبة واكدوا بطلانها ، وقالوا : ان مصنف هذا الانجيل رجل آخر لا تربطه بيوحنا الحوارى أية صلة . ولم يكن هذا الانكار وليد القرون المتأخرة ،بل انه معروف مشهور منذ القرن المسيحي الثاني ، حيث شاع انكار هذه النسبة في ذلك القرن ، وكان ممن عاصر هذا الانكار العالم المسيحي ارينيوس تلميذ بوليكارب الذى هو تلميذ يوحنا الحوارى ، ولم يعرف عن ارينيوس هذا ـ وقد سمع انكار نسبة هذا الانجيل ـ القول بأنه سمع من استاذه بوليكارب أن يوحنا صنف هذا الانجيل ، ولو سمع ما امكنه ان يسكت . ومن غير المقبول أن يكون ليوحنا هذا الانجيل ولا يعلم تلميذه بوليكارب ،ثم لا يعلم ارينيوس بذلك من استاذه بوليكارب (١) .

وقد كان فيمن ينكر هذا الانجيل في القرن الثاني فرقة الوجين وكانت تنكر ايضا جميع تصانيف يوحنا . (٢)

قال استادلين : (ان كاتب انجيل يوحنا طالب من طلبة مدرسة الاسكندرية بلا ريب) . (٣)

وقال المحقق برطشنيدر : (ان هذا الانجيل كله وكذا رسائل يوحنا ليست من تصنيفه ،بل صنفها احد في ابتداء القرن الثاني) . (٤)

وجاء في الموسوعة البريطانية : (أما انجيل يوحنا فانه لا مرية ولا شك كتاب مزور اراد به صاحبه مضادة اثنين من الحواريين بعضهما لبعض، وهما القديسان يوحنا ومتى ،وقد ادعى هذا الكاتب المزور في متن الكتاب انه

---

(١) اظهار الحق ١ : ٧٧

(٢) المصدر السابق ١ : ٧٩

(٣) المصدر السابق ١ : ٧٨

(٤) المصدر السابق ١ : ٧٩

الحوارى الذى يحبه المسيح ، فأخذت الكنيسة هذه الجملة على علاتها وجزمت بأن الكاتب هو يوحنا الحوارى ، ووضعت اسمه على الكتاب نصا مع ان صاحبه غير يوحنا يقينا ، ولا يخرج هذا الكتاب عن كونه مثل بعض كتب التوراه التى لا رابطة بينها وبين من نسبت اليه ، وانا لنراف ونشفق على الذين يبذلون منتهى جهدهم ليربطوا ولو بأوهى رابطة ، ذلك الرجل الفلسفى الذى الف هذا الكتاب فى الجيل الثانى بالحوارى يوحنا الصياد الجليل فان اعمالهم تضيع سدى لخبطهم على غير هدى) . (١)

وجاء فى دائرة المعارف الفرنسية المسماة لاروس القرن العشرين بعد ان ذكرت انه ينسب ليوحنا انجيل واربعة اسفار اخرى (٢) قالت : ان البحوث الدينية فى مسائل الاديان لا تسلم بقيمة هذه النسبة . (٣)

وجاء فى دائرة المعارف الامريكية ١٣ : ٧٢ : (ان هناك مشكلة هامة وصعبة تنجم عن التناقض الذى يظهر فى نواح كثيرة بين الانجيل الرابع والثلاثة المتشابهة . ان الاختلاف بينهم عظيم ، لدرجة انه لو قبلت الاناجيل المتشابهة باعتبارها صحيحة وموثوقا بها ، فان ما يترتب على ذلك هو عدم صحة انجيل يوحنا) . (٤)

وقال جون مارش فى مقدمته لتفسير انجيل يوحنا تحت عنوان استحالة التوكيد : (والمفيد ان نعترف مقدما بأنه لا توجد مشكلة للتعريف بالانجيل وكاتبه يمكن ايجاد حل موكد لها .

ومن كان هذا اليوحنا (كذا) الذى قيل انه الموءلف ؟ أين عاش؟ لمن من الجمهور كان يكتب انجيله ؟ أى المصادر كان يعتمد عليها ؟ متى

---

(١) محاضرات فى النصرانية : ٦٠ .

(٢) هى رسائل يوحنا الثلاث وروءيا يوحنا .

(٣) انظر الاسفار المقدسة : د / على عبد الواحد وافى : ٧٩ .

(٤) المسيح فى مصادر العقائد المسيحية : ٢٩ .

كتب مصنفه ؟ حول كل هذه الاسئلة وحول كثير غيرها توجد احكام متباينة احيانا تقرر تأكيدات قوية ، ومع ذلك فان أيا منها لا يرقى الى مرتبة التوكيد) ثم يختم مارش مقدمته بقوله : (وبعد ان نفرغ كل ما فى جعبتنا ، نجد انه من الصعب . ان لم يكن المستحيل ، تحقيق أى شىء أكثر من الاحتمال حول مشاكل انجيل يوحنا) . (١)

وينتهى الاب كانينجسر فى دراسته عن قيام المسيح بعد الدفن ـ حسبما يزعمون ـ الى انه ليس هناك اى كاتب للعهد الجديد سوى بولس يستطيع ان ينسب لنفسه صفة كونه شاهدا معاينا لقيامة المسيح (٢) ، هذا مع ان انجيل يوحنا يقص ظهور المسيح بعد قيامته للحواريين ، وكان يوحنا الذى ينسب له هذا الانجيل واحدا منهم .

ومعنى هذا ان الاب المذكور لا يرى ان مصنف الانجيل هو يوحنا الحوارى .

(كما ان الترجمة المسكونية للكتاب المقدس تحدد أن غالبية النقاد لا تأخذ بالفرض القائل بتحرير قام به يوحنا الحوارى ، وان كان ذلك احتمالا غير مستبعد برغم كل شىء . ولكن كل شىء يدفع للاعتقاد بأن النص المنشور حاليا ينتمى الى أكثر من كاتب واحد) . (٣)

هذا بالاضافة للاعتراضات والشكوك الكثيرة التى ثارت حول نسبة كثير من الاصحاحات والفقرات التى يحويها الانجيل المذكور الى المصنف الاول له أى كان .

---

(١) المصدر السابق : ٧٠ - ٧١

(٢) دراسة الكتب المقدسة : ٩٢ . ونسبة المعاينة لقيامة المسيح الى بولس لا يقوم عليها اى دليل الا ادعاء بولس نفسه .

(٣) المصدر السابق : ٩١

خامسا : رسائل الرسل

ليس حال هذه الرسائل بأحسن من حال الاناجيل ، بل الامر فيها اسوأ ، ونسبتها الى الحواريين لا سند لها ولا حجة تقوم عليها ، وبعضها مردود لدى بعض الكنائس الى اليوم ، وبعض فقراتها لا توجد في الترجمة السريانية .

وقد سبق الكلام في انكار رسائل يوحنا الثلاثة ورؤياه منذ القديم ، كما سبق الكلام على لوقا الذي ينسب له سفر اعمال الرسل ، وذلك حين الكلام على كل من انجيل لوقا وانجيل يوحنا .

واكثر هذه الرسائل لبولس ، فله كما هو معلوم اربع عشرة رسالة تشرح تعاليم المسيحية أكثر مما يشرحها اى سفر آخر ، ولهذا فمن المفيد هنا ان نتعرف على شخصية بولس من خلال اسفار المسيحية واقوال احبارها .
جاء في سفر اعمال الرسل على لسان بولس (١) : (انا رجل يهودى ولدت في طرسوس كيليكة ولكن ربيت في هذه المدينة) يريد اورشليم .

وكان بولس قبل ان يعلن دخوله في النصرانية - واسمه يومها شاول - من أشد اعداء المسيحية وابلغهم في الكيد لها ، وتتبع اتباعها بالقتل والتعذيب والسجن ، فقد جاء في اعمال الرسل (٢) : (واما شاول فكان يسطو على الكنيسة وهو يدخل البيوت ويجر رجالا ونساء ويسلمهم الى السجن) وفيه (٣): (واما شاول فكان لم يزل ينفث تهددا وقتلا على تلاميذ الرب فتقدم الى رئيس الكهنة وطلب منه رسائل الى دمشق الى الجماعات حتى اذا وجد اناسا في الطريق يسوقهم موثقين الى اورشليم) .

---

(١) ٢٢ / ٣

(٢) ٨ / ٣

(٣) ٩ / ١

وفى السفر نفسه يقول بولس عن نفسه (١) : (وكنت غيورا لله كما انتم جميعكم اليوم واضطهدت هذا الطريق حتى الموت مقيدا ومسلما الى السجون رجالا ونساءا . كما يشهد لى أيضا رئيس الكهنة وجميع المشيخة الذين اذ اخذت ايضا منهم رسائل الى الاخوة فى دمشق ذهبت لآتى بالذين هناك الى اورشليم مقيدين لكى يعاقبوا) .

وفجأة اعلن شاؤل انتقاله من عداوة النصرانية ومحاولة محوها من الوجود الى الدخول فيها ، بل انه اعلن ان يسوع قد ظهر له ، وانه قد اصبح رسولا من رسل المسيحية . جاء فى اعمال الرسل على لسان بولس(٢): (فحدث لى وأنا ذاهب ومتقرب الى دمشق انه نحو نصف النهار بغتة أبرق حولى من السماء نور عظيم . فسقطت على الارض وسمعت صوتا قائلا لى شاول شاول لما تضطهدنى . فاجبت من أنت يا سيد ؟ فقال لى : أنا يسوع الناصرى الذى تضطهده . والذين كانوا معى نظروا النور وارتعبوا ولكنهم لم يسمعوا صوت الذى كلمنى ، فقلت ماذا افعل يا رب ؟ فقال لى الرب قم واذهب الى دمشق وهناك يقال لك عن جميع ما ترتب لك أن تفعل).

غير ان بولس لما اتصل بتلاميذ المسيح لم يطمئنوا اليه ولم يصدقوه ، بل خافوا منه حتى شهد له برنابا .

جاء فى اعمال الرسل (٣) : (ولما جاء شاول الى اورشليم حاول أن يلتصق بالتلاميذ وكان الجميع يخافونه غير مصدقين أنه تلميذ . فأخذه برنابا واحضره الى الرسل وحدثهم كيف ابصر الرب فى الطريق ، وأنه كلمه وكيف جاهر فى دمشق باسم يسوع) .

---

(١) ٢٢/٣ - ٥

(٢) ٢٢/ ٦ - ١٠

(٣) ٩/ ٢٦ - ٢٧

ومنذ ذلك الوقت اخذ يبشر بالمسيحية ويدعو لها ، واصبح له فيها من التأثير ما جعل البعض ينسبها اليه اكثر مما ينسبها للمسيح عليه السلام .

ولم يكن منتظرا من شاول وقد ادعى ان المسيح قد ظهر له وكلمه وانه اصبح يكتب بالهام منه ان يتلقى المسيحية عن احد وان يستمع فيها لاستاذ ، وهكذا كان ، واصبح بولس هو الموءتمن على رسالة يسوع حسبما يقول (١)

غير ان رسائل بولس كثيرا ما تعبر عن شكواه من ارتداد البعض عنه ومفارقتهم له ، وشكواه من ان البعض قد اظهر له الشرور ، مما يوحي بأن صراعا كان يدور بينه وبين الاخرين . ومن ذلك قوله (٢) : (ان جميع الذين فى آسيا ارتدوا عني) . وقوله (٣) : (بادر ان تجيء سريعا لان ديماس قد تركني اذ احب العالم الحاضر وذهب الى تسالونيكى وكريسكيس الى غلاطية وتيطس الى دلماطية . لوقا وحده معى) .

وفى رسالة تيموثاوس الثانية (٤) : (اسكندر النحاس أظهر لى شرورا كثيرة ليجازه الرب حسب اعماله فاحتفظ منه أنت أيضا لانه قاوم أقوالنا جدا فى احتجاجي الاول لم يحضر أحد معى بل الجميع تركوني)

وفى رسالة غلاطية (٥) : (حتى برنابا انقاد الى ريائهم)

ونجد فى هذه الرسائل ايضا اتهاما لمن يخالفه بأن تعليمه باطل ودنس وانه كاذب ومخالف للعلم ، وان مخالفه زائغ الايمان يجب الاعراض

---

(١) انظر رسالة تيطس ١ / ٣ ، رسالة تيموثاوس الاولى ١ / ١١ .

(٢) رسالة تيموثاوس الثانية : ١ / ١٥ .

(٣) رسالة تيموثاوس الثانية : ٤ / ٩ - ١١ .

(٤) ٤ : ١٤ - ١٦ .

(٥) ٢ : ١٣ .

عنه (١) .

فما حقيقة ذلك ؟

لقد أكد الكاردينال دانيلو مستعينا بمكتشفات عصرنا فى مقال له فى مجلة دراسات بعنوان " رؤية جديدة للاصول المسيحية واليهودية ـ المسيحية" وذلك عام ١٩٦٧ : انه كان هنالك منذ غياب المسيح عليه السلام صراع بين المسيحية البولسية والمسيحية اليهودية التى كان يمثلها تلاميذ المسيح وان المسيحية اليهودية كانت هى صاحبة الفوز والغلبة حتى نصف القرن الثانى ، حيث مالت الكفة لصالح المسيحية البولسية بالتدريج .

وقد كان سبب هذا الصراع بين مجموعة الحواريين من جهة وبولس من جهة أخرى هو موضوع احلال المسيحيين الذين هم من اصل وثنى من الطهارة ومراعاة الراحة يوم السبت وديانة المعبد التى كان بولس ينظر اليها باعتبارها امورا بالية يجب التحرر منها حتى للمسيحيين الذين هم من اصل يهودى ، بينما تصر جماعة الحواريين على الالتزام بهذه الديانة .

ويكشف الكاردينال المذكور ان اليهود المسيحيين كانوا يعتبرون بولس خائنا ، وان وثائقهم كانت تصفه بالعدو ، وان بولس كان منعزلا ، وان هذه الجماعة اليهودية المسيحية كانت موجودة فى فلسطين وغيرها ، وكانت الاشارات التى اوردناها من رسائله من الشكوى من التفرق عنه والحاق الشرور به مصدرها هذا الصراع ، ويمكن ايضا ملاحظة مظاهر هذا الصراع فى شكوى بولس من القوم الذى يزعم انهم يريدون تحويل انجيل المسيح . (٢)

وقد ادى سقوط القدس ٧٠م واضطهاد اليهود الى دفع عملية الانفصال بين اليهود واليهود المسيحيين، وبشكل تدريجى استمر هذا الانفصال الذى

---

(١) رسالة تيموثاوس الاولى ٦ : ٣ - ٥ ، ٢٠ - ٢١ .

(٢) انظر رسالة غلاطيه ١ / ٦ - ٨ ، ورسالة كولوس ٢ / ٤ .

كان لصالح بولس واتباعه ، وقد حاز بولس النصر بعد وفاته كما يقول الكاردينال دانيلو ،على حين بقيت المسيحية اليهودية هي السائدة ثقافيا حتى حوالى ١٤٠م .

ويضيف الكاردينال المذكور : انه يمكن اقتفاء آثار هؤلاء في القرنين الثالث والرابع ويقول : (وقد امتص الاسلام بعضهم وهو جزئيا وريث لهم)(١)

وهكذا يعترف هذا الكاردينال بأن الاسلام هو وريث كل من سار على سنن عيسى عليه السلام وحواريه .

ولعلنا نجد في ما حكاه بولس في رسالته الى أهل غلاطية(٢) مما كان بينه وبين بطرس ما يؤيد كلام الكاردينال دانيلو عن وجود هذا الصراع وعن سببه ;

(ولكن لما أتى بطرس الى انطاكية قاومته مواجهة لانه كان ملوما .لانه قبلما أتى قوم من عند يعقوب كان يأكل مع الامم ولكن لما أتوا كان يؤخر ويفرز نفسه خائفا من الذين هم من الختان . وراءى معه باقي اليهود أيضا حتى ان برنابا ايضا انقاد الى ريائهم . لكن لما رأيت انهم لا يسلكون باستقامة حسب حق الانجيل قلت لبطرس قدام الجميع ان كنت وانت يهودى تعيش امميا لا يهوديا فلماذا تلزم الامم أن يتهودوا . نحن بالطبيعة يهود ولسنا من الامم خطاة . اذ نعلم ان الانسان لا يتبرر باعمال الناموس(٣) بل بايمان يسوع المسيح آمنا نحن ايضا بيسوع المسيح لنتبرر بايمان يسوع لا باعمال الناموس لانه باعمال الناموس لا يتبرر جسد ما . فان كنا ونحن طالبون ان نتبرر في المسيح نوجد نحن انفسنا ايضا خطاة فالمسيح خادم

---

(١) انظر ما جاء في مقال هذا الكاردينال في كتاب دراسة الكتب المقدسة :
٧١ - ٧٤ .

(٢) ٢/ ١١ - ١٧ .

(٣) اى التوراة .

للخطية حاشاه) الى آخر ما قاله مما يتعلق بهذا المعنى .

ثم ان هذه الاسفار على ما في نسبتها الى من نسبت لهم من شك وطعن وانكار ، هي منقطعة الاسناد لا راوى لها منذ الفت في القرن الاول حتى عقد مؤتمر نيقية عام ٣٢٥م . وقد بقيت هذه الاسفار خلال هذه الفترة لا تختلف النظرة لها عن النظرة لغيرها من الكتب والاناجيل التى اهملت واسقطت بعد ذلك ، يعترف بها من يعترف وينكرها من ينكر ، فلما عقد المؤتمر المذكور قرر اعتبار الاناجيل الاربعة المتداولة الان من بين الاناجيل الكثيرة الموجودة حين ذلك ، وقرر اعتبار ما عداها من اناجيل باطلة وحظر تداولها ، ومن هذه الاناجيل : انجيل توما ، وانجيل العبرانيين ، وانجيل الناصريين ، وانجيل الاثنى عشر ، وغيرها كثير ، وقد أورد مؤلفو الموسوعة الامريكية ما يقارب الثلاثين انجيلا من الاناجيل التى رفضتها الكنيسة. (١)

على ان بعض هذه الكتب المعتمدة لم يعترف بها كنسيا الا في وقت متأخر عن مجمع نيقية الذى عقد عام ٣٢٥م ، فان هنالك ثماني رسائل لم يعترف بها الا في مجمع لوديسيا عام ٣٦٤م ، وهى : رسالة بولس للعبرانيين ورسالة بطرس الثانية ، ورسالتا يوحنا الثانية والثالثة ورسالة يعقوب ، ورسالة يهوذا وروءيا يوحنا .

وقد كانت هذه الفترة من بعث المسيح عليه السلام الى قبيل عام ٣٢٥. بسنوات قليلة ، حافلة باضطهاد المسيحيين وتقتيلهم وحرق كتبهم وهدم كنائسهم ، وممارسة الوانا من التعذيب معهم تذهب باللب والرشد ، وتجعل الاستقرار متعذرا ، وتساعد على غموض معاني الدين في نفوس اتباعه ، وكانت

---

(١) انظر اسماء هذه الاناجيل في ما نقله احمد عبد الوهاب في كتابه المسيح في مصادر العقائد المسيحية : ٣٧ - ٣٨ نقلا عن الموسوعة الامريكية ١٣ : ٧٠ - ٧١.

اجتماعاتهم تعقد فى السر والظلام ،مما لا يساعد على نقل ما دار فيهـا بشكل واضح ومعروف .

وكان اعتناق المسيحية فى تلك الفترة كثيرا ما يعرض صاحبه الى الموت وقد تولى عرش الامبراطورية الرومانية عدد من الاباطرة الغلاظ الذين تفننوا فى تعذيب النصارى وايذائهم .

ومن ذلك نيرون ٦٤م الذى اتهمهم بالحريق العظيم الذى شب فى روما ،وأذاقهم من البلاء الوانا ،فكان يسمر بعضهم على الاخشاب ،ويضع بعضهم الآخر فى جلود الحيوانات ويرميهم للكلاب تنهشهم ،وطلا بعضهم بمواد ملتهبة واتخذ منهم مصابيح للانارة ،وقد قتل فى زمانه عدد كثير، منهم عدد من علمائهم ومقدميهم .

ومن هؤلاء الاباطرة تراجان ١٠٦م،وديسبوس ٢٤٩ – ٢٥٠،ودقلديانوس ٢٨٤ – ٣٠٥ الذى قيل انه قتل منهم حوالى ثلاثمائة الف .

وكثيرا ما كان النصارى خلال هذه الفترة يطردون من الجيش ومن الوظائف العامة،ويكرهون على عبادة الامبراطور ،ومن أبى كان مصيره الموت . وقد امر جاليروس (٣٠٥ – ٣١٠) بأن تمزج جميع الاطعمة التى تعرض فى السوق بدم ذبائح الاوثان نكاية فى النصارى وحملا لهم على التسليم .

وقد ادى هذا الاضطهاد الى ان استولى على كثير منهم الجبن والخور وتملكه الضعف والجزع ،وارتد كثيرون . (١)

وفى مثل هذا الجو دونت الاناجيل ونقلت ،فتعذر ان يكون لها سند معروف ونقلة مشهورون وسط هذه البلايا والمحن والكوارث .

---

(١) انظر حول اضطهاد النصارى فى هذه الفترة ،تاريخ المسيحية ،فجر المسيحية لحبيب سعيد : ٥٥ – ٥٩،٩٣،١١٢ – ١١٤،وانظر محاضرات فى النصرانية : ٣٤ – ٣٨ .

التناقض والتضارب في كتب العهد الجديد

ان المطلع على اسفار العهد الجديد يجد الكثير من التناقض والتضارب في اخبار ومحتويات هذه الاسفار ، حتى انه ليجد السفر الواحد منها كثيرا ما يناقض بعضه بعضا ، فيهدم اللاحق منه السابق .

وكما سبق لنا ان بينا حين الحديث على تناقض العهد القديم (١) ، فان التناقض والاختلاف في هذه الكتب ـ شأنه في أية كتب أخرى ـ يقطع بأن مصدرها لا بد ان يكون من البشر ، لان التناقض يفضي الى كذب احد الامرين المتناقضين ، ولا يمكن ان يكون الكذب والخطأ صادرا عن الله تعالى . ((ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا)) (٢)

وسنكتفي هنا بدراسة بعض النماذج لهذه التناقضات ، والتي يمكن استخراج امثال لها كثيرة في كتب العهد الجديد ، ومن اراد المزيد فليطلع على كتاب اظهار الحق فان مؤلفه ساق ما يقارب الثمانين مثالا من التناقض في اسفار العهد الجديد فقط (٣) .

١ ــ الاختلاف فيما سمي بنسب المسيح :

ان الذي يقارن معطيات انجيل متى (٤) في هذا الموضوع بمعطيات انجيل لوقا (٥) في الموضوع ذاته يجد تناقضا بينا واختلافا كثيرا بين الانجيلين . فمثلا يفيد انجيل متى ان عيسى عليه السلام من اولاد سليمان بن داود عليهما السلام ، بينما يقول لوقا انه من اولاد ناثان بن داود .

---

(١) راجع ص : ٣٥ .

(٢) سورة النساء : ٨٢ ،

(٣) ١/٩٦ - ١٢٢ ، وانظر ايضا الفصل في الملل والنحل : ٢ : ١٠ ومابعدها ،

(٤) ١/١ - ١٧ ،

(٥) ٣/٢٣ - ٣٢ ،

وتفيد معطيات انجيل متى ان بين داود وعيسى عليهما السلام ستة وعشرين جيلا ،على حين تجعل معطيات انجيل لوقا بينهما واحدا واربعين جيلا .

وهناك ايضا اختلافات واسعة فى اسماء افراد هذه الانسال من داود الى المسيح عليهما السلام بين الانجيلين، وفى شهرة افرادها أوعدمها .

على ان كلا من الانجيلين مخالف فى ذلك لبعض ما جاء فى سفر اخبار الايام فى الجزء الذى تعرض هذا السفر لذكره من هذه الانسال . (١)

واذا كان احد الانجيلين صادقا فالآخر كاذبا لا محالة . وقد نقل الشيخ رحمة الله الهندى رحمه الله من جماعة من محققيهم الاعتراف بوجود هذا التناقض . (٢)

هذا وان ذكر اى نسب للمسيح عليه السلام من جهة يوسف النجار امر لا معنى ولا قيمة له ،ما دام النصارى معترفين بأنه ليس لعيسى عليه السلام اى صلة بنوة بيوسف النجار ،ولو ذكروا نسبه من جهة مريم لكان امرا معقولا .

٢ — اسماء تلاميذ المسيح وحواريه :

جاء فى انجيل متى (٣) : (واما اسماء الاثنى عشر رسولا فهى هذه : الاول سمعان الذى يقال له بطرس واندراوس أخوه . يعقوب بن زبدى ويوحنا أخوه . فيلبس وبرثولماس . توما ومتى العشار . يعقوب بن حلفى ولباوس الملقب تداوس سمعان القانوى ويهوذا الاسخربوطى الذى أسلمه) .

ويتفق هذا مع ما جاء فى انجيل مرقس (٤) حول هذا الموضوع .

---

(١) ٣/٥ ، ١٠/١٦ .

(٢) اظهار الحق ١ : ٩٦ - ٩٧ .

(٣) ١٠/٢ - ٤ .

(٤) ٣/١٦ - ١٩ .

لكن جاء في انجيل لوقا (١) : (ولما كان النهار دعا تلاميذه واختار منهم اثنى عشر الذين سماهم ايضا رسلا : سمعان الذى سماه بطرس واندراوس أخاه ، يعقوب ويوحنا . فيلبس وبرثولماس . متى وتوما . يعقوب بن حلفى وسمعان الذى يدعى الغيور . يهوذا اخا يعقوب ويهوذا الاسخربوطى الذى صار مسلما أيضا) .

ويؤخذ مما جاء في انجيل يوحنا (٢) انه كان في رسل المسيح الاثنى عشر واحد اسمه يهوذا غير يهوذا الاسخربوطى الخائن .

وبهذا يتضح ان هنالك تعارضا في اسماء التلاميذ بين انجيلي متى ومرقس من جهة ، وانجيلي لوقا ويوحنا من جهة اخرى ، فان متى ومرقس أوردا في اسماء هؤلاء التلاميذ لباوس الملقب تداوس ، على حين لم يذكره لوقا وذكر بدلا منه يهوذا اخا يعقوب الذى لم يذكره كل من متى ومرقس . وقد وافق يوحنا لوقا على ان يهوذا اخا يعقوب كان واحدا من هؤلاء التلاميذ .

وهذا تعارض في مسألة مشهورة لا يتصور خفاؤها على احد من حوارى المسيح الاثنى عشر لو كان كُتّاب الاناجيل منهم .

٣ — وصية المسيح عليه السلام للحواريين .

جاء في انجيل متى (٣) أن المسيح عليه السلام لما ارسل تلاميذه يبشرون في مدن اسرائيل اوصاهم قائلا (لا تقتنوا ذهبا ولا فضة ولا نحاسا في مناطقكم ولا مزودا للطريق ولا ثوبين ولا احذية ولا عصا) .

وجاء في انجيل لوقا (٤) في هذه المناسبة نحو هذا : (وارسلهم

---

(١) ٦/١٣ - ١٦ .

(٢) ١٤/٢٢ .

(٣) ١٠/٩ - ١٠ .

(٤) ٩/ ٣ .

ليكرزوا بملكوت الله ويشفوا المرضى ،وقال لهم : لا تحملوا شيئا للطريق لا عصا ولا مزودا ولا خبزا ولا فضة ولا يكون للواحد ثوبان) .

فجاء في هذين الانجيلين أن مما اوصاهم به عيسى عليه السلام ان لا يحملوا عصا .

ولكن جاء في انجيل مرقس (١) : (واوصاهم ان لا يحملوا للطريق غير عصا فقط لا مزودا ولا خبزا ولا نحاسا في المنطقة ،بل يكونوا مشدودين بنعال ولا يلبسوا ثوبين) .

وهذا تناقض ،اذ ينص كل من متى ولوقا على أن المسيح أوصاهم أن لا يأخذوا عصا ،بينما ينص مرقس على انه اوصاهم ان لا يأخذوا الا عصا .

واحدى الروايتين خاطئة لا محالة .

٤ — رواية القبض على المسيح :

جاء في انجيل متى (٢) في هذا الموضوع : (وفيما هو يتكلم اذا يهوذا واحد من الاثنى عشر قد جاء ومعه جمع كثير بسيوف وعصى من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب . والذى أسلمه أعطاهم علامة قائلا الذى أقبله هو هو امسكوه . فللوقت تقدم الى يسوع وقال : السلام يا سيدى وقبله . فقال له يسوع : يا صاحب لماذا جئت ؟ حينئذ تقدموا وألقوا الايادى على يسوع وامسكوه) .

وجاء في انجيل يوحنا (٣) حول الموضوع نفسه : (فأخذ يهوذا الجند وخداما من عند رؤساء الكهنة والفريسيين وجاء الى هناك بمشاعل ومصابيح وسلاح فخرج يسوع ،وهو عالم بكل ما يأتى عليه ،وقال لهم : من تطلبون ؟ اجابوه : يسوع الناصرى . قال لهم يسوع أنا هو . وكان يهوذا مسلمه أيضا

---

(١) ٦/٩ — ١٠ .

(٢) ٢٦/٤٧ — ٥٠ .

(٣) ١٨/٣ — ١٢ .

واقفا معهم . فلما قال لهم : انى أنا هو رجعوا الى الوراء وسقطوا على الارض . فسألهم أيضا من تطلبون ؟ فقالوا : يسوع الناصرى . أجاب يسوع: قد قلت لكم أنى أنا هو فان كنتم تطلبوننى فدعوا هؤلاء يذهبون .... ثم ان الجند والقائد وخدام اليهود قبضوا على يسوع وأوثقوه)

والتناقض بين الروايتين واضح . فهل عرفه الجند والقائد وخدام اليهود عن طريق علامة اتفقوا عليها مع يهوذا وهى ان يقبله امامهم كما فى رواية متى أم انهم عرفوه بقوله هو - بعد ان سألهم من تطلبون - : انا يسوع الناصرى كما يروى يوحنا . الى غير ذلك مما بين الروايتين من اختلاف فى التفاصيل .

واحدى الروايتين ولا بد غير صحيحة ، وهو خلاف فى مسألة مشهورة .

٥ — نهاية يهوذا الخائن :

انفرد انجيل متى من بين الاناجيل الاربعة بالحديث عن مصير يهوذا الاسخربوطى الخائن ونهايته فقال (١) : (حينئذ لما راى يهوذا الذى أسلمه انه قد دين ندم ورد الثلاثين من الفضة الى رؤساء الكهنة والشيوخ قائلا : قد اخطأت اذ سلمت دما بريا . فقالوا ماذا علينا أنت أبصر . فطرح الفضة فى الهيكل وانصرف ثم مضى وخنق نفسه . فأخذ رؤساء الكهنة الفضة وقالوا : لا يحل أن نلقيها فى الخزانة لانها ثمن دم . فتشاوروا واشتروا بها حقل الفخارى مقبرة للغرباء لهذا سمى ذلك الحقل حقل الدم الى هذا اليوم) .

غير أن لوقا تحدث ايضا عن نهاية يهوذا هذا فى سفر أعمال الرسل فقال (٢) : (فان هذا اقتنى حقلا من اجرة الظلم واذ سقط على وجهه

---

(١) ٢٧/٣ - ١٠

(٢) ١/١٨ - ١٩

انشق من الوسط فانسكبت احشاوءه كلها . وصار ذلك معلوما عند جميع سكان اورشليم حتى دعى ذلك الحقل فى لغتهم حقل دما اى حقل دم) .

وبهذا يظهر التضارب بين الروايتين من وجوه :

أولا : فى كيفية موت يهوذا ، هل انتحر بخنق نفسه كما يروى متى ، أم انه سقط على وجهه فانشق من الوسط وانسكبت احشاوءه كلها كما يروى لوقا فى سفر اعمال الرسل ؟

ثانيا : هل روءساء الكهنة هم الذين اشتروا الحقل كما يروى متى أم يهوذا هذا هو الذى اشتراه كما يذكر لوقا ؟

ثالثا : فى سبب تسمية الحقل بحقل الدم . هل كان ذلك لانه اشترى بفضة هى ثمن دم برىء كما يروى متى ؟ أم كان ذلك نسبة الى الموتة الدموية التى ماتها يهوذا الخائن فيه ؟

ان وجود هذه الاختلافات فى هاتين الروايتين مع صمت الاناجيل الثلاثة الاخرى عن الموضوع برمته ، يزيل الثقة من اساس الموضوع ، بل انه يوحى انه لا يعرف عن يهوذا هذا شىء منذ محاولة القبض على المسيح . وانه قد اختفى فى فترة الاضطراب التى شهدتها احداث الصلب وملابساته .

٦ — تنبوءات لم تتحقق :

وردت فى اسفار العهد الجديد بعض التنبوءات لامور اخبرت أنها ستتم فى المستقبل ، وانتهى الزمان الذى يفترض ان تقع فيه هذه التنبوءات حسبما حددت وذكرت . فاصبح من غير الممكن تحققها ، ووضح تماما خطأ هذه التنبوءات ، وهذا امر قاطع بأن هذه التنبوءات لم تكن مما اخبر اللّه تعالى به ، ولا يمكن ان تكون أيضا من كلام رسول لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وسنكتفى هنا بمثالين لهذا النوع ، يمكن للباحث ان يجد فى هذه الاسفار لهما اشباه واشباه .

أ ــ جاء في انجيل متى (١) : (كما كان يونان في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال هكذا يكون ابن الانسان في بطن الارض ثلاثة ايام وثلاث ليال ليال) .

وآية يونان التي اشار لها هذا النص وردت في سفر يونان وهذا نصها (٢):
(اعد (اى الرب) حوتا عظيما ليبتلع يونان فكان يونان في جوف الحوت ثلاثة ايام وثلاث ليال) .

فمتى دفن يسوع وكم بقي في القبر قبل ان يقوم منه ـ حسب رواية الاناجيل ـ وهل تحقق هذا التنبوء ؟

لقد انزل عن الصليب مساء يوم الصلب ، وهو يوم الجمعة (ولما كان المساء اذ كان الاستعداد ، اى ما قبل يوم السبت : جاء يوسف الذى من الرامة مشير شريف ، وكان هو أيضا منتظرا ملكوت الله فتجاسر ودخل الى بيلاطس وطلب جسد يسوع . فتعجب بيلاطس انه مات كذا سريعا . فدعا قائد المائة وسأله هل له زمان قد مات ، ولما عرف من قائد المائة وهب الجسد ليوسف) . (٣)

وقد تم اكتشاف ان القبر خال منه فجر يوم الاحد .

(وبعد السبت عند فجر أول الاسبوع جاءت مريم المجدلية ومريم الاخرى لتنظرا القبر . . . . فأجاب الملاك وقال للمراتين . . . . ليس هو ها هنا لانه قام كما قال) . (٤)

---

(١) ١٢/ ٤٠ .

(٢) ١/ ١٧ .

(٣) انجيل مرقس ١٥/ ٤٢ - ٤٥ .

(٤) انجيل متى ٢٨/ ١ - ٦ .

وفى انجيل يوحنا (١) : (وفى أول الاسبوع جاءت مريم المجدلية الى القبر باكرا والظلام باق فنظرت الحجر مرفوعا عن القبر) .

فاذا كان قد دفن مساء يوم الجمعة وقام قبل فجر الاحد ، فأين هى الثلاثة أيام وثلاث ليال ؟ ما هو الا يوم وبعض يوم وليلة وبعض ليلة على أكثر تقدير . فهذا التنبوء لم يتحقق ، بل تحقق ما يخالفه . كل هذا حسبما نصت عليه الاناجيل ذاتها .

وقد اعترف الاب روجى وهو احد الباحثين الكنسيين بأن المسيح لم يمكث فى القبر الا ليلتين وليس ثلاثة ، غير انه اعتذر عن النص على (ثلاثة ايام وثلاث ليال) بقوله : (التعبير جامد ولا يدل على شىء آخر الا ثلاثة أيام) . (٢) فاذا كان يصح اعتبار مثل هذه الحجة فما الذى يمنع ان تكون تعابير كثيرة فى الاناجيل جامدة ولا تدل على شىء ؟

ب — نهاية العالم فى القرن الاول .

تؤكد الاناجيل على ان نهاية العالم ستقع قبل ان يموت الجيل الذى عاصر المسيح عليه السلام . وأن أناسا ممن كانوا مع المسيح سيشهدون هذه النهاية . فقد جاء فى انجيل متى أن المسيح طلب الى تلاميذه أن يبشروا فى مدن بنى اسرائيل ، فاذا طردوا من مدينة منها فليذهبوا الى مدينة أخرى ، وسيعود اليهم نازلا فى ملكوته قبل ان يكملوا التبشير فى مدن بنى اسرائيل . قال (٣) : (ومتى طردوكم فى هذه المدينة ، فاهربوا الى الاخرى فانى الحق أقول لكم لا تكملون مدن اسرائيل حتى يأتى ابن الانسان) .

وفى الانجيل نفسه أن المسيح قال لتلاميذ (٤) : (الحق أقول لكم

---

(١) ٢٠ / ١

(٢) انظر دراسة الكتب المقدسة : ٨٦

(٣) ١٠ / ٣

(٤) ١٦ / ٢٨

لا يمضى هـذا الجيل حتى يكون هـذا كله) .

وفى انجيل مرقس قال (١) ـ بعد ان ذكر ما يصيب الكون من نحو مـا ذكر متى : (الحق أقول لكم لا يمضى هـذا الانجيل حتى يكون هـذا كله) .

وفى انجيل لوقا قال (٢) : (الحق أقول لكم انه لا يمضى هـذا الانجيل حتى يكون الكل) .

وقد مضت عشرون قرنا ، وذهبت اجيال وخلفتها اجيال ولم يتحقق شيء من هـذا .

وكذب هـذه التنبوءات ومثلها كثير يشكك فى صدق كل ما جاء فى هـذه الاسفار .

---

(١) ١٣ / ٣٠

(٢) ٢١ / ٣٢

أثر الوثنية في الديانة النصرانية

بعث عيسى عليه السلام لبني اسرائيل ،كما تنص على ذلك الاناجيل نفسها ، وقد كان لوضع بني اسرائيل الاجتماعي والثقافي في فلسطين وخارجها أثر واضح ،في رفضهم أو قبولهم للنصرانية ، وفي صبغ هذا الدين الجديد نفسه بما يعتمل في نفوسهم من مؤثرات ثقافية .

والطوائف اليهودية تتصف دائما ـ كما هو معروف عنها ـ بالحذر ممن يحيط بها من غير اليهود ، واساءة الظن بهم ، ومن ثم تنطوي هذه الطوائف على نفسها ،غير ان هذه الصفات كان تمثلها في اليهود الذين يعيشون في فلسطين أكثر منه في اليهود الذين يعيشون كأقليات متناثرة خارج فلسطين في المجتمعات الوثنية ،حيث ان هؤلاء كانوا قد أبدوا شيئا من اللين تجاه المجتمعات الوثنية التي كانوا يعيشون في داخلها ،الى الحد الذي سُمح معه للوثنيين في بعض الاحيان بدخول المعابد اليهودية والاطلاع على بعض التعاليم اليهودية.وزاد هذا الامر تيسرا ترجمة مصادر اليهودية الى اللغة اليونانية . (١)

وقد ادى هذا الى تكون طائفة منا لمريدين الذين هم من أصل غير يهودي ،حول كثير من المعابد اليهودية في المهجر خارج فلسطين ، وقد بلغ الامر ببعض هؤلاء المريدين الى اعتناق اليهودية ،كما بلغ الامر ببعض اليهود المهجريين الى التسامح واللين معهم مرة أخرى واجراء طقوس الطهارة والختان لهم ،على حين اكتفى بعض هؤلاء المريدين من الوثنيين بالاستماع لليهود والتأثر بعقيدتهم حسبما تسمح به ظروفهم وتقبله رغباتهم ، دون أن يعلنوا اعتناقهم لليهودية ، وربما لم يسمح لهم بذلك في بعض الاحيان . وكان بعض هؤلاء المريدين يساهمون في نفقات المعابد اليهودية ، وقد

---

(١) المسيحية نشأتها وتطورها لجنيبير : ٥٨

اطلق عليهم اسم " المتقين لله " ، وتكونت من هؤلاء طوائف كبيرة في مصر وروما وفي غيرهما ، مما ساهم في زيادة الصلات اليومية بين هذه المجتمعات وبين اليهود الذين يعيشون فيها ، وأخذ اليهود يبدون بالتدريج اكثر فأكثر الليونة والتعاطف تجاه عادات وتقاليد هذه المجتمعات ، بل وصل الامر ببعضهم الى التأثر العميق بتيارات الثقافة اليونانية ، وأصبح بعضهم لا يفترقون في لغتهم ومظاهرهم وثقافتهم عن المجتمعات التي يعيشون فيها وأظهر المثقفون منهم اعجابا شديدا بآداب اليونان وفلسفتهم . ولم يكن باستطاعتهم التخلي عنها ، ولو ارضاء لدينهم على شدة تعصبهم له ، ولهذا فالطريق أمامهم هو التوفيق بين هذا وذاك ، وهذا ما فعله بعض فلاسفتهم مثل فيلون . وقد ادى هذا الى ضعف تمسك يهود اليونان ببعض العقائد التي يعتبرها يهود فلسطين أساسية ، كعقيدة انتصار الامة اليهودية ، أو بالاحرى تطور مفهومهم لبعض هذه العقائد على صورة تنسجم مع المؤثرات الثقافية الجديدة في حياتهم ، فافترقت بعض الشيء عن صورتها القديمة التي امتازت بالضيق والتعصب ، وأصبح هؤلاء أكثر ميلا الى فتح العالم كله لاسرار الحقيقة . بل بلغ الامر ببعض هؤلاء ان راحوا يخلطون اليهودية ببعض الافكار والمعتقدات الوثنية ، في الوقت الذي كانت فيه كثير من الطوائف الوثنية تعتنق بعض الافكار اليهودية وتمزجها بأديانها الخاصة ، وليس من المستبعد ان تكون افكار هؤلاء المهجّرين قد أثرت في يهود فلسطين انفسهم ، بواسطة وفود الحجاج التي كانت تأتي القدس في مواسم الاحتفال بالاعياد (١) .

وقد كان يهود المهجر والمتأثرون بهم ممن اطلق عليهم طوائف " المتقين لله " - التي تحدثنا عنها قريبا - اكثر قبولا وتعاطفا مع النصرانية

---

(١) المصدر السابق : ٥٩ - ٦٠

من يهود فلسطين (١) .

ويحدثنا سفر أعمال الرسل عن ايمان كثير من اليونانيين ، وان طائفة منهم قد جاءت الى القدس ، لولا ان الاضطهاد فرقها (٢) ثانية ، مما وسع من انتشار المسيحية عن طريقهم .

وكان بولص - كما ذكرنا - هو المؤسس الحقيقي للمسيحية الحاضرة ، وقد ولد - كما سلف - في مدينة طرسوس ، وكانت هذه المدينة هي حلقة الاتصال بين هضبة آسيا الصغرى وبلاد الشام ، وهي مفرق الطرق التجارية بين اليونان والشام وقبرص وفنيقيا ومصر وغيرها من البلدان ، بالاضافة لما كانت تموج به من سيل لا ينقطع من الافكار والعقائد والتأثيرات المختلفة ، وانتشرت فيها المدارس اليونانية الفلسفية ، ونشأ فيها ما يمكن أن يسمى باصطلاحنا اليوم بالجامعة ، وكان أساتذتها من المنتمين الى المذهب الرواقي ، والذين لم يكتفوا بتلقين المذهب لطلبة العلم ، بل راحوا يبشرون به في حملة ذات طابع شعبي ، يتفق مع تفكير الجماهير ، فكان الجو العام في المدينة المذكورة مشبعا بالاصطلاحات اليونانية مثل : عقل ومنقذ وروح وضمير وغيرها . (٣)

ولهذا فان الزمان الذي عاش فيه بولس في تلك البقعة من العالم ، كانت توجد فيه مادة دينية وفلسفية ضخمة تمثلت في تطلعات تأملية ، تطلب النجاة عن طريق وسيط الهي ، اعتقادا منها انه لا يمكن للانسان أن يصل بمفرده الى هذه النجاة ، ولا بد لكسب الرعاية الالهية بعد ذلك من طقوس معينة . ومن ثم حاولت هذه التطلعات أن تعبر ذاتها عن طريق استخدام العبادات القديمة ، وتوسيع اطار الاساطير المتوارثة . (٤)

---

(١) المصدر السابق : ٦٠

(٢) انظر ١١/١٩ وما بعدها ، ٦ : ١ ، ٦ : ١٩

(٣) انظر المسيحية نشأتها وتطورها : ٦٨ وما بعدها

(٤) انظر المصدر السابق : ١٩٦ - ١٩٧

على ان شابا مثقفا يعيش فى مدينة كهذه ـ كما يقول حبيب سعيد ـ:

(لا بد أن يكون قد تشبع بكثير من الاراء اليونانية وبالجو السياسى والدينى فى العالم الاكبر المحيط به خارجا عن بيئته اليهودية المحافظة.(١)

لكل هذه الظروف التى كانت تسود طرسوس ، فقد نمت فيها النزعة التأليفية بين الاديان المختلفة ، وقد استتبع هذه النزعة الغموض ونمو فكرة الاسرار . (٢)

وكان من الخصائص المشتركة بين هذه الاديان موضوع التثليث الذى يلحظ وجوده بوضوح فى كثير من الاديان والفلسفات التى كانت سائدة يومها أو فيما قبل ذلك .

فان الرموز التى اكتشفت حول عقيدة قدماء المصريين تدل على ان المذكورين كانوا يعتقدون بثالوث مقدس يتكون من :

١ ـ الاله الاكبر أوسيرى ، ويسمى الاب أو الوالد ، وهو الاله الاكبر ، وهو علة ولادة الاقنوم الثانى ،

٢ ـ الاله هور : وهو الاقنوم الثانى ، ابن الاله اوسيرى ، وهو اله النطق والكلام ، وقد شبهوه بالعجل ، ولكنه عجل ممتاز ليس كسائر العجول .

٣ ـ الاله آيس : وهى الاقنوم الثالث ، وهى أم الاقنوم الثانى ، ورمزوا لها بصورة طائر يشبه العصفور ، ورسموا بجانبه علامة الحياة ، يعبرون بذلك عن ان الالهة ايس هى باعثة الحياة .

وقد رمزوا لها ايضا : بصورة امرأة جالسة على عرش ترضع ولدها . (٣)

وجاء فى عقائد الهنود القدماء : (نؤمن بسافترى أى الشمس الـــه

---

(١) تاريخ المسيحية ، فجر المسيحية : ٤٠

(٢) انظر المسيحية نشأتها : ٨٠ وما بعدها

(٣) الله واحد أم ثالوث لمحمد مجدى مرجان : ٧٨ - ٨١

واحد ، وبابنه الوحيد انى اى النار ، نور من نور ، مولود غير مخلوق تجسد من فايو اى الروح فى بطن مايا العذراء . ونوءمن بفايا الروح المحيى المنبثق من الاب والابن ، الذى هو الاب والابن يسجد له ويمجد)(١) .

وفى عقائد الهندوس ايضا الايمان بثلاثة آلهة يسمونهم (الثلاثة فى واحد) يسيطرون على الكون وهم : براهما وفشنو وشيفا، وسيدها جميعا هو براهما . واما فشنو فكثيرا ما ينقلب انسانا ليتقدم بالعون الى البشر واعظم ما يتجسد فيه فشنو هو شخصية كرشنا ، وتقول اسطورة حياته انه قتل مصلوبا على شجرة ، وانه صعد الى السماء ، وسيعود ليحاسب الناس فى اليوم الآخر . (٢)

وكان البوذيون يعتقدون باله له ثلاثة أقانيم ، وكذلك بالنسبة للمصريين القدماء فقد كانوا يعبدون الها مثلث الاقانيم ، ويقولون بلاهوت الكلمة (وان كل شىء صار بواسطتها ، وانها منبثقة من الله وانها الله) .

وكان الرومانيون الوثنيون القدماء يعتقدون بالتثليث وهو (اولا الله ثم الكلمة ثم الروح) .

وكان الفرس يعبدون الها مثلث الاقانيم وهم (اورمزد ومترات واهرمان).

وكانت عقيدة الاله ذى الاقانيم الثلاثة شائعة عند التتر الوثنيين، وعند المكسيكيين القدماء، وعند سكان سيبيريا القدماء وعند غيرهم من الامم(٣) .

قال بعض الباحثين الغربيين : (لا تخلو كافة الابحاث الدينية المأخوذة من مصادر شرقية من ذكر أحد انواع التثليث أو التولد الثلاثى)(٤) .

---

(١) المصدر السابق : ٨١

(٢) قصة الديانات ، سليمان مظهر : ٦٨ - ٦٩ .

(٣) انظر هذا تفصيلا فى كتاب " العقائد الوثنية فى الديانة النصرانية " لمحمد طاهر التنير : ٣ - ٣٣

(٤) المصدر السابق : ١٨

ومن هذه العقائد المشتركة بين الاديان السابقة على المسيحية تصور الخلاص بواسطة تقديم أحد الآلهة ذبيحة فداء عن الخليقة ، وهذا التصور قديم عند الهنود الوثنيين وغيرهم ، ويمكن اعادته الى ما قبل المسيح بالف سنة .

وقد جاء في بعض كتبهم المقدسة ان الالهة قدمت بروشا ، وهو الذكر الاول قربانا ، وهم يعدونه مساويا للخالق . وفي بعض هذه الكتب ايضا ان (سيد المخلوقات برجاباتي قدم نفسه ذبيحة للالهة) . (١)

وهنالك تفاصيل دقيقة كثيرة يظهر فيها التطابق كاملا بين النصرانية وبين الاديان التي سبقتها .

فهنالك تشابه كبير بين الاوصاف والتفاصيل التي يذكرها كل من اتباع كرشنا لكرشنا) واتباع بولس للمسيح عليه السلام ، فكل منهما هو في نظر اتباعه ابن الله وانه الاقنوم الثاني من الثالوث المقدس الذي يتكون من الاب والابن وروح القدس . وكل منهما ظهر لما ولد نجم في السماء علامة على مولده ولما ولد اضيء الغار الذي ولد فيه بنور عظيم . وكل منهما آمن الناس به واعترفوا بلاهوته . وكل منهما سمع حاكم البلاد في زمانه بولادة طفل الهي فحرص على قتله ، ومن أجل ذلك امر بقتل كافة الذين ولدوا في ليلة مولده . وكل منهما صلب ومات على الصليب ، وأظلمت الشمس لما مات وحدثت اضطرابات كونية كثيرة ، وكل منهما ثقب جنبه بحربه ، وقام كل منهما بعد موته وصعد بجسده الى السماء وشاهده كثيرون وهو صاعد ، وكل منهما نزل الى الجحيم وكل منهما يدين الناس في اليوم الآخر ، الى غير ذلك من تطابق في كثير من التفاصيل التي زعمت لكل من كرشنا والمسيح عليه السلام . (٢)

---

(١) المصدر السابق : ٣٦ .

(٢) انظر المقارنة الدقيقة والطويلة التي وردت في المصدر السابق : ١٣ - ١٤٦ .

وكذلك الامر بالنسبة للتشابه بين تفاصيل حياة المسيح عليه السلام ـ حسبما يزعم له ـ وبين تفاصيل حياة بوذا ، فكل منهما دل على ولادته نجم سمى " نجم المسيح " . وكل منهما فرحت لمولده الملائكة ورتلت الاناشيد ، وكل منهما أدرك الناس أسرار لاهوته ، ولم يمض على ولادته يوم حتى دعاه الناس " اله الالهه ". وكل منهما سعى الملك فى زمانه الى قتله حتى لا ينزع الملك من يده . وكل منهما أدهش استاذه . وكل منهما عندما بلغ اثنى عشر عاما دخل الهيكل وأخذ يسأل أهل العلم مسائل مهمة ثم يوضحها لهم . وكل منهما ظهر له الشيطان ليجربه ، وقال للشيطان اذهب عنى . وكل منهما انحلت عنه الاكفان وفتح عنه بقوة غير طبيعية " الهية " . وكل منهما سيدين الاموات الى غير ذلك من تشابه فى تفاصيل وجزئيات كثيرة . (١)

ومن الخصائص المشتركة ايضا لالهة تلك الاديان التى سبقت المسيحية انها تموت فى موسم معين من السنة فيثير ذلك الاسى فى نفوس الاتباع، ثم تبعث فى موسم آخر فيبعث فى نفوسهم الفرح والامل ، ويتخذ اتباع هذه الاديان رمزا يكررونه كل عام ، يمثلون به حياة الههم ومأساته على الارض ، ويؤمنون بأنه يتمتع بعد مأساته بحياة الخلد والسعادة ، ويعتقدون أن النجاة بالنسبة لهم انما تكون باتحاد مع الاله يغير كيان الشخص ، فيصير بذلك مصيره مصير الاله ، فينتهى به الامر الى البعث والحياة فى سعادة لا نهائية. وطريق تلك الوحدة مع الاله انما يكون بطقوس ومراسيم معينة ، وقد وصف بعض كُتّاب القرن الرابع أحد هذه الاحتفالات التى تقام للاله الوثنى بقوله : (يبكى الناس ويستسلمون للرعب من المصير المجهول الذى ينتظرهم فى المستقبل اللانهائى ثم يمر بكل كاهن ، فيلمس صدره حسب شعائر معينة

---

(١) انظر ايضا المقارنة القيمة التى وردت فى المصدر السابق : ١٤٧-١٦٧

وهو يهمس اليه فى بطء بالكلمات القدسية التالية : لتعد الثقة الى نفسك فقد نجا الاله ، ولسوف تصل انت الى النجاة فى نهاية طريق الالام) . (١)

ونجد فى عبادة الفريجيين للالهة سيبيل واتيس ، وفى غيرها من الديانات الآسيوية ، التعميد بدم الثور الذى يذبح فوق حفرة يكون المريد بداخلها ، فيتلقى دم الثور ، ويغمس فيه اعضاء جسده ، والحفرة عندهم انما تمثل مملكة الاموات ، والثور هو الاله اتيس ، فاذا امتزج وتشرب بدمه فانه يكون قد تشرب بجوهر الاله وذاته ، وبهذا يعتقد انه يضمن مشاركته فى مصير اتيس بالموت ثم بالبعث فى دار السعادة والخلود مع الاله . (٢)

ان الكثير من أديان هذه الالهة المنقذة كثيرا عند الفرس وبعل عند السوريين ، كانت تجدد وتقوى هذه الوحدة بين المؤمن والهه التى تحصل بعبادات مشابهة لما ذكرنا ، عن طريق موائد الاله التى يتناول المؤمنون الطعام فيها ، غير ان احد الباحثين واسمه كومون يقول : (كان الناس فى بعض الحالات يترقبون نتائج اخرى للمأدبة التى يشتركون فيها . كانوا يطعمون لحم دابة يعتبرونها الهية ثم يظنون انهم توحدوا بذلك مع الاله وشاركوه فى جوهره وصفاته) . (٣)

وينقل جوستين ، وهو احد المدافعين عن المسيحية فى القرن الثانى ان اسرار ميثرا احتوت على بعض الشعائر ، التى يقدم فيها كاس من الشراب وقطعة خبز ، مع النطق ببعض العبارات . (٤)

وتشير كثير من الدراسات الى ان اديان سيبيل واتيس كانت تفرض مثل

---

(١) المسيحية : نشأتها وتطورها : ٧٤ - ٧٥

(٢) المصدر السابق : ٧٥

(٣) المسيحية : نشأتها وتطورها : ٧٦ - ٧٧

(٤) المصدر السابق : ٧٧

هذه الموائد ، التى توحد المؤمن مع الالهة ، ومن المرجح ان الاطعمة التى كانت تقدم فيها هى الخبز والخمر ولحوم الاسماك المقدسة ،(انها لا تعنى فقط الجلوس الى موائد الاله وتناول الاطعمة التى يفترض انها لا تعنى فقط الجلوس ، وانما تذهب فى رمزيتها الى ابعد من ذلك ، انها تعنى بالنسبة للمؤمنين اطعامهم الاله نفسه وتشربهم بجوهره المنجى).(١)

اذن فلقد ولد بولس المؤسس الفعلى للمسيحية القائمة وسط بقعة تموج بمثل هذه الافكار والعقائد والشعائر والفلسفات ، فاتخذ منها لحمة الدين الذى يدعو له وسداه .

وادت العصور الاولى للنصرانية وما كان فيها من تبشير للوثنيين ، وما اصاب النصارى فيها من ايذاء واضطهاد ، الى دخول اعداد من الوثنيين الى المسيحية دون ان يتخلصوا من عقائدهم وافكارهم السابقة ، كما ادى الى ارتداد بعض المسيحيين الى الوثنية ، وان بقيت افكارهم وعواطفهم متعلقة بالمسيحية (٢) ، ولقد ساهم ذلك فى تقريب شقة الخلاف ووجهة النظر بين الدينين ، وان لم يهدأ الصراع بينهما تماما .

وكان فيمن دخل النصرانية من المجتمع الرومانى الوثنى طبقة من الفلاسفة والمثقفين بالثقافة اليونانية ، والذين لم يتخلوا عن اساليب واشكال التفكير الفلسفى الذى نشأوا عليه ، وذلك على الرغم من تصريحهم بانكار واحتقار هذه الاساليب ، الا انهم كانوا يفكرون ويبرهنون ويكتبون حسب طرق وقواعد البلاغة اليونانية الوثنية . (٣)

ثم ان هؤلاء ومن تأثر بهم قاموا بمحاولة التوفيق بين النظريات والافكار

---

(١) المصدر السابق : ٧٧

(٢) انظر اضواء على المسيحية لمتولى يوسف شلبى : ٢٨

(٣) المسيحية نشأتها : ١٨٣ - ١٨٧

المختلفة التى نشأت فى ذلك العهد حول كثير من المفاهيم النصرانية كمشكلة العلاقة بين الاب والابن فى نطاق الثالوث ، ومشكلة انسجام الخصائص الالهية مع الخصائص البشرية فى شخصية المسيح ، ونحو هذا من المفاهيم المعقدة التى آمن بها النصارى ، فاستخدموا فى التوفيق بين هذه الاراء مجموعة من البراهين التى هى أشبه ما تكون ببراهين السفسطائية الاغريقية . ولم يقف الامر عند الشكل والاسلوب ، بل ان المادة الفكرية التى استخدمت فى سبيل تطويع النصرانية لما فى نفوس هوءلاء المفكرين من مقررات سابقة ترجع الى المدارس الفلسفية التى نشأوا عليها . (١)

ولقد كان للاساطير والرموز الشعرية الفلسفية المصرية اثر عميق فى الطقوس المسيحية ، (حتى ان المسيحيين الاولين كانوا احيانا يصلون امام تمثال ايزيس (الهة المصريين الملقبة بالام العظمى ، وهى الزوجة الوفية للاله اوزير) الذى يصورها وهى ترضع طفلها حورس ، وكانوا يرون فيهما صورة اخرى للاسطورة القديمة النبيلة ، اسطورة المرأة الخالقة لكل شىء والتى تصبح آخر الامر أم الاله) . (٢)

وأوجه الشبه واضحة بين هذه العقائد والفلسفات من جهة وبين العقائد المسيحية من التثليث والخطيئة وتعذيب المسيح وموته وبعثه بعد ذلك ، وشعائر التعميد والعشاء الربانى واستحالة الخبز والخمر الى لحم المسيح ودمه وغير ذلك من الطقوس المسيحية من جهة اخرى ،ان كل ذلك واضح الشبه والمماثلة بتلك العقائد والفلسفات ، وان الاطلاع على بعض جداول المقارنات التى وضعها بعض الباحثين ، بين العقائد النصرانية والعقائد الوثنية التى سبقتها يكشف عن جانب من ضخامة المشكلة . فهناك

---

(١) المسيحية نشأتها : ١٨٣ - ١٨٧

(٢) قصة الحضارة : الجزء الثانى من المجلد الاول : ١٦٠ - ١٦١

شبه كثير بين المسيح حسبما تصوره المسيحية المحرفة وميترا حسبما تصوره الديانة الفارسية القديمة ، وكلاهما ولد فى الخامس والعشرين من ديسمبر وكلاهما وصف بأنه وسيط بين الله والبشر ، وكلاهما مات ليخلص البشر من خطاياهم ، وكلاهما عاد للحياة بعد الموت وقام من قبره ، وكلاهما يدعى مخلصا ومنقذا ، وكلاهما وصف بأنه كالحمل الوديع ، وكلاهما اصحابه يعمدون باسمه . (١)

وهنالك تشابه كبير بين محاكمة بعل اله السوريين ومحاكمة المسيح حسبما وصفتها اسفار العهد الجديد . فكلاهما أخذ اسيرا وحوكم واعتدى عليه بعد المحاكمة واقتيد لتنفيذ الحكم عليه على الجبل ، وكلاهما حين أخذ للقتل كان معه مجرم آخر حكم عليه بالاعدام ، وقد جرت العادة المتبعة فى زمان كل منهما ان يعفى كل عام عن شخص حكم عليه بالاعدام ، ويطالب اناس باعفاء المجرم الآخر الذى رافق كل منهما . وكلاهما حصلت تغيرات كونية خارقة بعد موته ، وكلاهما حرس قبره بعد موته حتى لا يسرق جثمانه من قبل اتباعه ، وكلاهما قام وصعد الى السماء فى مطلع الربيع . (٢)

ولم يكن باستطاعة رجال الكنيسة تجاهل هذه المماثلة من امثال اوغسطين وغيره ، فما كان منهم الا ان فسروها بأن الشيطان حاول ان يتشبه بالمسيح ، وان شعائر وطقوس الكنيسة كانت مثالا نسج على منواله المشركون .(٣) وهذا التفسير كأنما يتجاهل ان تلك الاديان وما فيها من عقائد وطقوس وجودها سابق على وجود المسيحية نفسها ، والمتأخر هو الذى يمكن ان يأخذ عن المتقدم ، والعكس غير ممكن . (٣)

---

(١) انظر المسيحية لاحمد شلبى : ٧٧ - ١٧٨ .

(٢) انظر المصدر السابق : ١٧٩ - ١٨٠ .

(٣) المسيحية : نشأتها وتطورها : ٧٧ - ٧٨ .

وقد ادت ملاحظة التشابه الواسع بين المسيحية والوثنية فى القرن التاسع عشر الى ظهور موجة من الكتب التى الفها الباحثون الالمان والدنمركيون والفرنسيون والانجليز يفندون فيها كل قول بوجود شخصية حقيقية للمسيح ويرون انها شخصية من الخيال . (١)

وعلى اى حال فلم تكن المسيحية فى صورتها التى استقرت عليها اخيرا الا محاولة للتأليف بين هذه العقائد والاسرار والهيمنة عليها ، وقد مكنتها اصولها الاولى من الاتكاء على فكرة التوحيد، ثم ساعدها ما حوته من تصورات تناقض فكرة التوحيد على القيام بهذه العملية التأليفية .

ولا يعنى هذا بالطبع ان الوثنية قد سيطرت على جميع النصارى منذ القرون الاولى ، فان تتبع مجرى الصراع بين التوحيد والتثليث خلال القرن الرابع ، الذى سمح بممارسة المسيحية فيه بشكل رسمى بعد ان انتهت كل اشكال الاضطهاد والعنف ضد النصارى، وامكن لكل صاحب راى ان يجاهر به ، ان تتبع ذلك يدل على ان فكرة التوحيد رغم كل ما غشى الجو العام من آثار الوثنية ، كانت مسيطرة لدى الكثيرين ان لم تكن هى العقيدة الغالبة عند النصارى .

فلقد مات الامبراطور الرومانى جالير عام ٣١١م ، وكان النصارى يومها قد اصبحوا فى المجتمع اعدادا لا يستهان بها ، وادى موته الى التنافس على السلطة ، ومن ثم الى الصراع والحرب بين المتنافسين ، وفى هذا الجو استطاع النصارى أن يبيعوا تأييدهم ويستفيدوا من هذا الصراع ، وقد كان قسطنطين أحد المتنافسين على السلطة ـ معروفا للمسيحيين ، وكان أبوه كلوروس قد سبق ان تجاهل آخر قوانين الاضطهاد ضد النصارى .

وقسطنطين هذا وان لم يكن نصرانيا بعد ، فقد كان صاحب فكر

---

(١) حياة المسيح فى التاريخ وكشوف العصر لعباس محمود العقاد : ١١١ .
وهو استنتاج فاسد .

تأليفي يجمع به بين الاديان المختلفة وكان يرى ان النصارى وان كانوا أقلية في المجتمع الا انهم اقلية منظمة ، على عكس الامر بالنسبة للمجتمع الوثني الذى تسوده الفوضى والفرقة . (١)

وكان المنافس القوي لقسطنطين هو ماكسانس ، الذى كان يدعم قوة جنده بالتضرع للالهة الوثنية ، ويرفع لواء الشمس الذى يصفه الرومانيون بأنه لا يقهر اذن فليرفع قسطنطين فى مقابل ذلك راية النصرانية . (٢)

وقد قدم له النصارى مساعدتهم فى حربة ضد خصمه ، وكان مما قدموه اثنى عشر فيلقا . ((٣)

وكانت النتيجة فى صالح قسطنطين فانتصر على خصمه ، ولعل ذلك قد ساعد النصارى على اشاعة أن هذا النصر انما كان ببركة المسيح عليه السلام. وفى عام ٣١٣م أصدر قسطنطين مرسوم ميلانو الذى افسح فيه حرية الوجود للنصرانية ، وجعل جميع الاديان متساوية فى الدولة ، يقوم اعتناقها على حرية الضمير . ولكن قسطنطين مع ما قدمه للنصرانية ، فقد حافظ على الوثنية ، على معابدها وطقوسها ، واحتفظ كأسلافه بلقب الكاهن الاعظم ، واصبح بلاطه يغص بالاساقفة من مختلف المذاهب النصرانية الى جانب ما فيه من الكهنة والفلاسفة الوثنيين ، واضحت وظائف الدولة قسمة بين الوثنيين والمسيحيين كما نقشت على نقوده شارات المسيحية والوثنية معا . (٤)

فلقد اراد قسطنطين بهذا أن يجرى مصالحة وانسجاما بين الدينين بل ان يوحد بينهما . وقد ساعد هذا بالفعل على انتصار الكنيسة ، ولكن

---

(١) انظر المسيحية : نشأتها وتطورها : ١٧٢

(٢) قصة الحضارة ١١ : ٣٨٤ ، المسيحية : نشأتها : ١٧٢ وما بعدها

(٣) قصة الحضارة ١١ : ٣٨٨

(٤) انظر اوروبا العصور الوسطى لسعيد عبد الفتاح : ١ : ٣٣ - ٣٤

على حساب المسيحية ذاتها ، قال جنيبر - وهو استاذ المسيحية ورئيس قسم تاريخ الاديان فى جامعة باريس - : (والواقع ان المسيحيين كانوا قد دفعوا ثمن الانتصار ، دفعوه غاليا ، بحيث نستطيع ان نقول فى شيء كثير من الجزم بأن مؤمنى عصر الحواريين ، لم يكونوا لينظروا الى هذا الانتصار لو قدر لهم الا على أنه نكبة كبرى .

(والنظرة الاولى الى احوال المسيحية تكفى لان تبين لنا ان الانتصار على اعداء الدولة ، ودفعها الى اتجاه جديد لم يكونا من نصيب اتباع المسيح حقيقة . وانما كان من نصيب حكامهم ، أى الكنيسة ، وأن تلك الامتيازات التى تمتع بها المؤمنون عامة على أعقاب الحل الوسط الذى اتخذه قسطنطين ، لم تأتهم سوى نتيجة لاتفاق قوتين بل حكومتين ، تبحث كل منهما اولا وقبل كل شيء عن مصلحتها الخاصة) . (١)

وقال ول ديورانت : (ان الوثنية كانت هى الغالبة على العالم الذى يعيش فيه قسطنطين . ولذلك ظل يستخدم الفاظا توحيدية يستطيع أن يقبلها كل وثنى ، وقام خلال السنين الاولى من حكمه فى صبر وأناة بجميع المراسيم التى يتطلبها منه منصب الكاهن الاكبر ، والتى تحتمها عليه الطقوس التقليدية ، وجدد بناء الهياكل الوثنية وأمر بممارسة اساليب العرافة واستخدم فى تدشين القسطنطينية شعائر وثنية ومسيحية معا ، واستعمل رقى سحرية وثنية لحماية المحاصيل وشفاء الامراض) . (٢)

وفى هذا الجو عقد مؤتمر نيقية عام ٣٢٥م تحت اشراف قسطنطين ، وقد حضره ثمانية واربعون والفان من اساقفة النصارى وعلمائهم ، وكانوا مختلفى المذهب والآراء ، كما قال ابن البطريق (٣) ، فاختلفوا اختلافا كبيرا

---

(١) المسيحية نشأتها وتطورها : ١٨٢

(٢) قصة الحضارة ١١ : ٣٨٨ - ٣٨٩

(٣) كما نقله عنه ابن تيمية فى الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٣ : ٣٠

وانقسموا على اراء كثيرة ، وانحاز قسطنطين للقائلين بالوهية عيسى عليه السلام ، وعقد لهم مجلسا خاصا ، وكان عددهم ثلاثمائة وثمانية عشر اسقفا يقولون بالوهية المسيح ، وهى مقالة بولس ، وقال لهم الامبراطور : قد سلطتكم اليوم على مملكتى ، وأعرض عن جميع الاراء الاخرى ، وطرد أتباعها والتى كان فيها اريوس الذى كان لرايه من الانصار أكثر من سبعمائة اسقف ممن حضر الموءتمر ، وكان يقول : (ان الاب كان اذ لم يكن الابن ، ثم الله احدث الابن ، فكان كلمة له ، الا انه محدث مصنوع) . (١)

وكان مما قرره الثلاثمائة وثمانية اسقفا فى هذا الموءتمر :

(ان الجامعة المقدسة والكنيسة الرسولية تحرم كل قائل بوجود زمن لم يكن ابن الله موجودا فيه ، وانه لم يوجد قبل ان يولد ، وانه وجد من لا شىء أو من يقول ان الابن وجد من مادة أو جوهر غير جوهر الله الاب ، وكل من يوءمن انه خلق ، او من يقول انه قابل للتغيير ، ويعتريه ظل الدوران) . (٢)

وكان داعية تأليه المسيح عليه السلام اثناسيوس الذى كان قد ولد فى الاسكندرية من ابوين وثنيين عام ٢٩٥م ، واعلن اعتناق النصرانية . وقد تولى بعد موءتمر نيقية كرسى كنيسة الاسكندرية ، فاعترض على ذلك خمسة وثلاثون اسقفا من مختلف مناطق مصر ، بزعامة اسقف اسيوط الذى كان من اتباع آريوس . (٣)

ولم يكن ما حصل فى موءتمر نيقية هو نهاية المطاف بجماعة اريوس ، فقد كان لهم كثير من الاتباع وغالبيتهم من العلماء والمثقفين ، على حين كان

---

(١) المصدر السابق ٢ : ٢١ ، وانظر محاضرات فى النصرانية : ١٥٢

(٢) تاريخ الامة القبطية . عن محاضرات فى النصرانية : ١٥١

(٣) تاريخ اثناسيوس لكامل صالح : ١٨ ، عن طائفة الموحدين من المسيحيين لاحمد عبد الوهاب : ٤٢

غالبية أنصار اثنا سيوس داعية التعدد من العامة والبسطاء الذين يحكمون عواطفهم قبل عقولهم . (١)

واستطاع اريوس ومن معه ان يستعيدوا كنائسهم ومناصبهم عام ٣٢٨م بعد ان اقنعوا الامبراطور بالعدول عن موقفه منهم ، وفى عام ٣٢٩م عقدوا مؤتمرا فى انطاكيا انتصروا فيه لرأيهم ، وقرروا خلع بعض الاساقفة القائلين بالوهية المسيح ، وأصبح نشاطهم واسعا وغلبوا على اكثر الكنائس حتى اضطروا اثنا سيوس الى الهروب والتخفى ، قال ابن البطريق :

(وفى ذلك الوقت غلبت مقالة اريوس على القسطنطينية وانطاكيه ، وبابل والاسكندرية . . . . واما اهل مصر والاسكندرية فكان اكثرهم اريوسيين . . . . فغلبوا على كنائس مصر واخذوها ووثبوا على بطريرك الاسكندرية ليقتلوه فهرب منهم واستخفى) . (٢)

ثم دعا الامبراطور لعقد مؤتمر صور عام ٣٣٥م وحضره كثير من الاساقفة الذين حضروا مجمع نيقية (٣) ، واحتدم الجدل ، ووصل الحال الى استعمال العنف والتشابك بالايدى ، وضرب الحاضرون اثنا سيوس ، فخلصه من ايديهم مندوب الامبراطور ، فقرر الحاضرون خلع اثنا سيوس من منصبه . فلما علم الامبراطور دعاهم الى القسطنطينية للمداولة ، وهنالك طالبوا بنفى اثناسيوس وقد نجحوا فى اقناع الامبراطور بذلك فنفاه الى فرنسا .

وقد عمد قسطنطين فى آخر عمره حسب المذهب الاريوسى ، ومهما قيل فى سبب انحياز قسطنطين لمذهب اريوس وترك مذهب اثناسيوس ، فان مذهب اريوس حقق انتصارا كبيرا على مذهب القائلين بالوهية المسيح عليه السلام

---

(١) اوروبا العصور الوسطى : ١ : ٣٦

(٢) الجواب الصحيح ٣ : ٣٠

(٣) تاريخ اثنا سيوس عن طائفة الموحدين من المسيحيين : ٢٤

حتى اصبح اثناسيوس داعية هذا المذهب لا يستطيع العيش الا متخفيا وكاد يفقد انصاره واتباعه بالكامل، حتى قيل المثل (اثناسيوس ضد العالم كله) . (١)

ولما حاول الامبراطور قسطنطينوس اعادة اثناسيوس الى كرسى الاسكندرية فيما بعد لقى هذا القرار مقاومة من كثير من الاساقفة ، وعقدوا مجمعا عام ٣٥٥م فى مدينة ميلانو ، وقرروا خلعه ، ففر فى عام ٣٥٦م، ووضع مكانه احد اتباع اريوس ، وقام الاريوسيون بعقد عدة اجتماعات وضعوا فيها صورة جديدة للعقيدة المسيحية انكروا فيها مساواة الابن لابيه فى الجوهر ، وقد عمت عقيدتهم الكنائس فى شرق العالم المسيحى وغربه . (٢)

غير ان تدخل خلفاء قسطنطين من الاباطرة الرومانيين ظل مستمرا ، فقد قام يوليانيوس الذى تولى الحكم ٣٦١م باعادة اثناسيوس الى الاسكندرية واعادة المنفيين من اتباعه ، رغم ان هذا الامبراطور لم يلبث ان اعلن كفره واغلق الكنائس بعد نهبها ثم سلمها للوثنيين ، وفتح معابدهم ، وجاهر بنفسها بعبادة الاصنام وتقديم الذبائح لها . (٣)

ثم تولى بعد ذلك الامبراطور يوبيانوس الذى عادى ايضا الحركة الاريوسية ، وقرر فرض مذهب اثنا سيوس بالقوة ، رغم انه ثبت انه كتب بعد هذا لاثناسيوس يسأله عن حقيقة الدين المسيحى وحقيقة مقررات موئتمر نيقية ، وبهذا يظهر انه اعتنق هذا المذهب وقرره قبل ان يعرف حقيقته (٤) وربما كان ذلك لانه شعر ان هذا المذهب اقرب للوثنية .

---

(١) فجر المسيحية : ١٥٣ .

(٢) طائفة الموحدين من المسيحيين : ٢٧ - ٢٨ .

(٣) المصدر السابق : ٣١ .

(٤) المصدر السابق : ٣٢ - ٣٣ .

وحتى عام ٣٨١م لم تكن الكنيسة قد اتخذت أى قرار بشأن تأليه روح القدس ، وكان أحد رجال الدين واسمه مقدونيوس يجاهر بأن روح القدس ليس باله ، وانما هو مخلوق مصنوع ، ويحارب كل من يقول بالوهيته . فاجتمع بعض اولو الامر من الوزراء والقواد الى الملك ، واقنعوه ان هذا الامر قد افسد العامة ، الذين ما زالوا متأثرين بوحدانية اريوس ، فعقد مجمعا فى القسطنطينية عام ٣٨١م حضره من الاساقفة مائة وخمسون كان المقدم فيهم - وان لم يكن رئيس المجمع - بطريرك الاسكندرية يومها ، وهو تيموثاوس ، فأقر المجمع الوهية روح القدس ، وقرر لعن مقدونيوس ، كما قرر مجمع نيقية من قبل لعن اريوس ، وبهذا تم الثالوث النصرانى .

وهكذا يتضح ان انتصار التثليث على التوحيد عند النصارى انما كان يعتمد على تدخل الحكام وفرض ذلك الراى بالقوة ، أكثر مما كان يعتمد على الادلة والحجج واراء العلماء .

ولقد صدق القاضى عبد الجبار المعتزلى حين قال : (ان الروم ما تنصرت ولا أجابت المسيح ، بل النصارى تروّمت وارتدت عن دين المسيح وعطلت اصوله وفروعه ، فصارت الى ديانات اعدائه) (١)

---

(١) تثبيت دلائل النبوة : ١ / ١٦٨

الفصل الثالث

من أخطاء الكنيسة

وفيه :-

تحريف الشريعة وفصل الدين عن الحياة

الطغيان الكنسي

فساد رجال الدين

الرهبانية

محاكم التفتيش

ان الخطأ الاساسى للكنيسة الذى تفرع عنه كل ما عداه من الاخطاء هو التساهل فى قبول المصادر غير الثابتة ، واعتبارها كتبا مقدسة لا يجوز العدول عما فيها ، أو اعادة النظر بمحتوياتها ، وما أتاحه ذلك من خلط العقيدة السماوية بالعقائد الوثنية المنتشرة فى العصور الاولى للمسيحية .

وقد اعقب ذلك كنتيجة له اخطاء كثيرة ، سنكتفى بالحديث عن اهمها نظرا للدور الكبير الذى لعبته هذه الاخطاء ، فى اعطاء صورة مظلمة للدين فى انظار الناس ، فانها قد منحت اعداء الدين من الملاحدة واضرابهم حجة قوية فى صراعهم مع الكنيسة ، وفى محاولتهم الاجهاز عليها ، فى مجتمع لم يكن يفرق بين الدين المحرف الذى تتبناه الكنيسة ، وتتصرف على اساس منه ومن شهوات رجالها وبين حقيقة الدين الصحيحة .

ولقد انتقلت الكنيسة وهى ترتكب هذه الاخطاء بكثرة مما يفترض فيها من ترغيب للناس فى الدين وتقريبهم اليه بالحكمة والموعظة الحسنة ولين القول وطيب العمل الى الاساءة للدين والصاق الظلم والتجبر والقسوة والفظاظة ونحو ذلك من القبائح والرذائل به ، واصبحت بذلك فتنة للناس عن دين الله ، بدل ان تكون داعية اليه .

ان تقسيم المجتمع الى رجال دين وغير رجال دين واضفاء صفة القداسة على رجال الدين دون غيرهم من أبناء دينهم ، قد ادى الى تكوين طبقية واضحة فى المجتمعات المسيحية ، فأصبح رجال الدين يشعرون انهم طبقة متميزة تجمع بينهم مصالح مشتركة خاصة بهم دون غيرهم ممن يعتنقون دينهم ، بل انها تخالف مصالح اولئك ممن ليس هم من طبقة رجال الدين . فأصبحوا يسعون الى تغليب هذه المصلحة على حساب مصالح غيرهم ، حتى وان كان الدين واحدا ، وساهمت الاثرة وضعف الوازع الدينى والتهالك الدائم على متاع الدنيا لدى كثير من رجال الدين فى تعميق هذا المفهوم ، وما انبثق عنه من سلوك تمثل فى عدم اكتراث الكنيسة الا بما يعود عليها بالنفع المادى والمعنوى .

١ ــ تحريف الشريعة وفصل الدين عن الحياة .

جاء كل دين من الاديان السماوية بمنهاج حياة ، ينبثق عن التصور الاعتقادى ، ليحكم دنيا الناس وواقعهم ، كما يحكم التصور الاعتقادى قلوبهم وضمائرهم ، فيتولى الدين بذلك قيادة النفس الانسانية فى كل جوانبها وكل نشاطاتها ، ويتولى قيادة الحياة الانسانية برمتها ينظمها ويوجهها ويقودها ويصونها حسب التوجيه الربانى .

اما حين تكون السلطة فى امر العقيدة والشعائر التعبدية لله تعالى (١) ثم تكون السلطة فيما سوى ذلك من جوانب الحياة القانونية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية وغيرها لغير الله ، فان النفس تتمزق بين اتجاهين مختلفين وسلطتين مختلفتين ، فلا ينتظر للحياة الا الفساد ((ولو اتبع الحق اهواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن)) (٢)

والنصوص القرآنية صريحة فى توافى الديانات السماوية على الحكم بما انزل الله واقامة الحياة كلها حسب شريعته . قال تعالى ((وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما اولئك بالمؤمنين . انا انزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون . وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والانف بالانف والاذن بالاذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الظالمون . وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه

---

(١) وهى فى النصرانية الحالية ليست كذلك على اى حال .

(٢) المؤمنون : ٧١ .

هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين . وليحكم اهل الانجيل بما انزل الله فيه ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الفاسقون)) (١)

وفي القرآن الكريم شواهد كثيرة على عناية الديانات السماوية السابقة بتقويم الحياة الواقعية ، واصلاحها وسياستها حسب المنهج الرباني . قال تعالى : ((والى مدين اخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان انى اراكم بخير وانى اخاف عليكم عذاب يوم محيط . ويا قوم اوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس اشياءهم ولا تعثوا في الارض مفسدين . بقية الله خير لكم ان كنتم موءمنين وما انا عليكم بحفيظ . قالوا يا شعيب اصلاتك تأمرك ان نترك ما يعبد اباوءنا أو ان نفعل في اموالنا ما نشاء انك لانت الحليم الرشيد)) (٢)

وهود عليه السلام يقول لقومه كما يحكي القرآن عنه ((أتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . واذا بطشتم بطشتم جبارين . فاتقوا الله واطيعون)) (٣)

ولوط عليه السلام يقول لقومه كما يحكي القرآن عنه ((أتأتون الذكران من العالمين . وتذرون ما خلق لكم ربكم من ازواجكم بل انتم قوم عادون . قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين . قال انى لعملكم من القالين))(٤)

وبعث عيسى عليه السلام الى بني اسرائيل يدعوهم الى ما دعاهم اليه

---

(١) المائدة : ٤٣ - ٤٧ . وانظر في ظلال القرآن ٢ : ٨٨٦ ، المستقبل لهذا الدين لسيد قطب : ١٢ - ٢٧ .

(٢) هود : ٨٤ - ٨٧

(٣) الشعراء : ١٢٨ - ١٣١

(٤) الشعراء : ١٦٥ - ١٦٨

موسى من قبل وما دعا له سائر الانبياء عليهم صلوات الله وسلامه من الايمان بالله وتوحيده وعبادته ، فان دعواتهم جميعا انما هى واحدة فى اسسها الاعتقادية المتمثلة فى الدعوة الى التوحيد . وان اختلفت فيما بينها فى الشرائع حسبما يتناسب مع زمان واحوال وواقع الاقوام الذين ارسلوا اليهم ((لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا)) (١)

فجاء عيسى عليه السلام بتلك العقيدة وبتخفيف بعض الاحكام التى فرضت على بنى اسرائيل عقوبة لهم أو لغير ذلك ((ومصدقا لما بين يدى من التوراة ولاحل لكم بعض الذى حرم عليكم)) (٢) واشتملت دعوته على مواعظ دينية بليغة تناسب ما كانوا عليه من خشونة الطبع وغلظة القلوب .

وتنص أسفار المسيحية على أن عيسى عليه السلام كان متبعا للتوراة ، ولم يكن هادما لها ، جاء فى انجيل متى على لسان المسيح عليه السلام ((لا تظنوا أنى جئت لانقض الناموس أو الانبياء ما جئت لانقض بل لاكمل)) . (٣)

وكان المسيحيون الاولون يعتبرون انفسهم ملزمين بجميع ما فى أسفار اليهود من تشريعات ، ويعتبرون شريعة اليهود شريعة لهم ، ولا يستثنون الا ما صرح عيسى عليه السلام بتعديله ، بل لم يكونوا يعتبرون انفسهم خارجين عن الدين اليهودى وعن معابده وكتبه التى حوت شرائع تفصيلية لمختلف جوانب الحياة الواقعية . (٤)

ورفع عيسى عليه السلام قبل ان يمكّن له فى الارض وقبل أن ينتصر على اعدائه ، وعاش اتباعه من بعده فى الدولة الرومانية كما اسلفنا لا يخرجون

---

(١) المائدة : ٤٨ .

(٢) ال عمران : ٥٠ .

(٣) ٥ : ١٨ .

(٤) راجع ص ١١٨ .

من محنة حتى يدخلوا فى اخرى ، ولا يكاد يهدأ ايذاء الاباطرة الرومان لهم وتعذيبهم اياهم واكراههم على الوثنية حتى يشتعل من جديد ، فكانـــوا ضعفاء ومضطهدين ، فلم يتمكنوا من ان يأسسوا لهم دولة على اساس مــن شرائع دينهم واحكامه .

وباعدت عوامل متعددة بين اليهود والنصارى ، منها الاضطهاد الذى وقع على النصارى وساهم فيه اليهود ، والاضطهاد الذى أوقعه الرومان على اليهود فى بعض الاوقات وخاصة عام ٧٠م مما أغرى بعض النصارى بالتخلى عن صلتهم باليهود لينجوا من هذا الاضطهاد ، ومنها سياسة بولس (١) فأدى ذلك بالنصارى الى ترك أحكام التوراة ، وان بقوا ينظرون اليها على اساس أنها كتاب مقدس ضموه مع العهد الجديد فى كتاب واحد .

ولم يكن منتظرا وقد حرفت العقيدة النصرانية ولوثت بالوثنية ان تسلم الشريعة ، فان الشريعة مرتبطة بالتصور الاعتقادى ومنبثقة عنه .

ويحدثنا سفر اعمال الرسل أن موءتمر أورشليم الذى عقد بعد المسيح باثنتين وعشرين سنة قد ادخل تعديلا هاما على المسيحية ، حينما قـــرر عدم وجوب الختان (٢) لانه يشق على من يدعونهم للنصرانية ، وان تقتصـر المحرمات على ثلاث هى الدم والمنخنقة وما ذبح للاوثان ، وان يعتبر مــا عداها حلالا من اجل التيسير (٣) ، وبهذا فقد اعتبر لحم الخنزير فــى

---

(١) راجع ص ١١٨ - ١١٩ .

(٢) جاء فى سفر التكوين ١٧ : ٩ - ١٤ (وقال الرب لابراهيم ، ها هو ذا عهدى الذى تحفظونه بينى وبينكم ، وبين نسلك من بعدك : يختتن منكم كل ذكر فتختتنون فى لحم غرلتكم ، فيكون علامة عهد بينى وبينكم . ابن ثمانية ايام يختتن منكم كل ذكر فى اجيالكم . . . . ، واما الذكـر الاغلف الذى لا يختتن فى لحم غرلته فتقطع تلك النفس من شعبها ، لانه قد نكث عهدى) .

(٣) اعمال الرسل : ١٥ : ١٣ - ٣٠

المباحات (١) .

وكان بولس يعارض التزام الوثنيين الذين يدخلون في النصرانية بالختان وغيره من أحكام التوراة ويقول : (ما هو نفع الختان) (٢) ويقول : (اذ نعلم أن الانسان لا يتبرر بأعمال الناموس ، بل بايمان يسوع المسيح آمنا نحن أيضا بيسوع المسيح لنتبرر بايمان يسوع لا باعمال الناموس لانه باعمال الناموس لا يتبرر جسد ما) . (٣)

وهكذا تخلصت النصرانية من شرائع اليهود كوجوب الختان وحرمة لحم الخنزير واباحة تعدد الزوجات وغير ذلك .

غير انه حتى هذه لم تسلم ، فان الكنيسة الغربية فيما بعد أجازت الدم ولحم الخنزير ، كما اجازت هذه الكنيسة العشاء الرباني بالفطير ولم يكن النصارى يجوزونه من قبل الا بالخبز . (٤)

وهكذا تخلصت النصرانية من شرائع اليهود كوجوب الختان وحرمة لحم الخنزير واباحة تعدد الزوجات وغير ذلك .

وفي القرن الرابع أنهى قسطنطين كل اضطهاد ضد النصارى ، وعقد كما سبق موءتمر نيقية ، واعتنق النصرانية ، ولكنه كان قد اعتنقها محرفة ، ولم يطبق احكام النصرانية فيما يتعلق بقوانين الدولة وتشريعاتها وانظمتها بل بقي كل ذلك حسبما كان قبل ان يدخل في النصرانية ، واكتفى قسطنطين بالدين الجديد كعقيدة الله اعلم بصدقه في اعتناقها أو كذبه ، وحتى سلوكه

---

(١) جاء في سفر اللاويين عن الخنزير ١١ : ٨ (فهو نجس من لحمه لا تأكلوا وجثته لا تلمسوا انها نجسة لكم) .

(٢) رسالة بولس الى اهل رومية ٣ : ١ .

(٣) رسالة بولس الى اهل غلاطية ١١ : ١٦ .

(٤) انظر الاسفار المقدسة : ١٢٠ ، ١٢١ .

الشخصي بقي بمنأى عن الالتزام بالنصرانية ،كما يدل على ذلك قتله لزوجته وولده . (١)

وبهذا فان الامبراطورية الرومانية لم تكن قد عرفت المسيحية الحقيقية ولم تطبقها في واقعها منذ دخلتها ، وهذا ما قرره بعض احرار الفكر من النصارى انفسهم ، قال جنيبير استاذ تاريخ الاديان في جامعة باريس في خلاصة دراسة له عن نشأة النصرانية (وخلاصة : فان الغربيين لم يكونوا مسيحيين في يوم من الايام) . (٢)

وقد اعطت المجامع الدينية نفسها حق التشريع سواء في العقيدة او الشريعة ، ثم أعطت لنفسها حق الحرمان والغفران ، ثم منح حق التشريع للبابا ، عندما قرر مجمع روما عام ١٨٦٩ عصمته فأصبح من حقه اصدار القرارات والمعتقدات والاحكام .

غير ان الكنيسة لم تكتف بكل هذا الهجران والاعراض عن ما أنزل اللّه بل انها اسبغت على ظلم القياصرة وتعسفهم ، وعلى القوانين الرومانية التي كانوا يحكمون بها ، وعلى كل قوانين من وضع البشر ، اسبغت عليها رداء الشرعية والقبول عندما قالت : (اعطى ما لقيصر لقيصر وما للّه للّه) .

فكان هذا اقرار من الكنيسة ان الحياة قسمان : قسم لقيصر يصرفه كيف شاء ويحكمه بما يريد ، وما على الناس الا ان يطيعوا ، وهو القسم الاعظم بالطبع ، وقسم للّه يخضع الناس فيه لشرع اللّه ، ثم حصرت هذا القسم في جانب صغير من الحياة .

جاء في انجيل متى : (حينئذ ذهب الفريسيون وتشاوروا لكي يصطادوه

---

(١) اوروبا العصور الوسطى : ١ : ٣٤

(٢) المسيحية نشأتها وتطورها : ٢٠٩

بكلمة . فأرسلوا اليه تلاميذهم مع الهيرودسيين قائلين : يا معلم نعلم انك صادق وتعلم طريق الله بالحق ولاتبالى بالحق لانك لا تنظر الى وجوه الناس . فقل لنا ماذا تظن أيجوز أن تعطى جزية لقيصر أم لا ؟ فعلم يسوع خبثهم وقال : لماذا تجربوننى يا مراؤون ؟ أرونى معاملة الجزية فقدموا له دينارا . فقال لمن هذه الصورة والكتابة . قالوا : لقيصر. فقال لهم اعطوا اذا ما لقيصر لقيصر وما لله لله . فلما سمعوا تعجبوا وتركوه ومضوا) . (١)

فاعتمدت الكنيسة على هذا النص حينما قسمت الحياة بين الله والقيصر هذه القسمة الضيزى ،

ونحن لا نعتقد ان هذا النص صحيح ، وما نعتقد الا انه مما وضعه البشر ، وأضافوه الى هذه السير التى سميت اناجيل ، غير ان رجال الدين النصرانى قبلوا هذا القول ، كما قبلوا غيره مما لا يقبل ، ثم فسروه هذا التفسير الذى هو لمصلحة الحكام الظالمين ، ويضفى الشرعية على طغيانهم ويجعل لهم سلطانا على الحياة اكثر من سلطان الله ، يشرعون به للناس حسبما تشاء اهواءهم ، حتى لوكانوا وثنيين شأن قيصر هذا ،

أما كان من الممكن أن تفسر الكنيسة ذلك - وقد قبلته - الا بهذا التفسير الذى يناقض الغاية من بعثة الرسل ((لقد ارسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط)) ؟ (٢)

ان مراد عيسى عليه السلام بهذا القول - على فرض صحته جدلا - انهم ما داموا لا يستطيعون القتال فانهم لم يؤمروا به فاذا فرضت عليهم الجزية فليدفعوها الى ان يستطيعوا جهاده ، فيكون ذلك بالنظر لحالهم وليس

---

(١) ٢٢ : ١٥ - ٢٢

(٢) سورة الحديد : ٢٥

هو بسبب استحقاق قيصر لها، فيكون الامر كحال المسلمين فى مكة حين قيل لهم ((كفوا أيديكم)) (١)

أو ان مراده وقد راى كتابة قيصر وصورته على الدينار ان ينهاهم عن التعامل به ، بطريقة تناسب مكر سائليه وخبثهم : فيقول لهم اتركوا ما لقيصر له ، وتعاملوا بغيره مما ليس عليه كتابة وصورة قيصر .

ثم لماذا لم تقف الكنيسة بهذا القول عند مدلوله الخاص ، وهو الاذن لبنى اسرائيل أن يدفعوا الجزية لقيصر ، فيستجيبوا لقيصر فى هذه الجزئية من امور الحياة دون غيرها من جوانب الحياة المتعددة فيعودون فيها الى شرع الله وحكمه ؟ لماذا جعلت هذه العبارة علما على قسمة أمور الحياة كلها بين الله وقيصر ، وتولت الكنيسة بعد ذلك الحصة التى جعلتها الله ؟ .

كما ساعدت حركة الرهبنة منذ القرن الرابع على فصل الدين عن المجتمع ذلك بأنها قد امتصت كل من دفعه حماسه الى المطالبة بالتزام تعاليم الدين ، ومحاربة الفساد والانحراف فى المجتمع ، ولقد فتحت سلطات الكنيسة ابواب الاديرة واسعة - بقصد احيانا وبغير قصد احيانا أخرى - لتكون مأوى لكل من يرفض التنازل عن مثله امام انحراف الحياة الاجتماعية القائمة . وكانت الكنيسة كلما شعرت بأن ضيق صدور البعض بحياة المجتمع غير المتدنية يشكل خطرا عليها فتحت امامهم " صمام امان " تمثل فى الاديرة ، فكانت تشير على الذين يعارضونها بسعيهم الدائم نحو المثل تشير عليهم بحياة الاديرة لممارسة المثل الاعلى دون عناء . (٢)

وهكذا انقسم النصارى الى طائفتين : المؤمن ، وهو المسيحى العادى الذى يمثل جمهور المسيحيين . والمؤمن الكامل الذى يمثل فى حياة

---

(١) سورة النساء : ٧٧

(٢) المسيحية نشأتها وتطورها : ١٩٤ - ١٩٥

الاديرة . والفارق بينهما أن الذى يفترض فيه التطبيق الكامل لاحكام الدين هو الثانى ، حتى قيل (المسيحى بمعنى الكلمة هو الراهب) واما الآخر فلا يطالب الا بطقوس محدودة ، وبهذا استطاعت الكنيسة أن تمتص حماسة هوءلاء دون أن تؤدى الى التأثير على الحياة العامة . (١)

ولكن الكنيسة لم تكن تمتنع عن سلوك اساليب اخرى مع بعض المتحمسين ممن لم يقتنعوا باللجوء الى الاديرة ، فعندما حاول الاسقف الاسبانى برسيليان فى القرن الرابع اصلاح الحياة بالدعوة الى الاخلاق المسيحية القديمة ، اتهمه زملاوءه الاساقفة بأنه خطر على المجتمع ، ودفعوه للسلطات الحاكمة لمحاكمته والقضاء عليه ، وكذلك عزلوا اسقفا اخر اسمه القديس مارتين فى القرن نفسه بسبب دعوته الى الزهد فى اوساط المجتمع ، واتهموه بانه قدوة ضارة . (٢)

---

(١) المصدر السابق : ١٩٥ ،

(٢) المصدر السابق : ١٩٤ .

٢ ـ الطغيان الكنسي :

الطغيان : هو مجاوزة الحد . وما كنا لننكر على الكنيسة ـ ما دام يفترض فيها انها القيمة على دين الله ، والحارسة لتنفيذه وصيانته ـ أن تتدخل في أي جانب من جوانب الحياة ، ما كان هذا التدخل متوافقا مع هذه الغاية السامية ، وساعيا لاقامة احكام هذا الدين في حياة الناس امتثالا لامر الله ونهيه ، لا حرصا على مصلحة احد من البشر ، ولا محاباة لجهة على حساب غيرها . ولو كان الامر كذلك ما كنا نقول ان الكنيسة تجاوزت حدها فطغت ، لان دين الله ـ كما ذكرنا ـ انما يقتضي دينونة الحياة كلها في سائر جوانبها لله وحده ، وخضوعها له دون سواه .

ولكن ذلك لم يكن ممكنا بعد ان ضاع المصدر الاصلي الصحيح للنصرانية وهو الانجيل الذي نزل على عيسى عليه السلام ، وبعد ان تبنت الكنيسة مصادر أخرى اختلط فيها الصحيح بالزائف ، وبعد ان مازجت العقائد الوثنية عقيدة التوحيد فيها .

وكان المتوقع من الكنيسة وقد رضيت قسمة الخضوع والامتثال بين الله وقيصر وأسندت ذلك للمسيح عليه السلام ، ان تتفرغ هي لتوجيه المشاعر والعواطف وصقل القلوب وتقوية الصلة بالله بتقوية معاني الدين في داخل النفوس والعمل على نشر هذه المعاني ، وان تترك ما سوى ذلك من عالم الابدان وعالم الحكم والمال لقيصر ما دام ذلك حصّته ، الذي قرره له المسيح عليه السلام .

ولكنها لم تفعل ذلك بل ادعت لنفسها سلطانا على القلوب والعقول ، وعلى الحاكم والمحكوم وعلى العلم والمال ، سلطانا لمصلحتها الخاصة بها وبمصلحة رجالها الشخصية ، وليس لمصلحة الدين الذي تحمل . فحين كان هذا السلطان حق الله تعالى تنازلت عنه ، وحين رأته حقها أو رغبت في ان يكون كذلك عضت عليه بالنواجذ .

واذا كان الناس بفطرتهم يكرهون الطغيان ويمقتون صاحبه ، فانه حين يصدر ممن ينتسب الى الدين يكون أبشع وأبغض وأحرى بالرفض . وهو بذاته دليل على تحريف الدين الذى ينسب له ، لان الله جل وعلا اسمى واكمل من ان يأمر بالظلم والتسلط ((ان الله لا يظلم مثقال ذرة)) (١) وفى الحديث ((ياعبادى انى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا)) (٢) ، ولا يمكن منه سبحانه محاباة طبقة من الناس على حساب غيرها . فان الخلق امامه سواء احبهم اليه اتقاهم له .

وقد شمل هذا التسلط والطغيان جوانب متعددة من الحياة

أ — الطغيان الروحى :

ان ما كان يتعرض له النصارى فى القرون الثلاثة الاولى من الاضطهاد والقتل والملاحقة واتلاف الكتب وحرقها ، وما أدى اليه ذلك من سرية النشاط الدينى لديهم ، واخفاء الكتب المقدسة ، وندرة وجودها الا لدى اشخاص محدودين بالاضافة لقلة العارفين بالقراءة والكتابة من النصارى الاولين ، كل ذلك قد جعل الاطلاع على هذه النسخ منحصرا فيمن يملكونها وتمكنهم مستوياتهم التعليمية من ذلك ، خاصة اذا اضيف الى ذلك حاجز اللغة لان الكثيرين لم يكونوا على معرفة ودراية باللغة التى كتبت بها الاسفار . فكانت معرفة ما فيها كلما احتاجها أحد انما تتم عن طريق هذه الفئة القليلة التى تملك هذه الكتب وتستطيع معرفة ما فيها ، وكثيرا ما يتم شرح الحكم المطلوب بطريقة تقتضيها سرية العمل وتتناسب مع واقع الاضطهاد . فلما انقض عهد الاضطهاد والسرية ، احتفظ رجال الكنيسة بهذا الحق فى تفسير الكتاب المقدس والنطق باسمه ، ومنعوه غيرهم ، فحظروا ذلك على اى شخص خارج

---

(١) سورة النساء : ٤٠ .

(٢) رواه مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب ٤/ ١٩٩٤ ، ١٩٩٥ ، واحمد ٥/ ١٦٠ .

الكهنوت . (١)

ولم تكتف الكنيسة بهذا بل جعلت من رجالها وسطاء بين الله وخلقه فلا نجاة للناس الا بواسطة رجال الدين ، لانه لا اتصال لاى كان بالله الا عن طريقهم هم ، وبهذا جعلوا مفاتيح الجنة مرتبطة بهم ، فالنصرانى منذ صغره انما يُعمَّد على يدى رجل الدين فيحصل بذلك عن طريقه على الخلاص والولادة الروحية ، ويزوج على يديه ، ويقدم صلاة الاحد بواسطته ، واذا اراد ان يتوب فلا بد ان يعترف بين يدى الكاهن ، واذا اصابه مرض خطير فيمكن ان يحصل على المغفرة بمسح الكاهن له بالزيت ، واذا مات فلا بد ان يصلى عليه لينال المغفرة . وبهذا ترتبط حياته منذ الولادة الى الوفاة بهذا الكهنوت . (٢)

ولقد ادى خلط العقيدة المسيحية بالعقائد والاساطير الوثنية الى ان اصبح الاقتناع بصحتها متعذرا من الناحية العقلية ، فلجأت الكنيسة لمسألة الاسرار ، وطالبت الناس ان يؤمنوا بهذه الاسرار دون معرفة عقلية بصحتها اعتمادا منهم على ان مفاتيح هذه الاسرار فى نفوس رجال الكنيسة . فليؤمن الناس بهذه المعميات التى لا سبيل للعقل الى معرفتها او ادراكها ويتركوا امر الاقتناع بصحتها لرجال الكنيسة .

وأدى ذلك الخلط وما تبعه من صور التوفيق الفلسفية الى ان غدا مجرد معرفة هذه الفلسفة التى تشرح العقيدة فى غاية التعقيد والصعوبة فضلا عن استحالة اقامة الحجة العقلية عليها ، قال ليكونت دنيوى : (ان العقيدة المسيحية اصبحت لا يمكن ان تستوعبها الغالبية العظمى من الناس فى الوقت الحاضر ، أكثر مما يمكنها ان تستوعب النظرية النسبية) . (٣)

---

(١) انظر : العلمانية نشأتها وآثارها : ١٢٦

(٢) انظر مذاهب فكرية معاصرة : ٣٠

(٣) الجفوة المفتعلة بين العلم والدين لمحمد على يوسف : ١٢

على ان هذا التشبيه رغم ما يبرزه من صعوبة ادراك هذه العقيدة ، فانه يغفل ان النظرية النسبية لها حقيقة يمكن للعقل ادراكها والاقتناع بصحتها مهما جهد في ذلك ،على حين لا يمكن للعقل مهما جهد واستفرغ الوسع ان يصدق الجمع بين الضدين كالجمع بين التوحيد والتثليث في آن واحد ،

غير انه من المناسب ان نشير هنا الى الفارق بين ما تفعله المسيحية المحرفة في هذا حين تطلب الى العقل ان يؤمن بصحة ما لا يمكن ان يصدقه - كاجتماع الوحدانية مع التثليث - وكاستحالة الخبز والخمر الى جسد المسيح ودمه ، ونحو ذلك ، وبين ان يكون فيما يطالب الانسان ان يؤمن بوجوده ما لا يمكن معرفة كيفيته كالايمان بصفات الله تعالى . فان خروج كنه الحقيقة وكيفيتها شيء اخر مخالف لمعارضتها للعقل واستعصاء التصديق بها عليه .

وبعد ان احتكر رجال الكنيسة لانفسهم هذا الحق في فهم الكتاب المقدس ، واوصدوا كل باب للاعتراض على ما يقولون ، تركوا لانفسهم من الحرية في فهمه وشرحه ما يمكّنهم ان يقولوا ما شاءوا دون قيد ولا ضابط ، وما يسمح لهم بنسبة كل ما يريدون الى الكتاب المقدس ، وافقه أم خالفه ، يقول دانتي :
(ان الاشياء المكتوبة يجب أن تفهم وتفسر على اربعة أشكال رئيسية : الاول هو التأويل الظاهري ، وهو الذي لا يذهب الى أبعد من النص الحرفي كما يريد بالضبط . والثاني : التأويل المجازي ، وهو الذي يختبأ المعنى فيه وراء الاساطير ، وترمز القصة الجميلة الى الفكرة المستترة . والثالث : هو التأويل الاخلاقي ، وهو الذي يجب على الحاضرين ان يلاحظوه في الكتاب المقدس من اجل خيرهم ومنفعة تلاميذهم . والرابع : هو التأويل الخفي اي ما هو فوق الحس ، ويتم هذا حين تفسر الكتابات المقدسة تفسيرا روحيا لانها حين تفسر تفسيرا حرفيا فانه دائما تعني فقط جزءا من الاشياء العلوية

ذات المجد الابدى) . (١)

ثم يضرب مثالا لهذه الوجوه في تفسير الكتاب المقدس ، فيقول :

(مثال ما تقدم ما جاء في التوراة : (عندما اخرجت اسرائيل من مصر وانعتق بيت يعقوب من شعب بربرى ، اصبحت بلاد اليهود قدسه ، واسرائيل قوته) ، فاذا اردنا ظاهر النص فقط يكون خروج بنى اسرائيل من مصر هو المقصود . واذا اردنا المعنى المجازى فان خلاصنا بواسطة المسيح هو المقصود . واذا أردنا المعنى الحقيقي فان انعتاق العقل من شقاء الخطيئة وبوءسها هو المقصود . واذا اردنا المعنى الخفى فان خروج النفس المقدسة من عبودية الجسد الفاسد الى حرية المجد الابدى هو المقصود . ولم تكن طريقة التأويل هذه شيئا جديدا فقد اعتنق اوغسطين ذاته المسيحية بعد ان أكد له امبروز معتمدا على سلطة الكنيسة انه لا يجب الايمان ايمانا حرفيا بما ورد في التوراة من قصص فج ينافى الاخلاق) . (٢)

وندع ما في هذا من اعتراف بوجود قصص فج ينافي الاخلاق في التوراة ، لنرى المدى الواسع للحرية الذى يتمتع به رجل الدين في اثناء تعامله مع هذه النصوص وتفسيره لها ، مما يجعل نسبة كثير من هذه التفسيرات والمعانى القائمة على هذه الحرية الى مزاج رجل الدين ورغباته أصح من نسبتها الى الكتاب المقدس ، فما عليه والحالة هذه الا ان يتخير ما يروق له من الشطحات الروحية ليربطها بالنصوص المقدسة ، ولو بأوهى الاسباب ، لتكون هى التفسير الذى يجب على الناس قبوله ، ولا يجوز لهم ان يخالفوه ، ويساهم ولوع العامة بالامور المستترة والغريبة بتشجيع رجال الدين على مثل هذه التفسيرات .

---

(١) تكوين العقل الحديث : جون هرمان رندال ، ترجمة جورج طعمة ١ : ١٥٨

(٢) تكوين العقل الحديث : ١ : ١٥٨ - ١٥٩

وادعت الكنيسة لنفسها أيضا حقوقا اخرى لا يجوز اسنادها الا للّه تعالى ،كحق الحرمان الذى اكتوى بناره كثير من الملوك والعلماء وغيرهما وسيأتى الكلام عنه حين الحديث عن الطغيان السياسي والطغيان العلمى) وكحق الغفران الذى مكّن رجال الكنيسة من ادعاء حط الذنوب والخطايا عن أصحابها .

فقد عرف منذ القرن السادس عن بعض رجال الدين المسيحى القول بما سمى " بالتوبة المسعرة " ، والذى يفرض بموجبه على العاصى توبة خاصة امام الكاهن ، حسب تعرفات اعمال تكفر عن الذنوب ، مجموعة فى كتيبات خاصة سميت " كتب طقوس التوبة " وتتناسب هذه الكفارة مع نوعية الذنب المرتكب ومدته . (١)

وقد تبنت الكنيسة هذا اللون من التوبة فيما بعد ،وأصبحت تعليماتها تقضى بأن يقوم كل واحد بالاعتراف امام الكاهن مرة واحدة فى العام على الاقل . وعلى ان ينفذ ما يأمره به الكاهن من اعمال ،وكان لدى الكهنة كتب تتضمن بيانا بالكفارات اللازمة لكل ذنب ، وبعد قيام المعترف بكل ما طلبه منه الكاهن ،يعلن له هذا ان اللّه قد غفر له ذنبه .

لكن هذه الفكرة تطورت حتى غدا ليس من حق الكنيسة فقط ان تعلن غفران اللّه للخطايا ،بل انها هى تملك بواسطة رجالها غفران خطايا الناس ،واصبح ما يقوم به الكاهن انما يعنى غفرانا للذنوب والخطايا ، وليس مجرد اعلان غفران هو من سلطان اللّه وحده . (٢)

وقد كانت المسألة تتم فى بداية الامر عند الموت حيث يتولى القسيس غفران ذنوب المحتضر حينما يوشك ان يودع الدنيا ،غير ان الكنيسة لم تلبث

---

(١) انظر تاريخ العصر الوسيط فى اوروبا :لنور الدين حاطوم ١ : ١٤٧

(٢) المسيحية فى العصور الوسطى : ٩٨

ان ادعت هذا الحق لنفسها فى أى وقت ،على اساس ان المسيح قد منحها هذا الحق .

جاء فى قرارات مجمع لايتران عام ١٢١٥م :

(ان يسوع المسيح لما كان قد قلد الكنيسة سلطان منح الغفرانات ،وقد استعملت الكنيسة هذا السلطان الذى نالته من العلا ،منذ الايام الاولى قد اعلم المجمع المقدس ،وامر بأن تحفظ للكنيسة فى الكنيسة هذه العملية الخلاصية للشعب المسيحى ،والمثبتة بسلطان المجامع) . ثم هدد بسوط الحرمان كل من ينكر هذا الحق ،وأوصى بأن يستعمل هذا الحق باعتدال واحتراز ،حتى لا يمس التهذيب الروحى . (١)

لكن هذه التوصية اهملت مع الايام ،أو اصبح من مصلحة الكنيسة تناسيها ،فاصبحت هذه الغفرانات تباع مقابل مبالغ معينة من المال ،فى شكل صكوك مكتوبة ،يصدرها البابا ،ثم سمح لغيره من القسس باصدارها ، وتعلن هذه الصكوك غفران الذنوب جميعها ،ما وقع منها فى الماضى وما يمكن أن يقع فى المستقبل ،وان عاش صاحب الصك بعد ذلك سنين طويلة وتكون الصكوك مكتوبة لدى رجل الدين الذى يبيعها ،وقد ترك مكان اسم صاحب الصك فراغا ،حتى يعبأ باسم الشارى .

ومع الزمان لم يقتصر استعمالها على الاحياء ،بل اصبح باستطاعة كل احد أن يشترى لمن يعز عليه من اقربائه أو اصدقائه الاموات صكا ،فتنتقل بذلك روحه من العذاب الى النعيم ،وأثرت الكنيسة اموالا طائلة من جراء ذلك ،انفقت فى اشباع شهوات رجالها ،وفى حروبها مع اعدائها من المسلمين ،أو من النصارى انفسهم ،وفيما يلى نص لصك غفران :

(ربنا يسوع المسيح يرحمك يا (يكتب اسم صاحب الصك) ويحلك

---

(١) محاضرات فى النصرانية : ٢٠٥

باستحقاقات آلامه الكلية القداسة . وأنا بالسلطان الرسولي المعطى لي أحلك من جميع القصاصات ، والاحكام والطائلات الكنسية التي استوجبتها وأيضا من جميع الافراط والخطايا والذنوب التي ارتكبتها مهما كانت عظيمة وفظيعة ، ومن كل علة ، وان كانت محفوظة لابينا الاقدس البابا ، والكرسي الرسولي ، وأمحو جميع أقذار الذنب وكل علامات الملامة التي ربما جلبتها على نفسك في هذه الفرصة ، وأرفع القصاصات التي كنت تلتزم بمكابدتها في المطهر واردك حديثا الى الشركة في أسرار الكنيسة وأقرنك في شركة القديسين ، أردك ثانية الى الطهارة والبر اللذين كانا لك عند معموديتك حتى انه في ساعة الموت يغلق امامك الباب الذي يدخل منه الخطاة الى محل العذاب والعقاب ، ويفتح الباب الذي يؤدي الى فردوس الفرح ، وان لم تمت سنين مستطيلة فهذه النعمة تبقى غير متغيرة ، حتى تأتي ساعتك الاخيرة ، باسم الاب والابن والروح القدس) . (١)

ولك ان تتصور الاثر الذي يتركه هذا التصور عن امكانية غفران الذنوب والنجاة من العذاب ، ودخول جنات النعيم بمثل هذه الطريقة ، فما دام صاحب هذا الصك قد ضمن بحيازته براءة من كل ما فعله في الماضي ، ومن كل ما يفعله في الحاضر ، ومن كل ما يمكن ان يفعله في المستقبل ، فلماذا يحرم نفسه بعد ذلك من اي شيء تطلبه شهوته ويقوده اليه هواه طالما كانت خطاياه مغفورة سلفا ؟ ما الذي يدفعه أن يقوم بواجب أو أن يفعل خيرا ؟ لماذا لا ينتهك المحرمات ويقع في الاعراض والسوءات ويحوز كل ما تصل اليه يداه ، ويغب من الحرام كما يشاء ؟ بل لماذا يفرق بين الحلال والحرام والشر والخير والفضيلة والرذيلة ، ولم يعد لذلك من اثر يرجى في آخرته ما دام لن يؤاخذ بعد ذلك على شيء يفعله أو شيء يتركه ؟

---

(١) محاضرات في النصرانية : ٢٠٦ ، المسيحية للشلبي : ٢٥٤ - ٢٥٥ .

ومما زاد في هذه المهزلة أن البابوات اخذوا يعهدون الى البنوك ببيع صكوك الغفران لزبائنها ، فوضح ان المسألة عملية مصرفية لحمتها وسداها جمع المال للكنيسة . (١)

وهكذا فضلت الكنيسة دفع المال على الالتزام بكل معاني الدين والخلق والشرف .

بل ان بعض رجال الدين في معرض حماسهم لبيع اكبر كمية من هذه الصكوك ركب كل تهور وشطط ، ووصلوا الى ما يستحي منه كل صاحب حياء ، وقالوا ما يتورع كبار الفساق عن قوله ، فهذا الراهب حنا تنزل يلوح بيده بصكوك الغفران ، ويقول : (انه ما ان يسمع رنين العملة في الصندوق حتى تكون روح من دفعت الاموال من اجله في طريقها الى الجنة) ، وبلغت الوقاحة والجراءة به الى القول (ان الرجل اذا ارتكب الخطيئة مع العذراء المباركة نفسها ، فهذه الصكوك كفيلة بأن تمنحه الغفران الكامل) . (٢)

فأية مهزلة اكبر من هذه المهزلة واى تحريض سافر على ارتكاب الخطايا والدنايا اكبر من هذا ؟

ب — الطغيان المالي :

لقد كان المتوقع من رجال الكنيسة أن يكونوا أبعد الناس عن الحرص على جمع المال ، امتثالا لما يعظون الناس به من أقوال الاناجيل : (مرور جمل من ثقب الابرة أيسر من أن يدخل غني ملكوت الله) (٣) ، (لا تقتنوا ذهبا ولا فضة ولا نحاسا في مناطقكم ولا مزودا للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا) (٤) ، ونحو هذا من مواعظ الاناجيل التي تنهى عن الحرص على

---

(١) انظر اوروبا في مطلع العصور الحديثة ٣٦٨ - ٣٦٩ .

(٢) المصدر السابق : ٣٧٣ - ٣٧٤ .

(٣) انجيل مرقس ١٠ : ٢٥ .

(٤) انجيل متى ١٠ : ٩ - ١٠ . وانظر لوقا ٩ : ٣ ، ومرقس ٦ : ٩ - ١٠ .

الغنى وجمع حطام الدنيا .

غير ان الجهاز الكنسى من أصغر رجاله حتى البابا المتربع على عرش المسيحية كانوا على عكس ذلك تماما ، فسعوا الى جمع المال من وجوه مختلفة وكثيرة حتى اصبحت الكنيسة (اغنى واكبر قوة فى اوروبا ، وكان لها من الموارد المالية ما يفوق كثيرا ما كانت تملكه أى حكومة من الحكومات المدنية آنذاك ولو أن الناس فقدوا ايمانهم بالسلطان الروحى للكنيسة ، ما كان لهم مناص من الاقرار بسلطانها بسبب ما كانت تتمتع به من غنى فائق) . (١)

وكان للكنيسة موارد مالية عديدة ، تتمثل فى الاراضى الكثيرة التى استولت عليها واوقفتها على نفسها ، وكان الحكام كثيرا ما يقطعون الاقطاعيات الكبيرة للكنائس والاديرة ، فتتولى الكنيسة ادارتها مقابل تقديم العون لهؤلاء الحكام فى الازمات واعطائهم جزءا من ايرادات تلك الضياع .

(وهنالك مناطق كثيرة ، بل ممالك بأسرها اعتبرت اراضيها ملكا خاصا للبابا ، وهكذا وجدت الكنيسة نفسها ، وقد اصبحت فى حوزتها مساحات مترامية الاطراف من الاراضى فى غرب اوروبا .

وعلى سبيل المثال ، كانت الكنيسة تمتلك ربع الاراضى فى كل من انكلترا وفرنسا ، كما كانت تملك اكثر من هذه النسبة فى كل من ايطاليا واسبانيا).(٢)

كما فرضت الكنيسة على الناس ضريبة العشور ، وهى ضريبة سنوية تعادل عشر اموالهم . (٣)

وفرض يوحنا الثانى والعشرون " ضريبة السنة الاولى " وتعنى وجوب دفع دخل السنة الاولى لاى وظيفة من الوظائف الدينية أو الاقطاعية للكنيسة

---

(١) المسيحية فى العصور الوسطى : ٩١ .

(٢) المصدر السابق : ٩٠ - ٩١ .

(٣) انظر تاريخ اوروبا لفيشر ٢ : ٣٦٢ .

باعتبار ذلك حقا لها . (١)

وهنالك ضريبة اخرى ،كان يقدمها الكاثوليك للكرسى البابوى عرفت باسم " فلس بطرس"(٢) ، وهنالك ضرائب اخرى فرضت على العالم المسيحى فى فترة الحروب الصليبية .

وهنالك الهبات التى كانت تتلقاها الكنيسة من المحسنين او الخائفين من سلطانها ، فمثلا (فى سنة ١٣٠٠م عقد مهرجان لليوبيل ، واجتمع له جمهور حاشد من الحجاج فى روما بلغ من انثيال المال الى خزائن البابوية ان ظل موظفان يجمعان بالمجاريف الهبات التى وضعت عند قبر القديس بطرس) . (٣)

وقد أصدر البابا اسكندر الثالث عام (١١٧٠) امرا فرض بموجبه على الناس الا يكتبوا وصاياهم الا على يد قسيس ، وكل من يقبل كتابة هذه الوصية من غير رجال الدين يعرض نفسه للطرد من حظيرة الكنيسة ، وذلك يعنى حصول الكنيسة على جزء من اموال الموصى ، ولو عن طريق الاحراج والمجاملة ومن لا ينفع معه ذلك من الموصين فانه يعرض ايمانه للشك فى صدقه ، ويتعرض لعدم الدفن فى مقابر الصالحين . (٤)

وهنالك الاموال التى جمعت عن طريق صكوك الغفران .

وهنالك ايضا العمل فى اراضى الكنيسة يوما فى كل اسبوع ، على سبيل السخرة . (٥)

بل ان الجهاز الكنسى نفسه لم يتورع الرئيس فيه عن استغلال مرؤوسيه

---

(١) مذاهب فكرية معاصرة : ٤٢

(٢) المسيحية فى العصور الوسطى : ٩١

(٣) معالم تاريخ الانسانية : ٣ : ٩١٣

(٤) قصة الحضارة ٤ / ٦٨

(٥) مذاهب فكرية معاصرة : ٤٣

ولم يترفع المتبوع عن التسلط على التابع ليفرض عليه الضرائب ويجمع منه الاموال) فقد كانت البابوية تقوم بجمع الضرائب من بعض الاديرة ، مقابل تحريرها من ولاية الاسقفيات التي تتبع لها هذه الاديرة ، وتقوم أيضا بجمع الضرائب من بعض الاسقفيات مقابل تحريرها من ولاية رؤساء الاسقفيات الذين تقع هذه الاسقفيات ضمن مناطق نفوذهم . (١)

ولم يأت القرن الثالث عشر حتى اصبحت البابوية تمتلك من الموارد ما يعادل دخل ملوك أوروبا مجتمعين . (٢)

ولقد استغلت الكنيسة الفرص الموءاتية لزيادة أملاكها وتوسيع سيطرتها باساليب لا تمت الى الدين بصلة ،كما حصل فى اواخر القرن السادس الميلادى وبداية القرن السابع ،عندما كانت ايطاليا تعانى من فوضى سياسية واجتماعية كبيرة نتيجة للصراع الدائر بين الامبراطورية الرومانية واللمبارديين) فاستغل اساقفة روما ورجال كنيستها هذا الوضع لزيادة املاكها ،وأخذوا يجمعون الضرائب ويمتلكون الاراضى ، ويتخذون لانفسهم صفة الحكام ، فقاموا بتعيين موظفى البلديات والاشراف على الاعمال العامة . وقد ساعدهم على زيادة ثروتهم أن صغار ملاك الاراضى قد بحثوا لانفسهم عن سلطة قوية تحميهم فى لجة الفوضى الناجمة عن الصراع المذكور ، فوجدوا بغيتهم فى الكنيسة ، فسلمها كثير منهم ارضه مختارا ، واصبح شبه مستأجر فى هذه الارض ، مقابل حصوله على نوع من الحماية والامن . (٣)

بل ان البابا نيقولا الثانى (١٠٥٨ - ١٠٦١م) قد مألا النورمانيين عند احتلالهم لجنوب ايطاليا تحت تأثير ووساطة بعض القسس ، وذلك مقابل

---

(١) أوروبا العصور الوسطى : ٨ - ٩ .

(٢) المصدر السابق : ٢ : ١٠ .

(٣) المصدر السابق : ١ : ١٤٨ .

اعتراف النورمانيين بالتبعية للبابا ، ودفع مبلغ معين من المال له ، على أنهم في الواقع لم يتبعوا له ، وانما كانوا يدفعون له المال . (١)

قال ول ديورانت عن الكنيسة : (أصبحت الكنيسة أكبر ملاك الارض، وأكبر السادة الاقطاعيين في أوروبا فقد كان دير فلدا مثلا ، يمتلك (١٥٠٠٠) قصر صغير ، وكان دير سانت جول يملك الفين من رقيق الارض ، وكان الكونت فيتور (من رجال الكنيسة) سيدا لعشرين الفا من أرقاء الارض) (٢)

(وكانت املاكها الزمنية ، أى المادية وحقوقها والتزاماتها الاقطاعية مما يحلل بالعار كل مسيحي متمسك بدينه ، وسخرية تلوكها السنة الخارجين على الدين ، ومصدر للجدل والعنف بين الاباطرة والباباوات ، وهكذا اصبحت الكنيسة جزءا من نظام الاقطاع) . (٣)

وكان مما وصل اليه تكالب الكنيسة على المال ان أصدر البابا كلامانت الثاني قانونا يقضي على كل امرأة ارتكبت جريمة الزنا ان تعطى نصف ممتلكاتها للدير (٤) . ورغم ان وسائل كثيرة قد اخترعت من أجل التخلص من هذا القانون الا انه يعكس حرص رجال الدين على جمع الثروة بأى طريقة .

وبلغ بهم هوس المال ان جعلوا للنغل أن يتحول الى ابن شرعي ان هو نفح رجال الكنيسة مبلغا معينا من المال . (٥)

جـ ـ الطغيان السياسي

ان من المقبول أن يكون للعارفين بأحكام الدين والحريصين على

---

(١) المصدر السابق : ١ : ٣٢٣

(٢) قصة الحضارة ١٤ / ٤٢٥

(٣) المصدر السابق ١٤ / ٤٢٦

(٤) انظر تاريخ الفحشاء : ١٦٤

(٥) قصة الحضارة ٢١ : ٩٠

التزامها الحق فى الاعتراض على كل ما يخالف هذه الاحكام ، وأن يكون لهم الحق فى المطالبة بتنفيذها والتقيد بها ، بل ان واجب الحكام والعلماء الذى لا يجوز سواه ، انما هو بالدرجة الاولى الحرص على تنفيذ اوامر الدين ، والضرب على يد كل من تسول له نفسه انتهاكها . فمن المقبول اذن أن يكون للعلماء الملتزمين باحكام الدين سلطان على الحاكمين يمكنهم من اعادة الحاكم لجادة الصواب كلما تركها .

ولكن الكنيسة حين ادعت ان لها سلطانا على الناس حاكمهم ومحكومهم قد اخطأت لاسباب :

اولا : حين حصرت هذا الحق برجال الكنيسة دون غيرهم .

ثانيا : لانها طالبت بهذا السلطان من اجل مصلحتها الخاصة وليس من اجل الدين .

ثالثا : لانها قد قالت سلفا بان على المسيحى ان يعطى ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، فاعترفت ان للقيصر أن يحكم الناس حسبما يشاء ، فكان المتوقع منها بعد ذلك ان تتفرغ للامور الروحية المتعلقة بالآخرة حسب تصورها الذى يحصر ذلك بجانب محدود من الحياة . (١)

وقد ادعت الكنيسة هذا السلطان مستندة الى ان البابا باعتباره ممثل الله فى الارض فان له السيادة التامة والسلطان الكامل على جميع المسيحيين . وقد عبر عن هذا البابا نقولا الاول (٨٥٨ - ٨٦٧) حين اصدر بيانا جاء فيه : (ان ابن الله انشأ الكنيسة بأن جعل الرسول بطرس أول رئيس لها وأن اساقفة روما ورثوا سلطات بطرس فى تسلسل مستمر متصل ، ولذلك فان البابا ممثل الله على ظهر الارض يجب ان تكون له السيادة العليا والسلطان الاعظم على جميع المسيحيين حكاما كانوا ومحكومين) . (٢)

---

(١) انظر مذاهب فكرية معاصرة : ٤٣ .

(٢) قصة الحضارة ١٤ : ٣٥٢ .

وقد استند رجال الكنيسة في ادعائهم هذا السلطان على الحكام الى بعض الوثائق التى تبين فيما بعد انها مزورة :

الوثيقة الاولى : هى ما سمى " بهبة قسطنطين " والغاية منها اثبات سلطة البابا الزمنية وسيادته على الغرب الاوروبى ، وهى عبارة عن مرسوم زعم ان قسطنطين قد اصدره عند انشاء روما ، وتنازل بموجبه للكنيسة عن روما وكل اراضى الامبراطورية الغربية ، ويقول الباحثون : ان هذه الوثيقة قد زورت فى القرن الثامن . وبقيت الكنيسة تعتمد على هذه الوثيقة فى دعم سلطتها الزمنية حتى النهضة الايطالية حيث اكتشف أن الوثيقة مزيفة حوالى عام ١٤٤٠م.(١)

الوثيقة الثانية : وهى الوثيقة التى اطلق عليها فيما بعد اسم الاحكام البابوية المزورة ، وقد ظهرت حوالى ٨٥٠ - ٨٥٧م.(٢)

(وكان الغرض الذى تهدف اليه هذه الوثائق ان ما جرت عليه الكنيسة من تقاليد وعادات قديمة تقضى بالا يخلع أى اسقف من منصبه ، والا يدعى اى مجلس من مجالس الكنيسة الى الاجتماع ، والا يفصل فى أى مسألة من المسائل الكبرى ، الا بعد موافقة البابا) .

(ولقد كشف لور نزوقلا فى عام ١٤٤٠م بما لا يترك مجالا للشك عما فى هذه الاحكام الكاذبة من تزوير ، ولهذا فان جميع الطوائف مجمعة فى هذه الايام على ان هذه الوثائق التى كانت مثار الجدل وثائق مزورة) .

(ولقد كان فى وسع كل من أوتى قدرا من العلم ان يكشف عن هذا التزوير ، ولكن البحث العلمى كان قد انحط كثيرا خلال القرنين التاسع والعاشر ، وكان مجرد القول بأن كثرة الادعاءات التى تعزوها هذه الاحكام البابوية الى اساقفة رومه الاولين قد صدرت عن هذا البابا أو ذاك من

---

(١) اوروبا العصور الوسطى ١ : ٣٤٠ .

(٢) المصدر السابق ١ : ٣٤١ .

الباباوات المتأخرين ،كان هذا القول وحده كافيا لاضعاف حجة النقـــاد ولهذا ظل الباباوات ثمانية قرون كاملة يفترضون صحة هذه الوثائـــــق ويستخدمونها لتوطيد اركان سياستهم) . (١)

وكان الباباوات يدعون انهم خلفاء بطرس ، وان الاباطرة يستمـــدون سلطانهم منهم ، وقد تمثل اصرار الباباوات على هذا السلطان الذى يجعلهم أوصياء على الاباطرة فى العديد من الدعاوى والقرارات التى صدرت عـــن الباباوات ، مثل ما جاء فى الارادة البابوية الصادرة عن البابا جريجورى السابع (١٠٧٣ – ١٠٨٥) : (البابا وحده هو الذى يتمتع بسلطة عالمية .

— جميع الامراء العلمانيين يجب ان يقبلّوا قدم البابا وحده .

— للبابا الحق فى عزل الاباطرة .

— لا يجوز عقد أى مجمع دينى عام الا بأمر البابا .

— ليس لاى فرد أن يلغى قرارا بابويا ، فى حين انه من حق البابا أن يلغى قرارات بقية الناس .

— لا يسأل البابا عما يفعل ولا يحاكم على تصرفاته .

— للبابا ان يجيز لرعايا أى حاكم علمانى (وكل الحكام علمانيون بالطبع) التحلل من العهود وايمان الولاء التى اقسموها لحكامهم) . (٢)

وكان هذا البابا يقول : (ان قوة الملوك مستمدة من كبرياء البشـــر وقوة رجال الدين مستمدة من رحمة الله ، ان البابا سيد الاباطرة ، لانـــه يستمد قداسته من تراث سلفه القديس بطرس) . (٣)

واما البابا انوسنت الثالث الذى تولى كرسى البابوية سنة ١١٩٨م ، فقد

---

(١) قصة الحضارة ١٤ / ٣٥١ – ٣٥٤ مقتطفات .

(٢) اوروبا العصور الوسطى : ١ : ٣٥١ .

(٣) المصدر السابق ١ : ٣٥٠ – ٣٥١ .

شبه البابوية بالشمس ، والامبراطورية بالقمر الذى يستمد ضوءه من الشمس.(١)

ومما ينقل عن هذا البابا قوله : (ان الخادم الذى اقامه الله على شعبه انما هو نائب المسيح وخليفة بطرس ، فهو قائم بين الله وعباده دون الرب وفوق البشر ، وهو يحكم الجميع ولا احد يحكمه) . (٢)

وقال مندوب البابا اوريان الرابع ، وهو الكاردينال رولاند - وقد تولى فيما بعد كرسى البابوية - للامبراطور فريدريك الاول فى مجمع بسانسون سنة ١١٥٧م : (ان البابا يحييك كوالد ، والكرادلة يحيونك كاخوة) ، فدهش الامبراطور لهذه التحية العجيبة التى جعلت الكرادلة أخوة مساوين له . (٣)

وتكفينا هذه الامثلة من القرارات والدعاوى البابوية.ولها امثلة كثيرة فى التاريخ الاوروبى .

وقد كان الخلاف حول هذه السيادة المدعاة من البابا على الامبراطور وتلك المدعاة من الامبراطور على البابا ، وما يترتب على كل منهما من حقوق لصاحب السيادة ،كان ذلك مصدر صراع واسع ، فاذا غضب البابا من الامبراطور أصدر ضده قرار الحرمان ، ويرد الامبراطور بخلع البابا ، ويستخدم كل منهما كافة ما لديه من أسلحة ، دون مبالاة بموافقتها أم مخالفتها للدين ، وتحشد الجيوش وتسيل الدماء ، ويتغلب احدهما على الآخر ،غير أن النتيجة النهائية نادرا ما تكون فى غير صالح البابا بشكل تام .

وذلك كما حصل حين وقع نزاع بين البابا جريجورى السابع والامبراطور هنرى الرابع حول مسألة تعيين رجال الدين فى مناصبهم ، فكان كل منهما

---

(١) المصدر السابق ١ : ٣٩٨ .

(٢) معالم تاريخ العصور الوسطى : ١٤٨ ،عن معالم الحضارة فى الاسلام لعبد الله علوان : ٣٩ .

(٣) اوروبا العصور الوسطى ١ : ٣٥٩ ، وقصة الحضارة ١٤ : ٣٩٢ .

يرى أن ذلك حقه ، وكانت نصف اراضي المانيا وثروتها بايدى رجال الدين من أساقفة وديريين ، مما يعنى أن جعل تعيينهم بيد البابا شيئ خطيرا بالنسبة للامبراطور الذى يتركز نفوذه السياسى فى المانيا (١) ، فحاول الامبراطور أن يخلع البابا ، فرد البابا بخلع الامبراطور وحرمانه واحلال اتباعه من ولائهم له ، مما جعل الامبراطور فى موقف حرج ، رغم الحروب القاسية التى خاضها ضد البابا ، فان الامراء انذروه بالخروج عن التبعية له مالم يحصل على مغفرة البابا ، مما اضطره الى السفر الى البابا وأن يقف بباب قلعة كانوسا حيث البابا ، ثلاثة أيام ، متدثرا بالخيش وهو حافى القدمين فى الثلج ينتظر ان يفتح له متناسيا ومتنازلا عن كبريائه وكرامته . (٢)

على ان كل هذا الذلة بين يدى البابا ، ورغم وفاء هنرى الرابع بشروطه التى اخذها عليه البابا فى هذا الموقف ، فان ذلك لم يحل بين البابا واصدار قرار الحرمان ضد هذا الامبراطور مرة اخرى ، عندما خرج عليه دوق سوبيا عام ١٠٨٠م ، ورغم الحروب القاسية التى خاضها هذا الامبراطور ضد جريجورى السابع ومن تبعه من بابوات ، فانه لم يجد بدا من التنازل اخيرا عن العرش لابنه هنرى الصغير الذى ثار عليه ، عندما اصدر البابا باسكال الثانى قرار الحرمان ضده عام ١١٠٥م . (٣)

وقد تكررت تمثيلية اذلال كانوسا بعد مائة سنة مع الامبراطور فردريك الاول سنة ١١٧٧م ، بعد ان ثار صراع عنيف بينه وبين البابا اسكندر الثالث تغلب فيه الامبراطور واحتل روما ، ولكنه لم يستطع فى نهاية الامر الا ان يرتمى

---

(١) اوروبا العصور الوسطى ١ : ٣٥٩ ، وقصة الحضارة ١٤ : ٣٩٢

(٢) انظر معالم تاريخ الانسانية ٣ : ٩١٠ ، اوروبا العصور الوسطى ١ : ٣٩٥ .

(٣) انظر المصدر السابق ١ :

بين قدمى البابا طالبا منه الصفح والغفران . (١)

وكان انوسنت الثالث راهبا يعظ الناس بالتواضع ، فلما تولى كرسى البابوية ١١٩٨م اصبح مثالا للحاكم المتجبر المتكبر (فهو الذى قبل مملكة انجلترا من الملك جون كاقطاع باباوى . وتوج اتو برانزفيك امبراطورا حتى اذا عظم امره وتمرد عليه جلب على نفسه الحرمان فاختار فريدريك ونصبه امبراطورا مكانه . واليه قدم ملك اراغون خضوعه كتابع له . وهو الذى عنف ملوك كاستيل وليون والبرتغال كصبية المدارس . وندد بملوك النيروج وهنغاريا وارمينيا ووجه اللوم اليهم . وفى رهبة منه — ومن جنود البندقية الجشعين الذين نهبوا القسطنطينية أيام الحملة الصليبية الرابعة — قدم الرومان المنشقون عن روما خضوعهم للكرسى الرسولى .... وهو الذى عقد مجمع لاثيران اكبر مجمع مسكونى عرفته الكنيسة فى القرون الوسطى ، ودعا الى حملة صليبية تعكس وحدة العالم المسيحى) . (١)

واشهرت الكنيسة سلاح الحرمان والاتهام بالهرطقة (٢) ضد كل من خالفها ، ولو كان هذا الخلاف من منطلق الغيرة على المسيحية التى شوهتها سيرة الباباوات والاساقفة غير الحميدة وسياستهم غير الرشيدة ، كما فعلت مع حنا وكلف فى القرن الرابع عشر الذى كان ينعى على الكنيسة انصرافها عن

---

(١) تكوين العقل الحديث ١ : ١٣١ . ومن طريف امر هذا البابا انه لما مات ترك جثمانه فى الكنيسة بدون حراسة ، فجاء اللصوص ليلا وجردوه من ملابسه الثمينة ، وتركوا جسده عاريا تنبعث منه الروائح الكريهة بشكل يثير التقزز ، وقد قال احد المفكرين المعاصرين له تعليقا على ذلك :

(لقد شاهدت بأم عينى كيف أن المجد الدنيوى قصير وباطل وخادع) .

المصدر السابق ١ : ١٣١ .

(٢) اوروبا العصور الوسطى ١ : ٥٤١ - ٥٤٢ .

واجبها الاساسى الى جمع الثروة ، ويعتبر الديريين جماعة من المتعطليسن وقد أصدرت الكنيسة ضده قرار الحرمان وطردته من جامعة اكسفورد . وحدث الامر نفسه مع حنا هيس الذى ولد عام ١٣٧٠م ، وكان معروفا بشدة حماسته للاصلاح الدينى ، وقد أخذ يهاجم مفاسد رجال الدين ويطالب باصلاح جوانب الضعف فى الكنيسة ، وانتقد صكوك الغفران بمرارة ، فأوقع البابا عليه قرار الحرمان وطرد من جامعة براغ التى كان يدرس فيها ، ثم قبض عليه وأعدم حرقا عام ١٤١٥م ، ولم تفلح محاولات الامبراطور سجسموند لانقاذه . (١)

ولعل هذه الامثلة تكفينا ، ولها اشباه كثيرة فى التاريخ الاوروبى .

د ـ الطغيان العلمى

كان افضل ما يضمن للكنيسة هيمنة اسرارها واستقرار ما تقول به من دعاوى تخالف العقل والعلم هو تفشى الجهل والبعد عن روح المنهج العلمى ، الذى يقوم على الحقيقة وحدها ، لان الناس متى تعلموا اكتشفوا ما فى هذه الدعاوى من أوهام واغلاط فتسقط بذلك من نفوسهم هيبة الكنيسة والثقة فيها ، فلا يعودون يستجيبون لامرها .

كما ان الكنيسة ـ وكما سبق ـ كانت ظالمة للناس فى أخذ اموالهم ، وفى تسخيرهم للعمل فى أراضيها ، وفى ادعاء سلطان على ارواحهم وفى غير ذلك ، ولا شىء كالجهل يحول بين الانسان وبين الشعور بالظلم ، فيضمن بذلك استمرار هذا الظلم ، ولهذا كان تجهيل الناس باستمرار هو سلاح الظالمين لاستقرار واستمرار وتدعيم ظلمهم ، وهذا ما فعلته الكنيسة .

غير اننا لا نزعم بهذا ان جميع رجال الكنيسة كانوا يجهلون الناس ويحاربون تعليمهم عن عمد وعلم ، فان كثيرا من هؤلاء كانوا مخلصين فى دعوتهم ، لانهم هم بذاتهم كانوا جهالا ، وكانوا يظنون ان الحق فى كل ما ورد فى كتبهم المقدسة ، وفى كل ما ورد فى تفاسير هذه الكتب وشروحها وفى كل ما اشتهر لدى رجال الكنيسة منذ القدم ، فكان بذلك جهلهم مركبا

---

(١) اوروبا العصور الوسطى ١ : ٥٤١ - ٥٤٢ .

لانهم جهال يجهلون انهم كذلك .

وكانت الطريقة العلمية التي تتبناها الكنيسة وتصر عليها لا تقوم على ملاحظة الحوادث واثباتها ، وانما تقوم على مقررات يتم قبولها استنادا الى الكتاب المقدس حسب الصورة المحرفة التي وصل اليها ، واستنادا الى كتابات رجال الكنيسة ، وتأتي بعد ذلك آراء ارسطو التي كانت مقبولة في جميع الحالات ما لم تعارض العقيدة المسيحية بشكل واضح ، كانكار خلق العالم مثلا . (١)

وقد ادى ذلك الى ادعاء آراء ونظريات جغرافية وتاريخية وفلكية وطبيعية ونحوها ، مما كان سائدا في تلك العصور ، والزام الناس بالقول بها ، وبعدم مناقشتها فضلا عن عدم الاعتراض عليها أو القول بسواها .

ومن الواضح ان الكنيسة كانت بهذا تحشر نفسها في زاوية ضيقة وتمكن اعداءها من اقامة الحجة واضحة ضدها ، في مسائل يستحيل على الكنيسة ان تحتفظ بتأييد الناس لوجهة نظرها فيها طويلا ، (وكانت هذه هي القاصمة لانها الباطل الذى يسهل على التجربة بيان بطلانه وكشف زيفه ، ولانها المنطقة التي اطلق الله فيها العقل الانساني ليرتادها ، وهو مزود بكل المؤهلات التي تمكنه من كشفها وتحقيقها ، ولم يفرض عليه فيها نظرية معينة) . (٢)

ولدينا امثلة كثيرة على تشبث الكنيسة بآرائها المخالفة للعلم واستعمال اقصى درجات العنف والاذى ، بكل من مكنه عقله وعلمه من مخالفة هذه الآراء وقد وصل ذلك الى حد قتل الناس وحرقهم وهم احياء ، فان لم تتح الفرصة لسبب ما حرقهم احياء فليحرقوا اموانا ، كما حصل للبعض . ومن الامور

---

(١) تكوين العقل الحديث ١ : ٢٥٦ - ٢٥٧ .

(٢) المستقبل لهذا الدين : ٤٨ - ٤٩ .

المعروفة في التاريخ الاوروبي احراق العالم الايطالي جردانو برونو عام ١٦٠٠م ، لانه صرح بأن الشمس هي مركز الكون ، وان الارض هي التي تدور حول الشمس ، وليس العكس . وكان كوبرنيكس قد اكتشف قبل ذلك هذا المذهب ، ولكنه ـ وهو من رجال الكنيسة ـ قد تردد في نشره خوفا من الكنيسة ، ولم ينشر الا آخر عمره ، وهو على فراش الموت ، وقد توفي بعد ان راى كتابه مطبوعا بساعات ، وبذلك فات الكنيسة ان تشفي غليلها منه لقاء هذه الجراءة فأدخلت كتابه في فهرست الممنوعات التي تحرم قراءتها والاطلاع عليها ويتعين اتلافها .

ومن ذلك ايضا ما لاقاه العالم الايطالي جاليليو حين اثبت صحة اراء كوبرنيكس واخترع التلسكوب ، ووصل الى معلومات فلكية اخرى تخالف ما تقول به الكنيسة ، فاستدعى المذكور الى محكمة التفتيش عام ١٦١٦م ، واتهم بأن قوله مناقض لنصوص الكتاب المقدس مناقضة صريحة ، واذعن جاليليو تحت التهديد لشرط الكنيسة فتعهد بأن لا يعلم بهذا الراى احدا من الناس ولا يدافع عنه كتابة أو مشافهة .

غير ان جاليليو لم يلبث ان عاود نشر ارائه بعد ذلك بسنوات فاصدر احد الاباء الكنيسيين بيانا جاء فيه ان انكار الله والقول بعدم تجسده يمكن ان يلقى تسامحا لا يظفر به من يقول بأن الارض تدور . (٢)

وسجن جاليليو وصودر كتابه ، وضيق عليه في سجنه بالاضافة لما هو فيه من مرض ، ولوحق اتباعه ، حتى أجبر على التراجع عن رأيه وقال : وهو راكع على قدميه ، امام محكمة التفتيش : (أنا جاليليو وقد بلغت السبعين من عمرى ، سجين راكع أمام فخامتك ، والكتاب المقدس أمامي المسه بيدى ، ارفض

---

(١) المستقبل لهذا الدين : ٤٨ - ٤٩ .

(٢) قصة النزاع بين الدين والفلسفة ، توفيق الطويل : ٢٠٤

والعن وأحتقر القول الخاطىء الالحادى بدوران الارض) وليس هذا فقط بل تعهد بان يبلغ محكمة التفتيش عن كل ملحد يؤيد هذا الزعم المضلل .(١)

ولما مات جاليليو رفضت الكنيسة السماح له بالدفن في مقابر أسرته ، ولم تنقل رفاته الى مقابر اسرته الا بعد موته بمائة عام . ولم يسمح بنشر ارائه الا في القرن التاسع عشر . (٢)

ولما قبض على احدى الشخصيات الكنسية واسمه «دمونسا» ، والذى كان يشغل منصب رئيس اساقفة ، واودع السجن بتهمة هرطقة العلم فمات في السجن ، لم يكن من الكنيسة الا احراق جثته وكتبه على مرأى من الناس.(٣)

وكان «جون بورتا» احد مشاهير العلماء في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، وهو اول من اهتدى الى طريقة تحويل الاكاسيد المعدنية واول من بذل مجهودا محمودا في تحويل الفلسفة الطبيعية الى علم واضح مكين ، فاستدعاه البابا بولص الثالث الى روما وحرم عليه متابعة ابحاثه . (٤)

وفي فرنسا ـ وكانت اقل من غيرها نسبيا تشديدا وتضييقا على العلم ـ منع البرلمان سنة ١٦٢٤ طائفة من العلماء من انصار البحث التجريبي الذين انسلخوا عن منهج ارسطو من متابعة أبحاثهم ، وانذر من لا يمتنع عن ذلك بعقوبات صارمة ، وكان ذلك بتأثير رجال الكهنوت . (٥)

ولما اكتشف احد العلماء الغربيين واسمه " دى رومينس " أن قوس قزح انما هو عبارة عن انعكاس ضوء الشمس في نقط الماء ، حبسته الكنيسة حتى

---

(١) المصدر السابق : ٢٠٥ ،

(٢) المصدر السابق : ٢٠٦ ،

(٣) المصدر السابق : ١٥٧ ،

(٤) المصدر السابق : ١٥٥ ،

(٥) المصدر السابق : ١٥٥ ،

الموت ،لانها اعتبرت ذلك مخالفا لرأيها . (١)

ولما ادلى باحث اخر واسمه«بلاج»برايه في ان الموت كان يصيب الكائنات الحية قبل ظهور آدم حسبما تحدد ذلك الكتب المقدسة ، احدث الامر فوضى وجدال واسع ، ادى الى صدور امر بقتل كل من يعتقد ذلك ، لان ذلك يعني ان الحيوانات كانت تصاب بالموت قبل خطيئة آدم بالاكل من الشجرة .(٢)

ولما اعلن«نيوتن»عن اكتشافه لقانون الجاذبية ثارت عليه الكنيسة ، ورمته بمناقضة الكتب المقدسة ، حتى انفضى عنه تلاميذه . (٣)

ولما اكتشف بعض الباحثين الامريكيين تخدير المرأة اثناء الولادة ، غضبت الكنيسة ، وجن جنون القسس ، مدعين ان ذلك يعني تخليص المرأة من العقوبة التي سجلت عليها في سفر التكوين . (٤)

(وقال - اى الرب - للمرأة تكثيرا اكثر اتعاب حملك بالوجع تلدين اولادا) (٥) .

ولم تكن هذه الا نماذج وامثلة لها اشباه كثيرة قد اكتوت بنار هذه السياسة الكنسية .

ولم تسلم الجامعات ودور العلم من هذه السياسة القمعية ، فان الكنيسة كانت في تلك العصور تحتكر الهيمنة على مناهج الجامعات ونشاطاتها ، ولذا فلم يكن مما يعني مناهج هذه الجامعات ومما يعني اساتذتها الحقيقة من

---

(١) مقال للاستاذ يوسف القرضاوى في مجلة الامة عدد ٢٨ سنة ١٤٠٣هـ بعنوان«الاسلام والتطور»ص ١٤ .

(٢) المصدر السابق : ١٤ .

(٣) قصة النزاع بين الدين والفلسفة : ٢١٧ .

(٤) مقال القرضاوى في مجلة الامة : الاسلام والتطور : ١٥ .

(٥) ٣ : ١٦ .

حيث هي نتاج تفكير سليم ،أو تجربة موكدة ،بقدر ما يعنيها التمشي مع اوامر الكنيسة وقراراتها ، وكان على العلماء والمدرسين في هذه الجامعات اذا ما احس احدهم بأن رأيا من الآراء المعتمدة من الكنيسة باطل من الناحية العقلية والعلمية ،فليس امامه الا أن يحبسه في حنايا نفسه ،واذاما خرجت الجامعة عن هذا المنهج المرسوم تعرضت لكيد الكنيسة وبطشها حتى يتم القضاء عليها او تثوب الى غيها وتعود الى ترهات الكنيسة ،وذلك كما حصل لكثير من الاكاديميات العلمية التي كانت تضم افضل العلماء والباحثين مثل أكاديمية " البحث الطبيعي " في ايطاليا ،واكاديمية "دل شيمنتو" التي انشأت في فلورنسا عام ١٦٥٧ ،والتي كان من اعضائها عالم الرياضيات المشهور " بوريلي " وعالم التاريخ الطبيعي " ريدى " ،وقد اتهمت الكنيسة اعضاء هذه الجمعية بالهرطقة واللادينية ،واضطهدتهم وحاربتهم في ارزاقهم حتى اضطر " بوريلي " المذكور الى التسول بحثا عن لقمة العيش واضطر عالم اخر اسمه " اوليفا " حينما تولت محكمة التفتيش تعذيبه الى اللجوء الى الانتحار فرارا من ذلك الجحيم . (١)

ولم يكن اضطهاد العلماء ورواد المنهج العلمي هوحظ الكاثوليك وحدهم ،كما قد يظن ،فان البروتستانت شاركوا الكاثوليك ذلك ،واذا كان ذلك بصورة اقل فان ذلك ربما يكون راجعا لكون الكنيسة البروتستانتيه لم توت من السلطان على الناس ما أوتيت نظيرتها الكاثوليكية ،وقد قال مارتن لوثر عن كوبرنيكس: (انه منجم مأفون مصاب بمس) (٢) ،واعلن كلفن تكفير كل من انكر ان الارض مركز الكون . (٣)

---

(١) انظر قصة النزاع بين الدين والفلسفة ، ١٥٥ - ١٥٦ .

(٢ ، ٣) المصدر السابق : ٤٧ .

وقد نبه استاذنا محمد قطب - حفظه الله - الى انه ثمة سبب آخر لهذا الموقف المتعنت من الكنيسة - غير رغبتها في ابقاء الناس جهالا حتى لا يكتشفوا ان فيما تمليه عليهم خرافات واساطير كثيرة - وهو ان رياح هذا العلم كانت تهب على أوروبا من جهة الممالك الاسلامية ، والحواضر العلمية الاسلامية كتلك التى كانت على مقربة منها في الاندلس ، وان هذا العلم كان يحمل معه خطر انتشار الاسلام ، والقضاء بالتالى على كل سلاح في يد الكنيسة . (١)

يقول احد الكُتّاب المسيحيين الاسبان في القرن التاسع الميلادى واسمه الفارو : (يطرب اخوانى المسيحيون لاشعار العرب وقصصهم ، فهم يدرسون كتب الفقهاء والفلاسفة المحمديين (٢) لا لتفنيدها بل للحصول على اسلوب عربى صحيح رشيق . فأين تجد اليوم علمانيا يقرأ التعليقات اللاتينية على الكتب المقدسة ؟ واين ذلك الذى يدرس الانجيل وكتب الانبياء والرسل ؟ وأسفاه ان شباب المسيحيين الذين هم ابرز الناس مواهب ليسوا على علم بأى ادب ولا لغة غير العربية ، فهم يقرأون كتب العرب ويدرسونها بلهفة وشغف ، وهم يجمعون منها مكتبات كاملة تكلفهم نفقات باهظة ، وانهم ليترنمون في كل مكان بمدح تراث العرب . وانك لتراهم من الناحية الاخرى يحتجون في زراية - اذا ذكرت الكتب المسيحية - بأن تلك المؤلفات غير جديرة باحترامهم) . (٣)

---

(١) انظر مذاهب فكرية معاصرة : ٤٨ .

(٢) نسبة المسلمين الى محمد عليه الصلاة والسلام بدل من نسبتهم الى الاسلام شنشنة كنيسة قديمة مبعثها الاصرار على تجاهل الاسلام وانكار انه من عند الله .

(٣) عن المصدر السابق : ٤٩ .

وواضح من هذا النص قوة التأثير الاسلامي والمدى الذى وصل اليه فى نفوس المسيحيين ، مما لا بد ان ترى فيه الكنيسة الموت .

ذلك ان اوروبا لما ارادت ان تنفض عن نفسها غبار القرون الوسطى وما قبلها من قرون ، مدفوعة لذلك بعوامل شتى ابرزها اتصالها بالمسلمين ، لم يكن امامها من العلم الا ما كان فى دور العلم الاسلامية ، فارسلت ابناءها ليتلقوا فيها شتى المعارف من طب وفلك وهندسة وكيمياء وفيزياء وغيرها ، فتأثروا بالروح الاسلامية التى لمسوها فى اساتذتهم ، والتى تنزع الى حرية البحث ، وتقدير العلم ، واعتبار كرامة الانسان ومكانته ، فزاد كل ذلك من هيجان الكنيسة وعنفها .

ولقد كانت الكنيسة بموقفها هذا من العلم واهله ترسى مبدأ خطيرا فى تاريخ المسيحية ، كان له اثار واسعة تجاوز مداها المسيحية الى مفهوم الدين بشكل عام .

لقد كان من ايحاء الموقف الذى ذهبت ضحيته نفوس بريئة كثيرة ، كل جريرتها البحث عن الحقيقة وخدمة الانسانية ، القول بأن العلم والدين عدوان لدودان ، بل هما ضدان لا يجتمعان ، ولا بد لمن استقبل احدهما ان يستدبر الآخر ، ولا محالة لمن صدق باحدهما ان يكون مكذبا بالآخر(١) وعليك ان تختار بينهما . والقضية على هذه الشاكلة خاسرة بالنسبة للدين ولا شك ، ولكن مصدر هذه الخسارة للدين لم يكن نابعا من تقديم العلم الدليل على ضعف الدين وخسرانه ، فان العلم هو الآخر لم يكن رابحا من هذا النزال الذى زج به فيه ، ولكن مصدر ذلك انما هو مفهوم الدين وتجريده من سلاحه ، وحال اوروبا شاهد على ذلك .

وأساس فساد هذا التصور عن العلاقة بين الدين والعلم انما يعود الى استناده على التاريخ الاوروبى الذى لم يكن يقوم على دين صحيح ، وانما

---

(١) انظر ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين : ١٩٢ - ١٩٣ .

قام على الوثنية التى طفحت بها المسيحية المحرفة ، فان العلم الذى زعمت له هذه العداوة الواسعة للدين فى المسيحية المحرفة هو بذاته قيمة كبرى من قيم التدين فى الاسلام ، بل هو ضمانة هذا التدين ، ((انما يخشى الله من عباده العلماء)) (١) ، وان تدبر ما فى الكون من سموات وارض واحياء وجمادات وليل ونهار والنظر فى آثار الامم السابقة ونحو ذلك كل ذلك مما يدفع القرآن اليه المؤمن دفعا ، ويطالبه بالوقوف على ما فى هذه المخلوقات من عجائب واسرار ، ويتوعد الرسول صلى الله عليه وسلم من مر بهذه الدعوة الى التفكير ولم يمتثلها . قال تعالى : ((ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لايات لقوم يعقلون))(٢) ولما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الاية قال ((ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها)) (٣) .

فالمعرفة الحقيقية لقوانين الكون وسنن الله فيه انما هى من وجهة نظر الاسلام سند ودليل لصحة الدين ، فهى معرفة تخدم قضية التدين ولا تعاديها وتناقضها كما قالت الكنيسة .

وهكذا فرض تحريف الدين السماوى فى التارخ المسيحى ايجاد الفصل والعداء والتضاد بين نزعتين اصيلتين فى النفس الانسانية ، هما نزعة التدين ونزعة التعلم ، مما ادى الى التمزق وما تبعه من القلق والاضطراب داخل النفوس ، بينما يعمل الاسلام على التوآم والتكامل بين هاتين النزعتين فيجنب النفس بذلك التمزق والاضطراب ، ويحقق لها الهدوء والانسجام .(٤)

---

(١) سورة فاطر : ٢٨ .

(٢) سورة البقرة : ١٦٤ .

(٣) رواه ابن ابى الدنيا وابن مردوية . تفسير الالوسى ٢ : ٣٣ .

(٤) انظر مذاهب فكرية معاصرة : ٥٠ .

٣ ـ فساد رجال الدين

لما كان رجال الدين يدعون الناس الى الاعراض عن مباهج الدنيا وشهواتها، فان المأمول فيهم أن يكونوا اكثر الناس اعراضا عن هذه الشهوات والملذائذ، ولما كانوا يحثون الناس على اتباع الفضائل واجتناب القبائح فاللائق بهم عند ذلك ان تكون اخلاقهم وتصرفاتهم فى ذروة السمو والادب والعفة، فان طلبوا من الناس ان يمتنعوا عن المحرمات باعدوا هم بين انفسهم وبين الشبهات، وان امروا الناس بالواجبات اخذوا هم انفسهم بالمستحبات، ليكونوا بذلك الاسوة الطيبة لمن يدعون، فتكون مواعظهم ابلغ اثرا واشد وقعا، اما ان يقولوا للناس: ان من الخير لكم بل من الواجب عليكم ان تتركوا الدنيا، ثم يروحوا هم يجمعونها بكل الوجوه وبشتى الوسائل، وان يقولوا: ان من الخير للانسان ان يترك الزواج، ثم يمارسون الزنا والتهتك والشذوذ الى الحد الذى لا يرعوى معه احيانا كبار رجال الدين عن الوقوع فى الكبائر فى العلن ـ فضلا عن الخفاء ـ وان يصل الحال بالحبر الاعظم الى اقتراف العظائم تحت سمع الناس وعلمهم، فان ذلك يعنى اساءة بالغة يلحقونها بالدين، سواء فى نفوس اتباعهم أم فى نفوس اعدائهم.

لقد كانت المفارقة كبيرة والهوة واسعة بين ما يقوله رجال الدين بالسنتهم وبين ما تنبوء عنه اخلاقهم وتصرفاتهم، فاما حين كانت المسألة تتعلق بأقوالهم فانهم لم يراعوا فى الناس الطاقة والفطرة والاعتدال، فحرموا عليهم المباح، وطالبوهم بما يخالف فطرهم كترك الزواج والعزلة وترك حق البدن ونحو ذلك، وحين يأتى التطبيق والالتزام فرطوا هم انفسهم فى الواجب ووقعوا فى الحرام، حتى اصبحوا فى بعض الاحيان مضرب المثل فى الفساد والمجون.

ولا بد ان من اول آثار هذه المفارقة فى نظر الناس، وهم يستمعون من رجال الدين الى المثالية والخيال فى الفكرة، ويرون منهم الاسفاف والهبوط المخجل فى الواقع، ان من اول آثارها الشعور ببعد الدين عن

روح الجدية والالتزام ، وتعلقه بالدعاوى الظاهرة التى لا يتوقع من الانسان الا التفلت منها ومخالفتها .

ولعلنا فى ضوء هذا ندرك اهمية التوجيه القرآنى فى قوله تعالى ((يا ايها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون . كبر مقتا عند الله ان تقولوا ما لا تفعلون)) (١) .

لقد سيطرت الاثرة وحب المصلحة الخاصة والولوع باللذات والشهوات على اكثر رجال الدين ، وبرز ذلك واضحا فى حرصهم على جمع المال لذاتهم ولذويهم ، وفى تدنى اخلاقهم الذى بلغ درجة التهتك والدعارة .

وقد شاع بينهم فى كثير من العصور دفع الرشوة فى سبيل الحصول على المناصب الدينية ، بل وبيع هذه المناصب بتعرفة معينة ، وهو ما عرف بظاهر السيمونية (٢) . فان ثراء الكنيسة الواسع قد جلب اليها الطامعين يتهافتون على مناصبها ويقدمون الاموال الطائلة للحكام أحيانا وللاساقفة أحيانا اخرى ليولوهم الوظائف الدينية طمعا منهم فى استغلال موارد الكنيسة لصالحهم(٣).

ومما يذكره التاريخ فى هذا أن غلاما فى العاشرة من عمره قد عين رئيس اساقفة تربونه نظير مبلغ كبير من المال . (٤)

وقد تولى احد البابوات واسمه بندكت (١٠٣٢ - ١٠٤٥) كرسى البابوية وعمره اثنا عشر عاما ، وباع كرسى البابوية بعد أن دنسه بحياة الفحش الى جريجورس السادس (بالف او الفى رطل من الذهب) . (٥)

---

(١) سورة الصف : ٢ - ٣ .

(٢) نسبة الى سيمون الساحر الذى ورد ذكره فى الاصحاح الثامن فى سفر اعمال الرسل : ٨ : ٩ ، ١٣ ، ١٨ ، ٢٤ .

(٣) أوروبا العصور الوسطى ١ : ٣٥٠ - ٣٥١ .

(٤) قصة الحضارة ١٤ : ٣٨١ .

(٥) المصدر السابق ١٤ : ٣٧٩ .

ولك ان تتصور ما يمكن ان يفعله هؤلاء المتاجرون فى المناصب الكنسية بحثا عن الربح المادى ، من استيلاء وامتصاص لكل ما تصل اليه ايديهم ، ومن توريث مناصبهم لاولادهم .

(واضحت كثير من مناصب الاساقفة ميراثا لبعض الاسر الشريفة تختص به صغار اولادها أو غير الشرعيين منهم ، وكان احد البارونات فى المانيا يمتلك ثمانى اسقفيات ويورثها لابنائه ، ويقول احد الكرادلة الالمان (حوالى ١٠٤٨) ان الذين يبتاعون كراسى الاساقفة ومناصب الكنيسة قد باعوا حتى الواجهات الرخامية فى الكنائس والواح القرميد فى سقفها ، ليحصلوا على ما ادوه ثمنا لمناصبهم ، وكانت غالبية الذين ينالون المناصب بهذه الوسائل يعيشون عيشة الترف ، ويغضون اعينهم عن الرشا فى المحاكم الاسقفية ويضعون اقاربهم فى المحاكم الكنسية ، ويعبدون المال من دون الله ، ويدينون له وحده بالطاعة والولاء ، ويقول البابا انوسنت الثالث فى وصف احد رؤساء الاساقفة ان لديه كيسا من المال فى الموضع الذى يجب ان يكون فيه قلبه . وقد اصبح ابتياع الكراسى الاسقفية امرا مألوفا ، يقبله الناس على انه تصرف عادى لا غضاضة فيه) . (١)

وقد بلغ الامر بمنصب البابوية ـ فضلا عما دونه من المناصب الكهنوتية ـ ان اصبح رهنا برغبات وجهود بعض النسوة المتهتكات لسنوات طويلة من امثال «مروزيا» التى بجهودها تولى كرسى البابوية كل من عشيقها سرجيوس الثالث (٩٠٤ - ٩١١) ، ويوحنا الحادى عشر (٩٣١ - ٩٣٥) الذى كان من الشائع انه ابن غير شرعى لها من عشيقها سرجيوس الثالث ، وبجهود ابن هذه المرأة الطاغية «البريك» تولى حفيدها اكتافيان بن البريك كرسى البابوية (٩٦٢م) ، وقد سمى البابا يوحنا الثانى ، وقد تميز بالدعارة والمجون ، واقيمت

---

(١) قصة الحضارة ١٤ / ٣٨٢ بتصرف .

عليه الحجة علنا على الزنا بالمحارم ، وبلغ من ذيوع امر اغتصابه النساء ، انهن قد امتنعن عن الاتيان الى روما لزيارة قبور القديسين خوفا منه ، وقد استطاع الامبراطور أوتو خلعه بمساعدة مجمع من المطارنة وذلك بسبب انحرافه الذى تجاوز كل حد . ومثل مروزيا هذه ثيودورا التى تمكنت هى الاخرى من تولية عشيقها يوحنا العاشر كرسى البابوية (٩١٤ - ٩٢٨) . (١)

ويمكنك ان تتحدث ولا حرج عن انتشار الزنا والزنا بالمحارم واللواط والشذوذ ونحو ذلك من انواع العهر ، بين رجال الكنيسة - ونسائها بالطبع - وقد كان احد المفكرين فى القرون الوسطى يصف الرهبان بقوله : (انهم خدام الشيطان منغمسون فى الفسق واللواط والشره وبيع الوظائف الدينية والخروج على الدين ، ويقر بأنه وجد رجال الجيش ارقى خلقا من رجال الدين) . (٢)

ولقد اصبح هؤلاء القديسين والرهبان والاساقفة مضرب المثل فى الفساد والانحراف ، فهذا احد المفكرين يسخر من الطابعين ، فيقول : (ان اخطاءهم لا تقل عن خطايا رجال الدين) ، ويقول : (والحق انه لا سهل على الانسان أن يعثر على رومة مستقيمة عفيفة من ان يعثر على كتاب صحيح). (٣)

ويقول ول ديورانت : (وتحتوى سجلات الاديرة على عشرين مجلدا من المحاكمات بسبب الاتصال الجنسى بين الراهبين والراهبات) (٤) ، ولعل الذى لم يصل الى المحاكمات من هذا القبيل اكثر من ذلك بكثير .

ولقد بلغ فساد روما ما وصفه بعض المفكرين فى تلك القرون بقوله (اما

---

(١) قصة الحضارة ١٤ / ٣٧٦ ، تاريخ الفحشاء : ١٦٩

(٢) قصة الحضارة ٢١ : ٨٤

(٣) المصدر السابق ٢١ : ٨٤

(٤) المصدر السابق فى الموضع نفسه

بلاط رومه فان المرء لا يستطيع ان يصفه بما يستحق من القسوة ، فهو العار الذى لا ينمحي ابد الدهر ، وهى مضرب المثل فى كل ما هو خسيس مخجل فى العالم) . (١)

وقال المصلح الايطالى سافونا رولا :

(ان الفساد يبدأ فى روما ، ثم يمتد الى الاكليروس جميعا . ان كل من فى روما قد جمعوا ثرواتهم عن طريق بيع الوظائف الدينية ، فهم يشترون الحظوة ثم يخلعونها على ابنائهم أو اخوانهم الذين يحصلون عليها بالعنف وبكل الوسائل الآثمة ان شراهتهم لا تخمد ، وهم يرتكبون كل شيء للحصول على الذهب ، انهم لا يدقون اجراسهم الا فى مقابل المال ، وهم لا يحضرون التراتيل والصلوات والقداس الا اذا توقعوا كسبا . انهم يبيعون دخل كنائسهم ويبيعون القربان المقدس ، ويتجرون فى القداس . واذا ما عاش قس أو كاهن حياة عادية فانهم يسخرون منه ، ويقولون انه منافق . واصبح من الشائع أن الجميع يحذرون روما ، وان الناس يقولون اذا ارادت ان تحطم ابنك فاجعله قسا) . (٢) ويقول : (ان رجال الدين ابتعدوا عن اللّه وتنحصر تقواهم فى قضاء الليل مع العاهرات ، ويقولون ان اللّه لا يهتم بالدنيا ، وان كل شيء يحدث بالصدفة) . (٣)

وكان الباباوات فى كثير من الاحيان هم رؤوس الفساد ، ومتولو كبر اعمال العهر والتردى الخلقى ، والنهم الشديد فى حب المال واللذة . ويضيق بنا المجال عن ان نستعرض ولو بشيء من الاختصار ـ مدى السوء الخلقى الذى اصاب كثير من الباباوات ، وسنكتفى ببعض النماذج . فانه قد وصل الحال بكثير منهم الى صورة يتورع عنها ويخجل منها كبار الفساق

---

(١) المصدر السابق ٢١ : ٨٥

(٢) عصر النهضة ، دراسة فى الحضارة الاوروبية الحديثة ، السيد رجب حراز : ١٨٨ .

(٣) المصدر السابق : ١٩٠ .

فباتوا يمارسون الدنايا التى تثلم انسانية الانسان فضلا عن كرامته كالشذوذ واللواط والزنا بالمحارم ، وقد مر بنا طرف من ذلك . وهذا البابا بونيفاشيوس الثامن (١٢٩٤ - ١٣٠٣) يسفك الدماء ، ويبيع وظائف الكنيسة ويبلغ من صور التهتك التى نقلت عنه انه زنا بابنتي اخته وولدتا منه . (١)

وهذا البابا يوحنا الثالث والعشرون (١٤١٠ - ١٤١٧) اتهم بالسرقة والقتل والرشوة والزنا حتى بالمحارم ، وقد حوكم امام مجمع ، وشهد ضده سبعة وثلاثون شاهدا ، كان معظمهم من القساوسة ورجال الدين ، وكان مما تكشف اثناء محاكمته أنه اغوى واغتصب ثلاثمائة راهبة . اما كاتم اسراره الخاص فقد اعترف ان هذا البابا قد دنس حوالى مائتي ضحية . (٢)

اما البابا اسكندر السادس (١٤٩٢ - ١٥٠٣) فان مجرد ذكر اسمه لدى كل من يعرف سيرته انما يذكر بالاباحية فى السلوك ، والولوغ فى المجون كأحط ما يكون ذلك ، واستعمال شتى الاساليب اللاخلاقية للوصول الى الغرض ، فلقد كان هذا البابا مغرما بالنساء الراقصات ، يرقصن بين يديه شبه عاريات ، وقد عرفت عنه هذه العادة فى العلن حتى كان اذا حل فى مكان تسابق اليه كبار القوم - تزلفا ورياء - لاحضار أجمل الراقصات ، يرقصن بين يدى قداسته . (٣) وكان له عشيقات كثر ، أنجب من بعضهن بنين وبنات ، واعترف بهم ، وكانوا مثالا فى العهر والشذوذ ، وذلك كما عرف عن ابنته الجميلة غير الشرعية لوكريسيا ، وكانت أمها متزوجة من رجل آخر واسمها فانوزا ، وقد كانت تعرف فى المجتمع الرومانى فانوزا بورجيا ، نسبة لهذا البابا لان اسمه رودريجوبورجيا . وقد اشتهرت لوكريسيا هذه بفضائحها الجنسية ، وكان والدها يستغل جمالها لتحقيق اغراضه السياسية والمالية

---

(١) تاريخ الفحشاء : ١٧١ .

(٢) المصدر السابق : ١٧١ - ١٧٢ .

(٣) انظر اوروبا فى مطلع العصور الحديثة ١ : ١٩٥ - ١٩٧ .

فيزوجها كلما لاح له كسب ثم يطلقها ويعيدها لقصره بعد ان يحقق غرضه ولو ادى ذلك الى قتل الزوج كما حصل للبعض . ويؤكد بعض المؤرخين المعاصرين لهذا البابا انه لم يكن يتورع عن الزنا بابنته هذه وبأخته وبغيرهما من المحارم . وكان له ابنان غير شرعيين ايضا من خليلته فانوزا المذكورة احدهما اسمه جان؛وكان دوقا،والآخر اسمه شيرازى وكان كردينالا ، وكانت تربطهما علاقات غرامية باختهما لوكريسيا ، وقد قتل الكردينال اخاه الدوق ، وقيل في سبب القتل انه التنافس على لوكريسيا . (١)

ولما اسر الجيش الفرنسي احدى عشيقات هذا البابا واسمها جياليا فارنيس ، فانه قدم لهذا الجيش كل مساعدة ممكنة في اجتياحه لايطاليا وذلك مقابل اطلاق سراحها ، وخرج لاستقبالها ، وهو ممتطي حصانا ، ومترديا لافخر الملابس . (٢)

ومما يذكر المؤرخون عن هذا البابا الاحتفال الشهير الذى اقامه عام ١٥٠١م واستقدم فيه خمسين غانية من اجمل نساء روما ، ومثلن بين يديه عاريات ، وقمن باغرب المناظر الراقصة والماجنة يشاركهن البابا وابنه الكاردينال وابنته لوكريسيا ، مما لا نرى من المناسب الكلام على تفاصيله . (٣)

ولقد روى عن هذا البابا انه ارتكب ما يزيد على الف وخمسمائة فضيحة خلقية من غير ما حياء ولا حرج . (٤)

ولم يكن – سيء الذكر – يرغب في حضور القداسات ، واذا حضر فان الصلاة تختصر للغاية وكان له ولوع شديد بالغلمان . (٥)

---

(١) انظر المآسي والصور الغوامض لعبد الله عنان : ١٤ وما بعدها .

(٢) انظر اوروبا في مطلع العصور الحديثة لعبد العزيز الشناوى ١ : ١٩٥ .

(٣) المآسي والصور الغوامض : ٢٦ .

(٤) اوروبا في مطلع العصور الحديثة ١ : ١٩٧ .

(٥) محاكم التفتيش لاسحق عبيد : ٣٣ - ٣٥ .

وكان يبيع منصب الكردينالية بالمال ، حتى بلغت الرشوة في هـــــذا الصعيد مليون ومائتى الف مارك من الذهب . (١)

وكان لا يتوانى عن استخدام السم لاغتيال خصومه ، أو من تتطلـــــب مصلحته قتله ولو كان من اخص معارفه ، يعاونه في ذلك ابنه الكردينال ، وقد تخصص في اعداد السم له صيادلة مرموقون في روما ، وكان كل من يتعامـــل معه يخافه .

ولعل هذا كله هو الذى دفع المصلح الفلورنسي سافونا رولا ان يكتب عنه في عام ١٤٩٧ الى ملوك اوروبا (اقسم لكم ان هذا الرجل ليس بابـــا واؤكد انه ليس مسيحيا ، ولا يعتقد بوجود الله) . (٢)

وقد كان هذا المصلح يطالب بالعودة لحياة مسيحية حقيقية ، ولما لم تجد معه محاولات البابا لاسكاته عن طريق منحه قبعة الكردينالية ، او عـــن طريق السم ، اصدر ضده قرار الحرمان ، واحرق حيا عام ١٤٩٨م.

ومات اسكندر السادس وهو موفور الصحة ، عندما حاول ان يقتل الكردينال هادريان بالسم ، ولكن الكأس المسموم كان حظه هو فشربه ومات (٣) .

وبهذا يتضح ان الفاتيكان لم يكن في تلك الايام الا عرين ضوار لا تعرف الرحمة او الانسانية .

ومن طرائف البابوات ما كان من امر البابا يوحنا الثامن (٨٧٢-٨٨٢م) مما يشبه الخيال ، ولعل الحقيقة في هذه المرة اغرب من الخيال . فلقـــد كانت علامات الريب والاتهام واضحة في سلوك هذا البابا ، وفيما كان يحضر احتفالا كبيرا اقيم في اكبر شوارع روما ، وبين يديه الكردينالات والمطارنـــة وتحوطه الزينة والانوار من كل جانب ، وعلى مرأى من الجمهور الكبير ، فأجا البابا أو فاجأها بالاصح المخاض ، وولدت طفلا ، وعندها تبين الجميع أن

(١) محاكم التفتيش : ٣٥ .
(٢) اوروبا في مطلع العصور الحديثة ١ : ١٩٥ .
(٣) تاريخ الفحشاء : ١٧٣ ، ومحاكم التفتيش : ٣٦ .

هذا البابا الذى يلتمسون بركته لم يكن الا امرأة بغيا كانت قد هربت مع عشيق لها ، وبعد موت هذا العشيق رجعت الى روما ، ولبست ملابس الرجال وبمساعدة من اخلائها ترقت فى المناصب الكهنوتية حتى بلغت البابوية . (١)

وقد بقيت الكنيسة بعد ذلك حوالى ستمائة عام تقيم احتفالا خاصا عند تنصيب كل بابا ، ليجرى التأكد من كونه ذكرا . (٢)

وانحطت الحياة فى الاديرة الى الحد الذى جعل شاهد معاصر هو " دوبوتر " الذى زار كثيرا من الاديرة فى القرن السادس عشر يقول سنة ١٥٦٣ : (انه يخشى ان يتكلم على راهبات زمانه تفاديا من ان يظن أنه يتكلم باسهاب ومجون عن محلات الفسق والعهر لبنات الهوى ، بدل ان يتكلم عن حظائر الطهر التى تعيش فيها العذارى الواقفات انفسهن لعبادة الله لان الاديرة الدينية لم تكن اليوم هى تلك المعابد المخصصة لعبادة الله بل صارت بيوت فسق ومحلات اجتماع اهل الدعارة من الشبان الذين لا هم لهم الا قضاء شهواتهم البهيمية) . (٣)

ولابى الحسن على بن محمد الشابوشتى المتوفى ٣٨٨هـ كتاب اسمه " الديارات " جاء فيه كثير من اوصاف اللهو والخلاعة والمجون الذى كان يمارس فى الاديرة فى زمان المؤلف ، وبين انها لم تكن الا مراكز لاجتماع اهل الفسق والبطالة ، واورد المؤلف فى كتابه من قصص الفساد التى حصلت فى الاديرة وخاصة اديرة الراهبات ما نعف عن ذكره هنا (٤) ، فلم تكن هذه الاديرة الا بؤر مجون وتهتك .

---

(١) تاريخ الفحشاء : ١٦٧ - ١٦٨

(٢) المصدر السابق : ١٦٨

(٣) دائرة المعارف العشرين ، لمحمد فريد وجدى ، مادة "رهب" ٤ : ٢٩٩

(٤) انظر على سبيل المثال : ١٥٧ من الكتاب المذكور

واما عن خشونة الطبع والغلظة والحاق الاذى بالناس ، فان «ليبولــــد» اسقف ورمز الرجل الخشن الطبع والذى يحمل السلاح دائما ويلحق الاذى بالناس ويتعالى عليهم ، لم يكن هذا الرجل الا نموذجا لكثير من نظائـــره من رجال الدين ، وقد صارح الاسقف المذكور شقيقه ذات يوم بقوله : (يــا اخانا الاسقف ان فرسان العالم الاقطاعى اقل ضراوة منك فى مسلكك ، لقد كنت تخاف الله قليلا قبل دخولك سلك الدين ، ولكنى اراك اليوم لا تخشى السماء ، فرد عليه الاسقف قائلا : عندما نلتقى يا اخى انا وانت فى جهنـم قد ابادلك مقعدك) . (١)

ونختم هذا المبحث بما قاله الكاتب المسيحى جاد المنفلوطى فى تصوير حال الكنيسة: (ان القلب ليفعم بالاسى وتقطر النفس مرارة ، عندما نتعــرض للحياة الدينية فى هذه الفترة من العصور الوسطى ، فقد عم الانحطاط وساد ودب فى الحياة دبيب الفساد ، ومن هامة الراس الى باطن القدم ، اصبحت الكنيسة مريضة ، مضروبة بضربة طرية ، موسومة بسمة الانحطاط الخلقى ، لا فرق بين قائد ومقود ، الجميع زاغوا وفسدوا معا .

ولادراك مدى الفساد الذى تفشى ، وضرب اطنابه فى معسكر القادة من رجال الدين نسوق مثـــالا واحدا ، يوضح لنا حال العاملين فى الكنيســـة فى فرنسا ، ففى خلال القرن الثامن . . . . نقول ان كثيرين من رجـــــال الدين فى فرنسا ، كانوا من جماعة العبيد الهاربين ولم يكن يربطهم بالكهنوت غير المظهر الخارجى وقص شعورهم على طريقة الكهنة فى ذلك الزمان .

(وكانوا يعتبرون الابروشيات التى يخدمون بها ملكا خاصا لهم ، يتصرفون فيها كما يشاؤون ، ويبيعونها لمن يدفع اكثر . وكان رئيس اساقفة رويـــــس اميا لا يقرأ ولا يكتب) . (٢)

---

(١) محاكم التفتيش : ١٦ - ١٧ .

(٢) تاريخ المسيحية فى العصور الوسطى : ٤٠ - ٤١ .

٤ — الرهبانية

بعث عيسى عليه السلام الى بنى اسرائيل وقد سيطرت على حياتهم النظرة المادية وما ينجم عنها من قسوة القلب وغلظة الطبع وفساد الخلق والتعلق بالدنيا ، وفقدان السماحة واللين والرفق ، فاشتملت دعوته عليه السلام على مواعظ فى الدعوة الى تصفية الروح والتخفف من الدنيا والزهد فيها والتعلق بما عند الله ، وتحوى الاناجيل التى بين أيدينا اليوم بعض النصوص التى تتحدث عن التجرد للآخرة والاعراض عن الدنيا ، مثل (ان أردت ان تكون كاملا فاذهب وبع املاكك واعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء . وتعال اتبعنى) . (١)

(ان اراد احد ان يأتى ورائى فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعنى . فان من اراد ان يخلص نفسه يهلكها ومن يهلك نفسه من أجلى يجدها) . (٢)

(يوجد خصيان ولدوا هكذا من بطون امهاتهم ، ويوجد خصيان خصاهم الناس ، ويوجد خصيان خصوا انفسهم لاجل ملكوت السموات من استطاع ان يقبل فليقبل) . (٣)

ولقد كانت المجتمعات المسيحية الاولى بسيطة متقشفة ، وذلك سعيا للمحافظة على روح المحبة المسيحية ، وتدريبا للنفس على التطهير والقداسة والفضيلة ، لتحقيق الزهد فى الحاجات البشرية التى تعتبر قليلة الاهمية وصرف الاتجاه الى الامور السماوية العليا ، وذلك بهدف التعجيل بمجىء ملكوت الله ، وقد اضطر بعض النصارى قبل القرن الرابع بسبب الاضطهاد العنيف الذى تعرضوا له الى التفكير فى العيش فى الاماكن النائية ، فرارا

---

(١) انجيل متى ١٩ : ٢١

(٢) انجيل متى ١٦ : ٢٤ - ٢٥

(٣) انجيل متى ١٩ : ١١ - ١٢

بعقيدتهم وتخليصا لانفسهم من هذا الاضطهاد . (١) غير انه مع مرور الزمان امتزج كل هذا وما صاحبه من احتقار اللذة بثنائية الشرق وبالافلاطونية الجديدة التى احتقرت الجسد وباراء الغنوطسيين ومخلفات الاديان السابقة ، بالاضافة لاقوال بولس التى تحتقر الجسد ، مثل قوله : (وانما أقول اسلكوا بالروح فلا تكملوا شهوة الجسد . لان الجسد يشتهى ضد الروح والروح ضد الجسد . وهذان يقاوم احدهما الآخر) (٢) ، وانتهى الامر الى اعتبار قهر الجسد وكبت رغباته والزهد فى العالم الارضى امرا مطلوبا لذاته لا صلة لذلك بالقيمة الاساسية لها باعتبارها طريقة لتدريب الجسد على الاهتمام بالعالم العلوى . (٣)

ووجد دعاة هذا الاتجاه فيما ذكرنا من نصوص الاناجيل الداعية الى الزهد ، وفى القول بتفاهة اشياء قيصر ، وفى الاعتقاد بقرب مجىء ملكوت الله ما يتعلقون به فى دعم آرائهم ، واخذوا يفسرون هذه النصوص حسبما يتمشى مع دعوتهم ، فقالوا بمشروعية الرهبانية وما فيها من انقطاع عن الدنيا واعتزال للناس والتقشف واحتمال الجوع والعطش والبعد عن النظافة وترك الزواج والمبالغة فى القيام بالاوراد والعبادات ، ونحو ذلك .

وكانت هذه الحركة فردية فى بدايتها ، حيث كان الراهب يعيش منعزلا فى كهف أو شعب وسط الهوام والحشرات ، يرتدى اسمالا بالية ، ثم تطور الامر الى اجتماع الرهبان فى وحدات ، فنشأ عن ذلك النظام الديرى (٤) على ان كل ذلك لم تكن تعرفه المجتمعات المسيحية الاولى ، فقد قال القس

---

(١) اوروبا العصور الوسطى ١ : ١٦١ - ١٦٢ ،

(٢) رسالة بولس الى أهل غلاطية ٥ : ١٦ - ١٧ ،

(٣) انظر تكوين العقل الحديث : ١ : ١١١ - ١١٢ ،

(٤) انظر اوروبا العصور الوسطى ١ : ١٦٢ - ١٦٣ ،

تيرتوليان الذى عاش من (١٦٠ - ٢٤٠م) : (اننا لسنا من البراهمة ولا من معتزلة الهنود فلا نعتزل الناس الى الغابات ، بل نساكنكم فى هذه الدنيا فنترد د على أسواقكم ومحلاتكم العامة ، ونشتغل بالتجارة ونركب البحار معكم ونعمل لاصلاح المجتمع الانسانى ، ونخلط صناعتنا بصناعتكم) . (١)

وكان ظهور الرهبنة لاول مرة بمصر ، ويعتبر القديس بولس الطيبى (٢٥١ - ٣٥٦م) والقديس انطون المعاصر له أول مثلين على ذلك . (٢)

اما الاديرة فقد كان أول دير قد انشىء فيما بين (٣١٥ - ٣٢٠) بصعيد مصر ، على يد القديس باخوم ، الذى كان وثنيا ثم تنصر ، وبدأ حياته الدينية متبعا مذهب العزلة بالصحراء ، فلما ضاق ذرعا بذلك اتجه الى انشاء الدير المذكور . (٣)

وقد ساعدت عوامل عدة على اتساع نطاق الرهبنة وكثرة الداخلين الى الاديرة فيما بعد ، فان الكثيرين قد تحسروا حين سمعوا قصص الشهداء فى الاجيال السابقة وكيف تحملوا التعذيب والقتل بصبر وثبات ، تحسروا أن لم يدركوا تلك الازمان فيضحوا فى سبيل عقيدتهم كما ضحى اولئك الصالحون ، فأرادوا أن يعوضوا ما فاتهم بالتفرغ للعبادة والانقطاع عن الدنيا فاتجهوا للرهبنة .

كما ان الصراع الذى خاضته الامبراطورية الرومانية ضد البربر ، وما نجم عنه من هزيمة المجتمع المتمدن أمام البرابرة ، قد دفع بالكثيرين الذين عجزوا بدافع من ضعفهم الذاتى امام الشدائد التى يعج بها عالم زاخر بالحرب والكفاح الاعمى الذى يعتمد على القوة فى سبيل البقاء ، واخذوا يتطلعون

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية لمحمد فريد وجدى : مادة رهب ٤ : ٢٩٩ .

(٢) اوروبا العصور الوسطى : ١ / ١٦٢ .

(٣) المصدر السابق : ١٦٣ .

الى ملجأ مكين يجدون فيه الراحة والامن ، فلم يكن امامهم واحات وارفة الظلال ينعمون فيها بما يريدون كالاديرة . (١)

ووجد ايضا الكثير من الناس الذين لم يستطيعوا أن يتحملوا قسوة الحياة الزراعية السائدة وما تحتاجه من جهد مضن ، فألفوا في شروات الاديرة ما يضمن لهم حياة طيبة من غير ان يضطلعوا بمسؤوليات عائلية تثقل كواهلهم فاتجهوا اليها ، وغدت الاديرة ملجأ للكسالى والمتواكلين . (٢) ومنذ القدم لوحظ هذا ، وقد اشتكى منه بعض الكتاب الدينيين : (ان البعض يستر الكسل والتواني والشر ببراقع التقوى والتعبد والانقطاع الى الله) . (٣)

كما ساهم في نمو هذه الحركة ما شاع في المجتمع من أوجه الفساد المتعددة والكثيرة ، فبات كثير من اصحاب النفوس الرقيقة ، ممن لم يرق لهم العيش وسط هذه الحياة الناعمة الملطخة بالآثام تتطلع نفوسهم الى الاديرة لعلهم يجدون فيها حياة الطهر التي يحلمون بها . (٤)

وقد حفلت الرهبانية وحياة الاديرة بالافراط والغلو ، كما حفلت بالتفريط والتقصير . فأغرم بعض الرهبان بتعذيب النفس وتحميلها ما لا تطيق ، وتنكب اليسر الى العسر والحرج وركوب الصعاب واتخاذ الآصار ، (وروى المؤرخون من ذلك عجائب ، فحدثوا عن الراهب ماكاريوس Makarius أنه نام ستة أشهر في مستنقع ليقرص جسده العاري ذباب سام ، وكان يحمل دائما نحو قنطار من حديد ، وكان صاحبه الراهب يوسيبيس Eusebius يحمل نحو قنطارين من حديد ، وقد أقام ثلاثة أعوام في بئر نزح ، وقد عبد الراهب

---

(١) انظر تكوين العقل الحديث : ١ : ١١٣ - ١١٤ .

(٢) انظر المصدر السابق ١ : ١١٧ .

(٣) دائرة معارف بطرس البستاني : مادة رهب ٨ : ٦٨٩ .

(٤) انظر المسيحية نشأتها وتطورها : ١٨٨ - ١٨٩ ، وانظر اوروبا العصور الوسطى ١ : ١٦٢ .

يوحنا St.jhon ثلاث ستين قائما على رجل واحدة .... ولم يقعد خلال هذه المدة ، فاذا تعب جدا أسند ظهره الى صخرة ، وكان بعض الرهبان لا يكتسون دائما ، وانما يتسترون بشعرهم الطويل ، ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالانعام وكان أكثرهم يسكنون فى مغارات السباع والآبار النازحة والمقابر ، ويأكل كثيرا من الكلأ والحشيش ، وكانوا يعدون طهارة الجسم منافية لنقاء الروح ويتأثمون من غسل الاعضاء ، وأزهد الناس عندهم وأتقاهم أبعدهم عن الطهارة وأوغلهم فى النجاسات والدنس ، يقول الراهب اتهينس: ان الراهب انتونى لم يقترف اثم غسل الرجلين طول عمره ، وكان الراهب ابراهام لم يمس وجهه ولا رجله الماء خمسين سنة ، وقد قال الراهب الاسكندرى بعد زمن متلهفا : وأسفاه لقد كنا فى زمن نعد غسل الوجه حراما فاذا بنا الان ندخل الحمامات) . (١)

وقيل عن القديس بولس الطيبى انه قضى حوالى سبع وتسعين سنة وحيدا منفردا فى احد الكهوف . (٢)

وبقدر ما نجد من هذا الغلو الجامح فى هذا الاتجاه لدى البعض فاننا نجد أن الكثيرين غيرهم قد فرطوا فى التزام العبادة والتقيد بقواعد الدين والخلق ، وقد مربنا من قبل امثلة كثيرة للانحراف والفضائح الاخلاقية وللتهالك على المال ، بالنسبة للراهبين والراهبات ، (حتى اذا جاء القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر اصبح الرهبان يعتبرون فى نظر سكان المدن اسوأ الامثلة للطبقة المترفة) . (٣) ولقد بلغ الامر التنافس الشديد حول النفوذ والثروة ، ليس بين الرهبان والعلمانيين ، بل بين الرهبان وغيرهم من

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين : ١٨٥

(٢) اوروبا العصور الوسطى ١ : ١٦٢

(٣) تكوين العقل الحديث ١ : ١١٧

رجال الدين خارج الاديرة . (١)

وقد برع الرهبان في اختطاف الاطفال من امهاتهم وتهريبهم ، ليربوهم تربية ديرية ، ويعتبرون ذلك التهريب من أعمال البر والتقوى ، ولم تكن الحكومة تملك منع ذلك . (٢)

وانتشرت حركة الرهبنة في أوروبا انتشارا واسعا ، وكثر عدد الرهبان كثرة تند عن الحصر ، حتى قال ليكي في كتابه " تاريخ اخلاق اوروبا ": (زاد عدد الرهبان زيادة عظيمة ، واستفحل امرهم واسترعوا الانظار وشغلوا الناس ، ولا يمكن الآن احصاؤهم بالدقة ، ولكن مما يلقى الضوء على كثرتهم وانتشار الحركة الرهبانية ما روى المؤرخون أنه كان يجتمع في أيام عيد الفصح خمسون الفا من الرهبان ، وفي القرن الرابع المسيحي كان راهب واحد يشرف على خمسة الاف راهب ، وكان الراهب " سرابيين " يرأس عشرة الاف ، وقد بلغ عددهم في نهاية القرن الرابع عدد أهل مصر) . (٣)

وكان من نتائج ذلك ان اصبحت هذه الحركة المتزايدة عاملا من عوامل التفكك والانحلال في المجتمع ، وبدا ذلك واضحا في فترة مبكرة من نشوء هذا اللون من النشاط الديني ، فان مجمع جانجرا الذى عقد سنة ٣٦٢م شكا من ان نشاط الحركة الديرية قد أدى فعلا الى تمزيق الاسرة وشل مرافق الحياة العامة . وأحست الحكومة الرومانية هي الاخرى بالخطر من اتساع هذه الحركة وكثرة الذين يغادرون المجتمع للانخراط في سلكها فسنت قانونا يحرم دخول الاديرة على اللائقين للحياة العسكرية . (٤)

---

(١) انظر اوروبا العصور الوسطى ١ : ١٦٨ .

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين : ١٨٥ .

(٣) عن ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين : ١٨٤ .

(٤) اوروبا العصور الوسطى ١ : ١٦٦ .

وكان نمو الديرية داعيا لاشتداد فكرة عدم زواج رجال الدين ، حقيقة أن هذه الفكرة أسبق من الديرية ذاتها ، ولكن قوة الديرية عمقت هذه الفكرة وشجعت بعض البابوات على اصدار الاوامر بمنع زواج رجال الدين .

وكان أيضا من نتائج هذه الحركة وما صاحبها من عزوبة الرهبان ورجال الدين بشكل عام ، وقلة العناية بالبدن أن قل النسل وكثرت الامراض ، (فلم يتضاعف عدد سكان القارة الاوروبية فى الف سنة ، ولم يتضاعف عدد سكان انجلترا فى خمسمائة سنة) . (١)

هذا بالاضافة لما جلبته هذه الحياة المتزمتة على الكثيرين من الجنون واليأس والانتحار . (٢)

ولم تكن هذه الآثار وغيرها الا النتيجة المتوقعة لهذه السلبية فى النظر الى الحياة والانكماش عنها ، ومحاولة كبت الدوافع الفطرية فى الانسان ، وتضخيم بعضها على حساب بعضها الآخر ، وحسبنا ان ننقل هنا شهادة باحث نصرانى هو راندال فى كتابه " تكوين العقل الحديث " :

(ان المسؤولية التى اضطلع الراهب بأعبائها فى القرون الوسطى تظهر للعقل الحديث وكأنها حشد للقوى البشرية مستحيل التطبيق . فكبت ما هو طبيعى وانسانى فى الفرد ، كالرغبة فى العلاقات الاجتماعية ، ومحبة خيرات الطبيعة ، وفوق هذا وذاك خنق الغرائز الجنسية الجامحة . كل ذلك لا يمكن ان يتم الا تحت تأثير أعظم الدوافع وأقواها . فليس من المستغرب اذن أن تمتلىء السير بانباء الثورات الحزينة للغرائز الجامحة وأن يشتد مركب الحس بعدم الطهارة ، وما يرافقه من اهتمام مرضى بالجنس وخوف مشوه من اكثر قوى الحياة فائدة وجدوى . وليس من قبيل الصدفة

---

(١) ماذا خسر العالم : ١٩٠ .

(٢) دائرة معارف بطرس البستانى : مادة رهب ٨ : ٦٨٩ .

ان مختلف الرهبنات كانت بحاجة مستمرة الى اصلاحات جديدة). (١)

غير ان هؤلاء المتجشمين لهذه المصاعب كثيرا ما اختاروا هذا الطريق ليفروا من صعوبات أخرى ، فان المنقطع الى الترهب يعاني من مرارة الحرمان مدة تطول أو تقصر ، ولكن الصمود والانتصار في هذه المعركة لا يتطلب الا مجاهدة الدوافع والشهوات النفسية ، ولسنا نقلل من اهمية ذلك وصعوبته ؛ ولكنه مهما يكن من امره فانه يقى صاحبه تحديات كثيرة وكبيرة ، ويجنبه مصاعب عديدة ، ويوفر عليه جهدا جهيدا وهو يجاهد المنكر فيما حوله ويدعو الى الحق والمعروف ، ثم هو ربما ضحى في سبيل ذلك بنفسه وماله وبكل ما يملك ، غير انه في كل ذلك لا يصادم الفطرة ، بل يداريها ويماشيها .

ان خير ما يهش له اهل المنكر ودعاته ان ينزوى اصحاب الحق والمعروف وأصفياء الناس وأخيارهم ، ويشتغلوا بأنفسهم ، ويتركوا لاولئك امر المجتمع والحياة يستغلونها حسبما يشتهون ، فيشرعون ويظلمون وينحرفون .

ولو كان هؤلاء المتبتلون المترهبون حين اعتزلوا الحياة والناس قد أوفوا بما اخذوه على انفسهم ، فانقطعوا للعبادة ، وبعدوا عن المعاصي وعن العصاة ، وكانوا على مايؤمل فيهم من بشاشة الوجه ولين المعاملة وسماحة الخلق والبعد عن الريب والظنون ، لقلنا ان بعض الشر أهون من بعض ، وانهم وان لم يدركوا الخير كله فانه لم يفتهم بعضه ، ولكن الغالبية العظمى منهم بعد ان فرطوا في الحياة والمجتمع ان تُعبِّد لله ، كانوا في التزام العبادة والسلوك الطيب أزهد ما يكونون ، وصدق الله العظيم ((ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها)) (٢) ، وسواء أكان المراد بالآية ان هذه الرهبانية كانت من

---

(١) ١ : ١١٧ .

(٢) سورة الحديد : ٢٧ .

ابتداعهم وليس مما كتبه اللّه عليهم ، ولكن كتب اللّه عليهم ابتغاء رضوان اللّه كما ذهب اليه بعض المفسرين (١) ، أم أن المراد ان هذه الرهبانية لم يكتبها اللّه عليهم رأسا ، ولكنهم ابتدعوها بغية رضوان اللّه ، كما ذهب له آخرون (٢) ، فانه تتضح من الآية حقيقتان : اولا : ان الرهبانية اصلا مبتدعة وليست من شرع اللّه . ثانيا : انهم لم يرعوها بل فرطوا فيها وخالفوها وهيهات ان يستطيعوا الصبر على ما يخالف الفطرة ويصادمها .

---

(١) انظر فتح القدير ٥ : ١٧٨ ،

(٢) انظر روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى : ٢٧ : ١٩١ ،

ه — محاكم التفتيش

ان الدعوة الى ما يخالف الحقيقة أو الفطرة الانسانية شيء لا يمكن أن يدوم أو يستمر ، الا بقدر ما يغشى العقل الانسانى من سحب الجهل والخرافة التى ان غلبت فى زمن ما فلا بد لها أن تنقشع فى زمن آخر ، وان سادت لدى العامة فلا بد أن تجد فى الخاصة من العلماء والمفكرين من يتشكك فيها ، ولا يزال يتابعها حتى يكشف أمرها ، وهكذا كان حال ما تبنته الكنيسة من آراء وأفكار ونظريات .

وكان رجال الكنيسة يشعرون بضعف موقفهم أمام خصومهم ، خاصة وأن فى هوءلاء الخصوم الكثير من أحرار الفكر وجهابذة العلماء والعباقرة ، وكانوا يحسون أنه لا سبيل للتغلب على هوءلاء المعارضين عن طريق الحجة والبرهان ولا يمكن اقناع الناس ببطلان كلام هوءلاء المخالفين للكنيسة من الناحية الموضوعية والعلمية ، ولم يكونوا يجهلون أن بنيانهم هش اذا اتيح لاولئك ان يدلوا بحججهم ضده ، هذا بالاضافة لما يدركون من الفارق فى المستوى الثقافى والتعليمى بين خصوم الكنيسة وبين الكثير من رجالها ، مما يجعل من غير الممكن أن يتوقعوا انهم سيكسبون المعركة ضدهم اذا كان السلاح الماضى فيها هو المنطق والحجة . واذن فليستبدل رجال الكنيسة بسلاح الحجة والبرهان هذا آخر يكون فى صالحهم ، فاذا لم يكن سلاح البيان واللسان ذا قيمة فليكن سلاح السيف والسنان ، واذا كانت الكنيسة لا تستطيع ان تقنع الناس ببطلان ما يقوله مخالفوها فلتحل بين اولئك المخالفين وبين ان يقولوا شيئا للناس ، ولتقف سدا منيعا بين الناس وبين ان يقرأوا أو يسمعوا ما يخالف ما تمليه عليهم الكنيسة ، وبقيت هذه السياسة فى القرون المسيحية الاولى فى نطاق معين ، تتمثل فى حالات تختلف فى شدتها ومداها ، فلما اتسعت حركة مخالفة اراء الكنيسة شرعت الكنيسة فى تشكيل ما اطلق عليه " محاكم التفتيش " ، وقد أقر مجمع لاتيران الذى عقده البابا انوسنت الثالث

١٢١٥م عقوبة الاعدام للهراطقة ، وهم الذين يخالفون اوامر الكنيسة الكاثوليكية ، ومما قاله البابا المذكور ، (اذا كان العيب في الذات الملكية يستوجب القصاص بالموت ، فكم بالاحرى يكون ذلك على من يتطاولون على الله من الهراطقة) (١) فاستند البابا المذكور ليصل الى ما يريد - كما هو واضح - على ان انتقاد الملك يستوجب الموت ، وكان الجدير به بصفته الحبر الاعظم أن يكون رمز الرحمة والعدل وان يعترض على هذا الظلم الذي يجعل من ينتقد الملك يتلقى الاعدام ، لا أن يتكئ على هذا المبدأ الجائر ، ولكن هكذا كان الحال .

ولو بقي الامر مقصورا على اعدام من يتطاول على الله لكان له وجه ، ولكنه تعدى ذلك الى كل من يخالف تعاليم الكنيسة ، وبشكل يتجاوز كل حد مقبول

قال ويلز : (وقبل القرن الثالث عشر لم تنزل عقوبة الاعدام الا نادرا بالملاحدة والكفار . فأما الان فان كبار رجال الكنيسة كانوا يقفون في مائة ساحة من ساحات الاسواق في أوروبا ليراقبوا أجسام اعدائها ، وهم في غالبية الامر قوم فقراء لا وزن لهم ، تحترق بالنار وتخمد أنفاسهم بحالة محزنة وتحترق وتخمد معهم في نفس الحين الرسالة العظمى لرجال الكنيسة الى البشرية فتصبح رمادا تذروه الرياح) . (٢)

وكان قضاة هذه المحاكم من الكرادلة المتعصبين للكاثوليكية . واما عن اجراءتها فكانت تتعارض بشكل صارخ مع كل مبادئ الرحمة والانسانية التي نادى بها المسيح عليه السلام ، فالمحاكمة تتم سرا ، ولا تتورع المحكمة عن استخدام مختلف وسائل التعذيب لحمل المتهم على الاقرار بالتهم الموجهة اليه ، ولا تبدأ المحاكمة حتى يكون المتهم في حالة انهيار شبه تام .

---

(١) محاكم التفتيش : ٥١ .

(٢) معالم تاريخ الانسانية ٣ : ٩٠٨ - ٩٠٩ .

ومن الوسائل التى كانت تستعمل فى تعذيب المتهم : تعليقه من يديه أو رجليه على الحائط ، وطرحه من مكان عال بعد ان تكون يداه مربوطة خلف ظهره ، وقد تشد مع ذلك الى رجليه بعض الاثقال حتى يكون سقوطه مروعا ، ومنها ان يطرح المتهم على منصة على شكل مثلث ويربط بحبل يلتف عقدا حول جميع اعضاء البدن الموثق وقد تمزق تمزيقا ، ومن تلك الوسائل الكى بالنار فتطلى مثلا قدمى المتهم بالشحم ، ثم تعرض على نار ملتهبة ، وبعد أخذ جرعة من هذا المس بالنار يسدل ساتر حديدى لحجز اللهب عن قدمى المعذب ، ويظهر المفتش لانتزاع الاعتراف ، وكثيرا ما مات المتهم من شدة التعذيب قبل ان ينطق بالاعتراف المطلوب ، هذا بالطبع عدا عن الحرمان من الطعام والشراب ، وقد جرى بين رجالات محاكم التفتيش القول بأن (البلاء يفتح الافواه المغلقة للاعتراف) . (١)

وعلى مفتش المحكمة - الذى يعتبر اصدار الحكم وقفا عليه - ان يستخدم مع المتهمين مختلف اساليب الاحتيال والمكر والمراوغة للحصول على اعترافاتهم فاذا اقتضى الحال فليخاطبهم بمعسول الكلام ، وليعدهم - كذبا - بالصفح والغفران ان هم اعترفوا ، وقد يكون من ذلك ان يأمر للمتهم بطعام فاخر خلال فترة الاحتجاز للتحقيق ، الى غير ذلك من وسائل الاستدراج والاستمالة وقد نجحت هذه الاساليب والتى سبقتها فى جر الابن ليشهد على أبيه والاب ليشهد ضد ابنه ، والزوج ليشهد ضد زوجه ، (ولدينا رسالة من البابا جريجورى التاسع يهنئ فيها المفتش العام روبرت لى بوجر فى شمال فرنسا ، على نجاحه المنقطع النظير فى ارهاب الناس حتى شهد الكثيرون ضد ذويهم من لحمهم ودمهم) . (٢)

---

(١) محاكم التفتيش : ٥٠ .

(٢) المصدر السابق : ٤٩ .

ورغم ان مسألة انتزاع الاعتراف عن طريق التعذيب أقرت رسميا من السلطات الكنسية وجرى التأكيد على ذلك على لسان عدد من البابوات مثل انوسنت الثالث في مرسوم سنة ١٢٥٢م ، واسكندر الرابع في مرسوم سنة ١٢٥٩م ، وكلمنت الرابع في مرسوم ١٢٦٥م ، فان المحكمة كانت تكتب دائما في سجلاتها بعد تعذيب المتهم : ان المتهم ادلى باعترافاته بطواعية ودون اى اكراه أو تعذيب.(١)

ولم يكن المتهم يعرف أسماء الاشخاص الذين يشهدون ضده ، فضلا عن ان يسمح له بمقابلتهم أو مناقشتهم ، وكان يطلب لشهود نفي التهمة من الشروط ما يغض النظر عنه في شهود اثبات التهمة ، ولم تكن احكام هذه المحاكم قابلة لاى استئناف أو نقض،والمبدأ الذى تقوم عليه المحاكمة ان المتهم يعتبر مجرما حتى تثبت براءته ، وهيهات ان تثبت ، فانه بقدر ما كان هنالك من تساهل في قبول شبهات الاتهام كان هنالك تشديد في قبول ادلة البراءة ، ولم يكن الاعتراف ينهي قضية تعذيب المتهم ، لان المحكمة بعد ان يعترف المتهم بما يطلب منه لا تفتأ تطلب منه ان يكشف لها عن انصار وشركاء آخرين ، ولا تزال تطلب منه المزيد تلو المزيد . ولم تكن تبعة الاتهام تقف عند المتهم وحده ، فلظى هذه الاحكام لا بد ان يلفح البنين والحفدة ، فيسلبون حقهم في وراثة هذا الهرطيق ، وتصادر امواله ، وقد اقر ذلك عدد من المجامع،ويحرمون أيضا من مزاولة كثير من الاعمال وتولي كثير من الوظائف . (٢)

وكانت المحكمة تكتفي في حالة الادانة بالنص على ان التهمة بالهرطقة قد ثبتت ضد المتهم ، ويسلم الى السلطات المدنية التي تقوم باحراقه حيا واذا اعلن المتهم توبته وقبلت هذه التوبة فانه يحكم عليه في الغالب بالسجن

---

(١) المصدر السابق : ٥١ .

(٢) انظر قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والاسلام : ٧٩ .

مدى الحياة تطهيرا له من بقايا الهرطقة .

وقد راى بعض البابوات ضرورة هدم دور الهراطقة ، بل ان البابا انوسنت الرابع أوجب عام ١٢٥٢م ضرورة هدم المنازل المجاورة لمنزل الهرطيق خشية أن تكون قد تلوثت بوباء الهرطقة . (١)

وقد بلغ الشطط والعنف ببعض مفتشي هذه المحاكم كل مبلغ ، كما حصل مع المفتش الجبار «كونراد ماربورج» ، الذى عين من قبل البابا جريجورى التاسع وأصدر اوامره بحرق وشنق الاف الابرياء ، وكان يكفى عنده أن يشي جاره بجاره حتى يقتل جميع اهل البيت ، ولم يكن يعرف الى التوسط والاعتدال سبيلا . (٢)

ومما جاء فى مرسوم البابا بول الثالث الذى اصدره عام ١٥٤٢م ان هذه المحاكم لها الحق فى محاكمة كل من اتهم بالهرطقة وكل من يسانده (مهما تكن مراكزهم أو رتبهم او درجاتهم او صدارتهم فى المجتمع ، ولها الحق فى ايداعهم السجون قبل محاكمتهم ، واذا ثبتت التهمة عليهم صدرت عليهم الاحكام بتوقيع العقوبات المقررة فى القانون الكنسى ومصادرة ممتلكاتهم) ، ويقرر المرسوم المذكور ان سلطات هذه المحاكم تعلو أى سلطات أخرى مهما يكن مصدرها ، وذُيّل المرسوم بالقول (وليعلم جيدا كل فرد تسول له نفسه مقاومة هذا المرسوم او التصدى لمنع تنفيذه أن لعنة الله القوى الجبار سوف تحيق به ، وان لعنة الرسولين بطرس وبولس سوف تنزل عليه) . (٣)

وقال البابا بول الرابع : (يجب القضاء على الهرطقة بكل شدة وبكل عنف كما يقضى الانسان على الطاعون ، لان الهرطقة مرض يصيب الروح . واذا كانت الخرق والملابس الملوثة بالطاعون ترفع من أماكنها وتحرق ، فلماذا لا

---

(١) انظر محاكم التفتيش : ٥٥ .

(٢) انظر المصدر السابق : ٧١ - ٧٢ .

(٣) اوروبا فى مطلع العصور الحديثة ١ : ٥٧٦ .

يجب علينا ان نستأصل وان نمحق وان نزيل الهرطقة بنفس الشدة . أن الهرطقة مرض يصيب العقل ، وهو أغلى واثمن جزء فى جسم الانسان ، ولا يمكن مقارنته بأى جزء آخر فى الانسان) . (١)

وكانت تعليمات البابوات لا تفتأ تصدر بين الحين والآخر الى اعضاء هذه المحاكم من الكرادلة ،أن لا تأخذهم فى المتهمين شفقة او رحمة وان لا يقيموا اعتبارا لاى رجل دين أو حاكم يحاول التخفيف عن أحد من هوءلاء المتهمين .

وكان ممن اصطلى بنار هذه المحاكم اليهود والبروتستانت ، واما المسلمون فلقد أصابهم من ذلك ما يعجز القلم عن وصفه أو الاحاطة به ، فلقد سحقوا فى الاندلس سحقا تاما ، ولم تأخذ أحدا من هوءلاء المتعصبين المتوحشين فى المسلعين الا ولا ذمة ، واقيمت ضدهم مذابح وارتكبت بحقهم مآس مشهورة حتى اتت عليهم عن آخرهم ،الا من فر الى بلاد المغرب .

وممن احترق بنار هذا الظلم ايضا فرقة رهبان الداوية عندما طمع فيليب الرابع ملك فرنسا فى اموالهم ، فوجه اليهم عددا من الاتهامات ، وطلب الى البابا كلمنت الخامس ١٣٠٥ - ١٣١٤م ادانتهم واحلال مصادرة املاكهم ، وكان للملك جميل سابق على هذا البابا ، فان الملك ومن يشايعه من القسس ساعدوا كلمنت المذكور فى تولى البابوية ، فاصدر البابا المرسوم المطلوب بحق فرقة الداوية ، وعرض اعضاء هذه الفرقة على محاكم التفتيش وصب عليهم العذاب صبا وصودرت اموالهم ، واعدم منهم فى عام ١٣١٠م وحده ثلاثة وستون راهبا ، وفى عام ١٣١٤م احرق رئيسهم وغيره من كبارهم ، وحل النظام كله ، ومما ينقل عن احدهم انه صاح قائلا وهو تحت سوط التعذيب (اننى على استعداد لان اعترف لكم باننى قتلت الله ، شريطة أن تكفوا عن تعذيبى

---

(١) أوروبا فى مطلع العصور الحديثة : ١ : ٥٧٨ .

وترحموني من الاحراق بالنار) . (١)

وكان العقاب بالسجن يعرف عند قضاة هذه المحاكم بمهلة الرحمة وكان من اساليبهم في معاملة المسجونين أن يقوموا بأخذهم في العطلات والاعياد وأيام الاحاد الى الطرقات والاسواق العامة ليسخر منهم العامة(٢) وربما ليكون في مشاهدة احوالهم وما هم فيه من الذل والهوان رادع لكل من تسول له نفسه مخالفة اراء الكنيسة .

وقد اعتبر من اختصاص هذه المحاكم مراقبة المطبوعات ، وبيان الكتب التي يسمح بتداولها ، ولم يكن بالامكان طبع أي كتاب قبل الحصول على اذن مسبق من كرادلة هذه المحاكم . (٣)

وفي عام ١٤٨٢م تقرر أن يكون تعيين اعضاء هذه المحاكم في اسبانيا من اختصاص الملك ، فساهم ذلك في تسخيرها للقضاء على خصوم هؤلاء الملوك السياسيين . (٤)

ولكثرة من قتلت هذه المحاكم واحرقت واضطهدت قال عالم نصراني (لا يمكن لرجل أن يكون مسيحيا ويموت حتف انفه) . (٥)

وقد تركز نشاط هذه المحاكم في شمال اوروبا وغربها حيث تقع شبه الجزيرتين الايبيرية والايطالية ، وكانت هذه البلاد أقل البلدان الاوروبية تمردا على الكاثوليكية ، ولكنها كانت اكثرها تبعية لكنيسة روما . فكان نشاطها

---

(١) محاكم التفتيش : ٦٩ - ٧٠ .

(٢) المصدر السابق : ٥٣ .

(٣) اوروبا في مطلع العصور الحديثة ١ : ٥٨١ ، وانظر قصة النزاع بين الدين والفلسفة : ١٧٠ .

(٤) اوروبا في مطلع العصور الوسطى : ١ : ٥٨١ .

(٥) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين : ١٩٢ .

اكثر ما يكون حيث الحاجة اليها أقل ما تكون (١) . وفى ايطاليا وحدها ادانت محاكمة التفتيش ما يقارب ربع مليون من الاشخاص . (٢)

---

(١) انظر اوروبا فى مطلع العصور الحديثة : ١ : ٥٧٦.

(٢) انظر قصة النزاع بين الدين والفلسفة : ٥٧.

الباب الثاني

آثار الفراغ الروحي في أوروبا

وفيه :-

تمهيد

الفصل الأول : أثر الفراغ الروحي على الفرد في أوروبا

الفصل الثاني : أثر الفراغ الروحي على الأسرة في أوروبا

الفصل الثالث : أثر الفراغ الروحي على الدولة والمجتمع في أوروبا

تمهيد :

عانت أوروبا ما عانت من ويلات الكنيسة ، فأخذت مع الايام تنمو في داخل النفوس بذرة الاستنكار والاستهجان لما تقوم به الكنيسة ، وساعدت عوامل عديدة على نمو هذا الاتجاه ، لعل من أبرزها اشعاعات الحضارة الاسلامية التي تعرضت لها اوروبا ، وظهرت احتجاجات هنا وهناك ، تمثلت في بعض الشخصيات والفرق الدينية التي دعت الى اصلاح الكنيسة - مهما يكن من نوع هذا الاصلاح - واعترضت على سلوك رجالها ، ولكن الكنيسة استطاعت بما اوتيت من قوة أن تخمد أنفاس هذه المحاولات ، وظهرت حركة لوثر ومن تبعه من المصلحين مثل كلفن وزنجلي وغيرهما ، وفشلت الكنيسة في القضاء عليها ، وهزت هذه الحركة التي تعتبر بمثابة ثورة على الكنيسة الثقة فيها لدى عامة الناس ، ولكنها مع كل ما انتهت اليه من صدع في الكنيسة وفي العالم النصراني لم تحدث تغييرا أساسيا في الاصول العامة للدين الكنسي ، فالاناجيل والرسائل الدينية المحرفة بقيت هي مصادر البروتستانت كما هي مصادر الكاثوليك ، ولم يصب التثليث ومقررات المجامع الكنسية التي اقرته أي تغيير ، وبقيت فكرة الاسرار الكنسية مسيطرة على الفكر النصراني بصورة عامة ، وحتى سعي الكنيسة الى الهيمنة على العلم والعلماء وجعلهم يدورون في فلكها لم تتخل عنه البروتستانتية ، غير أن ظروفها لم تمكنها في كثير الاحيان من اضطهاد خصومها على الصورة التي قامت بها الكنيسة الكاثوليكية ، حيث لم يكن للكنيسة البروتستانتية من السلطان مثل ما للكنيسة الكاثوليكية وحين واتتهم الفرصة لم يتخلفوا في ذلك عن الكاثوليك . (١)

كان من نتائج ذلك أن تعاظم الاشمئزاز من تصرفات رجال الكنيسة وتفاقمت النقمة عليهم ، ويئس المفكرون من الاصلاح اذ لم تنفع كل المحاولات

---

(١) انظر قصة النزاع بين الدين والفلسفة ١٦٠ - ١٦٢ ، وراجع ص

ولم يعودوا يرون خلاصا الا بالخلاص من الكنيسة ومن دينها الذى تستند اليه،واندفعت أوروبا بحركة رد الفعل التى سعى اليهود الى تأجيجها لا تفرق بين صحيح وفاسد ، ولا تلتفت الى حقيقة ان ما قامت به الكنيسة لم يكن يمثل الدين الصحيح ،فلم تفرق بين ما عليه الكنيسة وبين الدين الصحيح . وتم الامر فى تدرج وبطء لا تزيده الايام الا استشراء .

وراحت أوروبا بعد ان كفرت بدينها ـ ممثلة فى كثير من علمائها ومفكريها ـ تتخبط وهى تبحث عن بديل ، فدعا البعض الى اتخاذ الانسانية دينا ، ودعا البعض الى الدين الطبيعى ، ودعا البعض الى غير هذا وذاك وظهرت نظريات شتى ومذاهب متناقضة فى تفسير الكون والحياة ، وفى تفسير دوافع النشاط الانسانى ، لا تتفق فيما بينها الا على النظرة الجزئية الضيقة التى تجعل كلا يرى فيما توصل اليه الحقيقة التى يجب أن يكفر بكل ما سواها .

وشهدت أوروبا نظرية التطور التى نادى بها دارون تفاجىء الناس بأن الانسان الذى كان يعتبر سيد الخليقة ما هو الا حيوان من الحيوانات. وتنفخ فيهم روح التطور والتغيير . وشهدت الثورة ، الفرنسية التى هزت الثوابت فى تاريخ اوروبا فأسقطت الملكية ، وحطمت الاقطاع وما يستلزمه من طبقية وغير ذلك مما كان يعتبر فى الضمير الاوروبى ثابتا لا يتغير . وكان من وراء ذلك جهود اليهود وتخطيطهم . وأكد العلم الفلكى ان الارض لم تعد مركز الخليقة ، ووضح ان الكنيسة لم تكن تروج الا للزائف والمغلوط وانها أهدرت ما أهدرت من ارواح العلماء والباحثين ، دون سند من العلم والحقيقة .

ودفع الاحساس بالفراغ الروحى الى البحث عن البديل .

وجاءت الاكتشافات العلمية التى حصلت على يد نيوتن لتكشف عن قوانين وسنن تحكم الكون فى حركته وتناسقه وما فيه من اسرار وأفضت فى

حينها الى الاعتقاد بالله باعتباره فرضية علمية ضرورية ، ولكن الكنيسة شنت عليه حربا وأُتهم انه بموجب قوله بالجاذبية قد خالف نصوص الكتاب المقدس وأنزل رب الخلق عن عرشه وسلبه عمله المباشر (١) . وهكذا كان رجال الكنيسة من أول من فهم ومهّد لفهم ان اكتشاف القوانين العلمية التى هى عبارة عن سنن الله تعالى فى الكون ، يعنى انكار عمل الله فى هذا الكون دون أن يفطنوا الى ان الاكتشافات العلمية لم تُجب الا على كيف يحصل الامر ، أما لماذا يحصل ومن الذى جعله يحصل على هذا الوجه الدقيق المتناسق؟ فلم تتعرض عليه .

وفى هذا الجو تتابعت الاكتشافات العلمية متحدية سلطة الكنيسة التى كادت تتلاشى تماما ، وقد أدت هذه الاكتشافات الى النظر الى الطبيعة الكونية بصورة عامة نظرة ملوءها الاحساس بالدقة والروعة والنظام والكمال ، والى الشعور بأن الطبيعة والكون أكمل من الانسان .

وعلى أنغام هذا الاحساس أخذ بعض المفكرين يطابقون بين ما هو طبيعى وما هو عقلى ، حتى غدا المثل الاعلى فى نظرهم الطبيعة والشىء الطبيعى ، وسرت فكرة موءداها ان الشىء الطبيعى يتجلى فى أوضح أشكاله فيما هو بدائى وأولى لم يتدخل فيه الانسان بعد . ووصل الحال ببعض المفكرين الى الاعتقاد بأن البشر عاشوا حالة طبيعية أصيلة فى السابق كان العالم فيها منتظما وكاملا . واتفق معهم آخرون على أن تلك الحالة هى المناسبة للبشرية فى حاضرها ، مهما يكن من صدق الزعم بأن البشرية عاشت تلك الحالة فى الماضى أو كذبه . وبهذا كانوا يرون أن التنظيمات الاجتماعية تنزع نحو الكمال كلما تخففت من القيود الانسانية ؛ ومن هنا نشأ شعار " دعه يمر " الذى يدعو الى تخفيف القيود على الارادة البشرية الى أقصى

---

(١) انظر السابق : ٢١٧ .

حد . وأكدوا ان الامر الطبيعي هو الذى اراد الله له أن يكون وان يسود وحقيقة الامر ان الطبقات التجارية هي التى حرصت من الناحية العملية على ان يسود هذا الفهم ، وذلك لتزول كل الحواجز الاجتماعية في سبيل جمع المال وتحقيق الربح من كل طريق . (١)

ونظرا لشيوع فكرة ارتباط البدائي بالطبيعي فقد نظر الاوروبيون الى العلاقات الاجتماعية في المجتمعات البدائية نظرة اجلال واعجاب ، واعتبرت النموذج والمثل الذي يجب ان يحتذى ، هذه العلاقات التى زعم بعض المكتشفين الغربيين انها تخلو من القيود الاجتماعية ، وخاصة المتعلقة بالاخلاق والجنس ، ولقيت الكتب التى الفها الواصفون لهذه المجتمعات اقبالا كبيرا ، لانها صادفت هوى ورغبة لدى الشباب وأملا في تحقيق ذلك في واقعهم . وزاد هذا من الولوع والتعلق بكل ما هو طبيعي . واعتبر ما هو طبيعي الهى ، لان الله هو الذى أوجد الطبيعة . (٢)

وقد أدت هذه المفاهيم الى ظهور الادب الذى يشيد بالطبيعة باعتبارها الام الحانية الرحيمة التى لا تعرف الظلم ، السخية التى لا تعرف التقتير ، المتسامحة التى لا تعرف الحقد ، وهي صاحبة الفضيلة والعقل والحقيقة ونحو هذا من المعاني الراقية التى افتقدتها اوروبا في كنيستها خلال تاريخها الطويل . فهذه الطبيعة هي المستحقة للاحترام والخضوع لانها هي صاحبة المنة على الانسان وطريق السعادة طريقها ، هكذا نظر لها القوم ، ولما كان العلم الطبيعي هو أداة معرفة قوانين الطبيعة فانه اعتبر المأثرة التى ليس فوقها مأثرة ، وتوطد لدى معظم مفكرى القرن الثامن عشر فكرة مفادها ان المعرفة والسعادة تسيران جنبا الى جنب ، وأصبح

---

(١) انظر تكوين العقل الحديث ١ : ٤٠١ - ٤٠٣ .

(٢) انظر المصدر السابق ١ : ٤٠٤ - ٤٠٥ .

الايمان بالعلم ، وأنه يستطيع أن يقتحم كل الاسرار والاسوار ، وأن يدلي بحكمه الصائب في كل القضايا ، هو السمة البارزة لذلك القرن . وتملكت الناس حماسة مفرطة في الاعتقاد بأن الانسان يستطيع ان يعرف بجهده جميع القوى ويكتشف كل اسرار الطبيعة . واعتقد بعضهم انه كان للناس في سالف امرهم دين طبيعي في جوهره لولا ان الكهنة والملوك ادخلوا عليه الفساد والخرافة فيما بعد . (١)

وقد ظهر في القرن السابع عشر وقبله بقليل بعض الفرق الدينية النصرانية التي مالت الى تأويل الدين تأويلا عقليا ، وانتهى بها هذا المنهج الى رفض كثير من العقائد التقليدية ، وذلك كفرقة السوشيني التي أنكرت لاهوت المسيح والتثليث ، وانتقدت القول بفساد الطبيعة البشرية وحاجتها من جراء ذلك الى معجزة ربانية لتخليصها . وفرقة الارمينية (نسبة الى مؤسسها ارمينيوس) التي انتقدت هي الاخرى القول بفساد الطبيعة البشرية واعتبار الناس خاطئين مستحقين للنار دون النظر لاعمالهم (٢) . وقد أفلحت هذه الفرق في نقد الدين القائم وعجزت عن تقديم البديل المناسب .

وساعدت حركة احياء الآداب الاغريقية التي بدت قوية منذ القرن الرابع عشر والخامس عشر على دفع هذا الاتجاه في تقدير الطبيعة . ذلك أن الفكر الاغريقي الوثني لم يمح من الفكر الاوروبي منذ دخلت أوروبا المسيحية في عهد قسطنطين ، لان المسيحية كما ذكرنا كانت قد تطعمت بالوثنية ، بدل أن تجتثها من النفوس . وقد تعاظم نشاط حركة الاهتمام بآداب الاغريق الى درجة كبيرة ، وحسبنا ان ننقل ما كتبه احد مفكري القرن الخامس عشر لندرك المدى الذي بلغته تلك الحركة ، لان هذا العالم - واسمه " بروني "

---

(١) انظر المصدر السابق : ١ : ٤٠٤ - ٤٠٦ .

(٢) انظر المصدر السابق : ١ : ٤١٥ - ٤١٧ .

والذى أضحى من أعلام حركة احياء الادب الاغريقي وترجم جزءا كبيرا من اعمال ارسطو وافلاطون يعتبر صورة لعصره ، وقد كان يدرس القانون عند ما حضر الى فلورنسا أحد كبار اساتذة الادب الاغريقى واسمه "كريزولا روس" فيقول : (عند ما جاء كريزولا روس انتابتنى أزمة قوية اذ حسبت الهرب من دراسة القانون مخجلا . ومع ذلك اعتبرت ترك فرصة دراسة الادب الاغريقى جرما . وكثيرا ما كنت أقول لنفسى مدفوعا بحماسة الشباب : حين يتاح لك ان تحدق بهوميروس وأفلاطون وديموستين وغيرهم من الشعراء والفلاسفة والخطباء الذين يتناقل العالم أخبارهم العظيمة ، وان تتحدث عنهم وتتثقف بعلومهم العظيمة ، أتهرب منهم وتسلب نفسك هذه المتعة؟ أتهمل هذه السانحة التى أتاحتها السماء ؟ لم يتعلم أحد من الناس فى ايطاليا آداب الاغريق خلال سبعمائة سنة ونحن نعترف مع ذلك أن كل معرفة تحدرت منهم) . (١)

اما خصائص الحضارة الاغريقية التى راج أدبها وفنها وكل ما يتعلق بها فى اوروبا منذ ذلك الوقت ، فهى كما يلخصها ابو الحسن الندوى :

١ — الايمان بالمحسوس وقلة التقدير لما لا يقع تحت الحس .

٢ — قلة الدين والخشوع .

٣ — شدة الاعتداد بالحياة الدنيا والاهتمام الزائد بمنافعها ولذائذها .

٤ — النزعة الوطنية . (٢)

أدت هذه الامور كلها الى ظهور ما عرف بالدين الطبيعى الذى يقوم على مجموعة من المفاهيم التى يمكن اثباتها بالاستناد الى العقل الطبيعى دون غيره ، ويمكن أن يقبلها عقل كل انسان (وهذه القضايا ثلاث : هنالك

---

(١) المصدر السابق ١ : ١٩٠

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين : ١٧٤

اله تام القدرة . وهو يطلب من الانسان حياة فاضلة بأن يطيع ارادته الالهية وهناك حياة أخرى يكافىء فيها الابرار ويعاقب الاشرار + . فاذا استعمل الانسان ملكته فى استنتاج النتائج من المقدمات المعطاة ، استطاع ان يرى فوائد الحياة الفاضلة ، ونظم حياته على أساس عقلى ليدرك الثواب فى السماء) . (١) وقال لوك الذى يعتبر محافظا اذا ما قيس الى غيره من الطبيعيين : (لم يبق حاجة أو نفع للوحى فى مثل هذه الامور كلها طالما أن الله أعطانا وسائل طبيعية أكثر يقينا لنتوصل بها الى معرفة هذه الامور . لان الحقائق التى تتضح لنا من معرفتنا لافكارنا أو تأملنا لها تكون دائما أوثق من تلك التى تأتينا من طريق الوحى التقليدى) . (٢) واصبح هذا المفهوم للدين سائدا فى نظر غالبية المفكرين فى القرن السابع عشر فى بلد كبريطانيا .

غير ان الامر لم يقف عند هذا الحد ، فان اصحاب الدين الطبيعى ما لبثوا ان اختلفوا حول اهمية الوحى ما بين منكر له على أساس ان الدين الطبيعى والعقلى كاف ، ومعتبر له فى القضايا التى يثبتها العقل ، أو لا تضاد العقل على الاقل ، وحجة هؤلاء أن الوحى أشد أثرا وأقوى حافزا من النظر العقلى والطبيعى ، وأن الوحى هنا انما يقصد به توطيد واجبات الدين الطبيعى ، لا باعتباره ملكة جديدة ولا مقياسا جديدا ، بل مجرد حافز اضافى . وان الوحى ضرورى لاثبات أن قضايا الدين الطبيعى من عند الله ، حيث انه مهما يكن من معقوليتها فى ذاتها فان ذلك لا يعنى انها من عند الله حتى يشهد الوحى بذلك . اما الذين ينكرون أهمية الوحى فقالوا (ان الله لم يضف جديدا الى قائمة الواجبات التى تستلزمها

---

(١) تكوين العقل الحديث ١ : ٤٢٠ .

(٢) المصدر السابق ١ : ٤٢٠ .

الديانة الطبيعية) (وان ما هو ضروري وجب أن يكون الله قد غرسه في عقل الانسان الطبيعي ، وجعله متيسرا في جميع العصور وجميع الامكنة فالديانة الطبيعية وجدت كاملة منذ القديم ولا يستطيع الوحي بالنتيجة أن يضيف لها شيئا) (١) .

ولم يكتفوا بهذا بل أثاروا حملة عنيفة على كل ما يميز المسيحية عن الديانة الطبيعية ، فهذا تندال يقول في كتاب له أصدره عام ١٧٣٠م : (ان الانجيل باعتباره كتابا منزلا لا قيمة له لانه لا يضيف شيئا الى الدين الطبيعي الذي كشفه الله للانسان منذ بدء الطبيعة) . (٢)

وهذا فولتير يقول : (ان اسم المؤمن بالله المنكر للوحي - وهو اسم كبير لا نحيطه بمقدار كاف من الاحترام - هو الاسم الذي يجب ان نتخذه تسمية لنا . والانجيل الوحيد الذي يجب ان نقرأه هو كتاب الطبيعة الكبير الذي كتبته يد الله وختمته بخاتمها . والديانة الوحيدة التي يجب التبشير بها هي عبادة الله والسعي للخير . وأنه ليستحيل ان تنتج هذه الديانة الصافية شرا قدر ما يستحيل على التعصب المسيحي ان لاينتجه) . (٣)

وشبه الذي يعتنق دينه من غير تفكير بالثور الذي يستسلم للنير ويحمله راضيا ، وان الاعمى هو الذي يؤثر على الدين الطبيعي الذي يمتاز بالبساطة عقيده النصرانية المتناقضة السفاكة للدماء التي لم يعتنقها الا الذين افادوا منها ثروة وسطوة . (٤)

غير ان الدين الطبيعي لم يلبث ان شهر في وجهه السلاح الذي اشهره

---

(١) المصدر السابق ١ : ٤٢٤ - ٤٢٥ .

(٢) قصة النزاع بين الدين والفلسفة : ٢٢٤ .

(٣) تكوين العقل الحديث ١ : ٤٢٦ .

(٤) قصة النزاع بين الدين والفلسفة ١٩٠ .

في وجه الدين الكنسي ،فانتقد بعض المفكرين المسيحيين التقليديين هذا الدين واتهموا أصحابه بأنهم وقعوا فيما فروا منه وفيما انتقدوه على الايمان بالوحي ،اذ لا ـ يمكن قبوله الا على اساس من التسليم بامور هي خارج دائرة العقل ـ شأنه في ذلك شأن الوحي الذى رفضوه ـ وكان مأمولهم بهذا أن يرفعوا النقد عن الوحي ،اذ لماذا لا يقبل اذا كانت علة رفضه بعينها موجوده في الديانة الطبيعية التى قبلت ؟ وذلك كما فعل الاسقف " بتلر" حين ذهب (الى أن الديانة الطبيعية التى تحمس الناس لها كانت مساوية للوحي ذاته في لا عقليتها ،ومعتمدة على الايمان بمقدار اعتماده عليه) .

غير ان النتيجة لم تكن الاقتناع بالوحي بقدر ما كانت رفض الديانة الطبيعية ذاتها كما رفض الوحي ما دام كل منهما يستند الى اساس غير عقلي . فهاجم هيوم الديانة الطبيعية والوحي معاً،وأثار الشكوك حول وجود الخالق فذهب الى أنه (لا يمكن أن يوجد أى دليل لاثبات وجود خالق كلي الحكمة وكلي الخير . وانه ليس من ضرورة لوجود علة أولى للكون ،وان من السهل ان نتصور الكون موجودا بذاته وقديما ،قدر ما يسهل علينا افتراض علة خارجية لها تلك الصفات . وليس ثمة شبه بين شيء في العالم كالساعة وبين العالم بكامله . فقد راينا الساعات تصنع ،ولم نر العوالم تصنع . وقد يكون النظام طبيعيا قدر الفوضى ،واذن فالاتساق والقانون الكلي . ليسا بحاجة لاسباب تسوغ وجودهما أكثر مما نجده فيهما . وأقصى ما نستطيع افتراضه من عالم متناه نعتبره نتيجة ،هو علة متناهية فحسب ،واذا كان للكون فاعل في الحقيقة فمن الممكن أن يكون صانعا غير ذى كفاية ومن الجائز ان يكون قد مات منذ زمن بعيد بعد ان أنهى عمله ،أو قد يكون الها ذكرا أو انثى . أوعددا كبيرا من الالهة . وقد يكون خيرا كله . أو شرا كله . أو الاثنين . معا أو لا هذا ولا ذاك ،والمرجح انه الاخير) . (١)

---

(١) المصدر السابق ٤٣٤ - ٤٣٩ .

والتعنت واضح فيما قرره هيوم ،والامر عنده يدور على انه لم يشاهد =

ومثل هيوم العالم الفرنسي «هولباخ» الذى انكر بصورة صريحة وجود الخالق بحجة ان العلم النيوتوني كاف في تفسير الكون ولا يتطلب اية اضافة ، وقال : (ليس بوسعنا ان نذهب الى أبعد من هذا القول المأثور : تفعل المادة لانها موجودة . وتوجد لتفعل فاذا سئلنا كيف توجد أو لماذا توجد ؟ لأجبنا بأننا لا نعرف) . (١)

وتعرضت النبوات والمعجزات لنقد عنيف من كثير من الفلاسفة ، وخاصة هيوم الذى أصر على انه يستحيل على أى احد ان يثبت وقوع اى حادث بشكل خارق للطبيعة – حتى لو كان النقل صحيحا – ما لم يثبت انه له معرفة كاملة بقوانين الطبيعة تمكنه من نفي أى علة طبيعية لوقوع الحدث ، وهذه المعرفة مستحيلة . (٢)

= خلق العالم ، ولهذا لا يؤمن بوجود الخالق ، وهو ينكر تشبيه العالم بالساعة ، لانه حسب زعمه ليس ثمة شبه ، أو ليس العالم أعظم بكثير من الساعة ؟ وفيه من الدقة والروعة ما لا مجال لمقارنتها به فلماذا لا تكون دلالة العالم على خالقه أعظم من دلالة الساعة على صانعها ؟ ومتى كان الاتساق والقانون الكلي ليسا بحاجة لاسباب تسوغ وجودهما ؟! وكيف يقرر هذا العالم وبهذه السهولة ان النظام قد يكون طبيعيا جاء بذاته هكذا قدر ما تكون الفوضى طبيعية ؟ وكيف يمكن الافتراض بأن صانع العالم غير ذى كفاية – حسبما عبر – ويكون الكون على هذا المستوى من الدقة والنظام ؟ الى آخر تلك المجازفات التى تنطلق من مقرر سابق جعله يسوق دعاويه على هذا الشكل ولا يبالى حتى انتهى الى تقريره في قوله (والمرجح انه لا هذا ولا ذاك)

(١) المصدر السابق : ٤٣٨

(٢) المصدر السابق : ١ : ٤٢٧ . ومن الواضح ايضا ان هذه الحجة فيها ما فيها من التعنت ، فاذا كانت المعجزة قد جرت بموجب علة طبيعية فلماذا لم تجر هذه العلة الا فى هذه الواقعة ، وعلى يد شخص يدعى النبوة وفى مقام التحدى ؟ لماذا لم تجر ايضا على ايدى اعدائه ؟! ثم لماذا لم يستطع العلم بعد مرور هذه القرون الطويلة ان يكشف هذه العلة ؟!

وادعى الفيلسوف الوضعى الالمانى فيرباخ (١٨٠٤ - ١٨٧٢) أن الدين محصول للعقل الانسانى وليس موحى به من الخارج . فعلم الدين عنده هو علم الانسان ، والطبيعة الالهية هى "(طبيعة الانسان نفسه ، التى تجردت من قيود الفردية والشخصية أى قيود الانسان الواقعى الجسمى . هى الانسانية . هذه الطبيعة الانسانية المتجردة ينظر اليها فى احترام وخشية وقدسية ، على انها شىء آخر مقابل لطبيعة الانسان الفردية ، والله بالنسبة للانسان ، هو كتاب جامع لاحساسات الانسان العالية وأفكاره وآماله). وكذلك الحال بالنسبة لليوم الآخر عنده فليس هو الا هذه الحياة الانسانية كما يتمناها الانسان . ففكرته تقوم على أن الانسان يريد شيئا يفتقده فيسعى الى تعويضه فيما يتخيله فى الله أو فى اليوم الآخر .

ويخلص الى ان الانسان اذا انقطع أمله من الحياة الاخروية أمكنه تحقيقها فى الدنيا بشرط ان يضع محبة الانسان مكان محبة الله ، والايمان بعظمة الانسان مكان الايمان بعظمة الله . (١)

وتنازعت نظريات ومذاهب شتى العقل الاوروبى فيما يتعلق بتفسير الكون والانسان والايمان بالخالق وفيما يتعلق بمصادر المعرفة .

ولم يكن بالناس شغف لاتباع هذه المذاهب ـ وربما لم تكن لتظهر اصلا ـ لولا موقف الكنيسة القاسى ، وهو ما أكده راندال حين قال (ولم يكن معظم الناس راغبين فى اتباع سبينوزا وهولباخ الى النهاية القوصى الا فى فرنسا حيث دفعت الكنيسة الكاثوليكية بسياستها الاجتماعية وتحالفها مع النظام القديم ومساوئها ، كل رجل عاقل الى المعارضة القوية ، لا لنظام الرهبانية الكاثوليكية فحسب ، ولكن لكل ما له صلة به ، وللديانة ذاتها . وحدث بفولتير لان يؤمل ان يرى . آخر ملك مخنوقا فى أحشاء آخر راهب يسوعى) (٢) .

---

(١) الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى : ٣٠٤ - ٣٠٦ .

(٢) تكوين العقل الحديث ١ : ٤٤٢ .

ولما انتهت الفلسفة العقلية الى تأييد الدين - مهما يكن من نوع هذا التأييد - على يد هيجل ، وذلك باعتبار ان الله عقل ، دعت المدرسة الحسية الى اعتماد الحس كمصدر للمعرفة والغاء كل ما لا يخضع للحس باعتباره امرا متيافيزيقيا لا مجال للتجربة فيه ، وذلك لتوصد الباب فى وجه كل محاولة لدعم العقائد الدينية عقليا .

لا بل أن الامر انتهى على يد ماركس ليس الى أن الدين باطل فحسب بل انه مخدر للجماهير وسبب من اسباب استغلالها وجعلها تتقبل الظلم والاستعباد .

فجنت اوروبا من جراء هذه النظريات والمذاهب اثارا كثيرة شملت الفرد والاسرة والمجتمع والدولة .

الفصل الأول

أثر الفراغ الروحي

على الفرد في أوروبا

أثــر الفـــــراغ علـــى الفـــــرد

— ١ —

ان الانسان بفطرته تواق الى تفهم اسرار وجوده والاحاطة باسرار هذا الوجود ، ومعرفة مصيره ومآله ، يطوى جوانحه على تطلع قوى لمعرفة لغز هذا الكون وادراك العلاقة التي تربطه هو بهذا الكون الذى يعيش فيه ، وبـه ظمأ شديد لمعرفة غوامض كثيرة تتعلق به ولا يجد لها حلا ولا يعرف عنها جوابا ، وتتمثل هذه الامور فى اسئلة تجدها النفس السوية دائما مطروحة عليها تلح ان تجد عليها الجواب المريح . ومنها : من اين اتيت ؟ ولماذا وجدت ؟ ومن أوجدنى ؟ وما مآلى ومصيرى ؟ وما غاية وجودى ورسالتى فى الحياة ؟ وهل الموت هو خاتمة المطاف ؟ وما معنى الحياة وما مكانة الانسان فى هذا الكون ؟ وما العلاقة التى تربطه فيما سواه من المخلوقات ؟ وما شابه هذا من اسئلة .

وهى اسئلة خارجة عن مجال العقل والعلم والحواس والتجربة (١)، تلك التى تشبث بها العقل الاوروبى الحديث، واتخذها حكما لا يقبل سواه .

---

(١) ان العلم والعقل يمكن لهما ان يقيما الدليل الموضوعى على صحة دين معين كالاسلام أو عقيدة معينة كنفى الشريك مثلا ، ولكن ذلك امر اخر غير اقامة الدليل على صحة كل قضية من القضايا التى اخبر عنها الاسلام بشكل مستقل ، فان من هذه القضايا ما لا يمكن ان يخضع للعقل أو ان يدخل فى مجاله ، بيد ان صحة هذه القضايا تصبح حتى من الناحية العقلية المحضة مسلمة تماما باعتبارها مترتبة على قضايا عقلية اخرى امكن العقل اقامة الدليل عليها ، فنحن حين نقيم الدليل على ان القرآن لا يمكن ان يكون من اختراع محمد عليه السلام أو اى بشر آخر ، بل لا بد ان يكون مصدره الهيا لا بشريا ، فان ذلك يعنى التسليم بان ما فيه من القضايا التى لا يسع العقل ان يقول فيها شيئا ، هى على درجة من الصحة شأن تلك القضية التى سلم العقل بصحتها .

فهل استطاع هذا العقل ان يعثر على اجابة لهذه الاسئلة تطمئـــن لها النفس ويرتاح لها البال ، فيمارس بذلك الانسان الحياة هادئ النفس مرتاح الضمير قرير العين ؟

وقبل ان ندخل الى صلب الاجابة على ذلك ، نود ان نبين كيـــف أن بقايا رواسب المسيحية المحرفة فى النفوس قد اضافت الى هذه الاشكالات والغوامض اشكالات وغوامض اخرى .

لقد هرب الغربى من الكنيسة ، ومن الدين الذى تتخذه ذريعة لقهره وظلمه وكبته واذلاله ، والتجأ الى مناهج وتصورات أخرى من وضع البشـــر فماذا كانت النتيجة ؟

بالطبع لم يستسلم الناس قاطبة وبشكل تام وصريح لنفى الدين وانكـــار صحته أو انكار دوره فى الحياة ، فان ذلك غير ممكن والتدين مغروز فى الفطرة الانسانية،ولكن اعتراهم الشك فى ذلك الدين ، وزال من قلوبهم الاطمئنان له والوثوق فيه ، ونزعت هيبته واحترامه من نفوسهم ، فعادوا بشأنه مترددين لا هم بجازمين بانكاره ولا موقنين بصحته ، وغدوا متأرجحين بين المسيحيـــة المحرفة والمادية الملحدة ، تجد المادية سندها فى انكارها للدين المسيحى خاصة وللدين بشكل عام فى تاريخ الكنيسة ومساوئها ، أو هكذا ظنت ، وتجد الكنيسة حجتها فى تهافت المادية وبطلانها واضرارها على الانسان .

قال رينيه دوبو الاخصائى فى علم الحياة والاستاذ بجامعة " روكيلفر " فى نيويورك : (والقبول الواسع لمواقف لا دينية فى المجتمعات المعاصـــرة وضع انسانها الملحد فى موقف صعب ، فرغما عن تطرفه الشديد فى اندفاعه لازالة القداسة عن كل شئ . لم يستطع ان يحرر نفسه تماما من الماضـــى فطبيعته الدينية القديمة باقية دائما فى اعماق كيانه مستعدة لان تنشـــط لانه ملاحق دائما بنفس الحقائق التى يحاول انكارها) . (١)

---

(١) انسانية الانسان : ١٤٩

وفى هذا الجو جنى المسيحى سيئات هذه وتلك ، واجتمعت فى داخله ظلمات بعضها فوق بعض أورثته مزيدا من الشك والعماية ، ووقفت حواجز كثيرة بعضها تاريخى وبعضها نفسى تحول بين هذا الانسان وبين ان تتجاوز نظرته ـ وهو فى شقوته ـ المحيط الغربى ، فتتبصر النور خارجه وتبحث عن طريق النجاة فيما سواه ، الا فى القلائل من الافذاذ .

فكان من آثار هذا التصور الكنسى الشعور بالخطيئة وتحميل وزر الكبار للصغار ، وان حصرم الآباء يضرس الابناء ، وكون الانسان يولد حاملا لذنب غيره ويموت متلبسا بجريرة سواه وكونه يبرأ من الذنب بكفارة غيره ، ونحو ذلك مما لا يستسيغه عقل ولا ينم عن حكمة ، فلا يكون الا مبعث ارق للنفس يملوءها بالغموض والحيرة ، وحسبنا ان ننقل هنا شهادة واحد ممن كابدوا نار هذه التجربة .

يقول نظمى لوقا :

(اما الانسان فوقف بعد اليهودية والمسيحية موقفا لا يحسد عليه كثيرا ، بسبب ما التصق به من وزر أبيه الاول آدم ، ذلك الوزر الذى اعتبر خطيئة اولى ، وخطيئة باقية موروثة ، لا بد لها من كفارة وفداء حتى لا يذهب بجريرتها أبناء الجنس البشرى كافة .

(وان أنسى لا أنس ما ركبنى صغيرا من الفزع والهول من جراء تلك الخطيئة الاولى ، وما سيقت فيه من سياق مروع يقترن بوصف جهنم ، ذلك الوصف المثير لمخيلة الاطفال . وكيف تتجدد فيها الجلود كلما أكلتها النيران ، جزاء وفاقا على خطيئة آدم بايعاز من حواء . وانه لولا النجاة على يد المسيح الذى فدى البشر بدمه الطهور ، لكان مصير البشرية كلها الهلاك المبين .

(وان أنسى لا أنسى القلق الذى ساورنى وشغل خاطرى عن ملايين البشر قبل المسيح أين هم ؟ وما ذنبهم حتى يهلكوا بغير فرصة النجاة ؟

(فكان لا بد من عقيدة ترفع عن كاهل البشر هذه اللعنة وتطمئنهم الى العدالة التى لا تأخذ البرىء بالمجرم ،أو تزر الولد بوزر الوالد ، وتجعل للبشرية كرامة مضمونة) . (١)

ويقول :

(والحق انه لا يمكن ان يقدر قيمة عقيدة خالية من اعباء الخطيئة الاولى الموروثة الا من نشأ فى ظل تلك الفكرة القاتمة التى تصبغ بصبغة الخجل والتأثيم كل أفعال المرء فيمضى فى حياته قضى المريب المتردد ولا يقبل عليها اقبال الواثق بسبب ما انقض ظهره من الوزر الموروث .

(ان تلك الفكرة القاسية تسمم ينابيع الحياة كلها ، ورفعها عن كاهل الانسان منّة عظمى ،بمثابة نفخ نسمة جديدة فيه . بل هو ولادة جديدة حقا ، ورد اعتبار لا شك فيه . انه تمزيق صحيفة السوابق ووضع زمام كل انسان بيد نفسه) . (٢)

وكانت النصرانية المحرفة وهى تقول : (دع ما لقيصر لقيصر وما للّه للّه) (٣) فتصور الدنيا بأنها حظ قيصر ، وما عليك الا ان تعتزلها وتنفض يدك منها وتنقطع للتبتل والتعبد ،كانت بهذا تتجاهل أن الانسان روح ، وجسد ، روح تتطلب التأمل والتعبد ، وجسد يتطلب العيش فى هذه الدنيا وله من اهتمامات الدنيا ما لا يستطيع الانسان الانسلاخ عنه الا بأن يتجشم مشقات كبيرة وصعابا بالغة ، ولعله بعد ذلك غير مستطيع، فماذا كان ؟

كان شعوره بالاثم والخطيئة وهو يمارس ما لا يستغنى عنه من مطالب نفسه وحاجات جسده يبعث فى نفسه احساسا بأنه دون ، وانه واقع فى

---

(١) محمد الرسالة والرسول : ٧١

(٢) المصدر السابق : ٧٨

(٣) انجيل متى ٢٢ : ٢١ .

الوحل ، وبهذا كان يملؤه شعور التقزز والاشمئزاز مما يمارسه في هذه الدنيا ، لكن ذلك لم يمنعه من هذه الممارسة ، بل لعله يغريه أحيانا بالمزيد من الهبوط والولوغ فيما لا يليق من الممارسات اليومية ما دام واقعا في الوحل ومتلبسا بالذنب كيفما كان ، فليستزد من النهم في المتعة الحرام ، وليس امامه الا أن يطوى جوانحه على هذا الشعور ويتناساه ، ولكن هيهات انه يؤرقه ويشقيه ، ويفسد عليه لذته ، انه ما يكاد يتناساه حتى يعاوده الاحساس بوخزه كلما حانت مناسبة ، او ادركته لحظة من التأمل والتفكير فيما هو فيه من مفارقة بين واقعه وما يحسه في شعوره .

والخلق بين شعورهم بالاثم والخطيئة وبين ممارستهم للحياة بدافع من بشريتهم ومن شهواتهم ، يشعرون بالفصام بين الروح والجسد كأنهم معلقون بين الارض والسماء فهم حيارى . (١)

(ولقد ترك الشعور بهذا الازدواج بين المادة والروح ـ الذي نشاهد آثاره في جميع اعمال الانسان ـ طابعا للنظم الخلقية الغربية الى يومنا هذا . حتى ليبدو وكأنما يقف حائلا دون الاستمتاع القلبي الكامل بخيرات الوجود الطبيعي التي عرف اليونان القدماء كيف يتمتعون بها ، مما جعل الكثيرين من رجال العصر الحديث يحسدونهم على تحررهم وانطلاقهم . والمشكلة ليست في ان الناس امتنعوا عن العمل ، أو عن هذه الملذات ولكنهم لم يستطيعوا قط التخلص من فكرة وجود خطأ اساسي فيها . وهكذا اصبح المثل الاعلى الذي يدين به الناس باهتا متغيرا ، رغم رفعته وشدته واصبح يرافق حياتهم شعور بالخزي والخجل ، واصبحوا يتأرجحون بين الغبطة السماوية وبين التستر والرياء من جهة اخرى . والغرب مدين بهذه الامور لتراث الافلاطونية الحديثة) . (٢)

---

(١) محمد الرسالة والرسول : ١٢٣ - ١٢٤ .

(٢) تكوين العقل الحديث : ١ : ٩٢ .

ولقد ادى ذلك بالانسان الغربى الى فقدان الشعور بالتوحد والانسجام والشعور بكونه كلا واحدا ، وفقدانه لامنه الداخلى ، ومن ثم اصبح يشعر بالتمزق الداخلى وبالغربة والوحدة ، واصبحت الشكوى من هذا الشعور النفسى المؤلم منتشرة على السنة وفى كتب الغربيين ، يقول كولن ولسن فى كتابه "اللامنتمى" الذى درس فيه هذه الظاهرة الخطيرة فى الحياة الغربية : (ان اللامنتمى هو رجل موزع النفس ، وعليه فانه ينشد التوحيد النفسى ، وهو انانى بقدر من تؤلمه احدى اسنانه طوال حياته) (١) (ان ما يقال فى معرض اللامنتمى يوحى بمعنى الغرابة واللاحقيقية) . (٢) واحس الانسان الغربى انه مشدود الى جهتين متناقضتين وانه مفتت الكيان والشخصية ، وصدق الله العظيم ((ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا)) . (٣)

ولعلنا بهذا نكون قد أوضحنا دور الرواسب المسيحية المحرفة فى بلبلة فكر الاوروبى وزيادة حيرته وشقوته والصاق الشعور بالخزى والنقص به .

ولكن فرار الاوروبى من الكنيسة لم يؤد به الى سلم النجاة ، وانما أسلمه الى التيه والظلام والاضطراب والشقاء والمزيد من الحيرة والتشتت ، لقد حمل معه عقدة الحروب الصليبية ورواسب العداء الصليبى ضد الاسلام الذى ما يزال ملاحظا فى نفسية الاوروبى حتى اليوم ، فحال بينه وبين تبين النور الذى كان لشعاعه كبير الدور فى تبديد كثير من ظلماته وظلاماته ، وربما كان لركود حركة نشر الدعوة الاسلامية الذى واكب تمرد اوروبا على الكنيسة بعض النصيب فى ذلك .

---

(١) ص ٦٦ : ٦٦

(٢) اللامنتمى : ١٥

(٣) سورة الزمر : ٢٩

وعانى هذا المنغلت من الكنيسة بعد ان اكتشف الزائف والمدخول فيما تدعوه اليه من فراغ داخلى يحسه فى نفسه ،انه لا بد له من هدف يسعى اليه حتى يحس لحياته طعما ، وحتى يستسيغ تحمل ما يقوم به من كد وما يجده فى الحياة من تعب ومشقة وما يصادفه فيها من منغصات وآلام ومصائب فماذا عساه يكون هذا الهدف ؟ حاول الكثيرون ان يجدوا هذا الهدف فى شهوتى البطن والفرج ونحوهما من الشهوات الحسية ، ولكن الانسان ما يكاد يشتهى الطعام فيشبع منه ،حتى يفقد الاحساس بتلك اللذة التى كان يطلبها فيه ، فتخبو نزعة الشوق اليه ، بل ربما تحولت تلك النزعة من الشوق اليه الى النفور منه والاعراض عنه ،بعد أن يمله ، فاذا بالغ فيما يشتهيه فمن الممكن ان يوءدى به الى الضرر والمرض ، وكذلك الحال بالنسبة لشهوة الفرج وكل الشهوات ، فان كل مكرور مملول ،لا يكاد يقع عليه الانسان حتى يمله وتتطلع النفس الى غيره ، دون ان تحس فيه من السعادة واللذة ما كانت تأمل . ان الانسان يرى السعادة فى المنصب الاثير يتبوأه ، أو فى البيت الجميل يسكنه ، او فى الاثاث الفخم يمتلكه ويستمتع به ، او فى المرأة الجميلة ينكحها ، أو فى كثرة البنين ، أو فى الثروة الطائلة أو السيارة الفارهة ونحو ذلك من زينة الدنيا ، ولكنه ما ان يمتلك ما يصبو اليه ويحقق ما يتمنى فيحوز الغالى المأمول ، حتى يفتر الاحساس بنشوة السعادة واللذة مع الزمن شيئا فشيئا ثم يضحى الامر عاديا لا جديد فيه ولا بهجة معه .

وكل هذا يدفع الانسان الغربى ان يبحث عن هدف جديد للحياة وغاية يرتاح اليها ، ولكنه بحث واضح لدى البعض ، وغامض مبهم لدى الكثيرين يحسونه وان كانوا لا يستطيعون ادراك معالمه وأسبابه تماما . وقد ادى الفشل فى العثور على هدف معقول للحياة الى ظهور الانسان الذى لا يحس ان فى الحياة ما يستحق ان تعاش من اجله ، فلا غاية واضحة يرتضيها ويحس بقيمتها فيتجه اليها ، واذا فقد الهدف والغاية فلا طريق .

ان صاحب الغاية المعينة هو الذى يبحث عن الطريق الموصل اليها ويتلمس معالمه وحدوده واتجاهه ، ويحرص على سلوكه ليصل الى ما يريد، فاذا فقدت الغاية وضاع الهدف فلا حاجة ولا فائدة من البحث عن طريق. كان هذا شأن انسان الحضارة الغربية ، وبرزت هذه المشكلة " لا غاية فلا طريق " لدى رجال الفكر والادب والفن والصحافة الغربيين بشكل واضح يقول كولن ولسن : (ان اللامنتمى يسأل فى مرحلة معينة سؤال بنيان : ماذا يتعين على ان افعل لكي اخلص ، فاذا كان جوابه . . . . (لا شىء يستحق بذل اى مجهود) فلا طريق اذن ، ومن الافضل له ان يقتل نفسه أو ينتحر عقليا) . (١) ويصبح هذا الانسان يملوءه الشقاء والمرارة والمعاناة (ان رؤيا اللامنتمى للعالم هى رؤيا العذاب والمرارة والشقاء والموت المفاجىء وانعدام الشعور بالامن) (٢) ، لانه مفرق الهم والارادة فهو لا يعرف هدفا يطلبه ويتبعه بكل كيانه وذاته (يعلم ستيفن وولف جيدا لماذا هو شقى منزعج متعب ، انه يعلم ذلك لانه لن يدرك هدفا ليتبعه بكل كيانه) . (٣)

وبعد ان أضاع الغربى الدين وتنكر له بدا عليه انه محتاج للاجابة على تلك الاسئلة التى تلح على الفطرة البشرية ، والفطرة التى تتطلع بدورها باستمرار الى المعرفة والاطلاع وخاصة فى امور كهذه التى تتعلق بأقرب شيء للانسان ، وهو نفسه التى بين جنبيه فمن أنا ؟ وما الذى يميزنا عما سوانا من الاحياء والموجودات ؟ (لا يعرف اللامنتمى من هو ، فقد وجد (انا) الا انها ليست (انا) حقيقية ، أما هدفه الرئيسى فهو ان يجد طريقا

---

(١) اللامنتمى : ١٧٤ .

(٢) سقوط الحضارة : ٦٦ .

(٣) اللامنتمى : ٦٨ .

للعودة الى نفسه) . (١)

ان الحياة بالنسبة له لغز غامض وطلسم لا يعرف له حلا ، مع شعوره بحاجته الملحة لفك رموزه ومعرفة حقيقته (ان اللامنتمى يعتبر الحياة سوءالا قاطعا يتطلب منه ان يجد جوابا قاطعا له قبل ان يعيش تلك الحياة) . (٢)

ويقول : (ان ما يجب على الانسان ان يفعله هو ان يحاول ان يفهم العالم ، وليس العالم ما يحيط به من كون فقط ، وانما هنالك كون آخر خلف عينيه ايضا) . (٣)

ولم تفلح كل محاولة البحث عن طريق ينقله خطوة على طريق الحل، يقول كولن ولسن : (ان مشكلته كيف ينطلق الى الامام) . (٤)

وهذا الذى لا يعرف نفسه ولا يستطيع ان يدرك حقيقته لا ينتظر منه ان يرفع منزلة الانسان ويحترمه ، ولا ان يشعر بكرامته ورفعته ، ولا أن يقدر له من المزايا والخصائص سوى ما لغيره من البهائم والحيوانات .

ولقد حشد كولن ولسن من خلال رصده لكثير من كتب الادب والفكر شواهد كثيرة على هبوط منزلة الانسان وانحدار النظرة اليه لدى كثير من الادباء والمفكرين .

قال سارتر يلخص نظرته للانسان : (الانسان عاطفة غير مجدية) . وحول هذه الفكرة دار كتاب ويلز (" العقل فى حدود الاحتمال " . وقال سارتر ايضا : (ان الانسان ليس حرا مطلقا ، وانه من الحمق والسخافة بحيث لم يلاحظ ذلك) (٥) .

---

(١) المصدر السابق : ١٧٣

(٢) المصدر السابق : ١٠٣

(٣) سقوط الحضارة : ٢٨٧

(٤) اللامنتمى : ٧

(٥) المصدر السابق : ٢٥ - ٢٦

ويقول باربوس فى رواية الجحيم : (اننى وقد نفذت الى قلب الانسانية لم اجد شيئا انسانيا فى قلب هذا " الكاريكاتور " الصامت " يريد الانسان " لقد كان من السطحية بحيث انه كان انسانا زائفا انه انسان مجرد من خارجيته وذلك ما أريد ان أصوره ، وبينما يميل البعض الى الخيال أميل انا الى الحقيقة) ! . (١)

ويضيف ولسن فيقول : (ويبدأ الناس بفقدان الشعور الداخلى باشكال الكينونة اللامعروفة ، وبمعنى الهدف الذى يمكن ان يجعل منهم اكثر من مجرد خنازير كفوءة جدا) . (٢)

ونلتقى بما يشبه هذا التشبيه عند ارنولد توينى اثناء كلامه عن الآثار التى تحدثها فنون الصناعة الحديثة على النفس الانسانية فيقول : (لقد أغوتهم فباعوها ارواحهم واخذوا بدلا منها السينما والراديو ، وكان نتيجة هذا الدمار الحضارى الذى سببته تلك الصفقة الجديدة اقفرارا روحيا وصفه افلاطون بأنه مجتمع الخنازير) . (٣)

وقال كونستانتان جيورجو (لم يحدث لحد الان ان احتقر الانسان الى هذا الحد) . (٤)

ولقد ساعد على نمو هذا الاتجاه فى النظر الى الطبيعة البشرية وتحقيرها القول بحيوانية الانسان التى انبثقت عن نظرية دارون ، والقول بقذارة الدوافع الانسانية التى انبثقت عن اراء فرويد التى فسرت سائر النشاطات الانسانية بدوافع جنسية فى وقت ما يزال اثر النصرانية المحرفة

---

(١) المصدر السابق : ١١ .

(٢) سقوط الحضارة : ٨ .

(٣) سقوط الحضارة : ١٦٤ - ١٦٥ .

(٤) الساعة الخامسة والعشرون : ٨٦ عن تهافت العلمانية : ١٨٢ .

في النظر بعين التقزز والاشمئزاز الى كل ما يتعلق بالجنس ما يزال واضحا في النفوس .

كما أن روح النهضة التي كانت معادية للدين منفلتة من زمامه تريد ان تطرح كل ما يمت له بصلة ، وما دام الدين يكرم الانسان فليحقره العقل الحديث ولو كردة فعل للدين .

وفي عام ١٩٧٩م عقدت جامعة هارفارد مؤتمرا لكبار المفكرين واساتذة علم النفس والاجتماع لتطرح عليهم السؤالين التاليين :

اولا — ما معنى الحياة في امريكا

ثانيا — ما فلسفة التعليم وهدفه في امريكا . (١)

وما كانت هذه الجامعة لتعقد هذا المؤتمر لولا شعورها أن الناس في أمريكا لا يعرفون للحياة معنى ، وان التعليم لا ينطلق من فلسفة معينة ولا يهدف الى غاية منطقية .

وغدا الشك طابعا مسيطرا على نظرة الانسان الغربي للامور ، فهو لا يثق بشيء ولا يطمئن الى شيء ، حتى ما يراه وما يحسه ، وما يتعلق بوجوده هو ذاته لا يسلم من وساوس الشك والارتياب ، فلا تستحق أن تحمل على محمل الجد ، يقول ويلز في كتابه " العقل في حدود الاحتمال" : (ان شاشة السينما امام اعيننا ، وتلك الشاشة هي واقع وجودنا ، ان حبنا وكرهنا ومعاركنا ليست أكثر من اطياف ترقص فوق تلك الشاشة هي في عدم وجودها كالاحلام) . (٢)

وقد أدى خلو حياة الاوروبي من هدف سام يسعى له ، وارتيابه في حقيقة الحياة نفسها الى طبع حياته كلها بالسلبية والتشاؤم والضياع . انه

---

(١) الاسلام ومستقبل البشرية للدكتور عبد الله عزام : ٢٠ .

(٢) اللامنتمي : ١٦ .

يفقد الحياة في نظره قيمتها ويجعلها شيئا تافها لا معنى له ، ولا طائل من ورائه . انه جاء الى الحياة غير مختار ولا يعرف لماذا جاء ، ويمضي غير مختار ولا يعرف الى اين ، ومع ذلك فانه يعرف انه يتجه الى الموت الذى يمثل المصير الغامض والمجهول ، كما يمثل العدم والتلاشي ، ولا نجاة من هذا المصير ، فلا فائدة . ولقد كان تولستوى يتمثل حال الكثيرين ممن عرف وعاشر وممن قابل وممن سمع عنه في مجتمعه وهو يقول ـ فيما يسميه كولن ولسن اعترافا ـ: (ماهي الحياة ؟ لماذا يجب عليّ أن اعيش ؟ لماذا يجب عليّ ان افعل اى شيء ؟ هل هنالك اى معنى من معاني الحياة في امكانه أن يقهر الموت الذى لا يمكن تجنبه) ، ويقول : (ما هو الشر ؟ ما هو الخير ؟ لماذا يعيش الانسان ؟ ماذا انا ؟ ما هي الحياة وما هو الموت ؟) . (١) ويقول : منذ خمسة اعوام بدأ يحدث لى شيء غريب ، تألف في البداية من لحظات من القلق والضيق بالحياة ، ولانني لم اكن اعرف كيف أعيش وماذا أصنع؟ ثم صارت تتكرر تلك لحظات) (شعرت بأن ما كنت اقف عليه قد انهار ، وانه لم يبق تحت قدمي شيء ، ولم يعد ما كنت أعيش من اجله موجودا ، ولم يبق لى شيء أعيش له) . (٢)

ويقول في كتابه " مذكرات مجنون " على لسان احدى شخصياته:(انني هارب من شيء مرعب لا استطيع أن أنجو منه . انني مع نفسي دائما . وانني أنا الذى اعذب نفسي . . . . انني ضجر من نفسي وأجدها عذابا لا يمكن احتماله . اريد ان انام وانسى نفسي الا انني لا استطيع ان افعل ذلك . لا استطيع ان اهرب من نفسي) . (٣)

---

(١) المصدر السابق : ١٧٥

(٢) المصدر السابق : ١٧٦

(٣) المصدر السابق : ١٧٧ . وتظفر بمزيد من مثل هذه الاستغفارات عند تولستوى في هذه الصفحة وفيما قبلها وبعدها من صفحات .

ويشبه تولستوى الانسان فى وضعه بين انتظار الموت الطبيعى أو العرضى برجل يتعلق بغصن يتدلى به الى هوة سحيقة ، وذلك لينجو من وحش مفترس فوقه ، ووحش مثله تحته ، وفيما هو يتعلق بهذا الغصن يرى بعض الجرذان تقوم بقرض الغصن الذى يتعلق به ويرى أيضا بعض قطرات العسل على اوراق الغصن فينشغل بلعقها عما هو فيه من خطر . (١)

ويبقى الموت هو العقبة التى لا يمكن تجاوزها ولا الانفلات منها فى نظر هذا المتمرد على الدين ، (الموت اهم الافكار على الاطلاق) . (٢)

والخوف من الموت هو شىء طبيعى بالنسبة للانسان ولكل الاحياء ولكن حين يصادف هذا الخوف من الموت والاشفاق مما بعده نفسا لم تهرب من الدين ولم تتمرد على الوحى ، ولم تسجن ذاتها فى قمقم الحس والمادة، بل تستجيب للحقيقة وتتلقى من الوحى ، حين ذلك فلن يكون هذا الرهب الا شيئا مثمرا يزكى الحياة وينميها ويدفعها فى اتجاهها الصحيح .

اما وقد ادار الغربى ظهره للدين أو حصره فى جانب ضيق ، وانفلت منه خارج هذه الزاوية الصغيرة ، ومن ثم غاب التصور الصحيح لوجود الانسان وغايته ، فان ذلك ادى بهذا الانسان الى الاستخفاف بالحياة وعدم الاكتراث لها ، فهى تافهة لا تستحق أن تعاش .

(ان اللامنتمى يعتقد بأن البشر جميعا يضيعون الحياة حين يعيشونها وانهم جميعا يمثلون الفشل) . (٣)

(اللامنتمى هو الرجل الذى يسيطر عليه مفهوم تفاهة الحياة) . (٤)

---

(١) المصدر السابق : ١٧٦ . وقد ورد مثل هذا التشبيه عند ابن المقفع فى كتابه كليلة ودمنة .

(٢) اللامنتمى : ١٠ .

(٣) سقوط الحضارة : ٥٩ .

(٤) المصدر السابق : ٦٠ .

ولم تفلح كل المحاولات المادية التي لبست قناع الفكر والعلم ان تجد للانسان جوابا عن معنى الحياة وقيمتها . يقول الكاتب الاشتراكي " فالتر باوميرث " واضعا يده على مكمن الداء - : (ان كل ما يشغل بالي منذ بدايتي هو فكرة البحث عن معنى الحياة ومصيرها ، ومعنى الوجود والخلود والفناء ، فكل هذه الامور لم تزل سرا ولغزا لم استطع حله . . . . فهذه الفكرة في نظري هي أساس ومحور عيشنا .

(لقد درست الماركسية بعمق ودقة وسعة ، ولكن لم أجد فيها الجواب على السؤال الذي يلازم تفكيري دائما ، أي السؤال عن معنى الحياة). (١)

ولما لم يستطع هذا " اللامنتمي " - بتعبير ولسن - أن يجد وسيلة للتخلص من عجزه وفشله ، أورثه ذلك شعورا عميقا بأنه واقع في مأزق لا حيلة في الخلاص منه ، فالحياة سرداب ضيق محدود لا مجال للخروج منه ، يقول " ولز " : (ليس هنالك من طريق الى الخارج أو الى ما حول أو الى الداخل) . (٢) ان هذا المعنى الذي نظفر بمثله أيضا عند سارتر في " الغثيان " (٣) ، هو تلخيص لحالة الشارد من الدين في الغرب الذي يشعر بأنه سجين عقلا ووجدانا ، لا يجد منفذا ولا يأمل خلاصا .

ونجد اصداء لهذا في قول " نجنسكي " و " وليم جيمس " وغيرهما من الغربيين : (لا شيء أملكه يستطيع ان ينقذني) . (٤)

وكان من نتيجة هذا التخبط في التصور ، ومن أثر ما نشأ عنه من معاناة نفسية ، النظر الى الحياة على انها عبث لا غاية لها ، ولا فائدة منها .

---

(١) حضارة الاسلام ، العدد السابع ، سنة ١٣٨٧ ص ٨٠ .

(٢) اللامنتمي : ١٧ .

(٣) انظر المصدر السابق : ٢١ .

(٤) المصدر السابق : ١٧٨ .

ومن ثم فلا جدوى لاية محاولة فيها لانه ستنتهى حتما الى العبث ، فالعالم كله عبث ، وقد صبغت هذه النظرة كثيرا من التيارات الفكرية والاتجاهات الفوضوية التى شاعت فى البيئة الغربية .

ويصور " البيركامو " فيلسوف الوجودية فى كتابه "أسطورة سيزيف" يصور الانسان بسيزيف الشخصية اليونانية التى غضبت منها الالهة ، فجعلته يرفع حجرا كبيرا الى أعلى ، عقوبة له ، وكلما شارف أن يصل القمة تدحرج منه الحجر الى اسفل الوادى فيعود ليرفعه ، ثم تتكرر عملية سقوط الحجر كلما حاول ان يصل القمة ، وتستمر أيامه على هذا النحو ، الذى يتكرر فيه الجهد ويقع باستمرار منه الفشل ، فاذا حانت منه لحظة تفكير وتأمل فيما هو فيه أخذه الاسى والحزن لضياع جهده ، وكذلك الانسان فانه يعمل ليلا ونهارا دون أن يكون وراء عمله معنى ، فان أخذته لحظة تفكير حل به الاسى ، لان حياته عبث ، فهو يقتات ليبقى ويبقى ليقتات . (١)

ويقول " سارتر " فى كتابه " المذهب المادى والثورة " : (على الفلسفة الثورية . . . . ان تبين ان الانسان لا مبرر له ، وان وجوده ليس مقدرا فلا هو ولا أية عناية الهية أحدثته) . (٢)

ولقد أدى ذلك الى زيادة فقدان الغربى لثقته بنفسه وبقدرته على تحمل المسؤولية ، والى زيادة احساسه بالعجز التام عن الخروج من الفاجعة يقول ويلز : (ان الحياة كلها فى نهايتها) (٣) ، ويبلغ به اليأس من أية قدرة للانسان على القيام بشىء ايجابى يحول بين الحياة وبين تلك النهاية الاليمة أن يقول : (على الانسان أن يفسح المجال لحيوان أحسن منه استعدادا لمواجهة المصير المطبق على الانسانية) . (٤)

---

(١) حضارة الاسلام ، السنة الخامسة ، العدد العاشر : ١٣١ .

(٢) المصدر نفسه فى العدد نفسه والصفحة ذاتها .

(٣ ، ٤) اللامنتمى : ١٧ .

ولم يكن تردى الانسان الغربى الى هذا الحد بالغريب ولا العجيب بعد ان اصم اذنيه واغلق عينيه ،عن كل ما لا تصل له حواسه ولا يقع ضمن ادراكه بشكل مباشر ،فان الاجابة تلك الاسئلة التى تلح عليها الفطرة البشرية ،هى خارج هذا النطاق المضروب ،ولا يمكن لها ان تجد طريقها الى النفس من خلال هذا المسرب المسدود ،يقول الاستاذ محمد اسد ـ وهو أحد الذين كابدوا هذه التجربة ـ : (ان الانسان لا يستطيع ان يكشف لنفسه غوامض الحياة ولا سر الولادة والموت ،ولا سر اللانهائية والابد ،فان تفكيره يصطدم بجدران لا تخترق) . (١)

وحالت هذه الجدران التى لا تخترق بين الحس البشرى وبين ادراك ما خلف الجدران ،ولقد كانت الاجابة الضرورية على تلك الاشكالات والالغاز ـ أو التى بدت كذلك للانسان ـ كلها مما هو خلف الجدران ،ولم يكن من سبيل والحالة هذه لهذا الادراك الا ان يستمع الناس المحجوبون بالجدران الى الواقفين على القمة فوق الجدران يطلون على ما ورائه لا يحجبهم عن ادراكه شيء ،خاصة وان هوءلاء لم يجرب عليهم كذبا ،ولا هم بالمجهولين الحال والسيرة ،بل هم المعروفون الموثقون ،وهوءلاء المستمعون يجدون ادلة كثيرة تشهد على صدق هوءلاء الرواد النذر ،يجد الناس هذه الادلة فى انفسهم وفى كل ما حولهم .

ولكن الذى يعيش فى الوادى السحيق لا يمكن له ان يرى شيئا خلف الجبل ،كذب الواقف على القمة فيما يخبره عنه مما هو وراء الجبل ،كذبه تكبرا وغرورا وعنادا ،وراح يصف ما خلف الجبل حسبما تشاء له ظنونه وأوهامه طورا ،وينكر طورا آخر ان يكون خلف الجبل شيء .

وهكذا كان حال الناس ـ وهو واقع الغرب اليوم ـ الا المؤمنين ـ مع الانبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين .

---

(١) الاسلام على مفترق الطرق : ١٩ .

— ٢ —

وفى هذا الجو الذى لا تحس النفس الانسانية فيه منفذا الى السمو والرحابة ، ولا يستطيع الانسان ان ينظر خارج أمد حواسه وشهواته ، ارتدت الهمة حسيرة عن اى هدف يتعدى اللذة الحسية والمنفعة الشخصية ، ولم يبق أمام الغربى الا أن يرتمى فى احضان المنفعة ويعب من اللذة كلما شاء وكيف شاء دون أن يراعى خلقا ، أو يقف عند حد ، أو يعرف قانونا ، بل لعل القانون والعدل والفضيلة والخلق كلها يجب ان تكون مطابقة لما فيه راحته ولذته ، وسيطرت المادية على مشاعر الناس وأفكارهم واخلاقهم وتصرفاتهم وتحكمت فيما بينهم من علائق وارتباطات ، واهدرت فى سبيلها كل القيم والمبادىء ، واضيع كل معنى من معانى الفضيلة والشرف والوفاء ، وصارت اللذة والمنفعة الحسية هى الغاية المطلوبة ، والشىء الوحيد الذى يقبله ويحتكم اليه العقل الاوروبى الحديث . اذ لا يسمح ضيق الافق عنده بالنظر الى ابعد من ذلك ، فهو لا يرى الا اللذة ولا يعرف الا المنفعة ولا ينتمى الا الى الاثرة المفرطة ، فمصلحته الخاصة فوق كل شىء ، وطريق ذلك هو المال ، شعاره " يجب أن اجمع مالا " (١) . ويصور أحد رجال الفكر الغربى التلهف المتزايد على المال ، والسعى المتلاحق الى جمعه بكل وسيله ، وما يمكن ان ينتهى اليه الامر ، فيقول :

(سوف تنتزعون الجلود غدا بحثا عن الذهب تحتها ثم تنتزعون العضلات عن العظام بحثا عن الذهب ، وبعدئذ تحطمون العظام لتنظروا ما اذا لم يكن فيها شىء من الذهب ، وأخيرا تضغطون على أدمغة الرجال ، وتفتشون فى امعائهم وتمزقونها اربا بحثا عن الذهب ، ستحطمون القلوب وتجزونها بحثا عن الذهب . الذهب الذهب ، اننا اليوم فى البداية : انكم لا زلتم

---

(١) المصدر السابق : ١٠ .

تبحثون فوق الجلد ، لكن الجلد سينزع والتفتيش سيستمر) . (١)

ولكن برغم ذلك كله فان هذه الغاية صغيرة وقريبة ، ولا تروى ظمأ ولا تشفى غليلا ، لمحدوديتها من جهة ، ولانها لا تتعامل الا مع جانب واحد من الكينونة الانسانية من جهة اخرى .

(.... ما يحتاج اليه الانسان هو ان يفرض شيئا ليعمل على ضوئه ان يؤمن بشيء ليمنحه ذلك هدفا . والمحك الاخير لقيمة هذا الايمان هو الى اى حد يستطيع الانسان على ضوء مثل هذا الايمان ان يعمل ؟ لقد كان الاسكندر الكبير يؤمن بشيء منحه قوة هادئة هائلة ، اذ آمن بأنه سيحكم العالم . ولما حكم العالم جلس يتساءل يائسا : ماذا سأفعل الآن ؟ أجل هذا هو محك كل ايمان . فاذا انتهى مفهوم الهدف عند حد معين فانه ليس هدفا حقيقيا ، اذن ليس هدفا نهائيا ، ولكن الدين يمنح الانسان الهدف الذى لا ينتهى حتى ولو عاش مليونا من السنين) . (٢)

ولم يكن الحرص الشديد واللهاث المتواصل على المتعة الجسدية والجنسية بالهدف الحقيقى النهائى الذى يملأ على الانسان جوانحه ، وأدى الاغراق فى اللذة والوحل الجنسى وتحدى القيم الخلقية ، ومصادمة ما فى الفطرة من شعور عدم الارتياح لمخالفة الحق والعدل والفضيلة بالاضافة لما بقى فى النفوس من رواسب النظرة المسيحية الى الطبيعة الانسانية المثقلة بالاوزار . كل ذلك أدى الى الشعور بالقلق والاسى والامراض العصبية والنفسية والى الاحساس بالفشل والخيبة .

وفى محاولة للتوفيق بين ما فى الشعور الانسانى من تقدير للحق

---

(١) الساعة الخامسة والعشرون : ٤٧٧ ، عن تهافت العلمانية : ١٩٤ .

(٢) سقوط الحضارة : ٢٨٧ .

والصواب وما فى الواقع من مخالفتهما ، لبس الجشع المادى المحموم والحرص الشديد على اللذة والتهافت على المنفعة الحسية ثوبا فلسفيا تحت رايات شتى ومذاهب مختلفة فى عناوينها وشاراتها وبعض طرقها ، ولكنها تلتقى جميعا على اعتاب المتعة المادية المحسوسة فى صورة البطن أو الفرج .

(يسأل بيرس زعيم البرجماتية : ما هى الفكرة ؟ ومتى يجوز ان تسمى العبارة فكرة ومتى لا يجوز ؟ ويجيب : الفكرة لا تستحق هذا الاسم الا اذا كان لها نتائج عملية يمكن لكل انسان ان يشاهدها اذا اراد) . (١)

ويذهب الفيلسوف المذكور الى ان كل فكرة لا يترتب عليها منفعة - والمنفعة فى نظرة لا تكون الا مادية - فهى زائفة وباطلة ولا معنى لها وعليه فان كل ما يتعلق بالجوانب المعنوية والانسانية كالشرف والعفة والمروءة ليست ذات بال ، لان نفعها ليس ماديا يقع فى نطاق الحس وينزل الى سوق المعاملات فى الحياة العامة . كما أن اية آثار تتعلق بدار غير دار الدنيا فهى مردودة ابتداء ، لانها لا تحقق متعة حسية ملموسة . فصواب الفكرة أو خطؤها لا يعتمد على مطابقتها للواقع أو عدمه وانما على قضية النفع المادى أو عدمه .

وحتى قضية الايمان بالله أدخلت هذا المنظار ، قال برجسون :

(ان وجود الله يستحيل بالطبع اثباته اذا احتكمنا الى خبراتنا العملية - اى فى مجال العمل - لاننا لا نراه ولا نسمعه ولا نلمسه ، واذن فلا يجوز أن يكون ذلك طريق اثباته ، ومع ذلك فهناك طريق مباشر الى اثبات ان لهذه الجملة " الله موجود " معنى اذا رجعنا فى ذلك الى النتائج الحسية المباشرة ، بل الى النتائج العامة التى تحدث عند المؤمن بصدقها .

يركز على الحس
راى د : محمد داود

فالذى يؤمن بأن الله موجود يختلف شعوره فى حياته عمن لا يؤمن بذلك فتراه مثلا متفائلا قوى الرجاء وبالتالى فهو مستبشر بحياته فرح مطمئن وذلك على خلاف زميله المنكر اذ يغلب عليه أن يكون متشائما منقبض النفس

---

(١) الله والانسان ، عبد الكريم الخطيب : ٣٨ .

معدوم الرجاء والامل .

وهذا الاختلاف في وجهة النظر كاف وحده ان يجعل للجملة معنى لما لها من نتائج) . (١)

وهذا فيلسوف آخر يطبق الميزان ذاته على صفات الله - تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا - هو وليم جيمس فيقول : (ان أية صفة من الصفات الالهية مثل الموجود بالذات أو الكمال او اللانهائية او اللامادية لا تحدث خلافا في سلوك الفرد نحو الله أو في الحياة العملية .

(اذا كنت معتقدا بالله فاني سأسلك في الحياة على نحو يطابق اعتقادي سواء أعلمت انه روح وفعل أم علمت انه ليس كذلك . ليس لهذه الصفات من أثر في حياتنا حتى لو كنا معتقدين في وجود الله . (٢)

وبهذا المنطق يمكن لاى معتقد قائم على الوهم والخرافة والخيال أن يكون ذا معنى وقيمة ما دام يؤدى الى النفع المادى،

وبصرف النظر عما في هذا الكلام من مخالفة للحقيقة واصدار للاحكام بعفوية تامة ،اذ لا يستوى اثر الاعتقاد بين من يعتقد في الهه كل كمال وينزهه عن كل نقصان ويعتقد انه " ليس كمثله شيء " (٣) وبين من يعتقد عكس ذلك . اقول وبصرف النظر عن هذا ،فانه يعنى اخضاع المسألة الدينية في اهم اسسها واصولها للمفهوم المادى النفعي وتعريتها من اية جوانب روحية او غيبية .

— ٣ —

اما عن نظرة الغربي الى كل ما حوله فهي مشوبة بالصراع والعداء ،ان

---

(١) ارادة الاعتقاد لوليم جيمس : ١٤٦ ،عن الله والانسان : ٤٧ .

(٢) حياة الفكر في العالم الجديد : ١٤٥ ،عن الله والانسان : ٤٥ .

(٣) سورة الشورى : ١١ .

الحياة فى ضميره وفكره تقوم على هذا التصور .

الصراع اولا بين البشر والالهة . فالجاهلية الاوروبية مع ايمانها بالتعدد الذى يستمد جذوره من التراث اليونانى القديم ، بالاضافة الى النصرانية المحرفة المثلثة ، ومع ايمانها بالتعدد فانها تتصور العلاقة بين الانسان والهته علاقة خصام وصراع وتنافس ، اما عن جذور هذا التصور فانها لتمتد لتصل الى ما يعرف باسطورة " بروميثوس " فى التراث اليونانى . و " برميثوس " هذا هو كائن اسطورى كان الاله " زيوس " يستخدمه فى خلق الناس من الماء والطين ، فسرق " بروميثوس " هذا النار المقدسة وأعطاها للبشر احساسا منه بالعطف والشفقة عليهم . فعاقبه " زيوس " على هذا الصنيع ، بأن قيده بسلاسل فى جبال القوقاز وسلط عليه نسرا يرعى كبده نهارا فتتجدد ليلا . وانتقم الاله " زيوس " من البشر الذين حازوا النار المقدسة بأن ارسل لهم " باندورا " - أول كائن انثوى على الارض - ومعها صندوق يحتوى كل انواع الشرور ليدمر الجنس البشرى ، فتزوجها " ابيميثيوس" أخو " بروميثوس " وتقبل منها الصندوق كهدية ، فلما فتحه انتشرت منه الشرور وملأت الارض (١) . وهذه النار انما تمثل نار المعرفة التى يعرف الناس بها اسرار الكون والحياة . ووُجد فى اليهودية والنصرانية المحرفتين ما يؤيد وجود هذا الصراع .

فاسطورة صراع يعقوب عليه السلام مع ربه ، وعجز الرب عن التغلب على يعقوب ومن ثم اذعانه لشرط يعقوب ، التى حوتها التوراة (٢) ، تقرر امكانية هذا الصراع بل ووجوده وجدواه .

وموقف الكنيسة المتعنت من العلم واضطهادها للعلماء ، وعضها على

---

(١) انظر جاهلية القرن العشرين لمحمد قطب : ٢٤

(٢) راجع ص ٧٦ .

الجهل وما يكفل استمراره بالنواجذ ،كل ذلك طبع التفكير الاوروبي بفكرة الصراع والتنافس بين البشر والهته . فلا يتصور العقل الحديث انه يمكن له ان يثبت ذاته الا على حساب عقيدته ، ولا يمكن له ان يحقق لنفسه الفوز والتقدم الا حين ينفلت من شريعة ربه ، ولا يسعه أن يبنى دنياه الا اذا هدم آخرته ، ولا يستطيع ان يمتع جسده الا على حساب روحه .

وملأت فكرة الصراع الضمير الاوروبي في جوانب شتى ، فعلاقته بخالقه تقوم على العداء ، والعلاقة بينه وبين الكون من حوله سمتها الصراع والخصومة وسبيلها غالب ومغلوب وقاهر ومقهور ، وبالتالي فان تحقيق الانسان لاى تقدم في معرفة اسرار الكون وتسخيره لاى جزء من اجزاء هذا الكون لمنفعته ، واختراعه لاى جديد في هذا الميدان ، فانما يمثل في نظره انتصارا على الطبيعة وقهرا لها وتغلبا عليها . يقول ويلز : (عداوتنا القاسية مع الكون التى لا تنفع معها تهدئة) (١) ويقول : (ان النجوم وهى في مجراها قد أصبحت ضد الانسان) . (٢)

وقد احس بعض المفكرين الغربيين بخطورة هذا الاحساس ، وبفداحة اضراره على الحياة الانسانية ، يقول رينيه دوبو - الاخصائى في علم الحياة والاستاذ بجامعة روكيفلر في نيويورك : (ان الخاصة الانسانية في الحياة متوقفة قبل كل شيء على نوعية العلاقة بين الانسان وسائر المخلوقات . . . الرياح والنجوم والازهار والحيوانات والبشرية الباسمة الضاحكة والحزينة الباكية) . (٣)

ويقول : (ومن الاسباب الاخرى للغربة النفسية الفشل التام - حتى في أكثر المجتمعات تقدما ورخاها ماديا - في اقامة علاقات متناسقة متناغمة بين

(٢،١) اللامنتمى : ١٧ .

(٤) انسانية الانسان : ٤٠ .

حياة الانسان ومجموع بيئته) .

(ويميل علماء النفس والاجتماع والاخلاق الى عزو القلق واليأس لانقطاع الصلات الاجتماعية الحميمة والانفراد والوحشية التى تعم المدن المعاصرة والانقطاع هذا ليس فقط بين البشر انفسهم بل ايضا بينهم وبين قوى الطبيعة) . (١)

ويقترح دينا اجتماعيا جديدا (مهما كان شكل هذا الدين الجديد يجب أن يكون أساسه تناسق وتوافق وانسجام بين الانسان والطبيعة بدل الميل المتهور المندفع نحو الاخضاع والسيطرة) . (٢)

ولعل من اهم الاسباب التى يعود اليها وجود هذا الشعور ـ بالاضافة لجذوره القديمة التى ذكرناها قريبا ـ هو الاحساس بالتناقض والاختلاف والتصادم بين الحياة المنفلتة من رقابة الوحى السماوى والقائمة على الهوى والمعادية بالتالى للمنهج السماوى وبين السنن الكونية الربانية التى تحكم حركة كل مظهر من مظاهر الكون وتسير الحياة بالتالى وفق هذه السنن ، فالمصدر مختلف بين الحياة التى يمارسها الاوروبى ، ومنشوءها تصورات واعراف وقوانين وشهوات بشرية وبين السنن التى هى من صنع الله واحكامه ، فلا يمكن أن يقع الانسجام والتوءام بل لا بد ان يقع الصدام والتناقض الذى يشعر الاوروبى المتمرد على ربه ان ما حوله يضغط على أعصابه ولا يطاوعه ، بل يقاومه فيحس بثقل ذلك على حياته . ومن ثم يشعر بعداء هذا الكون الذى يقوم على هذه السنن .

ويمتد هذا الشعور بالعداء والصراع ليترك بصماته على علاقة هذا الغريب الضائع بمن حوله من الناس ، فان نظرته لذاته لما كانت تقوم على

---

(١) المصدر السابق : ٤٨

(٢) المصدر السابق : ٦٣

الاثرة وحب النفس بشكل متزمت فان نظرته للآخرين لا بد ان تقوم على الكره باعتبارهم اعداء له، أو منافسين له على ما يريد ان يحوزه لشخصه، أو اقرانا ربما يصلون الى ما لم يصل اليه من المال او المجد او المنزلة ، بينما لا يريد هو أن يرى الا نفسه .

(ان حالة اللامنتمي هذه واضحة ضد المجتمع كل الوضوح ، فالرجال والنساء جميعا يملكون هذه الدوافع الخطرة اللاسماه ، الا انهم يغطونها عن انفسهم وعن الآخرين) . (١) ويدفع هذا الشعور وشعور احتقار الحياة بكل ما فيها غير اللذة احيانا ، وبما فيها اللذة المكروره المملولة احيانا أخرى ، للنظر الى مطالب ورغبات واشخاص كل من حولهم نظرة ملوءها الكره والاشمئزاز والاحتقار ، فيقابلهم الآخرون بنفس الشعور مما يوءدى الى المزيد من هذه العلاقات والآثار النفسية السلبية والعدائية .

(ان اللامنتمي . . . . حين لا يعرف نفسه أو لا يفهم لماذا هو غير متفق مع بقية البشر تجعله كراهيته للبشر وللعالم شخصا غير متزن ، غير لائق ورجلا يتدفق بالحقد والحسد ، هسيتريا جبانا ، يتراجع مرتعدا . ويعتمد خلاصة على فهمه لنفسه ومعرفته لها ولا يدرك الا حين يبدأ باكتشاف نفسه أن كرهه له ما يبرره . انه رد فعل صحيح ضد عالم من المرضى انصاف الرجال) . (٢)

— ٤ —

لقد ولد التقدم العلمي وما انبثق عنه من تطور تقني وصناعي بعد صراع طويل ومرير بين الدين على الصورة التي اعلنتها وتبنتها الكنيسة وبين العلم، واعلن انتصار العلم على الدين ، فأدى ذلك ـ ولا عجب ـ الى ان بث الغربي

---

(١) اللامنتمي : ١٢ .

(٢) سقوط الحضارة : ٦١ - ٦٢ .

صلته بقيم وأمور كثيرة - بغض النظر عن قيمتها الموضوعية - لا لشيء الا لأنه يعتبرها ضمن ما نادت به الكنيسة من مبادئ، واستبدل بها قيما واعتبارات اخرى مضادة لها، ولم يستثن من ذلك حتى قيمته واعتباره كانسان، فضحى بكرامته ومكانته وسيادته - كما اوضحنا سابقا - ، وبهذا لم يعد الانسان هو محور هذه الحضارة باعتباره الانساني ككائن يفارق غيره من الكائنات بمتطلباته الروحية وقيمه العلوية وعواطفه ونفحات وجدانه، بل نظر اليه على صورة لحمتها وسداها الجانب المادى النفعي، فحاجاته ومطالبه ليست الا مطالب وحاجات الحيوان كالاكل والشرب والمسكن والجنس ونحوها، ولا مزايا له على غيره الا بمقدار انتاجه المادى، وأمراضه ومشاكله لا تشخص ولا يطلب لها العلاج والحل الا بهذا الاعتبار، فأهمل بل وحورب كل ما يتعلق بأشواقه الروحية ونداوة نزعاته العاطفية الوجدانية وثراء خياله وسعة افقه وكل قيمة الاخلاقية التى تستمد اعتبارها من الجانب الانساني والاحساسات الروحية لديه .

ولما كان كل هذا التجاهل لطبيعة الانسان وفطرته لا يلغى هذه الفطرة، ولا يذهب بما فيها من الجانب الروحى الممازج لها، ولا يحول الانسان الى قطعة من المادة الجامدة، فان الانسان أصبح يشعر انه يعيش فى عالم لا يوافقه ولا يناسبه ولا يؤنسه، فأحس بالغربة والوحدة تجاه هذه الحضارة التى تصدمه فى كثير من احاسيسه ونوازعه، يقول الكسيس كاريل :

(يجب أن يكون الانسان مقياسا لكل شيء، ولكن الواقع هو عكس ذلك تماما، فهو غريب فى العالم الذى ابتدعه . انه لم يستطع ان ينظم دنياه لانه لا يملك معرفة علمية بطبيعته . ومن ثم فان التقدم الهائل الذى أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة هو احدى الكوارث التى عانت منها الانسانية فالبيئة التى ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحة لا بالنسبة لقوامنا ولا بالنسبة لهيئتنا . اننا قوم تعساء لاننا ننحط اخلاقيا وعقليا .

ان الجماعات والامم التى بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم ؛ هى على وجه الدقة الجماعات والامم الآخذة فى الضعف والتى ستكون عودتها الى البربرية والهمجية اسرع من غيرها اليها ، ولكنها لا تدرك ذلك ، اذ ليس هناك ما يحميها من الظروف العدائية التى شيدها العلم حولها . وحقيقة الامر أن مدينتنا مثل المدينات التى سبقتها أوجدت احوالا معينة للحياة من شأنها أن تجعل الحياة نفسها مستحيلة وذلك لاسباب لا تزال غامضة . ان القلق والهموم التى يعانى منها سكان المدن العصرية تتولد من نظمهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية). (١)

لقد أصر العقل الغربى على انكار كل ما يخرج عن حدود عالم المادة باعتباره شيئا لا يمكن اقامة الدليل العلمى عليه ، فهو لا يدرك بالحواس، ولا يدخل الى المختبر ، فلا يمكن اعتباره من ثم حقيقة علمية ؛ وما هو الا الوهم والخرافة .

وابدعت اوروبا فى كثير مما استطاعت ان تسيطر عليه وتسبر غوره بوسائلها المادية، فتضعه تحت مقاييسها تعرف حجمه ولونه وطعمه وشكله ، وترقبه فى مده وجزره ونموه وضعفه وصوابه وخطئه ، نجحت فيما استطاعت ان تدخله الى المختبر ، أو تضعه تحت المجهر ، أو تتحكم به من خلال الآلة ، وتمكنت ان تقدم بذلك انتاجا ماديا غزيرا استفاد منه الانسان كثيرا .

ولكن أليس فى الآفاق وفى الانفس وفى وجوه النشاط البشرى المتعددة آفاق وآماد لا تصل اليها التجربة ولا يسعها المختبر ولا يراها المجهر ولا يستطيع العلم ان يكشفها بوسائله المادية ، لانها خارجة عن تلك الوسائل ؟

(تبدو الوسيلة العلمية للنظرة الاولى غير قابلة للتطبيق على تحليل جميع وجوه نشاطنا ومن الواضح اننا نحن المراقبين ، غير قادرين على تتبع

---

(١) الانسان ذلك المجهول : ٤١ - ٤٢ .

الشخصية البشرية فى كل منطقة تمتد اليها ، لان فنوننا لا تفهم الاشياء التى لا ابعاد لها ولا وزن ، وانما هى تصل فقط الى المناطق التى تقع فى الاتساع والزمن ، انها غير قادرة على قياس الغرور والحقد والحب والجمال وأحلام العالم والهام الشاعر ، ولكنها تسجل بسهولة النواحى الفسيولوجية والنتائج الفسيولوجية والنتائج المادية لهذه الحالات النفسانية) . (١)

ولكن المندفع فى الاتجاه المضاد للكنيسة لم يمنح الثقة لاى مصدر آخر غير الحس،فلم يعترف بوجود كل ما لا ابعاد ولا وزن له ، وانطلاقا من هذا التصور أراد العقل الانسانى ان يكون المرجع فى كل امر من أمور الحياة وان يكون مصدر كل تصور أو توجيه فيها ، وأن يكون الحَكَم فى كل ما يعرض للانسان من مشاكل ، وفى كل ما يصادفه من مسائل فردية أو اجتماعية ، اخلاقية أو اقتصادية او سياسية أو دينية . فهل كان العقل الاوروبى - ومثله كل العقول - على بينة من أمر الحياة ، وعلى معرفة بالنفس الانسانية ، بشكل يستطيع معه ان يقوم بهذا الدور الذى ادعاه لنفسه ومارسه بالفعل ؟

يقرر د . الكسيس كاريل فى كتابه " الانسان ذلك المجهول " ان جهل الانسان بنفسه مطبق ، وان اسئلة كثيرة تتعلق بجوانب متعددة من هذه النفس لا تزال مجهولة لنا ، ويقرر فى مواضع متعددة من كتابه المذكور أن هناك تفاوتا عجيبا بين ما بلغه الانسان فى علوم الجمادات وما بلغه فى علوم الحياة عامة ، والعلوم المتعلقة بالنفس البشرية بشكل خاص ، وانه ليس هناك من امل فى تذليل العقبات التى تقوم فى وجه العلم بالنفس الانسانية فى المستقبل . وقد مر بنا بعض ما قال ، ومما قاله :

(وهناك تفاوت عجيب بين علوم الجماد وعلوم الحياة . فعلوم الفلك

---

(١) المصدر السابق : ٥٤

والميكانيكا والطبيعة ،تقوم على اراء يمكن التعبير عنها بسداد وفصاحة باللغة الحسابية ، وقد انشأت هذه العلوم عالما متناسقا . . . . انها تنسج حول هذا العالم نسيجا رائعا من الاحصاءات والنظريات .

بيد ان موقف علوم الحياة يختلف عن ذلك كل الاختلاف ،حتى ليبدو وكأن الذين يدرسون الحياة قد ضلوا في غاب متشابك الاشجار ،أو انهم في قلب دغل سحرى ،لا تكف اشجاره التى لا عداد لها عن تغيير أماكنها وأحجامها) . (١)

ويقول : (وواقع الامر ان جهلنا مطبق . فأغلب الاسئلة التى يلقيها على انفسهم اولئك الذين يدرسون الجنس البشرى تظل بلا جواب ،لان هناك مناطق غير محدودة في دنيانا الباطنية ما زالت غير معروفة) (٢) ثم يضرب العالم المذكور أمثلة كثيرة لاسئلة مهمة تتعلق بتكوين الخلايا وبناقلات الوراثة في البويضة وبالتكوين النفساني والفسيولوجى للانسان،وغير ذلك من اسئلة لا يزال لا يعرف لها جواب . ثم يقول (وهناك اسئلة اخرى لا عداد لها يمكن ان تلقى في موضوعات تعتبر في غاية الاهمية بالنسبة لنا ، ولكنها ستظل بلا جواب . فمن الواضح أن جميع ما حققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الانسان ،غير كاف ،وان معرفتنا بأنفسنا ما زالت بدائية في الغالب)(٣)

ثم يضيف (صفوة القول :ان التقدم البطىء في معرفة بني الانسان - اذا قورن بالتقدم الرائع في علوم الطبيعة والفلك والكيمياء والميكانيكا - يعزى الى حاجة اجدادنا الى وقت فراغ ،والى تعقد الموضوع والى تركيب عقولنا .

---

(١) المصدر السابق : ١٣ .

(٢) المصدر السابق : ١٧ .

(٣) المصدر السابق : ١٨ .

(وهذا العقبات اساسية ، وليس هناك أمل في تذليلها . وسيظل التغلب عليها شاقا يستلزم جهودا مضنية) . (١)

وليس " كاريل " هو الوحيد الذى يشكو من جهل الانسان بنفسه بصورة خاصة ، ومن جهله بأمور كثيرة أخرى بصورة عامة . فهنا رينيه دوبو لا يرى (سببا للاعتقاد بأن أهم مشاكل الحياة هو تحليلها مجهريا) ويؤكد أن دراسة الكائن الحى بطريقة الاجزاء لا تفى بفهم الحياة الانسانية :

(ان التجربة الحياتية تغيب عندما نقطع الكائن الحى الى اجزاء فكثير من نواحى الحياة الانسانية لا تفهم الا بدراسة وظائف الانسان بكل تعقيداتها وفى ردود الفعل المهمة التى تبدو منه على الاثارات والتحديات التى يواجهها . ومثل هذه الدراسة تحتاج الكائن ككل ، كالموقف الايكولوجى (٢) وتختلف تماما عن الاسلوب التحليلى السائد الآن فى ميدان علم البيولوجيا -علم الحياة - .

(ومن المعروف ان انسانية الانسان تخلق مسائل ليس لها تحديد علمى دقيق) ، ثم يقول بعد ذكره للامور التى يمكن دراستها من النفس الانسانية بسهولة

(الا ان هذه الظواهر البسيطة لا تشكل الا جزءا يسيرا غير هام من الخبرات التى بدورها تشكل بمجموعها حياة الانسان) . (٣)

وقد صدرت فى بريطانيا عام ١٩٧٧ دائرة معارف باسم " دائرة معارف الجهل " اشترك فى تأليفها مائة وخمسون من كبار العلماء والباحثين ، وقد

---

(١) المصدر السابق : ٢٢

(٢) الايكولوجيا هى : العلم الذى يدرس العلاقة بين السكان وبيئتهم . انظر معجم العلوم الاجتماعية ، اعداد نخبة من الاساتذة : ٨٨

(٣) انسانية الانسان : ١٥٦ - ١٥٧

أوردوا فيها كثيرا من الظواهر والحقائق الحياتية والكونية التى لا يـــزال العلم عاجزا عن تفسيرها . (١)

وبهذا الجهل الذى يصرح به هؤلاء الباحثون الغربيون غير المتهمين بالتحيز ضد الحضارة الغربية تعاملت هذه الحضارة مع النفس الانسانيـــة فيما تقدمه لها من مناهج فى سائر جوانب حياتها ،على المستوى الفردى وعلى المستوى الجماعى .

ولا ينتظر أبدا ممن يتعامل مع من يجهله أن يحسن فى تعامله ،وان يوفق فى تشخيص ادوائه وحاجاته ،ولا ان يجيد فيما يقدمه له من مناهـــج وما يصف له من علاج ،وانما ينتظر منه أن يسبب له الضرر ويلحق به العطـب وهكذا كان ،فان الحضارة المناقضة للايمان العاجزة عن فهم الانسان دمرت الانسان وأتلفته ،وكان التالف هذه المرة هو اثمن ما فى الكون ،انه الانسان بل اعز واكرم ما فى الانسان من خصائص ومزايا .

(لنفرض اننا كنا نجهل قوانين المادة ،جهلنا بقوانين الحياة ،والحياة الانسانية ـ بصفة خاصة ـ ،ثم أردنا أن نتعامل ـ بجهلنا هذا الكلى أو الجزئى ـ مع المادة ،فما الذى كان يقع ؟ النتيجة معروفة . يقع ان تتلـف المادة التى نتعامل معها ـ كليا أو جزئيا ـ ان لم تحطمنا هذه المـــادة وتدمرنا . ومثل هذا قد حدث تماما فى الحياة البشرية .

ولكن التلف والدمار حين يقع فى عالم المادة لا ينشىء آثارا يصعـــب تداركهـــا ،ولا يحطم أشياء ثمينة غالية مثل " العنصر الانسانى "و" الحياة الانسانية " ،ولا يتخلف منه ما يتخلف من محاولاتنا علاج شؤون الانسانية فى معـــزل عن خالقها العليم بحقيقتها ،الخبير بالنواميس التى تحكم حياتها ،واتصالاتها بهذا الكون الذى نعيش فيه . ولا مثل ذلك التخبط والشقاء والحيرة والقلق

---

(١) انظر الاسلام والعصر الحديث) وحيد الدين خان : ١٩ .

والتلف والفساد . ثم التهديد بالدمار الاخير في نهاية الخط المشؤوم .

ان مثل هذه الظواهر النكدة تتجلى الآن في كل جوانب الحياة البشرية ، وتبدو معها التضحيات الهائلة والمذابح الرهيبة ، والتقلبات العاتية والشقوة التي تسحق أثمن عناصر الكون " الانسان "). (١)

ويسر الغرور الذى تملك العقل الاوروبى بفعل التلاحق المتزايد الواسع للاكتشافات العلمية خلط وقبول كثير من الاراء ووجهات النظر الشخصية الخاصة ببعض العلماء والمفكرين بالحقائق العلمية ، رغم انه لم يكن هنالك تلازم بين تلك الآراء والحقائق العلمية التي ارتبطت بها .

— ٥ —

ادى التقدم العلمي وما انبثق عنه من الثورة الصناعية ، وانتشار الآله الواسع في كافة ميادين الانتاج ، ودخولها الى كل جانب من جوانب حياة الناس ، في وقت سيطرت فيه على العقول النظرة النفعية التي لا تهتم من الحياة الا بالجانب المادى ، ادى ذلك كله الى احداث المزيد من الآثار على طبع الناس وعلى قيمهم وفلسفتهم في التعامل والحركة وسياسة الحياة . فما دامت المسألة هي ماالاكثر انتاجا والاوقر ربحا ؟ فان الآلة كثيرا ما تبدو هي السابق في هذه الحلبة ، انها أقدر من الانسان على التحمل ، وعلى العمل لساعات أطول وانتاجها اكثر وربما تكاليفها أقل ، انها اطوع لصاحب العمل من العامل ، ولا تشتكي مما يشتكي ، انها لا تعرف التراخي الذى يعوق الانتاج ، فهي العامل المثالي ، أو هكذا نظر اليها . وتزايد وجودها وتأثيرها ، وتعاظم مع الايام دورها ، بيد أنها صبغت أثناء ذلك الفرد الغربي بطباعها ، وفاضت عليه من جمودها وتحجرها وقسوتها ، واصبحت

---

(١) الاسلام ومشكلات الحضارة ، سيد قطب : ٣٨ - ٣٩ .

مثله الذى يحتذى وأسوته التى تقتفى . ولماذا لا تكون كذلك ما دام المثل الاعلى هو كثرة الانتاج ؟ وما الذى سيحول بينه وبين تقليد الآلة فى خواصها وطباعها ما دام دارون وفرويد قد قالا ان الانسان حيوان وماركس قد قال : ان عوامل الانتاج هى التى تشكل كل شىء فى حياة الانسان ؟

وقدمت الآلة - بلا شك - خدمات كثيرة وخطيرة فى حياة الانسان ، ومنحته تساهيل جليلة ، ومكنته من التغلب على عقبات عديدة ، وينتظر لها أن تقدم المزيد من الخير والعطاء ، وكل ذلك كان ستحقق دون حصول كارثة انتقال خواص الاله للانسان ، ودون تجريده من اسمى ما فيه من خصائص ، لو بقى الانسان هو سيد هذه الحضارة ، ولو ان هذه الحضارة بنيت على اساس من النظره الكلية للذات الانسانية التى لا تضخم جانبا على حساب اهمال الجانب الآخر ، والتى تأخذ فى حسابها انسانية بما فيها من متطلبات جسدية ونفحات روحية واشواق علوية ، فتعمل على تلبية حاجته بهذا الاعتبار.

ولكن الامر انتهى بالانسان الى هذه الحالة من الخصائص الالية المادية ، ولا يتوقع له اذا استمر على ما هو عليه الا المزيد من مثل هذه الآثار ، فان الالة فرضت نفسها على الانسان فرضا ونزعت منه السيادة ، وقد تعالت صرخات كثيرة فى العالم تحذر من هذه الكارثة.

يقول كونستانتان جورجيو :

(ان مجتمعا فيه عشرات المليارات من العبيد التكنيين (١) ، وحوالى مليارين من البشر ، حتى ولو كان هوءلاء يسيرونه ، فانه ستسوده اكثرية " بروليتارية " . ان تأثيرها يتزايد يوما بعد يوم . والانسان مرغم على معرفة عاداتهم وقوانينهم وتقليدهم ليستطيع استخدامهم والافادة منهم . وكل مستخدم مرغم على معرفة لغة مستخدميه وعاداتهم ، ليصدر اليهم أوامره

---

(١) المراد بالعبيد التكنيين : الالات التى يستخدمها البشر

وليستخدمهم . وقد جرت العادة أبدا على انه اذا كان المحتل أقل عددا من الامة التي يحتلها فانه يرغم على اعتناق عادات تلك الامة وتعلم لغتها بسبب المنفعة والمصلحة وسهولة التفاهم ، انه يرغم على ذلك رغم أنه محتل وسيد شديد البأس . ان مثل هذه النظرية تتابع تضخمها وانتشارها ضمن محيط مجتمعنا رغم أننا نأبى الاعتراف بها . وهكذا فاننا سنتخلى عن انسانيتنا ونتبع اسلوب الحياة المطبق على عبيدنا التكنيين . وستكون دلالة هذا التخلي عن الانسانية احتقار الكائن البشرى . ان الرجل العصرى يعرف انه وزملاءه من بني الانسان ليسوا اكثر من عناصر يمكن استبدالها ، والمجتمع الحديث الذى يحوى على رجل واحد مقابل كل ثلاثين عبدا تكنيا ينبغي ان ينظم حياته وان يعمل حسب النظم التكنية لانه مجتمع خلق وبني على احتياجات ميكانيكية وليست انسانية) . (١)

ويقول : (ولسوف يقلد البشر في علاقاتهم الاجتماعية وفي الادارة وفنون النقش والرسم والادب وفي الرقص ، الاسلوب واللغة الخاصين بالرقيق التكنيين . وستصبح المخلوقات البشرية ببغاوات العبيد التكنيين) . (٢)

غير ان البشر لا يستطيعون رغم هذا التقليد للآلة ان يتخلوا عن انسانيتهم ويتحولون الى الات ، فان النفس الانسانية رغم كل ما أصابها لا يمكن لها ان تتخلص من فطرتها ، ومن معاني انسانيتها التي مهما غطاها من ركام الافكار والآمال والشهوات والهوى الجامح لا يمكن ان تنطفأ . فيقع التصادم داخل النفس البشرية بين الحقيقة البشرية والحقيقة الآلية ويحدث الصراع الذى يسحق أعصاب الانسان ويمزقها ، ويذهب بالراحة والامن ، ويبدل الطمأنينة قلقا واضطرابا ، والانس غربة ووحشة .

---

(١) الساعة الخامسة والعشرون : ٨٢ . عن تهافت العلمانية : ١٨٠ - ١٨١ .

(٢) الساعة الخامسة والعشرون : ٨٣ . عن تهافت العلمانية : ١٨١ .

ويسعى الانسان للتحلى بالقيم الآلية ، والتخلص من القيم الانسانيـــة ؛ لان الاولى تبدو في ضوء العقل المادى اكثر فائدة ، وأكمل جدا وعمـــلا ، يقول جيورجيو يصور حوارا داخليا لانسان يقف أمام الالة ملغيا كيانه الداخلي كانسان : (لا يسمح لك بالتفكير بأى شيء اخر ، والا فان الالات تعاقبـك على الفور . ان كل انتباهك ينبغي أن يكون موجها نحو زميلك الآلي ، ذلك العامل المجد الذى يأتيك بالصندوق ويمده اليك ، وعليك انت ان تنحنـي وتأخذ الصندوق من يديه . ان الانسان الآلي لا يمكنه أن ينطبع برغبـة الانسان . فعليك اذن أن تساير رغباته وتوازن حركاتك مع حركاته . ان هذا طبيعي جدا لانه هو العامل الكامل . اما انت فانك لست كاملا . ان الالات تعلمك الترتيب والنظام والكمال ، فاذا حاكيتها غدوت عاملا من الدرجـة الاولى) . (١)

وتلبّس الانسان بخصائص الآلة واخلاقها ، فماتت عواطفه وذوى وجدانه واصبح التجريد والرتابة طابع حياته ، وغابت معاني الشفقة والحنان والاحترام والحياء ونحوها ، لقد ردمت ينابيع الرحمة والانسانية ، وحلت مكانها قوانين الآلات الصماء ، التي لا تعرف الا اتجاها واحدا صممت ان تتحرك اليه دون ان تراعي اى شيء آخر ، وهكذا نجد عامل الآلة هذه يكاد لا يتحرك الا كما تتحرك آلته ، يقول جيورجو : (انه الكائن الاجتماعي الذى لا يعيش الا في الحدود الاجتماعية من الحياة ، كمكبس الآلة الذى لا يقوم الا بحركة واحدة يكررها مدى الحياة) . (٢)

وما أقسى الانسان حين يتخلى عن مثله وأخلاقه ، وما أكثر وحشيته حين يقف من أخيه الانسان كما تقف منه الالة ، ويتعامل معه كما تتعامل الالـة

---

(١) الساعة الخامسة والعشرون : ٢٤٠-٢٤١ ، عن تهافت العلمانية : ١٨٤ .

(٢) الساعة الخامسة والعشرون : ٩١ ، عن تهافت العلمانية : ١٨٦ .

ولا يعنيه من امره الا ما يعنى الالة ، بل ربما يسحقه كما تسحقه الالـــــة وهذا ما يشكو منه الغربى مر الشكوى ، يقول جيورجيو:

(ان الانسان يستطيع السيطرة على كل الحيوانات المفترسة ، غير أن حيوانا جديدا ظهر على سطح الارض فى الآونة الاخيرة . وهذا الحيــوان الجديد اسمه المواطنون . انهم لا يعيشون فى الغابات ولا فى الادغـال ولكن فى المكاتب . مع ذلك فانهم أشد قسوة ووحشية من الحيوانات المتوحشة فى الادغال ، لقد ولدوا من اتحاد الرجل مع الالات ، انهم نوع من ابنــاء السفاح ، وهم أقوى الاصول والاجناس الموجودة الآن على سطح الارض . ان وجههم يشبه وجه الرجال !! (١) ، بل ان المرء غالبا ما يخلط بينهم . ولكن لا يلبث المرء حتى يدرك بعد حين ، انهم لا يتصرفون كما يتصرف الرجــال بل كما تتصرف الالات . ان لهم مقاييس وأجهزة تشبه الساعات بدلا مـــن القلوب ، وادمغتهم نوع من الالة ، فهم بين الالة والانسان ، ليسوا من هذه ولا من ذاك . ان لهم رغبات الوحوش الضارية مع انهم ليسوا وحوشا ضارية بل انهم مواطنون) . (٢)

— ٦ —

وفى ظلال هذه النظرة المادية الداعية الى التأكيد على الغريزة ، واعلاء شأنها واعتبارها مصدرا لكل التصرفات ، ومن ثم الاصرار على ضرورة اطلاقها من كل عقال ، والتحذير مما سمى باخطار الكتب والعقد النفسية ، بالاضافة لكون هذه النظرة تغض الطرف عن كل ما ليس بمادى ولا حيوانى فى الانسان كروحه وعواطفه ووجدانه ونحوها ، وما دامت لا تعترف بهذا الجانب فكيف لهـــا ان تدعو او تعمل على تهذيبه وترقيته وتنميته ؟ وفى ظلال ذلك كله ساد الحياة الانسانية التماثل أو التشابه والتعميم ، وكاد التنوع والفردية المميـزة

---

(١) التعجب مضاف .

(٢) الساعة الخامسة والعشرون : ٣٨٦ ، عن تهافت العلمانية : ١٨٦ .

لاشخاص الناس ان تغيب . ذلك بأن الجانب الروحي والوجداني الذي أهملته النظرة المذكورة هو أهم الجوانب التي يتفاوت الناس فيما بينهم فيها تفاوتا واسعا ، وتتمايز على أساس منها افكارهم وتصوراتهم وأخيلتهم وأخلاقهم وانتاجهم ومبتكراتهم ، وتتحدد سمات شخصياتهم . فاذا أهدرنا ذلك الجانب فمعنى ذلك اننا نجفف أهم ينابيع هذا التمايز ونقضي على أهم عوامله في شخصيات البشر ، ذلك التمايز الذي يجعل كل واحد منهم عالما مستقلا بذاته متفردا عن غيره من الناس بمزايا خاصة ، مع ما يشابههم به من الصفات الانسانية العامة .

وهذا الاتجاه الذي يوجه البشر والحياة الانسانية نحو التشابه والتماثل هو مخالف لفطرة الانسان وتكوينه ، فان هذه الفردية تطبع اعماقه بطابعها وتتخذ لها اساسا قويا في داخله وفي انسجة جسمه ، يقول كاريل :

(من المحتمل أنه لم يوجد فردان بين ملايين الملايين من البشر الذين استوطنوا هذه الارض ، كان تركيبهما الكيمياوي متماثلا . وترتبط شخصية الانسجة التي تدخل في تركيب الخلايا والاخلاط بطريقة ما زالت غير معروفة حتى الان . ومن ثم فان فرديتنا تتأصل في أعماق ذاتنا .

وتطبع الفردية جميع اجزاء الجسم المركبة . فهي موجودة في العمليات الفسيولوجية كما هي موجودة في التركيب الكيمياوي للاخلاط والخلايا . ولهذا فان كل شخص يتفاعل بطريقته الخاصة مع احداث العالم الخارجي . مع الضوضاء والخطر والطعام والبرد وهجمات الميكروبات والفيروسات) . (١)

ويقول : (أن الفردية جوهرية في الانسان . انها ليست مجرد جانب معين من الجسم ، اذ انها تنفذ الى كياننا . وهي تجعل " الذات "حدثا فريدا في تاريخ العالم . انها تطبع الجسم والشعور . كما تطبع كل مركب

---

(١) الانسان ذلك المجهول : ٢٨٦

في الكل بطابعها الخاص ، وان ظلت غير متطورة) . (١)

وهذا التنوع والتفرد بين بني الانسان ضروري لاقامة الحياة الانسانية وبنائها واثرائها بالنافع المفيد ، ولتحريكها نحو الاحسن ، ولتطويرها لخير الانسان وسعادته ، وضروري أيضا لتوسيع النشاط الانساني وتخصصه ليتمكن من شمول وتغطية جوانب أوسع من الكون ومساحة أرحب من الحياة الانسانية .

ولكن هذه المزية الانسانية التي تجعل كل انسان يعيش في هذا العالم انما يمثل عنصرا نادرا ثمينا بين بني جنسه ، والتي تعتبر من أهم نقاط القوة في الشخصية الانسانية ، هذه المزية قد هوجمت بعنف ، قال كولن ولسن : (ان المقاييس الروحية تلاشت تقريبا ، واستطاع فرويد وكارل ماركس ان يقنعانا بأن البشر جميعا متشابهون ، وانهم يخضعون لمؤثرات نفسية واقتصادية واحدة) . (٢) ويقول كاريل : (ان مشكلة الفردية الخطيرة تهاجم الآن بنجاح) . (٣)

ولا ينتظر لهذا الفردية التي تجعل صاحبها فريدا ولهذا التنوع المثمر الا مزيد من الانحسار والتقلص كلما ازداد الانسان مادية في أهدافه وآلية في طباعه وأخلاقه ، يقول جيورجيو : (سوف تتشكل جيوش العالم كله من مأجورين يناضلون ويكافحون من أجل تدعيم المجتمع الآلي الذي لن تعيش فيه الفردية ، ولعل هذا العصر هو الاكثر ظلمة في تاريخ البشرية) .(٤)

ومع جفاف ينابيع الوجدان والعاطفة والخيال والسمو ، وغياب الفردية والتنوع في بني الانسان ، وتلاشي الجانب الروحي ، مع ذلك كله ، يضمر

---

(١) المصدر السابق : ٢٨١ .

(٢) سقوط الحضارة : ٦٠ .

(٣) الانسان ذلك المجهول : ٨ .

(٤) الساعة الخامسة والعشرون : ٨٥ ، عن تهافت العلمانية : ١٨٢ .

الابداع ويضمحل الابتكار ، وتموت الحوافز الذهنية ، وتصغر الآمال وينزوى اهتمام البشر الى اللذة والغريزة ، التى تستهلك الوقت والجهد فيقل الذكاء ، ويضعف التحصيل العلمى ، مما يعوق تقدم العلوم ، ويهدد سير الحضارة بالتباطىء أو الوقوف والفناء .

يقول جيورجيو : (ان المجتمع التكنى يستطيع ابتداع رفاهية لكنه لا يستطيع خلق الفكر ، وبدون الفكر لا توجد العبقرية ، ان مجتمعا محروما من رجال عباقرة مقضى عليه بالفناء . . . . ان انيشتاين يؤكد أنه يكفى انقطاع جيلين متتابعين فقط فى خط العقول المتفوقة الميالة بصورة خاصة للعلوم الطبيعية ، لكى تنهار كل المشيدات القائمة على هذا العلم) . (١)

ويقول كاريل يشكو من هذا الداء (ان الصفة الغالبة فى الحضارة العصرية هى الافراط فى النشاط الذى يوجه كله نحو الجانب العملى من الحياة . كذا يتصف الفرد بكثير من الجهل وحد معين من الذكاء . وايضا بنوع معين من الضعف العقلى . . . . ويبدو ان العقل نفسه لا يلبث ان يستسلم حينما تضعف الاخلاق) (يبدو ان الحضارة العصرية عاجزة عن انجاب قوم موهوبين من ناحية الخيال والذكاء والشجاعة . ففى كل بلد يوجد تناقص فى المستوى العقلى والادبى لاولئك المسئولين عن الشؤون العامة).(٢)

ولعله من الواضح ان الافراط فى الجنس ، السمة الظاهرة لهذا العصر يستهلك الجهد ، ويذهب بالقوة ، وخاصة العقلية منها ، ويشغل عن العمل المثمر ، وقد مكنت فلسفة فرويد وغيرها من الفلسفات الغربية التى تعلى من شان الجنس من دفع هذا الاتجاه بقوة ، وهو ما يؤكده شاهدنا الغربى

---

(١) الساعة الخامسة والعشرون : ٨٧ ، عن تهافت العلمانية : ١٨٤ .

(٢) الانسان ذلك المجهول : ٣٦ - ٣٧ ، انظر الاسلام ومشكلات الحضارة ١٢٧ وما بعدها .

الذى نقلنا عنه قريبا ، فيقول : (من المعروف ان الافراط الجنسى يعرقل النشاط العقلى . ويبدو أن العقل يحتاج الى وجود غدد جنسية حسنة النمو . وكبت موءقت للشهوة الجنسية ، حتى يستطيع ان يبلغ منتهى قوته) .

ويقول عن تأكيدات فرويد على اهمية الدوافع الجنسية فى وجوه نشاط الشعور : (ان ملاحظاته تتعلق بالمرضى على الاخص . ومن ثم يجب الا تعمم استنتاجاته بحيث تشمل الاشخاص العاديين ، وبخاصة اولئك الذين وهبوا جهازا عصبيا قويا ، وسيطرة على انفسهم . وبينما يصبح الضعفاء ، المعتلو الاعصاب ، غير المتزنين ، اكثر شذوذا عندما تكبت شهواتهم الجنسية فان الاقوياء يصيرون اكثر قوة بممارسة هذا الشكل من الزهد) . (١)

— ٧ —

كل هذا التخبط والبعد عن الاستقرار والنظرة الى الحياة نظرة التشاؤم والكآبة والشعور الداخلى بالضعف وغير ذلك من الآثار السلبية التى ذكرناها ، بالاضافة لاحساسه بفراغ داخلى انما يشعر النفس الغربية بأنها تفقد شيئا تبحث عنه ولا تجده ، تطلبه ولكنها لا تدركه ، تحس بحاجتها اليه احساسا شديدا غير انه غامض مبهم ، ربما لا تستطيع أن تترجمه بالالفاظ ، انه انسان غير راض عن نفسه ولا عن تصرفاته ، ولكنه ربما لا يعرف لماذا هو كذلك ؟ وهذا انما يزيد فى ضيقه وشعوره بالتقزز والاشمئزاز من ذاته يقول ولسن يصف حالة الغربى (ان اسوأ ما يضايقه هو انه لا يستطيع ان يجد عذرا لبلادته . . . . انه يحس ان هنالك نقصا ما ، ولكن ما هو؟). (٢)

ويستغرق فى اللذة ، لان ذلك حيلته الوحيدة ، والطريق الذى لا يرى امامه غيره ، ولكن ذلك لا يغير من الامر شيئا الا ان يشعره اكثر

---

(١) الانسان ذلك المجهول : ١٧٤ .

(٢) اللامنتمى : ٦٥ .

بهذا النوع من النقص .

اننا نجد فى عداد المنتحرين او الذين حاولوا الانتحار والمجانين الذين سيطر عليهم اليأس والقلق ، وحطمت أعصابهم الامراض العصبية والنفسية فى الغرب شخصيات كثيرة حازت الثروة والجاه والجمال والمنصب الرفيع ، وغيرها من عوامل الشهرة والمجد والنجاح التى تتوق اليها وتتقطع دون الحصول عليها أنفاس وأنفاس ، فلما بلغت ما تمنت وطلبت لم يغن عنها ذلك شيئا ، ولم يحقق لها ذلك الا مزيدا من الاسى والشقاء والاحساس بالتهدم الداخلى ، ان خانة معينة داخل النفس لم تزل فارغة ولم يملئها كل ما حصل . فالنقص ما زال موجودا .

ولسنا نستطيع هنا اكثر من ضرب الامثلة وانتقائها .

مثل الشاعر الايطالى الشهير (" ساندرولينا") الذى أمضى أخريات أيامه فى نحيب مستمر ، ويأس مرير وتشتت ذهنى لا يطاق ، دون أن يعرف لذلك سببا واضحا ، وقد قال حين سئل هل أثر فيه موت أحد اصدقائه ؟ : لا لم يؤثر فى نفسى موته - وهنا اجهش بالبكاء - انى من انواع الوحوش، حتى موت أقاربى لا يؤثر فى نفسى - ويبكى هنا بمرارة - لكنى أبكى وأمرض بسبب مرض كلبى - يبكى - وهذا أمر مضحك) .

والاديب الكبير ارنست همنجواى انتحر وهو فى قمة مجده ، بعد حياة مترعة بالخيبة ، تزوج فيها ثلاث مرات .

والشاعرة الروسية " بيلا احمد ولينا " قالت : (معظم شعراء روسيا ماتوا منتحرين وأنا نفسى افكر فى هذا الموضوع) . (١)

والامير رودلف ولى عهد النمسا انتحر عام ١٨٨٩م ، بأن اطلق على نفسه الرصاص . (٢) وانتحرت معه عشيقته . (٣)

---

(١) هذا المثال والمثالان اللذان قبله . من مجلة حضارة الاسلام عدد ٧ ص ٨٠ سنة ١٣٨٧هـ وانظر الموت اختيارا ، فخرى الدباغ : ٢٢٢ .

(٢) صحيفة الشرق الاوسط عدد ١٨٢٤ تاريخ ٢٢/٢/١٤٠٤هـ الموافق ٢٦/١١/١٩٨٤ .

(٣) الموت اختيارا : ٢٢٢

وفي العام الحالي انتحرت ميلينا لانش زوجة وزير خارجية النمسا ،بأن اطلقت على راسها الرصاص ، وكانت قد تركت رسالة تقول فيها : (لم أعد اشعر بقيمة لحياتي) ويرى علماء الاجتماع الغربيين في حادثة انتحار زوجة وزير الخارجية المذكورة دليلا على حالة اليأس والاحباط لدى الطبقة الغنية في المجتمعات الاوروبية بشكل عام ، وتبين هذه الحادثة وحوادث اخرى غيرها أن الانتحارات متفشيا بين كبار الشخصيات الاوروبية ، وقد شمل مجموعة من الفنانين والموءلفين وكبار الساسة. (١)

ومن مشاهير الشخصيات الاوروبية التي انهت حياتها بالانتحار" السير جون فيشر "المسوءول البريطاني المعروف ، الذي استطاع ان ينقذ ما يقارب ثلاثمائة واربعين الفا من قوات الحلفاء في الحرب العالمية الثانية ومعظمهم من البريطانيين ، وذلك من نيران المدفعية الالمانية ، في عملية انسحاب بارعة حولت الهزيمة الى نصر يحتفل به ، وكان ذلك من شواطىء دنكيرك بشمال فرنسا ، وقد شاركه هذا المصير زوجته ماريا راقصة الاوبرا الشهيرة. (٢)

ومنهم " هتلر " وزميله المارشال " غورنج " ، ومنهم الشاعر الامريكي الشهير " راندل جاويل " ، والشاعر الالماني " كلايست " ، ونجمة السينما " مارلين مونرو " التي انتحرت وهي قمة مجدها ، و " تولر " الكاتب المسرحي الايطالي الكبير الذي انتحر عام ١٩٣٩ من شدة احساسه بالعزلة ، ومنهم المستشرق اللغوي " كراوس " الذي كان يعمل استاذا في جامعة عين شمس بمصر. (٣) ومنهم الادباء الروس " مايكوفسكي " و " ايسنين " و " باجريتسكي " والذين يعدوا من كبار ادباء روسيا ، وكلهم انتحر قبل الخامسة والثلاثين.(٤)

---

(١) الشرق الاوسط ، العدد المشار له قريبا .

(٢) المصدر السابق عدد ١٨٠٨ تاريخ ١٤٠٤/٢/٦هـ = ١٩٨٣/١١/١٠ .

(٣) انظر الموت اختيارا : ٢٢٢ - ٢٢٣ .

(٤) افيون الشعوب للعقاد : ١١٢ .

ومنهم " شانغ يوينغ " السكرتير الخاص " بماوتس تونغ " (١)

انتحر هؤلاء المشاهير ومشاهير اخرون غيرهم كثيرون ، او حاولوا الانتحار أو فكروا جديا فيه ، لماذا وهم يملكون الثروة والشهرة ؟ لانهم لم يجدوا السعادة في ذلك ، فان هنالك شرطا من شروط تحققها غائب ، وهو الشرط الاكبر ، لانهم يعانون من جوعة ، لا يسد رمقهم معها المال ، ومن ظمأ لا يطفأه كل ما لديهم من وسائل الرقي المادي ، وهم يعانون من نقص علاجه ليس من نوع الثروة والشهرة ، انهم يفتقدون الرقي الداخلي ، فهم مرضى الروح والقلب ، مرضا لا يزيده النهم الشديد من المادة الا استفحالا انهم بقدر ما اتخموا اجسادهم ، افلسوا في الجانب المتعلق بأرواحهم .

والروح هي شيء مجهول بالنسبة للبشر ، كما في قوله تعالى ((ويسألونك عن الروح قل الروح من امر ربي وما اوتيتم من العلم الا قليلا (٢))) وكما يعترف بذلك كبار الباحثين الغربيين ، قال الكسيس كاريل : (فالروح هي جانب نفسنا المحدد لطبيعتنا ، والذي يميز الانسان عن جميع الحيوانات الاخرى ، ونحن غير قادرين على تعريف هذه الذات المألوفة والشديدة الغموض) . (٣)

واذا كانت الروح شيئا مجهولا بالنسبة لنا ، فان جهلنا بوسائل اشباعها والتعامل معها من باب اولى ، ومن ثم فلا مجال للعناية بهذا الجانب الانساني الشديد الاهمية الا عن طريق عالم به عارف بخواصه ، خبير بما يسعده ويشقيه ، وما يصلح له ويصلحه ، وكل هذا خارج عن نطاق علم البشر فليس ذلك الا من خالق الروح وبارىء الانسان ((الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير)) (٤)

---

(١) المجتمع عدد ٤٣٢ تاريخ ١٣٩٩/٣/٢٣هـ ص ٢٧ .

(٢) سورة الاسراء : ٨٥ .

(٣) الانسان ذلك المجهول : ١٤١ .

(٤) سورة تبارك : ١٤ .

ولكن الرجل الغربي قد ادار ظهره للمنهج الرباني اولا حين حرف الكتب السماوية ،أو قبلها كتبا سماوية مع وضوح شواهد تحريفها ،ثم حين تمرد على كل ما يمت الى الكنيسة ،فتجاهل الروح أو اخطأ في التعامل معها ،غير ان الاخطار الكثيرة التي ترتبت على ذلك قد جعلت كثيرا من الباحثين ينبهون الى الغلطة الكبرى ،أو يحومون حولها . قال كولن ولسن : (وكنت كلما تغلغلت في دراسة اللامنتمي شعرت بأنه ليس غير عرض من اعراض هذا العصر ،فاما من حيث الجوهر فهو عاص ،واما سبب عصيانه فهو انعدام الجانب الروحي في حضارتنا الغنية ماديا) . (١) ويقول ايضا (ان انسان الغرب . . . . كان ميالا دائما الى التأكيد على طاقاته العقلية . وهذا هو أنسر في تقدمه الهائل ،ولكنه في الوقت نفسه سر تدهوره . فهو يفقد القوة الروحية ـ المفهوم الحيوي الذي يحتفظ للنوع البشري ببقائه . وبدون هذا المفهوم فان كلمة التقدم تكون مجرد سخرية ،بل انها لتشبه سيارة لا وقود فيها) . (٢)

ولكي يوضح هيرمان هيس اسباب الشقاء فانه يقسم النفس البشرية على لسان احدى شخصياته " هاللر " في قصته " ستيفن ولف " الى قسمين هما : الانسان المتحضر والذئب ،اما الاول فانه يحب كل ما يتصل بالنظام والنظافة والشعر ونحوها ،واما الثاني فهو المتوحش الذي يفضل كل ما يتصل بعالم الظلام والخروج على القانون والانطلاق خارج الحدود ،فاذا احب امرأة شعر بأن الطريقة المناسبة لذلك في اغتصابها وقتلها . ويعيش هذان الشخصان المتناقضان (الذئب والانسان المتحضر) والموجودان داخل النفس الانسانية في عداء دائم وصراع مستمر ،يهدد صراعهما بتحطيم الحياة

---

(١) سقوط الحضارة : ٥

(٢) المصدر السابق : ١٦٨

فاذا حانت لهما فرصة التصافى والاتفاق ، فان ذلك يتيح للانسان حيـــاة " اكثر وفرة " بل ان الامر يصل من الغبطة والراحة النفسية الى حد القــول (ويشعر هارى بأن اتحادهما يجعله يحس وكأنه صار واحدا من الالهة).(١) ومع ما تنضح به العبارة الاخيرة من نظرة وثنية ، فانها تعطى صورة واضحـة عن احساس الاوروبى بأن هدوء الصراع بين الغريزة والروح ، وما يتبعه مـــن استقرار وطمأنينة ، هو شيء عزيز بعيد لا يتوفر فى البشر حتى يكونوا كالالهة .

— ٨ —

ويدفع الضيق والشعور بالمعاناة والاسى والفشل ، والشعور بتفرق الذات والاحساس بتضارب داخلى فى شخصيته مبهم لديه ، وما ينجم عن ذلك كلـه من شعور بالخيبة والسأم والملل والالم والمشقة ونحوها ، يدفع صاحبه الـى البحث عن مخرج فيبلغ ذلك بالبعض حدا ان يرغب فى الغياب التام عن هذا العذاب ، فيلجأ الى الانتحار ، ويلجأ البعض الى ما هو دون ذلك ، فيهرب من ذاته عن طريق نسيانها ونسيان كل ما هو فيه ، بواسطة ادمان المسكرات والمخدرات ، حتى يدفن نفسه فلا يرى واقعة المؤلم ولا يحس بما هو فيه من عنت . انه يفضل انه يخرج من هذا المأزق كيف ما كان هذا الخروج ، حتى بلغ الامر بالبعض من المفكرين ان يرى السعادة هى فى الجنون ، وينقـــل كولن ولسن عن لورنس ان شعوره كان يشبه شعور : (الجاهلون والمخدوعون والسطحيون هم السعداء بيننا) . (٢) .

ويقول آرثر ميللر فى مسرحيته بعد السقوط (ان اكثر الاماكن براءة فى بلدى هو مصحة الامراض العقلية ، وكمال البراءة فى الجنون) . (٣)

---

(١) انظر اللامنتمى : ٦٧ - ٦٨ .

(٢) المصدر السابق : ٨٩ .

(٣) فوضى العالم فى المسرح الغربى : للدكتور عماد الدين خليل : ٣٢ .

ويبلغ بالبعض ان يرى انه لا شيء يستحق الايمان سوى الخمرة، يقول كامي (ينبغي الانوء من بشيء في هذا العالم سوى الخمرة) . (١)

ويغدو القلق واليأس والتمزق ونحوها من معاني الضياع في نظر بعضهم شيئا لا ينفك عن الانسان ، اذ هو ملازم للانسان كملازمة ظله له ، فسارتر يقول (الانسان في صميمه قلق) ونيتشه يرى ان الانسان يعيش بين التسليم والتمرد ، فوجوده تمزق وسلب ولا خلاص له من تعاسته الا بالجنون ، ويرى أن اليأس والقلق شرطان دائمان للفطرة والعظمة الانسانية . (٢)

اما كيركجارد رائد الوجودية فيرى ان معنى الوجود الانساني هو معاناة اليأس والقلق حتما ، وان من يختار اليأس انما يختار ذاته في قيمتها الابدية ، ولقد حاول هو نفسه الانتحار مرارا ، وبقيت الكآبة ملازمة له حتى نهايته . (٣)

ويدفع الشعور بغموض الحياة وغموض المصير والخوف من المستقبل المجهول يدفع ذلك البعض الى محاولة معرفة هذا المجهول عن طريق وسائل لا رصيد لها في عالم العقل والعلم ، ولكنه الافلاس من طريق صحيح الذي واكب الغربي بعد ان تمرد على الدين ، فيطلب معرفة هذا المجهول عن طريق السحر والشعوذة ودعاة معرفة الغيب وتحضير الارواح ونحوها من طرق الكهانة .

كما ان الاغراق في الجانب الحسي النفعي الذي يقوم على طلب اللذة وركوب اى طريق اليها ، يجعل ذلك الانسان يمارس تصرفات وافعال ويرتكب دنايا هي في منتهى الهبوط والبعد عن الانسانية ، فلا يزال شعوره

---

(١) المصدر السابق : ١٢١ .

(٢) الاسلام ومستقبل البشرية : للدكتور عبد الله عزام : ٢٥ .

(٣) المصدر السابق : ٢٥ .

الداخلى رغم كل ما ران عليه وغطاء يحس بقبحها ، فتثير فيه الاحساس بالتقزز والخطيئة ، ويعجز ان يجد لذلك التبرير الذى يرضى شعوره الداخلى ويبقى هذا الشعور بالاثم والحرج يأكله من الداخل ، وربما أوصله الى الجنون وانفصام الشخصية ، وقد استطاع كثير من الاطباء النفسيين أن يكتشفوا أن كثيرا من حالات الجنون والانفصام انما يعود لهذا النوع من الشعور الداخلى باشمئزاز الانسان وتقززه من ذاته ، وشعوره المستمر بالذنب كنتيجة ممارسة لا اخلاقية سابقة. ولعل من هذا النوع الجنون الذى أصاب الطيار الاميركى "كلود ايثرلى" الذى ألقى القنبلة الذرية فوق هيروشيما فى الحرب العالمية الثانية . (١) وفى حالات كثيرة تبين للاطباء النفسيين أن سبب الجنون أو غيره من حالات التردى النفسى انما يعود لعقدة الشعور بالذنب المترتبة على ممارسات جنسية شاذة كتلك التى تتم بين احد الوالدين واحد أبنائه أو احدى بناته . وهذا النوع من الممارسات قد أصبح منتشرا فى الغرب .

ويدفع الشعور بالنقص الذى أشرنا له سابقا ، وهو شعور متوقع وقد أهمل الجانب الروحى فى الانسان ، يدفع الى محاولة فعل شىء يشعر صاحبه بقوته وأهميته ويشعر من حوله به . انه - وخاصة الشاب - يريد ان يصرف ما يجده من ميل الى فعل شىء مدفوع اليه من داخله ، أى شىء ليتحدث عنه الناس ، لتنشر صورته فى الصحف مثلا ، ليتخذ هذا العمل هدفا يعمل من اجله ، بصرف النظر عن لماذا يتحدث الناس عنه ولاى غرض تنشر صورته ، وعن سمو هذا الهدف أو هبوطه . وقد أدى هذا الى ان اصبحت الجريمة هدفا ليس طلبا للمال والمنفعة الذاتية فحسب ، بل هدفا مقصورا لذاته فى أحيان كثيرة ، كما تشهد بذلك كثير من أخبار المجرمين

---

(١) انظر حضارة الاسلام ص ٩٧١ من مجلد سنة ١٣٨٠ العدد الثامن شهر شعبان .

التى تنشرها الصحف فى الغرب باستمرار .

نشرت صحيفة الشرق الاوسط :

القى القبض على سفاح امريكى اسمه لى لوكس وعمره سبعة واربعون عاما بتهمة القتل ، وقد اعترف بقتل مائة وخمس وستين امرأة ، وكان هذا المجرم قد قتل امه سابقا ، وسجن اربع عشرة سنة . (١)

ولسنا نريد هنا الا ان نبين كيف ادى تمرد الغربى على الدين الى اثقال ضميره بكثير من الاوزار التى تقلق راحته وتنكد عيشه ، وتدفعه الى الجريمة ، وتجلب له كثيرا من المآسى . اما عن حجم هذه الاضرار على المجتمع وكثرة انتشارها والعدد الضخم من الناس الذى اكتوى بجمرها ، فللحديث عنه مكان آخر ، سيأتى ان شاء الله .

---

(١) السنة السادسة عدد ١٨١٢ بتاريخ ١٠/٢/١٤٠٤هـ = ١٤/١١/١٩٨٣ .

الفصل الثاني

أثر الفراغ الروحي

على الأسرة في أوروبا

آثار الفراغ على الاسرة

ان الاتجاه الى الزواج وتكوين الاسرة ، وما ينشأ عن ذلك من انجاب الذرية ، امر عرفته البشرية منذ أقدم عصورها ، وذلك لتأصل النزعات الفطرية الداعية لذلك فى نفوس البشر ذكور واناث فان كلا من الجنسين يجد فى نفسه رغبة وميلا واتجاها الى الجنس الآخر ، ومن ثم يسعى جهده لتحقيق الالتئام والالتقاء بينه وبين الجنس الآخر . بل اننا نجد أن نظام التزاوج سنة عامة من سنن الحياة كلها ، ومن طبائع الاشياء على اختلافها ((ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون)) . (١) كما ان الانسان فى ذاته مطبوع على حب البقاء ، غير انه يشعر ان بقاء ذاته وشخصه غير ممكن ، لان الموت - كما هو مشاهد محسوس - لا بد ان يدرك كل حى ، ولهذا فانه يجد فى بقاء ذريته من بعده بعض ما يعوض تلك الرغبة فى البقاء ، فيرى فى ذلك شيئا من الاستمرار والامتداد والذكر له ، هذا بالاضافة لما يجده فى داخله من محبة عميقة للولد تجعله يتفانى فى تحقيق النفع والسعادة له ، حتى لو كان فى ذلك شقاؤه وتعبه ، ولعل هذه الرغبة المودعة فى داخل الكيان الانسانى ضرورية لعمارة الارض ولاستمرار النشاط الانسانى فيها ولبقاء الحياة الانسانية واستمرارها بشكل عام ((والله جعل لكم من انفسكم ازواجا وجعل لكم من ازواجكم بنين وحفدة)) . (٢)

وقد عنيت الاديان السماوية عامة بموضوع الاسرة ، وحوت من التشريعات ما يكفل تنظيمه ويوضح جوانبه ، فالزواج يعتبر عند بنى اسرائيل نظاما الهيا لحفظ النوع واستمرار الحياة ، وقد فصلت التوراة أحكامه ، وعالجت الآثار المترتبة عليه . وللنصرانية نظرة خاصة الى المرأة تطبع نظرتها الى

---

(١) سورة الذاريات : ٤٩ .

(٢) سورة النحل : ٧٢ .

الزواج ، فالمرأة هى سبب الخطيئة ومنبع المعاصى والفجور ، لان آدم لم يغو من ذات نفسه ولكن حواء هى التى أغوته ، جاء فى رسالة بولس الاولى الى تيموثاوس (ان آدم لم يغو ولكن المرأة أغويت فحصلت فى التعدى).(١) وقد أهدر رجال الكنيسة شأن المرأة ، فكانوا يقولون عن النساء : (انه اولى لهن ان يخجلن من انهن نساء ، وان يعشن فى ندم متصل جزاء ما جلبن عليه من اللعنات) وذهب البعض منهم الى زعم أنهن من عمل الشيطان ، وانه يجب ان تلعن النساء لكونهن سبب الغواية ، وكان يقال ان الشيطان مولع بالظهور فى شكل انثى . ومن الموضوعات التى كان يتدارسها رجال الكنيسة هل للمرأة ان تعبد الله كما يعبده الرجل ؟ ، وهل تدخل المرأة الجنة وملكوت الله ؟ ، وهل تعتبر المرأة انسانا له روح أم مجرد نسمة فانية لا خلود لها ؟ . (٢) وكان مما قاله ترتوليان ـ أحد أقطاب المسيحية وائمتها الأُول ـ فى شأن المرأة : (انها مدخل الشيطان الى نفس الانسان . وانها دافعة بالمرء الى الشجرة الممنوعة ، ناقضة لقانون الله ، ومشوهة لصورة الله ـ أى الرجل ـ) . (٣) وقال (كرائى سوستام) الذى يعد من أكابر أولياء المسيحية عن المرأة : (هى شر لا بد منه ووسوسة جبلية ، وآفة مرغوب فيها ، وخطر على الاسرة والبيت ، ومحبوبة فتاكة ، ورزء مطلى مموه).(٤)

وما دامت حال المرأة هكذا فى نظر رجال الكنيسة ، والمرأة هى أحد شقى الزواج الذى هو أساس نشأة الاسرة ، فلا بد ان تتأثر بهذا التصور

---

(١) الاصحاح الثانى : ١٤ .

(٢) تاريخ العالم ، هامرتن عن كتاب المرأة بين البيت والمجتمع ، للبهى الخولى : ١٧ - ١٨ .

(٣) الحجاب : ٢٢ .

(٤) المصدر السابق : ٢٢ .

عن المرأة نظرة النصرانية الى الزواج . ولهذا ترى الكنيسة أن الاصل فى الناس رجالا كانوا أو نساء ان يترهبوا ،لان العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة هى نجس فى ذاته ينبغى ان يجتنب حتى لو كان ذلك عن طريق الزواج . ولهذا غدت حياة العزوبة مقياسا للتقوى والعفاف بين رجال الكنيسة ، ولكن لما كان الامتناع عن الزواج مما يوقع الكثيرين فيما لا تحمد عقباه وفيما هو شر من الزواج فقد أبيح الزواج ، قال بولس: (واما من جهة الامور التى كتبتم لى عنها فحسن للرجل ان لا يمس امرأة . ولكن لسبب الزنا ليكن لكل واحد امراته ، وليكن لكل واحدة رجلها) . (١)

ومع هذه النظرة الى المرأة ، ونظرا لما هو واقع من أن اكثر الناس لا يطيقون الترهب ولا يريدونه ، فان الكنيسة تنظر الى الزواج وقد وقع على اساس أنه يأخذ وضعا شرعيا ، وانه يمثل عملا مقدسا عن طريقه ينال النصرانى نعمة مقدسة ، فهو واحد من اسرار الكنيسة السبعة ، والتى يحصل للمؤمن بواسطتها نعمة غير منظورة ، وهذه الرابطة تحتاج لنعمة الهية لربط الزوجين برباط روحى متين لا يفض الا بموت أحدهما أو بالخيانة الزوجية ، ولهذا فلا بد أن يقوم بطقوس هذا السر كاهن ، ولا يمكن ان تنتهى الا على يد كاهن فى الحدود المذكورة ، وذلك حسبما جاء فى الاناجيل التى تعتمدها الكنيسة : (اقول لكم من طلق امرأته الا لسبب الزنا وتزوج اخرى يزنى . والذى يتزوج بمطلقة يزنى) (٢) (من طلق امراته وتزوج باخرى يزنى عليها . وان طلقت امرأة زوجها وتزوجت بآخر تزنى) . (٣)

وأوصت النصرانية المرأة بطاعة زوجها والرجل بمحبة امرأته

---

(١) رسالة بولس الى اهل كورنيس ٧ : ١ - ٢

(٢) انجيل متى ١٩ : ٩ ، انجيل مرقس ١٠ : ١١ - ١٢ ، وانظر انجيل لوقا ١٦ : ١٨

(٣) انجيل مرقس ١٠ : ١١ - ١٢

وأوصت الاولاد بطاعة والديهم واكرامهما ، ودعت الوالدين ان يؤدبوا اولادهما بتأديب الرب ، (أيها النساء اخضعن لرجالكن كما للرب . لان الرجل هو رأس المرأة كما ان المسيح أيضا راس الكنيسة . وهو مخلص الجسد . أيها الرجال أحبوا نساءكم كما أحب المسيح أيضا الكنيسة وأسلم نفسه لاجلها) (١) (أيها الاولاد اطيعوا والديكم فى الرب لان هذا حق . اكرم أباك وأمك التى هى أول وصية بوعد . وانتم أيها الآباء لا تغيظوا اولادكم بل ربوهم بتأديب الرب وانذاره) . (٢) والمرأة انما تتخلص من خطيئتها بالولادة ، (ولكنها ستتخلص بولادة الاولاد ان ثبتن فى الايمان والمحبة والقداسة مع التعقل).(٣)

من هذه النظرة ومن ضرورة العناية بالنسل ليزداد شعب الكنيسة ويكثر ، تنبثق أهمية قيام الاسرة بواجباتها فى نظر الكنيسة ، ولكن الكنيسة غالت فى التمسك بهذا الرباط والاصرار على استمراره كيفما كان حاله ، وعلى اى صورة من النزاع والخصام أم التوافق والانسجام كان استمراره ، وسواء أوجد فيه الزوجان السعادة والطمأنينة أم الشقاء والعذاب ، وليس من طريق الى فصم عروته والخلاص منه الا بالزنا ـ كما نقلنا قريبا عن الاناجيل ـ .

وعانت المرأة العسر والضيق ـ كما لم يسلم الرجل أيضا ـ من هذه النظرة الكنسية اليها والى الزواج ، وزاد نظام الاقطاع الذى سيطر على اوروبا وضع المرأة سوءا ، فلقد عانت مما عاناه الرجل وزادت عليه بأمور ، فلم يكن لها اعتبار انسانى ، وليس لها الحق فى اية ملكية مستقلة ، لان كل ما هو ملك لها هو ملك لزوجها ، فكان حال هذا الشق من البشرية عاطلا او معطلا .

---

(١) رسالة بولس الى اهل افسس ٥ : ٢٢ - ٢٥ .

(٢) الرسالة السابقة ٦ : ١ - ٣ .

(٣) رسالة بولس الاولى الى تيموثاوس ٢ : ١٥ .

ومع ولادة النهضة الاوربية رفع نفر من المطالبين بما سمى بحقوق المرأة عقيرتهم بالصراخ على سوء حال المرأة ، ونادوا برد اعتبارها ومنحها حقوقها ورفع القيود التى اثقلت كاهلها ، فألحقت بها الضرر البالغ ، واصابت المجتمع من جرائها بالخسارة الفادحة ، ووجد هؤلاء الكثير مما يمكن ان يقولوه عن انحطاط حالها زوجة كانت او بنتا او أختا أو غير ذلك . واخذت القيود ترتفع عن المرأة شيئا فشيئا . غير أن اوربا المتمردة على الكنيسة لم تقف فى امر المرأة ـ كما لم تقف فى غيره من الامور ـ على حد التوسط والاعتدال ولم تراع فيه الحق والصواب ، وانما حركتها ردة الفعل لم اصابتها به الكنيسة وبتحريض وتخطيط من يهود ، حركتها من النقيض الى النقيض . فلقد ضجرت من الغض من شأن المرأة واعتبارها شيطانا يسوس الناس بالخطيئة والاثم ، ولكنها لم تتوقف فى هذا عند رد اعتبارها الانسانى والاعتراف بانسانيتها وبأهميتها ودورها فى المجتمع والحياة الانسانية ، بل بلغت فى ذلك (الى اعتبارها سيدة المجتمع والحاكمة فى اقداره واقدار حاكميه) . (١) وضاقت اوربا بظلم الرجل للمرأة واستطالته عليها ، فطالبت بمساواتها به ، ولكنها لم تقف عند مساواتها له فى الحقوق الانسانية والمنزلة الخلقية ونحوها ، بل ساوت بينه وبينها فى الاعمال وفى الواجبات متغاضية عن اختلاف الطبيعتين) ولما كانت حركة المطالبة بحقوق المرأة قد نبتت مع الفساد الواسع الذى استشرى فى اعقاب قيام الثورة الصناعية ، فانه اريد للمرأة ان تعطى من حرية مخالفة القيود الاخلاقية ما اعطى الرجل ، متغافلة عن ان الصواب فى ذلك ان يكف الرجل عن غيه ، لا ان تستبيح المرأة ما استباح . وأرادت اوربا ان تخلص المرأة مما هى فيه من الكبت فتمنحها حريتها ، ولكنها لم تقف فى ذلك عند حرية الراى والفكر وحرية التملك ، وحريتها فى اختيار الزوج وعدم اعتبارها مجرد تابعة ذليلة ، ونحو ذلك من الحقوق الآدمية الكريمة ، وانما بلغت بها وزينت لها حرية الخروج من البيت وحرية الاختلاط

---

(١) الاسلام ومشكلات الحضارة : ٧١

بالرجال ومزاحمتهم ، بل وحرية الاتصالات الجنسية ، وهكذا تأرجحت النظرة الاوروبية للمرأة ولحقوقها بين الافراط والتفريط . وتأرجحت النظرة للصلة الجنسية بين الرجل والمرأة من اعتبارها دنسا ورجسا الى اعتبارها علاقة حيوان بحيوان (١) الى اعتبارها علاقة سامية .

وتأرجحت النظرة أيضا الى رابطة الزواج من شيء مقدس لا يمكن فضه الا على يد الكاهن ، وفى حالة واحدة الى اعتبارها رابطة هشة أوهى من بيت العنكبوت يمكن ان تبتر بأوهى الاسباب واسخفها ، ولكى تزول عن هذه الرابطة كل سمة دينية انشيء الزواج المدنى الذى ابتدع بعد الثورة الفرنسية فقد صدر فى فرنسا عام ١٧٩١ قانون لا يعتبر الزواج اكثر من عقد مدنى يتم وفقا للقانون المدنى ، ويمكن ان ينضاف الى ذلك البركة الدينية اذا رغبا طرفا العقد فى ذلك . ومنذ ذلك التاريخ بدأ هذا النوع من الزواج يأخذ مكانه بالتدريج فى تشريعات البلدان الاوروبية المتعددة ، وان ترك فى بعض البلدان لطرفى العقد ان يختارا لعقدهما بين الطريقة المدنية أو الطريقة الدينية . (٢)

وهذا النوع من الزواج لا يحتاج الى كاهن ، ولا ينبنى على اساس مقدس ، ولا يحس طرفاه ولا يعتبران له أى نعمة غير منظورة ، فليس الا ما يحققه لهما من متعة جسدية ، أو مصلحة مادية تطلبت اقامة هذا الاتفاق ، وكما لا يتوقف انشاؤه الا على موافقة الطرفين كذلك لا يتوقف هدمه الا على ارادة الطرفين ، أو حتى أحدهما ، وما أسهل وما أسرع أن يحس أحدهما أو كلاهما بانتهاء المصلحة منه ، أو بالملل من المتعة الجسدية ، فيرغب بالتحرر من ذلك الارتباط فلا يحس فى نفسه أى هيبة تحول بينه وبين الاقدام على الانفكاك وتمنعه منه ، حتى لو كان السبب تافها ، والامر ليس من الاهمية

---

(١) انظر المصدر السابق : ٧١

(٢) انظر الزواج وتطور المجتمع تأليف عادل احمد سركيس : ٢١٦

فى شئ - أو هكذا ينظر اليه - فلم لا يكفى أى سبب لفضه ؟ ولم يتطلب ذلك سببا ؟

ان سيطرة النظرة المادية على النفوس تجعل الامر لا يبحث الا من زاوية اللذة الجنسية والمنفعة المادية . قال «ول ديورانت» يصف هذا الزواج - : (واخيرا تجد الرفيق الذى يطلب يدها للزواج ، ويعقد عليها لا فى كنيسة ، لانهما من أحرار الفكر الذين الحدوا عن الدين ، ولم يعد للقانون الخلقى الذى ظل جاثما على ايمانهما المهجور أثر فى قلبيهما ، انهما يتزوجان فى قبو المكتب البلدى الذى يفوح منه عبير الساسة ويستمعان الى تعاويذ العمدة . انهما لا يرتبطان بكلمة الشرف ، بل بعقد من المصلحة لهما الحرية فى أى وقت فى التحلل منه . فلا مراسيم مهيبة ، ولا خطبة عظيمة ولا موسيقى رائعة ولا عمق ولا نشوة فى الانفعال تحيل الفاظ وعودهم الى ذكريات لا تمحى من صفحة الذهن) .

ويقول : (وتصاب المرأة بخيبة أمل فهى لا تجد فى هذا البيت شيئا يجعل جدرانه تحتمل فى الليل والنهار ، ولا تلبث الا قليلا حتى تهجره فى كل مناسبة ولا تعود له الا قبيل مطلع الفجر ، ويخيب أمل الرجل ، فهو لا يستطيع أن يتجول فى أنحاء البيت يعزى شعوره ببنائه واصلاحه ما تصاب به أصابعه من دق المطارق . ويكتشف بعد قليل أن هذه الحجرات تشبه تمام الشبه تلك التى كان يعيش فيها وهو أعزب ، وأن علاقاته مع زوجته تشبه شبها عاديا تلك العلاقات غير البريئة التى كان يعقدها مع المستهترات من النساء ، فلا جديد فى هذا البيت) . (١)

وساهمت ملابسات الثورة الصناعية التى ولدت فى احضان اليهود فى

---

(١) مباهج الفلسفة : ٢٣٥ - ٢٣٦ ، من الاسلام ومشكلات الحضارة : ١٤٢ - ١٤٣ .

هذه النقلة المعاكسة للوضع القديم للمرأة والاسرة ، ولمفاهيم قديمة كثيرة متعلقة بالمرأة والاسرة . كان الانحراف الخلقي يحدث بين الناس وتقع الجريمة الخلقية ، في السر ، وفي العلن أحيانا وخاصة من كبراء القوم وساداتهم ، ولكن الحس الخاص والعام كان ينظر اليها على اساس أنها جريمة تخالف الدين ، وتخالف ما اعتاده الناس وألفوه ، فتعنى في نظرهم العار والشنار ، في زمن وفي مجتمع كان لهذه النظرة خطورتها واهميتها فيهما .

ولما قامت الثورة الصناعية وزحف الشباب الى المدن لادارة الالات التى تحتاج الى الجهد البدني الشاق ، جاءوا الى المدن وتركوا الارياف وتركوا فيها أسرهم لقلة الاجرة وغلاء المعيشة أو الى ان يستقر بهم المقام . وكان هذا الشباب ملىء بروح التمرد والمغامرة ، فانه خرج من قيود الاقطاع والتبعية للسيد الذى كان يسومه روح الخسف والذل ، وأصبح يعيش في مجتمع لا يعرفه ، ولا يحفل فيه احد بأحد ، فليس هناك خوف من ان يعيره احد ، وكل ذلك كان يسهل أمر الجريمة الخلقية والانحرافات الاجتماعية بينهم، وليس هذا فحسب فان أصحاب المصانع كانوا كلما ساءت العلاقة بينهم وبين العمال الذين يحتجون على قلة الاجرة أو مشقة العمل فيلجأون الى التهديد بالاضراب بحثوا عن قوة احتياطية بديلة للعمال ، تقبل العمل بنفس الاجر وبأجر أقل ، وتُشعِر العمال بامكان الاستغناء عنهم، وجد أصحاب المصانع بغيتهم في النساء اللواتى هجرهن العائل ، أو قصر عن الانفاق عليهن ، فألجأتهن الحاجة الى البحث عن عمل بأقل اجر . وتقاضت المرأة هذه الاجرة ، ولو انها قليلة ، ولكنها أصبحت تشعر بأنها تملك بعد ان لم تكن كذلك ، وانها تتصرف فيما تملك حسبما تشاء بعد ان لم تكن تستطيع ذلك ، ونما في نفسها مع الايام الشعور بالتحرر ، والتقت هذه المتحررة والمحتاجة بذلك الشاب المنفلت من قيد الاقطاع وقيد العرف وقيد الزوجة ، وخطوة خطوة روّضت الفتاة وروّضى الفتى على هذا النوع من الحياة المختلطة في

حياة لا تهتم بشيء اهتمامها باللذة والمصلحة . وانهارت الاخلاق . وتمر الايام ولا تزداد الامور الا سوءا ، ولا تزداد النفوس الا ترويضا والفا للواقع الموجود المكرور . (١)

واصبح الرجل يعمل والمرأة تعمل ، بل والاطفال يعملون ، ففقد البيت الجو العاطفي الذى كان يشحنه به وجود المرأة فى البيت ، تشيع الطمأنينة والود فى جنبات البيت ، وتملء جوه بالراحة والهدوء حين يعود الرجل من عمله متعبا ، لان المرأة اصبحت مرتبطة بعمل شأن الرجل تعود حين يعود أو بعد أن يعود . وكان الرجل فى السابق هو المستقل بالانفاق على الاسرة وتأمين احتياجاتها ، كما كانت المرأة مستقلة بشوءون البيت والعناية بالصغار . وكان الرجل هو مصدر السلطة فى البيت ، اما وقد خرجت المرأة كما يخرج الرجل ، وحصلت على المال كما حصل عليه ، وانفقت كما ينفق فلم تعد السلطة الان مقصورة عليه وحده بل اصبحت المرأة سلطة اخرى، فانفلت عن الاسرة الرباط العملى الذى كان الرجل ينفرد به كما انفلت عنها الرباط العاطفى الذى كانت المرأة مصدره ، وزاد عمل الاطفال الامر سوءا حيث اخذ جو العمل الشاق يصهرهم مبكرا ، ويفسد فيهم مشاعر الطفولة ويستحث مشاعر النضوج قبل اوانه المعتاد . (حتى انهم كانوا يشغلون الاطفال اكثر من خمسة عشر ساعة فى اليوم ، وفى ظروف عمل قاسية فى المناجم والمصانع والمعامل) . (٢)

وأدت هذه التطورات الى انقلاب وضع الاسرة ، وطروء كثير من الاثار السيئة على وجودها ، وعلى وظيفتها وعلى استقرارها واستمرارها ، وعلى افرادها وما بينهم من علاقات .

---

(١) انظر التطور والثبات : ٢٢ - ٢٥ ، الحجاب : ٦٨ - ٦٩ .

(٢) التاريخ الاوروبى المعاصر : عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : ٢٣١ .

قلة الزواج : قلت الرغبة في الزواج ، وزهدت كثير من النفوس في طلبه ، ولكن ليس بسبب انتشار الرهبنة هذه المرة ، وانما بسبب انتشار الخنا والفجور ، وسهولة العثور على الخليلات ، وزوال العقبات التي كانت تقوم في طريق الصلات الجنسية غير المشروعة ، وتيسر وسائل منع الحمل وطرق التخلص منه حين وقوعه ، وبهذا فان الدافع الجنسي ـ وهو دافع لا يمكن انكار دوره في دفع الناس الى الحياة الزوجية ـ امكن اشباعه بدون كلفة الزواج وواجبات الزوج والارتباطات الناشئة عن الحياة الزوجية ، فأدى ذلك بالكثيرين الى العزوف عن الزواج ، أو تأخير سنة على الاقل ، مما عمل على كثرة انتشار العوانس . وتقول الاحصائيات الحديثة ان في بريطانيا ثمانية ملايين عانس (١) ـ وان كان ذلك بالطبع لا يعني انهن ابكار .

وقد وصل الحال الى قيام الجمعيات التي تنادي بالغاء الزواج واباحة الحرية الجنسية والشذوذ والاجهاض كما حصل في هولندا وغيرها . (٢)

ويقول الاستاذ ابو الاعلى المودودي : (سبعة أو ثمانية في الالف هو معدل الرجال والنساء الذين يتزوجون في فرنسا اليوم . ولك ان تقدر من هذا المعدل المنخفض كثرة النفوس التي لا تتزوج من اهاليها . ثم هذا النزر القليل من الذين يعقدون الزواج قل فيهم من ينوون التحصن والتزام المعيشة البرة الصالحة ، بل هم يقصدون به كل غرض سوى هذا الغرض . حتى انه كثيرا ما يكون من مقاصد زواجهم أن يحللوا به الولد النغل الذي ولدته المرأة قبل النكاح ، ويتخذوه لهم ولدا شرعيا) (٣) فقد كتب بول ببورو : (من العادة الجارية في طبقة العاملين في فرنسا أن المرأة منهم

---

(١) انظر عمل المرأة في الميزان : ١٣٧ .

(٢) انظر حضارة الاسلام العدد السابع ، عام ١٣٨٧ هـ : ١٠٢ .

(٣) الحجاب : ٩٣ .

تأخذ من خدنها ميثاقا ، قبل أن يعقد بينهما النكاح ، ان الرجل سيتخذ ولدها الذى ولدته قبل النكاح ولدا شرعيا) (١)

ويقول ول ديورانت في كتابه مباهج الفلسفة : (فحياة المدينة تفضي الى كل مثبط عن الزواج في الوقت الذى تقدم فيه الى الناس كل باعث على الصلة الجنسية ، وكل سبيل يسهل اداءها ، ولكن النمو الجسمي يتم اليوم مبكرا عما كان من قبل). ويقول : (ولسنا ندرى مقدار الشر الاجتماعي الذى يمكن ان نجعل تأخير الزواج مسئولا عنه ، ولا في ان بعض هذا الشر يرجع الى ما فينا من رغبة في التعدد لم تهذب . . . . ولكن معظم هذا الشر يرجع في اكبر الظن في عصرنا الحاضر الى التأجيل غير الطبيعي للحياة الزوجية . وما يحدث من اباحة بعد الزواج فهو في الغالب ثمرة التعود قبله) . (٢)

لقد انتهى الامر بكثير من الشباب في الغرب الى عدم الرغبة في تحمل مسؤولية الزواج خلاصا من همومه ومشاكله وايثارا للراحة والحرية ، ولعدم الاكتراث بأهداف الزواج ، ولخوف الشاب من الفشل ، الذى ينشأ من عدم الثقة بالنفس . ولما طرح الاتحاد الوطني لصناديق اعانات العائلات في فرنسا السؤال التالي : (هل يشعر الشاب بمدى مسؤوليته عن دوره كأب في المستقبل ؟ أجاب ٨٥٪ من الذين وجه اليهم السؤال في الاوساط الشعبية بالنفي ، وأجاب بالنفي أيضا ٧١٪ من الذين وجه اليهم السؤال في الاوساط البرجوازية ، على حين اجاب بالايجاب في القطاع الاول ١٠٪ ، وفي القطاع الثاني ١٦٪ ، أما الباقون فقد امتنعوا عن الاجابة) . (٣)

---

(١) المصدر نفسه : ٩٤ .

(٢) ١ : ١٢٦ - ١٢٧ ، من الاسلام ومشكلات الحضارة : ١٣٨ - ١٣٩ .

(٣) ضبط النسل وتنظيم الاسرة : كاترين فالايج : ١٤٧ .

كثرة الطلاق :

تتصف الحياة الزوجية فى الغرب عامة بالضعف ، حتى انه ما أكثر أن تتهاوى الاسرة ويتفرق شملها ، أمام أسخف الاختلافات فى الآراء أو الطباع أو الاذواق ، وما اكثر ما يُقطع حبل هذه الصلة كلما عنّ لاحد الزوجين أن يتخفف من أعباء الاسرة ، أو ان يجرب شريكا آخر . وقد نشرت احدى الصحف تقريرا مستقى من سجلات المحاكم فى الولايات المتحدة حول أكثر الاسباب شيوعا لطلب الزوجات الطلاق من أزواجهن ، وقد جاء فى هذا التقرير :

(ـ أكل الزوج المكسرات فى السرير .

ـ عدم دعوته لحماته الى العشاء أبدا .

ـ عدم استحمامه طوال المدة التى عاشت معه زوجته فيها .

ـ اصراره على أن ينام كلبه فى نفس الفراش الذى تشاركه فيه الزوجة .

ـ وخزه الزوجة بالدبوس لان ذلك يثير ضحكه .

ـ ضربه كلب الزوجة دائما .

ـ اصراره على أن لنكولن هو أعظم رئيس فى تاريخ الولايات المتحدة). (١)

وهكذا غدا أمر هذه الرابطة شيئا هزيلا ، لا يقيم كثير من الناس أى اعتبار أو اهمية لاستمرارها أو زوالها ، ولا يسعون الى استبقائها كلما عصفت بها رياح اختلاف المصالح ، ولم يعد هنالك من كبير فرق لدى الكثيرين بين ان يفكر احدهم فى تغيير حذاءه أو ملابسه أو تسريحة شعره أو ان يغير زوجه ما دام كل ما فى الحياة لا يخرج عن المنظار المادى الذى قوامه اللذة ، ومبدأ الحرية الشخصية الشائع هناك يبرر لكل واحد أن يفعل ما يناسب مزاجه ، وما يحلو له ، ولا تزيد الايام هذا الهزال الذى يصيب المجتمعات الانسانية فى أهم اصولها ، وفى اعز ما فيها بالبوار والهلاك

---

(١) انظر حضارة الاسلام العدد الثامن لعام ١٣٨٠هـ : ١٠٣

الا هزلا وعبثا ،فلا تزال البيوت المحطمة تزداد فترة بعد اخرى ،فقد افادت احصائية امريكية عن نسبة الطلاق ،صدرت عام ١٩٥٠م ،ان هذه النسبة تصاعدت على هذا الشكل :

السنة	نسبة الطلاق
— ١٨٩٠	٦٪
— ١٩٠٠	١٠٪
— ١٩١٠	١٠٪
— ١٩٢٠	١٤٪
— ١٩٣٠	١٤٪
— ١٩٤٠	٢٠٪
— ١٩٤٦	٣٠٪
— ١٩٤٨	٤٠٪) (١)

وقد بلغت حوادث الطلاق في الولايات المتحدة عام ١٩٢٤م ١٧٠٩٥٢ حالة ،وفي عام ١٩٢٥م ١٧٥٤٩٥ حالة ،وفي عام ١٩٢٧م ١٩٢،٠٠٠ حالة . (٢)

وبسبب من الزيادة الكبيرة في حوادث الطلاق عقد رؤساء احدى الطوائف المحلية اجتماعا بحثوا فيه المشكلة ،وأصدروا قرارا كان مما جاء فيه :

(لا يوجد شيء يثير الرعب ويلقي الخجل في نفس الشعب الاميركي مثل الازدياد السريع في مسألة الطلاق (٣) . فتصبح حياتنا العصرية شكلا

---

(١) السلام العالمي والاسلام لسيد قطب: ٧٥ ،خطر التبرج والاختلاط لعبد الباقي رمضون : ١٤٠

(٢) الطلاق لعمر رضا كحالة : ١٩٥

(٣) كان هذا البيان عام ١٩٢٦ . واما اليوم فان هنالك امورا كثيرة يمكن ان تثير الرعب والخجل في نفوس الشعب الاميركي أكثر من الطلاق ان كان ثمة شيء يمكن ان يثير ذلك الخجل .

عظيما .

(لقد ثبت من الاحصاء أن الطلاق فى احدى السنوات الاخيرة بلغ حدا هائلا بحيث قضى على حياة مائة وثلاثة وثلاثين الف عائلة فى الولايات المتحدة . ان كل اربع دقائق يحدث طلاق ، وقد بلغ عدد حوادث الطلاق فى السنوات العشرين المتأخرة ثلاثة ملايين وسبعمائة وسبعين الفا ، وكانت النتيجة ان خمسة ملايين وستمائة الف ولد أضاعوا عائلاتهم ومساكنهم ، فهل يمكن تصور حالة معيبة أكثر من ذلك) . (١)

وفى سنة ١٩٤٦ امكن احصاء حوالى " ٦١٠ " الاف من حالات الطلاق وقعت فى الولايات المتحدة ، وكان فى القطر المذكور عام ١٩٥٦م مليونان واربعمائة وثمانية عشر الف شخص مطلق من بينهم ٦٠٪ من النساء ، ولا تمثل هذه الارقام الا جزءا من الاشخاص الذين سبق لهم ان مارسوا الطلاق ، لان الكثير منهم لا يلبث ان يتزوج مرة اخرى . (٢)

ويكتب القاضى الاميركى " لندسى " انه كان فى بلدة دنور الاميركية بازاء كل زواجين عرضا على المحكمة قضية طلاق ، وان هذا الحال لا يقتصر على البلدة المذكورة ، فان جميع المدن الاميركية الاخرى تماثل هذه البلدة فى كثير أو قليل .

ويضيف القاضى المذكور : (ان حوادث الطلاق والتفريق بين الزوجين لا تزال تكثر وتزداد . وان اطردت الحال على هذا فلا بد أن تكون قضايا الطلاق المرفوعة الى المحاكم فى معظم نواحى القطر على قدر ما يمنح من التسهيلات والامتيازات للزواج) . (٣)

---

(١) المصدر السابق : ١٩٦ .

(٢) الاسرة ومشكلاتها لمحمود حسن : ٢٠١ .

(٣) الحجاب : ١١١ .

ومما تقوله الاحصائيات الاميركية حول موضوع الطلاق انه كان في عام ١٩٨٠ في الولايات المتحدة " ١١٨٢٠٠٠ " حالة طلاق ، وذلك مقابل " ٢٤١٣٠٠٠ " حالة زواج أي نسبة الطلاق الى الزواج ٤٩ ٪ ، وتقول الاحصائيات ذاتها ان الطلاق زاد في العشر سنوات الاخيرة بنسبة ٥٠ ٪ عما كان عليه قبل ذلك . (١)

وتقدر النفقات التي دفعها الرجال لمطلقاتهم في الولايات المتحدة فيما بين ١٩٢٩ - ١٩٣٩ بتسعة مليارات وثلاثمائة وستين مليونا من الدولارات .

وفي كثير من الولايات الامريكية يلزم المطلق بدفع النفقة لمطلقته حتى بعد زواجها بآخر ، اذا ثبت ان زوجها الجديد لا يهيء لها من اسباب الرخاء ما كان يهيئه لها السابق ، فيتعاون الاثنان على ترقيتها وتنعمها . (٢)

وفي فرنسا بلغ من كثرة حوادث التفريق بين الزوجين ان محكمة الحقوق بمدينة سين فسخت ٢٩٤ نكاحا في يوم واحد . (٣)

وفي بريطانيا تقول الاحصائيات الحديثة : ان طلاقا يقع بين كل حالتي زواج . (٤) وقد كانت بريطانيا حتى سنة ١٩٦٩م تضع قيودا شديدة على الطلاق ، ولا تسمح به الا في حالة ثبوت الزنا مما يحتاج في كثير من الاحيان الى توفر الشهود والمخبرين وآلات تصوير ونحو ذلك ، فقفز الرقم الذي يمثل الاسر المحطمة بعد تعديل القانون السابق ، حيث جعل سبب الطلاق "(انهيار الزواج بحيث لا يمكن استرجاعه) ولا يتوقف ذلك على اثبات الزنا فحسب ، بل يكفي فيه اثبات سوء معاملة أحد الزوجين للآخر

---

(١) الشرق الاوسط عدد ١٢٧١ تاريخ ٢٢/٥/١٩٨٢ .

(٢) الطلاق لكعالة : ٢٠٢ .

(٣) الحجاب : ٩٥ .

(٤) عمل المرأة في الميزان : ١٣٧ - ١٣٨ .

أو انفصالهما لمدة سنتين . وقد حدد عام ١٩٧١ لتنفيذ القانون الجديد فقفز العدد بشكل لم تعهده بريطانيا ،بل ولم تتوقعه ،ولا يزال مع الايام في تزايد . فقد كان عدد هذه الاسر سنة ١٩٦١ "٢٥٠٠٠" في بريطانيا وويلز ،وأصبح سنة ١٩٧٥م " ١٢٠٥٠٠ " حالة ،وتقديرات عام ١٩٨٠م تقول ايضا : (اذا استمرت نسب الطلاق على ما كانت عليه في سنة ١٩٨٠-١٩٨١ فان:

(— ١ — حوالي زوجين من كل خمسة ازواج ،وزوجة من كل ثلاث زوجات ممن تزوجوا للمرة الاولى بين سن ٢٠ ، ٢٤ ينتهي زواجهم الاول بالطلاق .

(— ٢ — اكثر من نصف من يتزوجون من جديد بعد ان لم يكن سبق لهم الطلاق بين سن ٢٠ و ٢٤ ينتهي زواجهم الجديد بالطلاق ايضا) . (١)

وتقول احصائيات نشرت في لندن عام ١٩٨٠م أن عدد الامهات المطلقات ارتفع الى مليون وربع المليون أم ،والرقم مرشح للارتفاع (٢) ،وهو لا يساوي الا جزءا من المطلقات ،اذ يضاف له المطلقات غير الامهات . وما أكثرهن .

وفي ايطاليا البلد الكاثوليكي ومقر البابوية صدر عام ١٩٧٥م قانون يبيح الطلاق ،فأخذت نسبته في الارتفاع ،فقد وقع في عام ١٩٨٢م " ١٣٧٣١ " حالة طلاق (٣) وأول الغيث قطر ثم ينهمر .

وفي الاتحاد السوفياتي بلغ من كثرة حالات الطلاق ان ساوت في بعض الاحيان او قاربت حالات الزواج كما حصل في بعض الاشهر من عام ١٩٢٩ . (٤)

---

(١) الشرق الاوسط بتاريخ ١٩٨٣/٨/٢٠ موضوع بقلم محمد عبد الحليم: ص ١٤ .

(٢) الشرق الاوسط تاريخ ١٤٠٠/٧/١٢ وفق ١٩٨٠/٥/٢٦ عن عمل المرأة في الميزان : ١٤٦ .

(٣) المجتمع العدد ٦٢٥ عام ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣ ص ٣٤ .

(٤) الطلاق : ٢٠٢ .

ونشرت بعض الصحف الاجنبية احصاء رسميا بحوادث الطلاق فى الاتحاد السوفياتى جاء فيه : (عقد فى لينغراد فى الاشهر الخمسة الاولى من عام ١٩٢٧ تسعة الاف وواحد وثمانون زواجا . وحكم فى سبعة الاف ومائتين وخمسين طلاقا فى المدة نفسها ، وعقد فى الاشهر الخمسة الاولى من عام ١٩٢٦ ثمانية الاف واربعمائة واثنان وسبعون زواجا ، وجرى الفان ومائة وستة وعشرون طلاقا ، وكان معدل الطلاق فى عام ١٩٢٦ كله عشرين فى المائة . اما عام ١٩٢٧ فقد ارتفع الى خمسة وسبعين فى المائة ، ويرجح المطلعون على الشؤون السوفيتية أن الطلاق سيكون فى الاعوام القادمة مائة فى المائة ، أى ان كل زواج سيعقبه طلاق ، فيغدو الطلاق من ميزات الزواج) . (١)

وفى كثير من الاحيان لوحظ أن هناك ما يشبه التزايد الطردى بين ارتفاع نسبة الدخل من الناحية المادية وبين تصاعد حالات الطلاق ففى سنة ١٩٨٣ احتلت السويد المرتبة الاولى بين دول العالم فى مستوى دخل الفرد ، وفى نسبة عقود الزواج التى تنتهى بالطلاق ، فقد بلغ دخل الفردى السنوى فيها ١٤٨٧٠ دولارا ، ووصلت نسبة حالات الطلاق ٨٢٪ من عقود الزواج ، واحتلت الولايات المتحدة المركز الثالث فى مستوى دخل الفرد حيث بلغ ١٢٨٢٠ دولارا ، والمركز الثانى فى الطلاق حيث وصلت نسبته ٥٠٪ من حالات الزواج . (٢)

ومن أصدق ما وصفت به الحياة الزوجية فى الغرب ما قاله د : سوروكن ـ المؤرخ الاميركى الشهير والخبير بالشؤون الاجتماعية : (ان قداسة

---

(١) المصدر نفسه : ٢٠٤ .

(٢) انظر صحيفة أخبار اليوم المصرية ، تاريخ ١٠ ربيع الثانى ١٤٠٤هـ الموافق ١٣ يناير ١٩٨٤ م .

العلاقة الزوجية تهان الآن مرة بعد مرة ، وبأشد فظاعة وعلانية بالنسبة للماضي ، حتى لقد اصبح كل بيت بمثابة محل لوقوف السيارة !!(١) حيث لا ينزل الزوجان الا ليلة أو بعض ليلة ، بدلا من أن يكون منزلا ينزل فيه الزوجان ويعيشان عيشة هادئة مستقرة) . (٢)

وقد ادى التناقض بين الواقع في المجتمعات النصرانية من حصول الطلاق بكل سبب وبلا سبب ، وبين ما تنص عليه الاناجيل من تحريم الزواج الثاني ، وانه يعتبر زنا ما لم يكن الطلاق الاول قد وقع بسبب الزنا ، ولا تعترف الكنيسة بكونه كذلك حتى تقوم البينة عليه ، ادى هذا التناقض الى وقوع ازمة نفسية وأزمة اجتماعية ، ذلك ان كثيرا ممن يتزوجون للمرة الثانية أو ما بعد الثانية يرغبون ان يتم هذا الزواج في الكنيسة للتمتع بالبركة او القداسة ، وفي جو الترتيل والموسيقى بين الاصحاب والمعارف ، مما يضفي على الزواج الطابع الروحي ، ولكن الكنيسة ترفض مباركة هذا الزواج الا ضمن الشرط السابق ، ولا ترى الا انه زنا ، فيحرم هذان الزوجان من الطابع الروحي ومن مشروعية زواجهما ، ولك ان تتصور الآثار النفسية المترتبة على الشعور بين الزوجين الذي يلازمهما طوال الحياة ، ويشعران ان لا فكاك من هذه الرابطة ، ثم لا حل لمشكلتهم بعد ذلك لدى الكنيسة الا ان يعود كل منهما الى شريكه الاول ، وهو ليس السابق على هذا الشريك بالضرورة، فربما يكون قبله شركاء كثيرون ، جربهم في حيوات زوجية متتالية انتهت كلها بالفشل، ولا يقف هذا الشعور بالاثم والذنب الذي يلابس هذه الحياة عند الزوجين بل انه يتعداهما الى الاطفال الذين يشعرون بأن مجيئهما الى هذه الحياة ما كان الا نتيجة ممارسة خاطئة من قبل أبويهما .

---

(١) التعجب مضاف .

(٢) تحديد النسل : ٣٥ .

وقد تزايدت فى الفترة الاخيرة الدعوة فى بريطانيا للكنيسة أن تسمح بزواج المطلقين والمطلقات بغير الزنا ، وما تزال المناقشة حول الموضوع مستمرة . (١)

التهاجر والقطيعة فى الحياة الزوجية .

برغم ما ذكرنا من ذلك الانتشار الواسع للطلاق وسهولة وقوعه ، فليست كل البيوت التى سلمت من الطلاق هى بيوت هادئة مستقرة تعيش حياة ملؤها الهناء والسعادة ، فما اكثر ما يكون استمرار وجود الاسرة ليس الا شيئا شكليا تمليه بعض ضرورات الواقع ، كوجود الاولاد ، أو وجود مصلحة مادية لاحد الطرفين أو كليهما ، أو الملل من كثرة الفشل فى الحياة الزوجية ، أو غير ذلك من الاسباب ، على حين يمتلىء جو البيت بالمشاحنات والخلافات الزوجية ، وتسوده عواطف الكره والبغض ، وتعمه حالة القطيعة والتهاجر وتسيطر عليه روح الكآبة والتعاسة . وفى حالات كثيرة يصل الامر الى هروب الزوج أو الزوجة وترك البيت ، حتى قامت فى الغرب الهيئات والجمعيات التى تعمل على البحث عن الازواج والزوجات الفارين من بيوتهم ، وقد اعلنت هيئة تقوم بهذه المهمة فى نيويورك ان العمليات التى قامت بها فى سنة ١٩٥٢م أوضحت ان فى الولايات المتحدة سبعين الف زوج هارب من زوجته مقابل خمسة عشر الف زوجة هاربة من زوجها . (٢) يضاف الى هذا العدد الفارين من الازواج والزوجات ممن لم يتصل خبرهم الى هذه الهيئة .

ويقول د . سوروكن فى كتابه " الثورة الجنسية فى امريكا " : (ان مرض الهجران الزوجى فى انتشار وتقدم ، ويسميه الامريكيون فى حياتهم العامة : طلاق الرجل الفقير . ففى هذه الايام هناك اكثر من مليون اسرة تكابد المشاكل المترتبة على هذا المرض ، وبموجب الاحصائية الاخيرة (وهى

---

(١) انظر الشرق الاوسط بتاريخ ٥/٨/١٩٨٤ - موضوع محمد عبد الحليم ص ١٤ .

(٢) انظر حضارة الاسلام السنة الثانية ١٩٦١ ص ١٠٩ .

احصائية نشرت عام ١٩٥٣) يوجد في امريكا اليوم " ٩٦٠٠٠ " امرأة هجرت زوجها و " ١٥٢٦٠٠٠ " رجلا قد هجر زوجته) وحسب تقدير الباحث المذكور فان خزانة الدولة تنفق على هؤلاء حوالى ٢٥٠ مليون دولار سنويا.(١)

الخيانات الزوجية :

ان الزواج يتطلب شعورا نفسيا بالمسؤولية ، وتوخيا للاهداف السامية التي تترتب على الزواج ، وادراكا لاهمية استقرار الحياة الاسرية وثباتها انه يتطلب ان يحس كل من الزوجين انهما يبنيان بيتا ، ويصنعان لبنة من لبنات المجتمع وركيزة من ركائزه تنفحه بالحياة والحركة ، وعليهما ان يربأ بحياتهما الاسرية أن تكون مجرد صلات جنسية ، اذ فرق بين شعور من ينشأ الاسره وشعور من يقضي شهوة ليس غير ذلك . ولكن المحذور هو الواقع ومن ثم لا يحس احد الزوجين أن هنالك فارقا بين حياته قبل الزواج وحياته بعده ، الصلة الجنسية هي هي ، والشهوة هي الشهوة ، ولا جديد ، فلم يقصر نفسه على واحدة ؟ ولم تقصر نفسها على واحد ؟ وهما اللذان قد تعودا قبل الزواج على اقامة الصلات الجنسية مع الكثيرين أو الكثيرات ، وكما نقلنا عن ديورانت : (مايحدث من اباحة بعد الزواج فهو في الغالب ثمرة التعود قبله) (٢) . ويقول : (ولما كان زواجهما ليس زواجا بالمعنى الصحيح - لانه صلة جنسية لا رباط أبوة - فانه يفسد لفقدانه الاساس الذي يقوم عليه ، ومقومات الحياة ، يموت هذا الزواج لانفصاله عن الحياة وعن النوع. وينكمش الزوجان في نفسيهما وحيدين كأنهما قطعتان منفصلتان ، وتنتهي الغيرية الموجودة في الحب الى فردية يبعثها ضغط المساخر. وتعود الى الرجل رغبته الطبيعية في التنويع ، حين تؤدي الالفة الى الاستخفاف.

---

(١) ص ٨ ، من حركة تحديد النسل : ٣٥ .

(٢) انظر ص ٢٨٨ .

فليس عند المرأة جديد تبذله اكثر مما بذلته) . (١)

وما قاله ول ديورانت عن الرجل وعودة رغبته فى التنويع اليه بعد الزواج ، هو ما يقع مع المرأة ايضا ، وقد يؤدى الامر الى هدم الحياة الزوجية كلية ، وان يذهب كل من الزوجين لحال سبيله ، يبحث عن رفيق - أو رفاق - جدد ، وقد تبقى الحياة الزوجية قائمة من الناحية الشكلية ، ويتجه كل منهما أو احدهما الى الخيانة الزوجية . وما دام مفهوم اللذة هو المسيطر ، وما دامت القيم والاخلاق غائبة عن الحس الغربى ، أو لعل اللذة هى القيمة الرائجة ، والصلات الجنسية مما لا ارتباط له بالاخلاق ، وكل رقابة من دين أو ضمير قد ماتت فلم تخونه ولم لا يخونها ؟

وفى دراسة نشرتها صحيفة الشرق الاوسط بتاريخ ١٥ / ٧ / ١٤٠٠ هـ ان ٧٥ ٪ من الازواج الاوربيين يخونون زوجاتهم ، وان نسبة أقل من الزوجات يخن ازواجهن . وتقول الدراسة : ان المخاللين أقل خيانة لخليلاتهم من الازواج لزوجاتهم . وأن الخليلات اكثر خيانة لاخلائهن من الزوجات لازواجهن) . (٢)

وفى أحيان كثيرة تزكم رائحة خيانة الزوجة أنف الزوج ، وتعلم الزوجة بخيانة الزوج ، وكل ذلك لا يكدر فى شىء على العلاقات الزوجية الشكلية ولا يحرك فى احدهما أى غيرة أو حساسية .

قال عميد كلية شهيرة فى باريس : (ان عامة الشباب يريدون بعقد النكاح استخدام بغى فى بيوتهم أيضا ، ذلك انهم يظلون مدة عشر سنين أو اكثر يهيمون فى أودية الفجور أحرارا طلقاء ، ثم يأتى عليهم حين من دهرهم يملون تلك الحياة الشريدة المتقلقلة ، فيتزوجون بامرأة بعينها

---

(١) مباهج الفلسفة : ٢٢٥ ، عن الاسلام ومشكلات الحضارة : ١٤٣ - ١٤٤ .

(٢) عمل المرأة فى الميزان : ١٤٥ .

حتى يجمعوا بين هدوء البيت وسكينته ، ولذة المخادنة الحرة خارج البيت) .

ويقول : (ان زنا المحصنين والمحصنات لا يعد من العيب أو اللوم في فرنسا . (١) فاذا كان أحد المحصنين متخذا خليلة دون زوجته ، فلا يرى لاخفاء الامر من لزوم . ويعد المجتمع فعله ذلك شيئا عاديا طبيعيا في الرجال) . (٢)

وقد بلغ الامر في بعض البلدان الغربية كامريكا اكتشاف الشرطة لنواد لها فروع كثيرة ، مهمتها العمل على اجراء تبادل الزوجات المؤقت بين أعضاء النادي ، وعلى كل مشتركة ان تزود النادي بمقاييس جسمها . (٣)

منع الحمل :

أملت الحياة القائمة على تمتع الذات بأقصى درجة ممكنة من اللذة باعتبار ذلك القيمة الاولى ، والهدف الذي لا يعدله هدف آخر ، أملت على الناس ـ فيما املته عليهم من قيود ـ أن يحاولوا أن يتخففوا من أية اثقال تعوق هذا التمتع المادي ، وان يتفلتوا من كل القيود التي تخفف من التمتع وان يتجنبوا كل العقبات التي تعوق الوصول الى الراحة واللذة . وغالى القوم في محبة الذات مغالاة جعلتهم يهدرون في سبيلها مطالب وضروريات انسانية أخرى تنبع من سويداء القلب ، وتتأصل داخل الفطرة الانسانية وعُموا عن اشواق ونزعات نبعث من محبة الذات التي حرصوا عليها ، ولكنهم كبتوا هذه النوازع والاشواق طالما انها ليست لذة جسدية بحتة . فبعد ان

---

(١) والحال كذلك في غير فرنسا من البلدان الاوروبية . والذي يأخذه الكاتب المذكور على الفرنسيين هو ان لا يعد زنا المحصنين والمحصنات من العيب . واما زنا غير المحصنين والمحصنات فذلك امر مستساغ !!

(٢) الحجاب : ٩٤ - ٩٥ .

(٣) انظر حضارة الاسلام ٧ / ١٠٤ عام ١٣٨٧هـ .

اصبحت الصلة الجنسية الهدف المنشود لدى الغربى عن طريق الزواج أو غير الزواج ، ما زال يكثر منها ولا يرتوى ولا يرعوى ، ما فتأ هذا الغربى وخاصة جنس الاناث منه ، يبحث عما يخفف عليه آثار هذه الصلة ، انهن لا يردن منها الا اللذة فليتخلصن ويتخلص معهن ازواجهن واخلاؤهن من متاعب الحمل والولادة والرضاعة والحضانة والانفاق ، فكل ذلك يكدر اللذة ويعكر صفو الراحة ، ويحتاج من المال والوقت والجهد ما يمكن ان يمتع احدهم ـ أو احداهن ـ به نفسه ، ويستغله فى ارضاء شهوات نفسه . ان الطفل يعوق عن العمل ، وينشأ من الارتباطات والمسؤوليات ما لا يناسب اولئك الذين تعودوا حياة الانفلات من كل القيود والمسؤوليات ما استطاعوا الى ذلك سبيلا . انه يزعج بصراخه ، انه لا يقبل ان يتنازل عن مزاجه لمزاج امه التى تحب الراحة وتؤثر اللذة ، وتسعى للخروج من البيت باستمرار من اجل العمل ، ومن اجل غيره . انه عقبة تحول دون اندماجها فى الحياة العملية وحمل ثقيل للغاية بالنسبة لمهام اكثر فائدة من وجهة نظر العقلية الغربية . انه لا يقبل ان يتنازل عن شئ من طباعه لطباعها لفترة ليست بالقليلة . وهو بعد ذلك كله حجر عثرة فى سبيل تجربة شريك جديد بالنسبة للام ، أو شريكة جديدة بالنسبة للاب ، فلم يصرون عليه أو لم يستكثرون منه ؟ .

وهكذا ساهمت النظرة المادية وما نتج عنها من خروج المرأة للكسب وغير الكسب ، فى تخلى الاسرة عن وظيفتها الاولى وهى انجاب الذرية ، أو التخفف منها قدر الامكان .

وكالعادة فى تبرير كل ما أنتجته النظرة المادية فى الحياة الغربية انطلقت ابواق كثيرة هنا وهناك تبحث عن سند من العلم لذلك ، ورفع دعاة تحديد النسل اصواتهم عالية بأن تحديد النسل امر لا بد منه لخير البشرية بل لبقائها ، والا كان الخطر والبلاء والفناء ، وانه من مقتضيات العلم

وان الاسرة الكبيرة مما لا يصلح لهذا الزمان ، وعقدت لهذا مؤتمرات كثيرة وأنفقت أموال جزيلة ، حتى اضحت العناية بأساليب منع الحمل من ابرز سمات هذا العصر ، قال جاستون بوتول : (فى عام ١٩٤٥ عندما بدأ انتشار المضادات الحيوية فى العالم ظهرت طفحة ديموجرافية . وفى الوقت نفسه ولدت القنبلة الذرية . ومنذ ذلك التاريخ انصب أكبر جزء من نشاط الاختراع على الاسلحة ووسائل منع الحمل) . (١)

وقد بدأ التفكير فى هذا الاتجاه واضحا بعد ان نشر الاقتصادى الانجليزى مالتوس عام ١٧٩٨ آراءه حول التفاوت بين معدل زيادة السكان ومعدل زيادة الموارد المعيشية ، حيث قال : ان السكان يتزايدون خلال كل خمسة وعشرين عاما بموجب متوالية هندسية ، أى انهم يتضاعفون بنسبة ١ : ٢ : ٤ : ٨ بينما لا تتزايد الموارد الاقتصادية الا بموجب متوالية حسابية هكذا ١ : ٢ : ٣ : ٤ ، وهذه الزيادة لا تماشى تلك ، فاذا ترك الناس يتزايدون على هذه الشاكلة فان المستقبل سيكون مظلما بالنسبة لهم ، لان الموارد ستضيق عنهم .

وكانت أول دعوة مكشوفة لمنع الحمل عام ١٨٢٢ فى بريطانيا عندما اصدر " فرنسيس بليس " كتابا تحت عنوان " صور توضيحية لمبادىء السكان " وتلته نشرات أخرى ، ولكن الدعوة يومها لم تجد من يحفل بها ، فلم تحقق أية مكاسب حقيقية . وفى عام ١٨٣٣م الف طبيب امريكى شهير اسمه "تشارلز نولتون " كتابا بعنوان " ثمرات الفلسفة " أيد الدعوة السابقة . غير أن القضاء البريطانى أدان نشر مثل هذه الافكار . وفى عام ١٨٧٧ تحدى بعض البريطانيين قرار القضاء وأعادوا طبع كتاب " ثمرات الفلسفة " فجرت محاكمتهم وأدينوا ، ثم استؤنف الحكم ، وصاحب ذلك كثير من المناقشات العامة حول " تحديد حجم الاسرة " ، مما أثار الاهتمام بالقضية والكتاب الذى كان موضوعها ، فاستحوذ الموضوع على اهتمام الرأى العام البريطانى ، حتى

---

(١) الانفجار السكانى روبيرت لاغون : ٤٦ .

قفزت مبيعات الكتاب من الف نسخة قبل قرار المحكمة الى مائتى الف فى الثلاث سنوات ونصف السنة التى تلت المحاكمة . وكانت النتيجة فى صالح دعاة منع الحمل .

وفى الولايات المتحدة الامريكية ووجهت دعوة نولتون المذكورة بالرفض، وصدر فى عام ١٨٧٣م قانون فدرالى يحظر توزيع المعلومات المتعلقة بمنع الحمل بواسطة البريد ، وعوقب بعض الاطباء الذين خالفوا ذلك بعقوبات مالية كبيرة . ورغم كل تلك العقبات القانونية والقضائية ، وملاحقات الشرطة للدعوة لمنع الحمل ، فان الدعوة كانت تنتشر سرا .

وقد قامت احدى الممرضات واسمها " ماغاريت سانجر (١) " بجهود كبيرة فى نشر هذه الدعوة ، وفى عام ١٩١٦ فتحت عيادة لهذا الغرض ولكن الشرطة اغلقت العيادة وأحالت صاحبتها الى المحكمة فأدينت ، ثم استوءنفت القضية ، فأصدرت محكمة الاستئناف قرارا اجيز بموجبه لموظفين مسوءولين ان يقوما بصورة مشروعة باسداء النصح والمشورة لمن يحتاج اليها فى موضوع منع الحمل ، وذلك على سبيل (الوقاية من العلل ومنعها) واحتملت هذه العبارة تفسيرات كثيرة وواسعة . (٢) ومع نهاية القرن التاسع عشر كانت الحركة قد وصلت الى فرنسا والمانيا وبلجيكا وهولندا وانتشرت بعد ذلك شيئا فشيئا فى كثير من دول العالم ، حتى اقر المبدأ

---

(١) كان والدها ميكائيل هنجر ممن يسمون بأصحاب الآراء الحرة التى تدعو الى المساواة بين الجنسين ، والى محاربة التعصب الدينى . ويسبب مما عرف عنه من استهزاء بالدين عرف افراد اسرته بابناء الشيطان . انظر ضبط النسل وتنظيم الاسرة : ٢٣ - ٢٤

(٢) فى موضوع تطور النظرة الى منع النسل فى امريكا وبريطانيا انظر ضبط النسل وتنظيم الاسرة: ٢٣ ، ٩١ ، تنظيم النسل وموقف الشريعة منه : ١٩ - ٢٨ .

في هيئة الامم عام ١٩٥٩م (١) . فعم دولا كثيرة كانت ما تزال تمانع فيه .

ولم يكن هذا المبدأ شيئا يقوم على الضرورة المرضية أو الوقتية بالنسبة لامرأة معينة ،او لاسرة خاصة ، وانما هو مبدأ عام يدعى له كل الناس، حتى مع الصحة والرخاء ، ويدعى لتطبيقه حتى في بلدان ما تزال نسبة سكانها الى مساحتها ضئيلة جدا .

وقد ادى انتشار وسائل منع الحمل على اختلافها الى التناقص الواسع في عدد المواليد في الدول الاوروبية ، وفي الدول التي سعت سعيها وسارت في ركابها .

فانجلترا وويلز كانت نسبة المواليد فيهما عام ١٨٧٦م هي ٣٦،٣ لكل الف ، وما زالت تنخفض حتى بلغت عام ١٩٥٥م نسبة ١٥،٥ .

والمانيا التي كانت النسبة المذكورة فيها عام ١٨٧٦م هي ٤٠،٩ لكل الف ، ما زالت تنخفض حتى بلغت عام ١٩٥٥م ١٦ .

وايطاليا كانت نسبة المواليد فيها عام ١٨٧٦م هي ٣٩،٢ ثم تدنت حتى ١٧،٦ عام ١٩٥٨م .

وفي السويد انخفضت هذه النسبة من ٣٠،٨ عام ١٨٧٦م الى ١٤،٢ عام ١٩٥٨م .

وفي سويسرا انخفضت من ٣٣ الى ١٧ فيما بين ١٨٧٦م الى ١٩٥٥م.

وفي الدانمارك انخفضت خلال المدة نفسها من ٣٣،٢ الى ١٦،٨

وفي ايطاليا انخفضت من ٣٩،٢ عام ١٨٧٦م الى ١٧،٦ عام١٩٥٥م.

وفي اليابان كانت نسبة المواليد ٢٤،٣ لكل الف وما زالت تتدنى حتى بلغت ١٧،٢ عام ١٩٥٧م. (٢) ثم وصلت في عام ١٩٦٦م الى ١٣،٧. (٣)

---

(١) انظر من اجل الانسان استراتيجية لتثبيت سكان العالم: بستر ربراون ١٧٩ .

(٢) هذه الارقام اخذت من كتاب برامج تنظيم الاسرة/برنارد بيرلسون : ٢٨.

(٣) الانفجار السكاني : ٤٥.

وحتى فى الحالات التى سجل فيها ارتفاع فى نسبة الزواج سجل تناقص خطير فى حالات الولادة ، فمثلا نجد انه فيما بين ١٩٢٠ - ١٩٢٦ ارتفعت نسبة الزواج فى بعض الدول الاوروبية ، ومع هذا الارتفاع فان نسبة المواليد قد انخفضت بشكل كبير ، ففى بريطانيا وويلز ارتفعت نسبة الزواج فى الفترة المذكورة حوالى ١٢،٣ ٪ على حين هبطت نسبة المواليد ٥١ ٪ ، وفى المانيا زادت نسبة الزواج خلال هذه الفترة بمقدار ٩،٤ ٪ على حين هبطت نسبة المواليد بمقدار ٤٩،٤ ٪ ، وفى السويد زاد الزواج بنسبة ١١،٣ ٪ ، وهبط المواليد ٤٥،١ ٪ ، وفى سويسرا زاد الزواج ١٢،٩ ٪ ، وهبط المواليد ٤٤،٨ ٪ ، وفى النرويج كانت زيادة الزواج ٢٦ ٪ ونقص المواليد ٣٨ ٪ ، وفى الدانمارك كانت الزيادة فى الزواج ١٢،٣ ٪ وهبوط المواليد ٣٥،٦ ٪ ، وكان الامر على هذا النحو فى كثير من الدول الاوروبية . (١) وفى امريكا زادعدد النساء اللواتى فى سن الانجاب فيما بين سنتى ١٩٤٦ - ١٩٧٦ ، بمعدل ٣٣ ٪ ، فقد كان عددهن عام ١٩٤٦م هو " ٣٣٢٩٠٠٠٠ " وبلغ عام ١٩٧٦م " ٤٤٣٤٠٠٠٠ " ، فكان المتوقع ان يقابل هذه الزيادة زيادة فى مثل نسبتها فى الانجاب ، ولكن الاحصائيات قد اثبتت أن عدد حالات الانجاب قد انخفض عما كان عليه بنسبة ٤ ٪ ، فقد كان عدد هذه الحالات عام ١٩٤٦م يصل الى " ٣٤١١٠٠٠ " على حين اصبح عام ١٩٧٦م " ٣٢٥٦٠٠٠ "(٢).

ووصل الحال فى بعض البلدان الى التقارب بين عدد حالات الولادة وحالات الوفاة ، وتطابقتا فى بعضها ، بل وزادت حالات الوفاة على الولادة فى بعضها الآخر ، ففى النمسا زادت الوفيات على الولادات فيما بين ١٩٣٥ - ١٩٣٨ (٣) ، وفى فرنسا كانت الوفيات أكثر من الولادات فيما بين

---

(١) هذه الارقام من حركة تحديد النسل : ٣٩.

(٢) انظر الانفجار السكانى : ٦١ - ٦٣ .

(٣) انظر حركة تحديد النسل : ٤٤ .

١٩٣٥ - ١٩٣٩ ، ولو الهجرة لانخفض عدد سكانها بشكل ملحوظ . (١)
وفى بريطانيا كادت الحالتان ان تتطابقا فيما بين ١٩٥٥ - ١٩٥٧م (٢)
وكانت نسبة المواليد فى النمسا عام ١٩٧٠م هى ١٥،١ لكل الف من السكان ونسبة الوفيات ١٣،٤ ، وفى عام ١٩٧١ كانت الولادات تمثل ١٤،٥ والوفيات ١٣ فى البلد ذاته ، وفى بلجيكا كانت نسبة المواليد عام ١٩٧٠م ١٤،٦ والوفيات ١٢،٤ وفى عام ١٩٧١م كان المواليد ١٤،٥ والوفيات ١٢،٥ ، وفى المانيا الفيدرالية كان المواليد عام ١٩٧٠م ١٣،٤ والوفيات ١٢،١ ، وفى عام ١٩٧١ كان المواليد ١٢،٧ والوفيات ١١،٩ ، وفى المانيا الديمقراطية كان الوضع يزيد سوءا ، اذ كانت نسبة المواليد عام ١٩٧٠م هى ١٣،٩ بينما كانت نسبة الوفيات ١٤،١ . وفى عام ١٩٧١م تطابقت الحالتان ، وكان كل منهما ١٣،٨ لكل الف من السكان (٣) ، ولم تكن هذه الا امثلة لكثير غيرها من دول العالم التى أصاب تفكيرها وأنظمتها عدوى هذه الدعوة ، ولم يبق الا النزر اليسير من دول العالم التى لم تتبن هذه الدعوة ، أو تعمل على تشجيعها .

وجاءت الآثار الخطيرة لهذه الدعوة تبين أن كل ستار من العلم تقنعت به ما هو الا زيف ووهم ، وتكشف انه مع زيادة نمو البشر وتضاعفهم بعد مالتوس لم يواجه العالم المجاعة ، بل أصبح مع مرور الزمان ينعم بحد من الرفاهية ورغد العيش لم يكن يحلم به ، وتضاعفت دخول الافراد ، وتكاثرت الخدمات الطبية والتعليمية والترويحية ، وعم الرخاء المادى فى كثير من دول العالم ، وخاصة فى القارة الاوروبية ، ومنها بريطانيا التى ظهر فيها مالتوس.

---

(١) المصدر السابق جـ: ٤٢ .

(٢) انظر الانفجار السكانى : ٤٤ .

(٣) انظر هذه النسب فى المصدر السابق : ٤٩ - ٥٠ .

وارتفعت اصوات كثيرة من علماء وزعماء وهيئات ولجان رسمية وغير رسمية تحذر من هذا الوباء ، وتفضح الزيف الذى بنيت عليه هذه الدعوة ، ففى بريطانيا الفت عام ١٩١٦م لجنة خاصة لاستعراض نسبة الولادة القومية وتتألف هذه اللجنة من رجال الطب والاقتصاد والعلوم التجريبية ، ومن خبراء الاحصاء والتعليم والشؤون الدينية ، واشتركت فيها شخصيات علمية مشهورة وكان مما جاء فى تقرير اللجنة :

(على بريطانيا أن تراقب بغاية من الحذر والاضطراب النقص المتزايد فى هبوط نسبة الولادة القومية ، وعليها لمواجهة هذا النقص وتغييره بالزيادة الى حد الامكان أن تتخذ كل ما يأتى فى دائرة قدرتها من التدابير الفعالة) . (١)

وقال السير " جورج نيومين " الرئيس الاعلى للشؤون الطبية فى مكتب وزارة الصحة : (اننا اذا لم نقم فى وجه هذا الخطر ونعمل على تداركه فلا بد ان تصير بريطانيا فى عداد القوى من الدرجة الرابعة) . (٢)

وحذرت شخصيات علمية كثيرة من عواقب تناقص المواليد فى بريطانيا وظهرت حركة ضد تحديد النسل ، وأسست جمعية " رابطة الحياة القومية " لهذا الغرض .

وفى عام ١٩٤٣ قال وزير داخلية بريطانيا : (ان بريطانيا اذا كانت تحب المحافظة على مستواها فى الوقت الحاضر والتقدم فى سبيل الرقى والازدهار فى المستقبل ، فمن اللازم أن يتزايد فيها عدد افراد كل اسرة بنسبة ٢٥٪ على الاقل) . (٣)

---

(١) حركة تحديد النسل : ٤٩ - ٥٠ .

(٢) المصدر السابق : ٥٠ .

(٣) انظر المصدر السابق : ٥١ - ٥٣ .

وفى عام ١٩٤٤ شكلت أيضا لجنة اخرى فى بريطانيا لدراسة المشكلة ووضع التوصيات اللازمة لحلها حيث كانت نسبة الولادة قد تدنت فيما بين ١٩٣١ - ١٩٤١ الى حوالى ١٤،٨ لكل الف من السكان ،وكان مما أوصت به :

— ١ — ان تمنح كل اسرة مكافأة مالية على قدر ما يكون لديها من الاطفال .

— ٢ — وان يدخل التعديل على قانون ضريبة الدخل بحيث تخف وطأته على المتزوجين الذين لديهم عدة اطفال ، وتشتد على غير المتزوجين .

— ٣ — وان تبنى على نطاق واسع بيوت تشمل على أكثر من ثلاث حجرات للنوم .

— ٤ — وان يجرى من مشاريع المحافظة على الصحة والاعمال الخيرية مما يساعد على رفاء الاسرة الكبيرة ورخائها الاقتصادى .

(وان تؤلف جمعيات تقوم بالتحقيقات فى مشكلة قلة السكان ، وتعلم الناس كيف يتخذون الوسائل للتغلب على هذه المشكلة) .

بل وأوصت اللجنة باتخاذ وسائل صناعية للحمل والتوليد . (١)

وفى فرنسا نبه كثير من العلماء الى خطورة الامر ، وأنشئت فى الثلاثينات حركة " الاتحاد القومى لزيادة السكان "وصدر قانون يحرم تعليم ونشر وسائل منع الحمل ، ومنحت الاسر ذوات العدد الكبير اعفاءات ضريبية ومكافآت وتسهيلات مالية كثيرة ،بل منحت جوائز ، وفرضت ضرائب على غير المتزوجين ، وعلى المتزوجين الذين ليس لديهم أطفال . (٢)

واتخذت فى الثلاثينات اجراءات مماثلة لما اتخذته بريطانيا وفرنسا فى كل من المانيا وايطاليا والسويد . فمنحت اعفاءات وقروض واعانات وذلك للسعى

---

(١) انظر المصدر السابق : ٥١ - ٥٢ .

(٢) انظر المصدر السابق : ٥٤ - ٥٥ .

للمزيد من المواليد . (١)

وفى امريكا اعلن الرئيس ايزنهاور عام ١٩٥٩ : (ان حكومته لن تفكر فى تحديد النسل ما دام فى البيت الابيض) . (٢)

ومما جاء فى كتاب أصدره مكتب التعداد العام فى الولايات المتحدة فى الستينات :

(لا بد ان نكون حذرين من تلك التوقعات التى تتنبأ بمجيء أيام عصيبة نتيجة لزيادة السكان . فهذه التنبوءات قد وضعت فى العادة على اساس التوقعات الماضية عن اتجاهات التزايد . وهى اتجاهات غريبة وخادعة) .

وقد كتب مقدمة هذا الكتاب الرئيس الاميركى الاسبق " ليندون جونسون" فحيا الشعب الاميركى على بلوغه مائتى مليون ، وقال : (انه ما دامت الفرص امام الامريكيين فى تزايد فسوف تظل هذه الامة تنعم بالخير والبركة مهما وصل عدد سكان ابنائها) . (٣)

---

(١) انظر المصدر السابق : ٥٦ - ٥٨

(٢) تنظيم النسل وموقف الشريعة الاسلامية منه : ٤٥٨

(٣) انظر عالمنا المزدحم : ١٣٢ .

والملفت للنظر انه فى الوقت الذى كان القانون الامريكى يضع قيودا على انتشار ادوات منع الحمل بين الامريكيين ، ولا يسمح بها الا فى حالات خاصة ، كان الامريكيون يشجعون نشرها خارج بلادهم ، كما حصل فى اليابان وبورتوريكو حيث كان القادة العسكريون والخبراء الاجتماعيون الامريكيون يضغطون على حكومتى البلدين من أجل تجربة هذه الوسائل على شعوبهما ونشرها بينهم .

يقول روبيرت لافون : (جاءت الاجراءات المتعلقة بتحديد النسل اساسا فى الولايات المتحدة ، وتطبق بصفة رئيسية فى دولتين هما اليابان وبورتوريكو ، وكما يوءكد " مانلار " فى موءلفه " جنيويولينكا الرقابة على النسل " فان بورتوريكو كانت ميدانا لتجربة المركبات الاميركية لمنع الحمل . وهكذا اختبرت حبوب منع الحمل عمليا . قبل تعميمها =

وفى الصين ادى عدم السماح للاسرة الواحدة الا بعدد محدود من الاطفال ، بموجب القانون ، الى ظهور عملية قتل الاناث حين الولادة ، وذلك حتى يتسنى للاسرة ان تجرب حظها فى الحصول على الذكر فى ولادة اخرى/ وقد أدى ذلك الى زيادة نسبة الذكور على الاناث فى المجتمع الصينى بشكل كبير فقد وصل عدد الذكور فى بعض الارياف الى خمسة أمثال الاناث ، وفى بعضها الى عشرة امثاله ، مما جعل كثيرين يحذرون من ان الصينيين سيواجهون بعد خمسة عشر عاما أو عشرين عاما مشكلة حقيقية فى العثور على الزوجات.(١)

ويؤكد كثير من الباحثين والاخصائيين فى الاقتصاد وغيره من العلوم خطأ مقولة عجز الموارد البشرية عن تلبية حاجات الزيادة البشرية .

= فى الولايات المتحدة الامريكية) .

(ورغم انكار الجنرال ماك آثر لاى تدخل امريكى . فان المستشارين الامريكيين ، والضغوط التى مارسها الجنرال نفسه ، هى التى ادت باليابان لاصدار تشريعات بهذا الشأن . منها قانون ١٩٤١ الذى أباح التعقيم كليا والاجهاض جزئيا ، واكمله قانون ثان فى ١٩٥٩ يمنح الزوجين حق تقرير الاجهاض . كذلك كان الامريكيون هم مصدر الهام بالنسبة لقانون ١٩٤٧ الذى أحل الفرد محل الاسرة كأساس للمجتمع. وقد رحب اليابانيون ترحيبا بالغا بتحديد النسل . وهكذا حدث بين عامى ١٩٥٠ - ١٩٦٥ ان تضاعف مرتين عدد الازواج الذين يلجأون الى وسائل منع الحمل) الانفجار السكانى ١١٢ - ١١٣.

وليس هذا الاتجاه لنشر هذه الوسائل خارج حدود الوطن خاصا بالامريكيين ، بل غيرهم من الاوروبيين لهم مثل هذا الاتجاه ، يقول هال هلمان فى كتابه مشكلة تضخم السكان : ٣٨ (فى الواقع اننا اظهرنا اهتماما بتخفيض سكان الدول الاخرى يفوق ما أبديناه بالنسبة لسكاننا) تنظيم النسل وموقف الشريعة منه : ٤٦٠.

(١) انظر مجلة الامة القطرية ، عدد شوال ١٤٠٣ هـ ٣٤ / ٩٠ .

جاء في كتاب " المائة سنة القادمة " الذى الفه مجموعة من الباحثين الغربيين - ومنهم " هاريسون براون " استاذ الكيمياء الجغرافية في معهد كاليفورنيا للتكنولوجيا -: (نستطيع أن نؤكد - من حيث المبدأ العام - أن لدى الانسان من الموارد المادية ما يكفى لمعيشة أعداد كبيرة منه على ظهر الارض . واذا نظرنا الى المستقبل من زاوية فنية اقتصادية استطعنا ان نؤكد مرة أخرى أن عهد المجاعات والبؤس قد ذهب وولى ، فنحن نعلم أن كمية من الغذاء يمكن انتاجها ، وان عددا متزايدا من المنازل من السهل بناؤها ، وان كمية كبيرة من الملابس نستطيع ان ننتجها ، ذلك أن الموارد الطبيعية التى يتحكم فيها الانسان تكفى لانتاج مثل هذه السلع لفترة طويلة) . (١)

ويرى الاقتصادى البريطانى " كولين كلارك ": (ان تطبيق العلوم التكنولوجيه الحالية سوف يسمح بتغذية أربعين مليار نسمة على حين اننا لم نصل بعد الى تعداد اربعة مليارات نسمة في العالم) . (٢) ويرى هذا الباحث أن من الممكن انتاج كميات كافية من الغذاء حتى بدون زراعة ارض جديدة ، بل عن طريق التحكم العلمى فى الارض المستغلة الان . (٣) ويرى أيضا ان سرعة النمو الاقتصادى تتزايد باطراد مع سرعة النمو البشرى ، فهو يقول : (ان اولئك الذين يواجهون تحدى الزيادة السكانية بشجاعة وذكاء سوف ينالون مكافأتهم على ذلك في صورة تقدم اقتصادى وثقافي وسياسى يمتد الى ابعد حد مما يمكن ان نتنبأ به الان) . (٤)

---

(١) ٨٥ .

(٢) الانفجار السكانى : ١٣٢ .

(٣) انظر المصدر السابق : ١٣٢ ، تنظيم النسل وموقف الشريعة الاسلامية منه : ٣٠٢ .

(٤) عالمنا المزدحم : ١٧٠ ، وانظر ص ٩٩ من المصدر ذاته .

ويقول روبيرت لافون فى كتابه " الانفجار السكانى ": (وعلى أية حال فان التقدم العلمى فى المجال الزراعى الذى تولدت عنه الثورة الخضراء (القمح والذرة) يقدم لنا امكانيات ايجابية تجعلنا لا نستطيع اعتبار التغذية مشكلة فى حد ذاتها على المستوى النظرى) . (١)

ويقول د .كارل برانت عالم الاقتصاد الزراعى : (اما الادعاء بأن الزراعة ليس فى وسعها زيادة الانتاج الغذائى لكل شخص بمعدل يتكافأ مع النمو السكانى فهو ادعاء كاذب وزائف بدرجة واضحة) . (٢)

ويقول الاستاذ " ليندليس " الخبير بالشؤون الاجتماعية : (ان مالتوس لو كان اليوم على قيد الحياة ،لما وسعه الا الشعور بأن الانسان فى الغرب قد رمى الى ابعد من اللازم بصدد الحد لنسله ،بل الحقيقة انه قد اثبت أن نظره قصير جدا بشأن التفكير فى حفظ مستقبل حضارته) . (٣)

وتوالت صيحات ونداءات اخرى كثيرة جدا تحذر من العواقب الوخيمة للحد من النسل ،ولكن هذه المحاولات ما تكاد تحقق تقدما طفيفا فى نسبة المواليد حتى تعود الى ما كانت عليه وأقل .

وكان قصدنا من نقل كل ما نقلنا من صرخات العلماء والزعماء وقادة الاصلاح أن نؤكد على انه ليس الباعث الحقيقى للغرب على سلوك هذا الطريق ،والترويج له ،هو النقص الفعلى للموارد الاقتصادية والاحساس بضيق ذات اليد ،ولا هو اكتشاف العلم ان هنالك مشكلة حقيقية لا حيلة فيها الا فى سلوك هذا الطريق ،فان كل ما اوردنا من شهادات العلماء

---

(١) ١٣٠ - ١٣١ .

(٢) نشرة كولومبيا عن التجارة الدولية لعام ١٩٦٧ ،عن كتاب تنظيم النسل وموقف الشريعة : ٣٢٠ .

(٣) حركة تحديد النسل : ٤٥ .

يرد ذلك . وانما السبب الحقيقى هو سيطرة النظرة المادية والجنسية ـ كما اسلفنا ـ باعتبارها طريقة لفهم الحياة ، ومن ثم نشأة الحضارة الغربية على هذا الاساس .

يقول روبيرت لافون ـ وهو من دعاة تحديد النسل ـ :

(هل ننتمى فى الواقع الى مجتمع ينتسب الى فرويد ؟ الرأى عندى ان الحرية الجنسية هى أفضل الموانع ضد الانجاب ، فان الثقافة الجنسية كما تفهم فى أوساط كثيرة ، ما هى الا وسيلة لتفادى المواليد فى نطاق الزواج أو خارجه .

(وبعض السلوك النمطى فى مجتمعنا ، انما يفسر بانفصال اللذة عن الانجاب ، لا من زاوية ما يسمى (بالانجاب المسئول) ، ولكن باسم عبادة الجنس) .

(ان حركة تحرير المرأة التى تستهدف تغيير وضع المرأة ، وعدم اعتبارها مجرد أداة جنسية خاضعة للرجل ، ليست سوى مظهر لهذا الاتجاه نحو تخفيض معدلات الزواج) . (كما تجدر الاشارة الى ظاهرة اخرى هامة جدا فطبقا لمفاهيم العقلية الحديثة ، يكون الطفل عقبة تحول دون اندماج المرأة فى الحياة العملية وحملا ثقيلا للغاية بالنسبة لمهام أخرى اكثر فائدة) . (١)

ولما تخلت الاسرة فى الغرب عن اهم وظائفها ، وهى امداد المجتمع بالنسل ، كان لذلك اثار سلبية كثيرة وخطيرة انعكست على اعضاء الاسرة ، وعلى الرابطة الزوجية ، ذاتها .

لقد ادى الزهد فى انجاب الاطفال ، او الحرص على عدمه ، الى صدام امور فطرية ، فى داخل الكيان الانسانى للرجل والمرأة ، وربما فى المرأة أكثر ، ذلك ان نزعة حب الولد غريزة فطرية فى النفس البشرية ، بل وفى كل الاحياء ، وما اكثر البلاء الناشىء عن مصادمة الفطرة ، فلا تستريح

---

(١) مقتطفات من الانفجار السكانى : ٨٤ - ٨٨ .

النفس ولا تهدأ الاعصاب ، ولا يحس الانسان بالسكينة ، حتى يكون متصالحا مع فطرته ، والا فهو فى ظمأ دائم الى ما يروى هذه النوازع الفطرية .

كذلك فان الغاء وظيفة الحمل والولادة بالنسبة للمرأة بمثل هذه الصورة ، وعلى مثل هذا المستوى ، انما تعنى الغاء وظيفة كثير من اعضاء جسم المرأة . وجعل كثير من التغيرات التى تصيب جسدها فى فترة البلوغ والتى تدور كلها حول غاية التناسل ، بلا فائدة ولا ثمرة ، لانها تعطل وظيفتها ، وما كان مثل هذا التجاهل والتعطيل ، ليمر بالمرأة مرور الكرام، انه يجلب لها كثيرا من الآثار النفسية النكدة ، انه يربك تفكيرها ، ويعكر مزاجها ، ويجعل تصرفاتها تتسم بالتذمر والاختلال ، كما يشهد بذلك علماء الغرب ومفكروه أنفسهم .

يقول الكسيس كاريل : (ان وجود الجنين الذى تختلف انسجته اختلافا كبيرا عن انسجة الام بسبب صغرها ، ولانها جزئيا من انسجة زوجها تحدث اثرا كبيرا فى المرأة . ان اهمية وظيفة الحمل والوضع بالنسبة للام لم تفهم حتى الآن الى درجة كافية . مع أن هذه الوظيفة لازمة لاكتمال نمو المرأة . ومن ثم فمن سخف الراى ان نجعل المرأة تتنكر للامومة . ولذا يجب ان لا تلقن الفتيات التدريب العقلى والمادى (الذى يلقن للشباب) ولا أن تبث فى نفوسهن المطامع التى يتلقاها الفتيان وتبث فيهم ، يجب أن يبذل المربون اهتماما شديدا للخصائص العضوية فى الذكر والانثى ، وكذا لوظائفها الطبيعية) . (١)

ويقول : (انه حتى فى هذه الايام لم ينضج فكر الانسان ولم يشعر على الوجه التام بما لوظيفة التوليد من الاهمية فى حياة المرأة . ان قيام المرأة بهذه الوظيفة لا مندوحة عنه لكمالها القياسى ، فما تحريف النساء عن التوليد

---

(١) الانسان ذلك المجهول : ١١٠ - ١١١ .

ورعاية الطفل الا حماقة شنيعة لا يقدم عليها عاقل) . (١)

ويقول العالم النفسي د . " ازوالد شوارز " في كتابه " نفسية الجنس" :

(من القوانين الثابتة فى علم الاحياء أن كل عضو فى جسد الانسان يجب أن يؤدى وظيفته الخاصة المستقلة حتى يحقق بذلك المهمة التى قد أسندتها اليه الفطرة . وعلى هذا اذا منع العضو من اداء وظيفته الخاصة فلا بد ان تتعرض حياة الانسان لمشاكل متعددة . ومما يتعلق بهذا البحث أن جسد المرأة لم يخلق فى معظمه الا لوظيفة الحمل والتوليد ، فهى اذا منعت ان تعمل لتحقيق هذه الوظيفة الاساسية لنظام جسمها الجسدى والعقلى ، فلا بد ان تذهب ضحية الاضمحلال والتذمر والعقد النفسية . وعلى خلاف هذا فانها عندما تصبح أما تجد مجالا جديدا وبهاء روحيا يتغلب على ما قد يعتريها من الضعف والاضمحلال بسبب وضع الطفل وارضاعه) .

ويضيف : (ان المرأة ليست بحاجة الى انجاب الذرية لمجرد أن ذلك مما تقتضيه عاطفة الامومة التى قد فطرت عليها ، أو لمجرد أنها ترى القيام بهذه المهمة واجبا على نفسها ، بناء على ضابط خلقى مفروض عليها ، وانما هى بحاجة اليها لان نظامها الجسدى ما بنى كله الا للقيام بها ، حتى اذا منعت أن تقوم بها ، فلا بد ان تتأثر شخصيتها كلها بالانقباض والحرمان والهزيمة واليأس المميت) . (٢)

وكثيرا ما تقضى المرأة شبابها وهى ثملى بنشوة اللذة المادية بشتى أنواعها ، جنسية وغير جنسية ، لا تأبه بكل شىء يمكن ان يكدر عليها هذه اللذة ، فتبتعد عن انجاب الاطفال ، حتى اذا اخذتها الشيخوخة ، وفتر

---

(١) عن حركة تحديد النسل : ٧١ .

(٢) المصدر السابق : ٧١ - ٧٢ .

لديها الاحساس باللذة شيئا فشيئا اكلها الندم والحسرة ،كلما أحست بأن ما كانت تحس به من لذة قد انصرم الى غير رجعة ، وان شبابها قد ولى الى غير اياب ، وأن جمالها قد ذبل ، وافاها الاحساس بالاسى أن اضاعت فرصة الانجاب ، فاذا كل ما ضحت بوجود الاولاد من اجله قد انتهى وحسرتها لا تنتهى .

ويؤدى خلو البيت من الاطفال الى حرمانه من مصدر هام يشع عليه بالبهجة والنداوة والامل ، ويضفي عليه جوا من الانس والتفاهم ، ويشعر الزوجين بقيمة الحياة التى يمارسانها ، وبمسؤولية كل منهما عن هذا الوادع الضعيف ، وكثير من الناس لا يحس باهمية الذرية وضرورتها طالما انه لا ذرية له ، حتى اذا أصبح والدا لاطفال يراهم ويداعبهم ويراقبهم فى كل احوالهم ، أحس عندها بعاطفة الابوة تتفجر فى نفسه ، فتملأه بمحبة الصغير والحنو عليه ، والحنين لرؤيته ، والحرص على كل ما من شأنه أن يضفى عليه العافية والسعادة ، ويؤثر مصلحة ابنه على مصلحته هو وراحته على راحته هو.

فاذا قرر الزوجان ان لا نسل فانهما يحرمان بيتهما من هذا الجو الندى ، ولا تتاح لهذه العواطف الابوية الكامنة فى داخل النفوس ان تنمو وتتفجر ، وليس هذا فحسب ، بل انهما يحرمان بيتهما ايضا من اهم عوامل الترابط والاستمرار والبقاء ، اذ ان وجود الصغار يشعر كل واحد منهما بضرورة المحافظة على هذه الرابطة ، ويعزى احدهما نفسه حين يجد من شريكه خلافا فى وجهه نظر ، أو تجاوزا فى سلوك ، بمصلحة الصغار ، فيصبر على ذلك ، ويسعى كل منهما أن يتجاوز عن هفوات الآخر ، ان لم يكن من اجله هو ، فمن اجل اولاده ، وكلما زاد عدد افراد الاسرة ، وكثر البنين كلما كان الاحساس بضرورة احترام الحياة الزوجية والمحافظة عليها اكثر.

ومن هنا يؤدى منع النسل الى جعل الاسرة هشة ، مفتقرة الى كثير من اسباب القوة ، ويزيد من فرص حصول الفرقة ووقوع الطلاق . ومما يزيد

الاسرة بلا أولاد ضعفا ، ان عدم وجود الاولاد يحرم الرجل والمرأة من مراعاة جملة من الفضائل وقيود الاخلاق ، والتزام التعقل فى التصرف امام الصغار ، ومن اجل ان تربية هوءلاء — مهما يكن من شأن والديهم — تتطلب شيئا ولو ضئيلا من ذلك .

(ان الزوجين المحرومين من نعمة الاولاد لا ينشأ فيهما كثير من الخصائص الخلقية والطبائع الشريفة التى انما تنشأبتنشئة الاولاد وتربيتهم لان الابوين ما هما اللذين يربيان الاولاد تربية خلقية ، وانما الاولاد هم ايضا يربون ابويهما على كثير من الصفات الخلقية الكريمة . فبتنشئة الاولاد والسهر على تربيتهم تتولد عواطف الحب والايثار والتضحية فى قلوب الابوين وبها يتدربان على التفكير فى المستقبل ، وعلى الصبر والتجلد واحتمال الشدائد ومصارعة الاهوال وضبط النفس ، وبها يجدان انفسهما مضطرين الى ان يعيشا عيشة ساذجة هادئة ، ولا يسترسلا كالعميان وراء جميع اسباب البذخ والترف لمجرد ذاتهما ، ولكن تحديد النسل يغلق على الانسان باب هذه الصفات والطباع الخلقية الكريمة) . (١)

ولهذا فان علماء الاجتماع ينبهون دائما الى ان حوادث الطلاق تكثر فيما بين الازواج الذين ليس لهم أولاد ، وتشير بعض الدراسات الغربية الى أن ثلثى الازواج الذين يطالبون بالطلاق هم ممن لا أطفال لهم ، وخمسهم لهم طفل واحد . وان هذه النسبة تتضاءل بارتفاع عدد الاولاد . (٢)

هذا بالاضافة لكثير من الاخطار الصحية والنفسية التى تترتب على استعمال وسائل منع الحمل على اختلافها ، والتى تتمثل فى حصول كثير من الالتهابات والاصابة بكثير من الامراض الخطيرة ، والتعرض لحالات من القلق

---

(١) المصدر السابق : ٨٨ .

(٢) المصدر السابق : ٣١ - ٣٢ .

والاكتئاب النفسي ، وخاصة لدى النساء ، والتي نبه عليها كثير من الاطباء والباحثين الاجتماعيين .

ومع كل ذلك فما يزال تيار منع الحمل متصاعدا لدى الغربيات لا يوقفه شيء ، حتى ظهر اتجاه استئجار الحامل في بعض البلدان الغربية كالسويد لان المرأة هناك تريد الطفل جاهزا (١) ، اما قيمة الانساب بعد هذا فلا يسئل عنها .

الاجهاض :

كان استعمال موانع الحمل على اختلاف انواعها يتطلب مواظبة ومتابعة قد لا تتأتى من كثيرين وكثيرات ، ثم هي بعد تلك المواظبة ليست مضمونة الاثر ، فكثيرا ما يقع الحمل رغم كل الاحتياطات لسبب او لآخر ، فكان هنالك طريقة اخرى للتخلص منه بعد وجوده وتخلقه ، وذلك عن طريق الاجهاض .

والاجهاض - وخاصة بعد نفخ الروح - شيء تنفر منه الطباع السليمة ويأباه الضمير البشري السوي ، متى كان فيه ولو قليلا من الانسانية والرحمة الا في الحالات التي تحتمها الضرورة الملحة ، التي تتمثل في تهديد حياة الام . ولقد كان الناس ينظرون اليه منذ اقدم العصور على أنه جريمة ، فقد كان في قسم ابقراط الذي يعتبر من موروثات مهنة الطب لعصور طويلة أن لا يصف دواء يجهض به حاملا . (٢)

اما لماذا انتهى الحال بالاجهاض العمد الذي لا يقوم على مسوغ طبي الى الانتشار الواسع في اوروبا ، ومن حذا حذوها من بلدان ، والذي كثيرا ما يقع في الاشهر الاخيرة من الحمل ؟ فذلك ما يبين بوضوح الحالة التي

---

(١) انظر عوامل النصر والهزيمة ، شوقي خليل : ١٢٧ .

(٢) الاسلام وتنظيم الاسرة : ٢ / ٣١١ .

وصل اليها الانحراف عن الفطرة الانسانية فى الغرب ، فكيف يمكن لعاطفة الام الفياضة الجياشة ان تضمحل وتذوى فى داخلها ، ويصل بها الاستهتار والرغبة فى الاثرة حدا لا تريد ان تحمّل ذاتها اية تكاليف أو متاعب من أجل غيرها ، حتى لو كان غيرها هذا هو ابنها وفلذة كبدها . وغابت عنها النظرة الانسانية واعترتها القسوة والغلظة ، ووجدت فى مبدأ الحرية الشخصية الذى اغرمت به اوروبا سندا قويا يبرر ما سمى بحق المرأة فى ان لا تحمل فى احشائها جنينا لا ترغب فيه . ولم تكن المرأة وحدها هى التى تردت فى هذا المستنقع من اللاانسانية . فلقد اختفت من المجتمع نظرة الشفقة والرحمة التى تتجلى فى مثل قول الدكتور حسان حتحوت الاخصائى فى امراض النساء والتوليد : (ما جلست فى عيادتى مع احدى مريضاتى تعرض على مشكلتها (التى تتعلق بموضوع الاجهاض) واحسست ابدا اننا اثنان ، كان احساسى دائما ان معنا طرفا ثالثا صامتا لا يستطيع أن يبدى وجهة نظره ، ولا ان يدافع عن حقه فى الحياة ازاء حق امه فى الخروج من ورطة ، أو فى تحديد عدد أفراد اسرتها . هذا الطرف الثالث هو الجنين الوافد الجديد الواقف بالباب ريثما يفتح له بعد اشهر معلومات ، الجنين هو أنا وهو أنتم وهو كل الناس . وله علينا مزية انه يصل فاذا عمره كله امامه على حين اننا جميعا قد استدبرنا بعض عمرنا ولم يبق امامنا منه الا بقية تطول أو تقصر) . (١)

ولم يكن الاجهاض فى سالف امره مسموحا به الا لانقاذ حياة الام ، ومع هذا فانه كان يجرى لاسباب كثيرة غير انقاذ حياة الام ، ويتم بشكل سرى مقابل مبالغ متفاوتة بين حالة وأخرى ، وكان له تجارة رائجة فى كثير من المدن الاوروبية ، اثرى بسببها كثيرون غير مبالين بما يزهقون من أرواح ، وما

---

(١) المصدر السابق : ٢ : ٣٣٣

يسببونه للنساء من امراض وآلام . غير انه مع ذلك كان ينظر له على انه امر غير جائز ، يرتكبه من يرتكبه مع الحرج وفى السر . فارتفعت اصوات كثيرة تطالب بالتوسع فى اباحته ، وتم الامر بالتدريج شيئا فشيئا ترفع القيود عنه حتى لم يعد الامر فى بعض البلدان يتطلب اكثر من طلب المرأة اجراء تلك العملية .

فبعد ان كانت مشروعيته تقتصر على انقاذ حياة الام اتسعت لتشمل صحتها ، واتسع مفهوم الصحة ليشمل المعنى الذى اورده دستور هيئة الصحة العالمية : (الصحة هى حالة السلامة الجسمية والنفسية والاجتماعية وليست مجرد حالة المرض أو العجز) . (١)

ثم شملت الاباحة أيضا دواعى طبية اخرى متعلقة بالجنين كاصابته بعاهة جسمية أو عقلية ، ثم اتسعت فى بعض البلدان لتشمل الحمل الناتج عن الوقاع المحرم ، وتوسعت بلدان أخرى فى تفسير الخطر على حياة الام وصحتها ، فقد صدر قانون فى ايسالندعام ١٩٣٥ ينص على انه مما يجب ان يوءخذ فى الاعتبار حين تقدير حالة الخطر بالنسبة للام غزارة الانجاب وتقارب الولادات ، والمدة الزمانية منذ الولادة الاخيرة والاعباء المنزلية الناجمة عن كثرة العيال ، والضيق الاقتصادى ، ومرض بعض افراد الاسرة الآخرين .

وعدلت السويد قانونها عام ١٩٤٦ بحيث يبيح الاجهاض اذا امكن الافتراض ان الظروف المعيشية للمرأة وغيرها تجعل لانجاب الطفل الجديد أثرا سيئا على صحتها الجسمية أو النفسية . وعدلت الدانمارك قانونها سنة ١٩٥٦ للنص على ضرورة تقييم ظروف المرأة كلها ، بما فيها ظروف الحياة التى سيكون عليها أن تعيش فى ظلها ، مع اعطاء الاعتبار لاية آثار جسمية او نفسية حتى تلك التى لا تبلغ مبلغ المرض ، ومثل هذا اخذ به القانون الفنلندى عام ١٩٥٠ وما أدخل عليه من تعديل عام ١٩٧٠م . ونحوه فى

---

(١) المصدر السابق : ٢ : ٣١٢

قانون النرويج عام ١٩٦٠ . وفي اليابان ابيح الاجهاض من أجل الحماية من الارهاق صحيا أو اقتصاديا .

وأباحته بعض الدول الاجهاض بعد عدد معين من الاطفال ، فبلغاريا أباحته بعد ثلاثة ، والدانمارك أباحته بعد اربعة . واباحته تشيسكلوفاكيا لوفاة الزوج أو عجزه ، ولتمزق الاسرة ووقوع مسئولية الاولاد على كاهل الام وحدها . وأباحته سنغافورة من أجل العامل الاقتصادى .

وأباحته بعض الدول تحت سن معينة ، وفوق سن معينة ، فالمانيا الشرقية اباحته تحت سن ستة عشر عاما وفوق اربعين عاما ، ونحو هذا سلكت كل من فنلندا وتشيسكلوفاكيا والدانمارك .

وقد وصل الامر حد اقرار الاجهاض لمجرد طلب المرأة ، وقد سنت بعض التشريعات فى مثل هنغاريا والاتحاد السوفياتى وبعض الولايات الاميركية التى تبيح ذلك بناء على طلب المرأة على أن يتم ضمن فترة معينة من حياة الجنين وصلت فى بعض هذه القوانين الى اربعة وعشرين اسبوعا .

وفى بريطانيا صدر تعديل لقانون الاجهاض عام ١٩٦٧ ، وقد توسع بموجب هذا التعديل فى مفهوم الخطر الذى يجيز الاجهاض ، فلم يقصره على النواحى الجسمية والنفسية المتعلقة بالام ، بل يشمل النواحى الجسمية والنفسية التى يمكن أن تطرأ على احد ابنائها أو ابناء زوجها أو الابناء بالتبنى ، أو اذا كان هنالك خطر ذو وزن من أن يولد الطفل وفيه عاهة أو مشوها ، وحض القانون على النظر الى البيئة الحاضرة والبيئة المرتقبة فى المستقبل المنظور حين قياس حالة الخطر الجسمى أو النفسى على المرأة أو على ابنائها أو على الابناء بالتبنى أو على الجنين .

ولم يأت هذا القانون بناء على مشورة الاطباء ، بل كان مخالفا لرأيهم ، فان مجلس الجمعية الملكية لاطباء الولادة وامراض النساء اقتراح تشكيل لجنة من رجال القانون والطب لتتولى دراسة المشروع ، وتقديم توصياتها حوله

ولكن الاقتراح أهمل ، وتدخلت ضغوط خارجية ، وانطلقت حملة كبيرة تدعو صراحة الى انه لا يجوز أن تحمل المرأة جنينا لا ترغب فيه .

ولقد قال السير " توماس جفكوت " - رئيس الجمعية الملكية لاطباء الولادة وأمراض النساء - في حديث للاذاعة البريطانية : (ان قانون الاجهاض لسنة ١٩٦٧ قد احتضنته مجموعة من المشاغبين قليلة العدد ولكن قوية التنظيم غزت الرأى العام والرأى البرلمانى بالدعاية وبتحريف الحقائق ، فأثاروا العواطف بالاوهام لا بالوقائع ، وهولوا فى خسائر الاجهاض غير القانونى مع أن احصاءات هذه الخسائر معروفة ، وسخروا الصحافة فى غسل مخ الامة بشعار الاجهاض عند الطلب ، وبأموال مجلوبة من الخارج طبعوا وروجوا كتيبا يشرح القانون الجديد باسلوب مغرض وعبارة موجهة ، وعندما عرضت الهيئات الفنية استعدادها للمساهمة في بحث القانون الجديد قال أحد اعضاء البرلمان : (لسنا هنا لنسمع رأى الفنيين ونصحهم . . . . اننا هنا هنا) ، وهو مثال على ما يمكن ان ينقلب الى تهديد سياسى لاصحاب المهن الفنية ، وعدوان على أصحاب الراى الحر المستنير) . (١)

وبعد صدور هذه القوانين ومثلها كثير أصبح من السهل ادخال كثير من حالات الاجهاض تحتها بالتحايل عليها ، والذى يساعد عليه اتساع الفاظها وسهولة ادخال الحالة المراد اجروءها تحت (الخطر الجسمى أو النفسى الواقع أو المتوقع) ، وكان يظن ان اباحة الاجهاض بالقانون ستقضى على الاجهاض الاجرامى الذى يتم بالخفاء لقاء مبالغ مالية ، ولكن تبين أن الامر على غير ذلك . حيث ان قوانين الاجهاض فى كثير من البلدان الاوروبية قد تركت موضوع تقدير الخطر جسميا أو نفسيا الواقع على الام أو على اولادها أو على الجنين لضمير الطبيب ، فكان الاطباء الذين لا تستجيب

---

(١) المصدر السابق : ٢ / ٣٤٨ .

ضمائرهم لقانون الاجهاض يمكنهم ان يتشددوا فى تقدير الخطر واعتباره موجودا ، بينما جعلت هذه القوانين الباب مفتوحا للاطباء الذين أثروا من جراء الاجهاض الاجرامى ، وجعلت عملهم مأمونا لا خطر فيه ، اذ اسبغت عليه الشرعية القانونية ، فضمنت لهؤلاء المجرمين الحماية ، بدل أن تحمى الناس من خطرهم كما ادعى دعاة اباحة الاجهاض ، ففى بريطانيا مثلا ارتفعت بعد التعديل المذكور حالات الاجهاض ارتفاعا كبيرا ، حتى أثرت زحمة الاجهاض على علاج الامراض الاخرى ونافستها فى شغل الاسرة وغرف العمليات ، وكان نصف وقت العيادات الاخصائية بما فيها من أطباء مشغولا بالاجهاض .

وقد وجد ان ٤٠ ٪ من حالات الاجهاض انما تتم فى المؤسسات الخاصة، ووجد أن هذه النسبة تفوق كثيرا النسبة التى تقصد هذه المؤسسات من أى مرض آخر ، وتعادل نسبة المجهضات غير المتزوجات تعادل ٥٦ ٪ ، وتشكل نسبة هؤلاء فى المستشفيات والمؤسسات الخاصة ضعف ما هو فى مستشفيات الدولة .

على انه اذا كانت بعض القوانين كالقانون الانجليزى قد تركت للطبيب بطريق ما الحق فى عدم اجراء عملية لا يرضى عنها ضميره ، فان دول اوروبا الشرقية لا تترك للطبيب هذا الحق ، بل تجعل من حق المرأة اجراء العملية ما دامت تصر عليها ، وليس للطبيب عند ذلك الا أن يجريها مهما كان رأيه الخاص . (١)

وفى الاتحاد السوفياتى تعاقب عدد من القوانين على حظر الاجهاض واباحته حيث صدر عام ١٩١٧ مرسوم يلغى العقوبات المفروضة على الاجهاض ، فأدى ذلك الى تزايده بشكل كبير ، وتعاظمت أضراره ، فقررت الحكومة السوفياتية عام ١٩٢٠ منع اجراء العملية المذكورة الا داخل المستشفيات

---

(١) استفدت فيما ذكرت من موقف القوانين الغربية من الاجهاض من : المصدر السابق موضوع د . حسان حتحوت ٢ / ٣١١ - ٣٤٨ .

المعتمدة ، وجعلتها مجانا ، وشددت العقوبات على الاطباء والقابلات الذين يخالفون هذه التعليمات ، وفي عام ١٩٢٤ صدر مرسوم جديد يحد من حرية الاجهاض ويقصره على حالات معينة ، وفي عام ١٩٣٦م منع الاجهاض واصبحت حتى مواد منع الحمل لا تباع الا بشهادة من الطبيب ، ولكن مجلس السوفيات الاعلى عاد في ١٩٥٥ فأصدر قرارا اعاد بموجبه حرية الاجهاض داخل المؤسسات المعتمدة . (١)

وقد شجعت هذه القوانين كلها على تزايد انتشار ظاهرة الاجهاض التي كانت منتشرة في هذه المجتمعات من قبل بتأثير النظرة المادية وشيوع الانحلال الجنسي ، ورغم ما يبديه الباحثون من تحفظات على الاحصائيات المتعلقة بعدد حالات الاجهاض ، فيرون انها لا تمثل الا جزءا من الحقيقة وان العدد الحقيقي لهذه الحالات أعلى مما هو معلن بكثير ، وذلك لعدم حرص الكثيرين والكثيرات على التبليغ عن حادث له مثل هذه الطبيعة ، كما ان كثيرا من هذه الحوادث انما تقع في العيادات والمؤسسات الخاصة التي قد لا يكون مسموحا لها في بعض البلاد من الناحية القانونية القيام بمثل هذه العمليات فتتكتم عليها . ولكن رغم هذه التحفظات ورغم التأثير الواسع لانتشار وسائل منع الحمل على نطاق واسع ، فان ارقام احصائيات حالات الاجهاض المعلن عنها تبدو كبيرة بصورة دعت كثيرا من الباحثين ومن اللجان القومية في بلدان متعددة ، الى رفع العقيرة بالتحذير من الخطورة المترتبة على هذا الاتجاه .

ففي امريكا يقول القاضي لندسي : انه يسقط هناك مليون حمل على الاقل كل سنة ، ويقتل الاف من الاطفال حين الولادة . (٢)

---

(١) انظر ضبط النسل وتنظيم الاسرة : ١٤٩ - ١٥٠ .

(٢) خطر التبرج والاختلاط : ١٣٩ .

وفى عام ١٩٧٠ تم اجهاض مائة وست وخمسين الف امراة فى مدينة نيويورك وحدها . وسجلت احصائيات الولايات المتحدة عام ١٩٧٢ أكثر من خمسة الاف حادثة وفاة للنساء بسبب الاجهاض . (١)

وقد عبر الرئيس الاميركى ريغان عن استيائه من قانون اباحة الاجهاض وعن مناهضته لهذا القانون ، وذلك فى مقال نشره باحدى صحف بلاده بمناسبة مرور عشرة أعوام على قرار المحكمة الاميركية العليا باباحة الاجهاض بناء على طلب الحامل ، وقال : انه منذ صدور القرار المذكور ازهقت أرواح ما يزيد على خمسة عشر مليون من الاطفال ، وهو عدد يماثل عشرة أمثال الامريكيين الذين قتلوا فى جميع الحروب التى خاضتها الولايات المتحدة .(٢)

وانتشر الاجهاض فى بريطانيا انتشارا واسعا ، وخاصة بعد صدور قانون ١٩٦٧ ، حيث اصبحت لندن مقصد الراغبات فى الاجهاض من البلدان الاخرى وتكونت وكالات تنظم السفر ودخول المستشفيات الخاصة والاقامة بها والعودة لقاء اجر معلوم ، وراحت اعلانات ذلك تملا الصحف . ولقد بلغ عدد الحالات التى خضعت للاحصاء الرسمى عام ١٩٧٠م فى بريطانيا وويلز أكثر من خمسة وثمانين الف حالة . (٣) وفى عام ١٩٧٣ وصل العدد الى مائة وعشرين الف حالة . (٤) وسجل فى البلاد المذكورة فى عام ١٩٧٢ أكثر من عشرة الاف حالة وفاة للنساء بسبب حوادث الاجهاض فى بريطانيا . (٥)

ولقد وصل الحال فى كثير من بلدان اوروبا كفرنسا والمانيا الاتحادية

---

(١) مسألة تحديد النسل وقاية وعلاجا ، محمد سعيد البوطى : ١٥٩

(٢) انظر مجلة المجتمع عدد ٦٢٥ ص ٣٤ عام ١٤٠٣هـ

(٣) الاسلام وتنظيم الاسرة : ٢١٧

(٤) عمل المرأة فى الميزان : ١٣٨

(٥) مسألة تحديد النسل : ١٥٩

ان يتساوى عدد حالات الولادة مع عدد حالات الاجهاض فى بعض السنوات.(١)

وفى اليابان بلغ عدد حوادث الاجهاض الارادى عام ١٩٥٥ طبقا للتقارير الرسمية مليون ومائة وسبعين الف حالة ،غير أن الباحثين يقدرون العدد الفعلى بأكثر من هذا بكثير ،حيث لا يبلّغ عن كثير من هذه الحوادث. ويرون أن العدد الفعلى لعمليات الاجهاض فى ذلك العام يصل الى المليونين . (٢) وفى عام ١٩٥٧ كان هنالك ٧١٦ حالة اجهاض مقابل كل الف من حالات الولادة. (٣)

وفى ايطاليا وصلت نسبة الاجهاض عام ١٩٧١ الى ٩٥ حالة مقابل كل مائة حالة ولادة . (٤) ووصلت فى عام ١٩٧٩ الى ١٨٨ الف حالة. (٥)

ووصلت حالات الاجهاض فى اسبانيا والبرتغال الى مليون حالة اجهاض سنويا ،ولا تزال المرأة الاسبانية لا تعرف من وسائل منع الحمل ما تعرفه زميلاتها فى امريكا وفرنسا وبريطانيا وغيرها من الدول الاوروبية التى تدرّس وسائل منع الحمل للطالبات فى الصفوف الابتدائية . (٦) واسبانيا البلد السياحى الاول فى العالم يقصده كل عام ملايين السياح ،وكل ذلك من عوامل زيادة الاجهاض هناك .

وفى الاتحاد السوفياتى تحصى سنويا ملايين الحالات . (٧)

---

(١) المصدر السابق : ١٢١.

(٢) برنامج تنظيم الاسرة/موضوع معجزة اليابان ، مينورو موراماتسو: ٢٨ .

(٣) الانفجار السكانى : ١١٤.

(٤) مسألة تحديد النسل : ١٥٩.

(٥) المجتمع،عدد ٥٠٤ بتاريخ ١٤٠١/١/٣ ص٨ .

(٦) عمل المرأة فى الميزان : ١٣٨.

(٧) انظر مسألة تحديد النسل : ١٢١.

وفى هنغاريا يقدر عدد حالات الاجهاض السنوى فى الستينات ما بين مائة وستين الف الى مائة وثمانين الف . (١)

وفى رومانيا التى أباحت الاجهاض عام ١٩٥٦ توسع انتشاره فاصبح عام ١٩٥٨ يعادل ربع الولادات وفى عام ١٩٥٩ وصل الثلث وما زال فى تزايد حتى تجاوز حالات الولادة فى بعض السنين . (٢)

وفى تشيلى اعلنت مصلحة الصحة القومية ان عدد حالات الاجهاض فى عام ١٩٦٦م بلغ سبعة وخمسين الف حالة ، وانها احتلت ثلث عنابر مستشفيات الولادة ، وقد قال احد الباحثين الغربيين تعليقا على ما ذكرته مصلحة الصحة المذكورة بقوله : (وهذه الارقام هى بلا شك ما ظهر لنا وما خفى كان أعظم ، لان هذه الارقام جاءت من قطاع معين من الشعب ، وهو القطاع الذى يتردد على المستشفيات لتلقى الرعاية ، وربما تكون هذه الارقام هى الثلث أو اقل فى التقدير العام . ففى أحد البحوث ثبت ان ٣١٪ من حالات الاجهاض تذهب الى المستشفى أو تلجأ اليه . وهناك الكثير من العيادات الخاصة التى تتم فيها حالات الاجهاض ، وقد كشفت البحوث ان بين كل حالتين أو ثلاث من حالات الولادة حالة اجهاض . . . . وعندما تكشفت هذه الحقائق حدث اضطراب كبير فى البلاد) . (٣)

وانتشر الاجهاض بصورة واسعة داخل الدول التى تسير فى فلك الاتحاد السوفياتى وخاصة تشيسكلوفاكيا والمجر ، ففى عام ١٩٦٤ كان فى المجر مائة واربعون حالة اجهاض مقابل كل مائة حالة ولادة . (٤)

---

(١) الاسلام وتنظيم الاسرة : ٢ : ٣٢٠ .

(٢) المصدر السابق : ٢ : ٣٥٠ .

(٣) برامج تنظيم الاسرة ، تشيلى : وباء الاجهاض/ هرنان روميرو : ١٨٧ .

(٤) الانفجار السكانى : ١١٧ .

وقد اعلن بعض الباحثين الغربيين أن عدد حالات الاجهاض في العالم يصل الى ثلاثين مليون حالة في السنة ،أى بمعدل حالة اجهاض واحدة كل ثانية . (١)

ظهور مرض الطفل المضروب :

ويعتبر هذا النوع من المرض ظاهرة جديدة في عالم الطب ،تفرد بها هذا العصر ،وهي حالات تضرب الام في الغالب - وقد يكون الاب احيانا - ابنها الصغير ضربا وحشيا يؤدى في بعض الاحيان الى الموت ،أو الى تشوهات عقلية أو نفسية أو جسدية في احيان أخرى .

ولسنا نقصد هنا ما يمكن ان يقع من الاب أو الام حين يضجر أحدهما من تصرفات الصغير فيضربه في سورة الغضب ليكف عن صراخه أو عن تصرف معين من تصرفاته ،انما نريد به الضرب الذى يتجاوز الحد المألوف والمعقول وتصاحبه قسوة وكراهية للطفل غريبتان في عالم الابوة والحنان ،بل ان هذا الضرب كثيرا ما يقع على هؤلاء الصغار وهم لم يزالوا بعد في الاشهر الاولى من اعمارهم .

وتقول احدى المجلات الطبية الغربية : انه لا يكاد يوجد مستشفى للاطفال في اوروبا وامريكا الا وفيه عدة حالات من هؤلاء الاطفال المضروبين ضربا وحشيا من قبل آبائهم وامهاتهم ،وفي عام ١٩٦٧ ادخل الى المستشفيات البريطانية " ٦٥٠٠ " حالة من هذا القبيل - دعك من الحالات التى لم يتم احصاؤها - ،وقد أدى الضرب الى وفاة ٢٠٪ منهم ،وأصيب القسم الاكبر

---

(١) مسألة تحديد النسل : ١٢٠ ،خطر التبرج والزينة : ١٤٢ .

أين ما يتم في الغرب من موقف الاسلام من الجنين الذى لا يكتفي بأن يكفل له حق الحياة ويحرم قتله بأى طريقة ولكنه يكفل له حقه في الميراث فيما لو مات مورثه قبل ولادته ،فتحجر له من التركة حصة ذكر فان كان انثى ،وزع الفارق على الورثة . واذا حكم على امه بالقصاص أخر التنفيذ الى ما بعد ولادته وارضاعه وفطامه كما في حديث الغامدية المعروف .

بعاهات جسدية أو نفسية أو عقلية ، واصيب مئات بالعمى ومئات بالصمم . (١)

وقد تبين من خلال احصائية نشرت في واشنطن أن مليون طفل امريكي قد تعرضوا للاذى الجسدى من قبل والديهم عام ١٩٧٧ . (٢)

والغريب أن كثيرا من هؤلاء يدعى انه يجد متعة في تعذيبه لهؤلاء الصغار . (٣)

فهل كان الانسان سيصل الى هذه الحالة من القسوة والوحشية التي تبرأ منها الحيوانات والهوام ، لو لم تسيطر المادية على حياته ، ويفقد كل هدف سواها ، وتُدمّر ينابيع الرحمة والانسانية في داخله ، وتخيم على جو المجتمع الصناعى الحديث فكرة الانتاج الذى لا يعرف هدفا الا زيادة ارقام الانتاج وزيادة ارقام الربح ؟

ويتساءل د / " ايلى " رئيس أقسام الاطفال بمستشفيات بريستول في بريطانيا فيقول : هل هؤلاء الآباء والامهات وحوش حتى يتصرفوا هذا التصرف الوحشي مع هؤلاء الصغار ؟ ويقول : ان اغلب هؤلاء الامهات ليست مجرمات بطبعهن ، ولكن وجود المرأة بدون زوج واضطرارها للعمل والخروج ثم عودتها الى المنزل مرهقة يجعلها تفقد اتزانها وعواطفها وهي تواجه الطفل الذى لا يكف عن الصراخ . وقد لوحظ أن كثيرا من هؤلاء الامهات يكرهن اطفالهن كرها شديدا ، لانهم يكدرون عليهن حياتهن .(٤)

وقد تناقلت بعض وكالات الانباء من فرنسا أن زوجا وزوجته قد مُثُلا امام المحكمة بسبب ذبحهما لاولادهما التسعة ، في تسعة ايام متتالية

---

(١) عمل المرأة في الميزان : ١١٠ - ١١١ .

(٢) المجتمع ، السنة التاسعة ، عدد ٤٣٦ . بتاريخ ١٤ / ٤ / ١٣٩٩ ص ٢٥ .

(٣) انظر حضارة الاسلام العدد الثالث لعام ١٩٦١ ص ١٠٢ .

(٤) عمل المرأة في الميزان : ١١١ .

حيث كانا يقومان كل يوم بذبح واحد منهم ، وتبين ان الزوجين كانا يمارسان هذا التصرف الموغل فى البشاعة وهما فى تمام العقل والوعى ، والامر الملفت ان هذين الزوجين هما من الريف الفرنسى الذى يبقى - مهما كان من أمره- اقل تعرضا لمثل هذه النفحات الجنونية من المدن . (١)

ولم يكن فعل هذين الزوجين شيئا مبتدعا فى اوروبا ، فما اكثر ان تتناقل الصحف هناك خبر قتل الاب أو الام لطفله الذى لم يزل فى الاشهر الاولى من عمره ، بأن يقذف به من سكنه فى احد الطوابق العليا ، أو يضربه بآلة حادة ، أو غير حادة حتى يموت ، وما أكثر ما يروى عن فرح بعض الامهات بوفاة صغارهن وراحتهن مما يسببه لهن الاطفال من متاعب .

ولا شك أن كل ذلك لا بد ان يترك فى داخل الآباء والامهات عقدة الشعور بالذنب والخطيئة ، ولا بد ان يترك فى نفوس الصغار الذين يشاهدون ما يحل باخوتهم أو بهم هم انفسهم ، فيغرس فى نفوسهم الشعور بالخوف والبغض والحقد .

انحراف الاحداث :

كان لخروج المرأة من بيتها وانشغالها معظم النهار فى العمل واستغراق جهدها فى المصنع أو المكتب أو سواهما من اماكن العمل آثار خطيرة على الاسرة ، فلقد تخلت بذلك عن دورها فى تربية أولادها وتعهدهم بالرعاية والتوجيه ، وأوكل ذلك الى دور الحضانة والرعاية العامة أو الى الخادمات فى البيوت .

وما كان الحال ليصل الى ما وصل اليه ، وما كانت لتترتب عليه آثار ونتائج كالتى وقعت ، لو لم تُمل ذلك ظروف مادية كالتى صاحبت الثورة

---

(١) انظر مجلة الدعوة السعودية : العدد ٩٣٣ تاريخ ١٠/٦/١٤٠٤ الموافق ١٢ مارس ١٩٨٤ ص ٤٢ ،

الصناعية ، وتبرره نظريات فلسفية وعلمية صاغها اليهود ، أو عملوا على نشرها ونصرها .

وكثيرا ما ساهمت نظرة المرأة لذاتها ولصحتها وافراطها في المحافظة على جمالها وأناقتها في سلب الطفل حقه الذى عرفه التاريخ البشرى فى كل عصوره ، وما كان أحد في العصور الماضية يتخيل ان المرأة ستتخلى عن أداء هذا الحق لصغيرها مختارة بدعوى المحافظة على الاناقة والجمال وذلك هو حق الرضاع ، فاستبدلت المرأة التغذية الصناعية برضاعة الثدى ، وهو ما يؤكد الاطباء على أنه سلب للطفل ليس من غذاء جسمى لا تتوفر قيمته الغذائية في أى مصدر آخر فحسب ، بل من عامل مهم يضفى عليه الطمأنينة ويشعره بالهدوء والامن النفسى ، ويؤكدون أيضا على أن اجمل الاحساسات وأعمقها أثرا في حياة الطفل هى تلك التي يتذوقها خلال الرضاعة الطبيعية .

(ان الرضاعة الطبيعية ، هى الاداة الرئيسية التي توفر للطفل اولى الحاجات النفسية ـ أى الشعور بالطمأنينة ـ . . . . وكل شخص معنى بأمر الطفولة يعرف ان حرمان الطفل من ثدى امه ، هو حرمان له من لذة الحياة بمعناها العميق . ولذا كانت الامومة الطبيعية ضرورة حيوية لصحة الطفل الجسمية والنفسية معا . ولسنا في حاجة الى توضيح العلاقة بين صحة جسم وصحة النفس ، فان كلا منهما يؤثر في الآخر تأثيرا لا يسهل معه الفصل بينهما . ومهما توفر للطفل من اساليب الامومة الصناعية والغذاء الصناعى خلال العام الاول من حياته ، فكل هذا يعجز عن توفير الشعور بالطمأنينة وهى الزم الحاجات النفسية للطفل في هذه السن ، وأساس بل سر رضاه ونجاحه في الحياة فيما بعد) . (١)

---

(١) حقوق الطفل خلال الاعوام الاولى : زكية عزيز : ٢٤ - ٢٥ .

(ان الرضاع عملية جسمية ونفسية لها أثرها البعيد فى التكوين الجسدى والانفعالى والاجتماعى فى حياة الانسان وليدا ثم طفلا . ولا يوجد فى العالم ما يعادل حليب الام السليمة فى قيمته الغذائية ، والطفل الذى يتغذى من حليب الثدى ولو تغذية جزئية يكون الى حد كبير بمأمن من الامراض الجسمية أو " الجدب النفسى "(١) التى يتعرض لها الطفل الذى يتغذى كليا تغذية صناعية ، ومن امرأة مرهقة غير أمه . والواجب النفسى الاول للام يقضى بأن ترضع طفلها اطول مدة ممكنة قبل الفطام ما لم يمنعها طبيبها من ذلك) . (٢)

بل ان للرضاع فوائد نفسية للام ذاتها تعود عليها بالشعور بالراحة والاطمئنان .

ومع كل هذه الاهمية لثدى الام بالنسبة للطفل ، فان الثدى لم يكن الشيء الوحيد الذى حرمه الطفل بعد خروج امه ، فقد حرم النظرة الحانية والبسمة الرضية ، ومن دفء صدر أمه ومن حنان قلبها ، ومن سماع صوتها والالتصاق بها والنظر اليها ، وحرم من حرصها الشديد على رعايته وادخال السرور على نفسه الذى تدفعها فطرتها له دفعا .

ان الام العاملة تعود من عملها مكدودة الجسم متعبة الاعصاب، جهدها قد استنفذ ، فتصل بيتها مقطبة الجبين ، ما أسرع ان تتذمر وتضجر من تصرفات الطفل فتغضب وتثور ، انها لا تستطيع أن تمنح هذا الطفل من حنانها ورعايتها وبشاشتها القدر الذى يحتاج اليه ، ومن هنا يتعرض الصغير منذ البداية للنشأة غير السوية ، ذلك ان حرمانه من الحب والتعهد بالرعاية يمهد فى نفسه الطريق لتعميق وتوسيع والافراط فى شعور الكره

---

(١) علامتا التنصيص مضافة .

(٢) علم النفس التكوينى : أسسه وتطبيقاته من الولادة الى الشيخوخة : د /عبد الحميد محمد الهاشمى ٩٢ - ٩٣ .

وشعور الخوف وشعوره بالسلبية والاثرة ، يقول استاذنا محمد قطب ـ حفظه الله ـ :

(كل انسان يولد وفى نفسه مجموعة من الخطوط المتوازنة المتضادة فى الاتجاه كالخوف والرجاء والحب والكره ، والحسية والمعنوية والايمان بما تدركه الحواس ، والايمان بما لا تدركه الحواس ، والواقع والخيال ، والفردية والجماعية ، والسلبية والايجابية ، والالتزام والتحرر ، وكلها خطوط أصيلة فى الفطرة البشرية ، وتؤدى عملها فى تكوين البناء النفسى للانسان .

(وفى نفس الطفل تكون هذه الخطوط باهته لم تتميز بعد بشكل واضح كالثمرة فى بدء تكوينها ، ولكنها موجودة بغير شك . والمعاملة الخارجية للطفل هى التى تعمق هذه الخطوط وتبرزها ، أو تعمل على وقف نموها فتظل على حالتها الطفلية ، أو تكبتها فتحول بينها وبين التعبير عن نفسها بصورة محسوسة .

(وأغلب الانحراف ينشأ فى هذه الخطوط المتقابلة . فهى فى حالتها السوية متوازنة فى حدود معقولة من الميل هنا أو هناك . ولكن حين يبرز أحد الخطين المتقابلين ولا يبرز الآخر المقابل له ، وهذه هى الصورة الغالبة أو يبرزان معا بروزا زائدا عن الحد ، أو ينقصان معا نقصا زائدا عن الحد فهنا ينشأ الانحراف) . (١)

ومن هنا فان المناسب لكى ينشأ الطفل سويا متوازنا دون ان يطغى بعض هذه الخطوط المتقابلة فى شخصيته على ما يقابله منها ، أن يعيش فى بيت تتفرغ له المرأة ، ولا تعود كليلة الجسم مستنفذة الجهد مرهقة الاعصاب ثم تكون هذه المرأة هى امه وليس غيرها من النساء ، فان أملت الضرورة بالنسبة لبيت معين غياب راعيته الاصلية لسبب أو لآخر فهى الضرورة التى تقدر بقدرها

---

(١) منهج التربية الاسلامية : ٢ : ١٠٩ - ١١٠

وليس القاعدة العامة ، ولكن الحياة فى الغرب فى جملتها انما تقوم على هذا الاستثناء .

وكان الحل لديهم دور الحضانة والرعاية العامة التى تكون فيها المربية الواحدة ـ ان صح انها تملك من المؤهلات النظرية والعملية ما يجعلها مربية ـ مسؤولة عن عشرات الاطفال ، وهذه مهما كانت مخلصة فى مهنتها ومتفانية فيها ، فهى لا تجد فى داخلها من الاحساس بالحب والحنان بالنسبة لكل طفل ما تحسه أم هذا الطفل التى حملته كرها ووضعته كرها ، ومن ثم فلا تفيض عليه من هذه المعانى ما تفيضه أمه ، ولا يجد فى قسمات وجهها وحنو صدرها ما يكون فى أمه . والطفل بعد ، هذا الكائن الصغير لا يريد أن يشاطره الاهتمام والرعاية طفل آخر ، ان امه فى البيت تعانى ـ وهو بعد فى أشهره الاولى ـ من غيرته الشديدة من اخوانه ، فلا يريد لطفل آخر أن يقاسمه حضن أمه واهتمامها ، وفى دور الرعاية لا يكون لهذا الطفل من وقت المربية وجهدها ـ مهما يكن من اخلاصها وكفايتها ـ الا بقدر جزء يتناسب مع عدد الاطفال الذين تكلف بتعهدهم . وكل ذلك ينعكس على هذه الشخصية التى ما تزال كالصفحة البيضاء ، فيثمر فيها القلق والعقد النفسية .

وكم من شخصيات فذة وجليلة ، وكم من شخصيات منحرفة وخطيرة ، وكم من احداث جسام كان لها أعظم الاثر فى توجيه التاريخ ، انما ترجع أسبابها وبواعثها الخفية الى التربية الاسرية .

ان المدنية الغربية وهى تحرم الاطفال من امهات متفرغات لهم ومتخصصات فى تربيتهم لتستثمر جهدهن فى العمل والانتاج فى عالم المادة ، انما تستبدل الذى هو ادنى بالذى هو خير بالنسبة للاطفال وبالنسبة للمجتمع ، وبالنسبة للمرأة ذاتها ، ان هذه المدنية تنزع من المرأة وهى أكفأ ما تكون ـ ومن أكفا من الام لتربية اطفالها ؟ ـ مهمة صياغة

الاجيال وبناء انسان الغد ، لتكلفها بدل ذلك صناعة مواد الاستهلاك ونحوها ، فتأخذ بذلك من المرأة ما لا يصلح له غيرها ، وتكلفها ما لا تمتلك أى ميزة فيه على الرجل ، بل لعلها لاتمتلك مزاياه ، وبهذا فهى تجعل الفرصة مهيئة للانحراف والجنوح منذ البداية ، بل لعلهاتغرس بذرته فى النفوس .

وتنتهى فترة الحضانة بكل ما فيها ، ولكن لا ينتهى دور الاسرة فى التأثير على سلوك الطفل سلبا أو ايجابا ، ذلك ان للبيت المستقر الهانىء الذى تقوم العلاقة بين الزوجين فيه على الحب والاحترام والتوافق لا على الكره والاحتقار والتخالف ، ويمتلىء جوه بالتوجيه الابوى المشبع بالرعاية والعطف والحنان ، ان لهذا البيت دورا كبيرا فى منح الصغير فى فترة الحضانة وبعد ذلك الفرصة المناسبة للنمو الطبيعى السليم بجميع جوانبه الجسمية والعقلية والروحية ، بدون كبت ولا تشنج ولا تضخم ولا ضمور ، انه يساعد على تفتح الاستعدادات الكامنة فى نفوس الاولاد ، وعلى الكشف عن القدرات المخبوءة لديهم ، وكل ذلك يمنحهم الطمأنينة والثقة بمن حولهم ويوءهلهم لمواجهة الحياة خارج البيت .

واما البيت المفكك المضطرب الذى تقوم العلاقة فيه بين قطبى الاسرة على الخلاف والمشاكسة والتمرد ، فتتسم معاملتهما بالغلظة والقسوة وبروح الشك والارتياب وانعدام الثقة ، فهذا البيت مهما توفر لديه من وسائل الرخاء المادى هو بيت ينقصه الدفء المطلوب لنشأة النفس المتوازنة التى تمتلىء سكينة ، ومن ثم ينتظر لمن ينشأ فيه أن يكون معتل التفكير مضطرب النظرة ، لا يصدر عن اساس سليم فى نظرته لنفسه وللناس من حوله . (١)

ولما كانت صفة التفكك والتمزق تسيطر على معظم البيوت فى الغرب

---

(١) انظر حقوق الطفل خلال الاعوام الاولى : ١٦ - ١٨ .

فلا ينتظر ان ينشأ الاولاد على صورة سوية متزنة .

يقول جان شازال فى كتابه " الطفولة الجانحة " : (كل الاحصاءات التى اجريت تتفق على ملاحظة ان سبعين الى ثمانين بالمائة من الاحداث القاصرين المنحرفين ينحدرون من عائلات مفككة) . (١)

ويؤدى الحرمان من الارتواء العاطفى والشعور بتفكك الاسرة لدى الحدث ، وشعوره بخيبة الامل فى مصدر السلطة وهو الاب ومصدر العطف وهو الام ، الى محاولة التعويض عن ذلك خارج الاسرة فيجد مجال ذلك فى عصابات الشباب وزمر الاحداث الذين يحاولون عن طريق الالتقاء والتجمع اشباع رغباتهم الداخلية فى التوحد والترابط ، يقول شازال :

(وهذا البحث عن الارتواء العاطفى باللهو والهرب يبدو بشكل نموذجى فى ملاحظة عصابات أو زمر الاحداث . وتتألف هذه الزمر من أولاد يعوضون بتجمعهم ورفقتهم قصور الوسط العائلى وقسوة البؤس . والزمرة التى تمثل بالنسبة اليهم قوة وقدرة ، تشبع فى الوقت ذاته حاجتهم الى الطمأنينة وتوطيد الذات . فيشعرون بأنهم مترابطون وانهم عناصر كل واحد . انهم يتوغلون بجرأة فى لا اجتماعية تزيدها خطورة حاجتهم الى التنافس وشعورهم بالانتماء الى الزمرة يبدد الشعور بالذنب والكآبة والوساوس الفردية والمغامرات تمنح كلا منهم فرصة الشعور بقوة الذات التى تساندها الذات الجماعية للذمرة) . (٢)

وتقوم هذه العصابات بجرائم مختلفة ، وتشتبك أحيانا عصابة مع عصابة بالسكاكين وقضبان الحديد والزجاجات الفارغة ، وأحيانا تهاجم عصابات كبيرة من هؤلاء القرى والمدن الصغيرة . (٣)

---

(١) ٣٣ .
(٢) الطفولة الجانحة : ٣٨ - ٣٩ .
(٣) انظر التطور والثبات : ١٦٤ وما بعدها .

ولما كانت فكرة العبث وعدم توفر هدف سام تملأ المجتمع والاسر فمن الطبيعي أن ينشأ هوءلاء الاحداث وفي نفوسهم بذرة ذلك .

والاسرة عاجزة في الغرب عن منح الطفل قيما خلقية ومعايير سلوكية مناسبة الا تلك التي تتعلق بالجانب المادي النفعي ، فان الطفل اذا لم يلمس في داخل أسرته معاني الاخلاص والثقة والوفاء والمحبة المتبادلة من الصعب عليه أن يتمثل ذلك في سلوكه ، لان القدوة العملية مفقودة ، وحين تعجز الاسرة عن تزويد ابنائها بالقيم والفضائل الانسانية وعن غرس معاني الشرف والكرامة فيهم ، فانه يتعذر على أية موءسسة اخرى أن تقوم بهذا الدور - على فرض وجود الموءسسة الموءهلة للقيام بهذا الدور - غير أن الامر لا يقف عند هذا اللون من فقدان الاسوة الطيبة في السلوك ، بل يتعداه الى وجود القدوة السيئة ، وكثيرا ما يزكم نتن الخيانات الزوجية من الوالدين أنوف الاطفال ، وبالاكثر من الام لانها أكثر التصاقا بهم ، مما يترك اسوأ الاثر في الشعور المرهف الحساس للاطفال ، ويغرس عناصر من صراع امور شديدة التباين بين مكانة الوالدين في نفسه وكراهيته واشمئزازه مما يحس ويرى ، فيملوءه ذلك بشعور الخزى والتقزز والحقد على من يسلك هذا المسلك ، وربما أدى شعوره بأن ذلك الذي يشمئز منه هو سلوك والده أو والدته اللذين ينتسب اليهما ويشب بينهما ، وهما ألصق الناس به وأحبهم اليه ، الى احساسه باحتقار ذاته ، كما يوءدى الى فقدان الثقة بكل من حوله بعد أن خاب ظنه في هوءلاء الذين كان يظن فيهما أعلى درجات السمو والكمال .

وكثيرا ما تتحول هذه الخيانات الزوجية نظر لتكررها الى امر مألوف بالنسبة للصغير مما يوءهله بصورة كبيرة للانحراف . كما تساهم مختلف ضروب العادات غير الاجتماعية السيئة المنتشرة في الغرب لدى كثير من الاسر كممارسة الجريمة وشرب المخدرات وادمان الخمرة تساهم في افساد التكوين الاخلاقي للاطفال وتوءدى الى اضطراب القيم والمعايير في نفوسهم .

وبنية الاسرة الغربية لا تساعد الطفل أو الحدث على رؤية القوى الضابطة داخل الاسرة ، وممارسة الالتزام بها ، مما يعوده على ضبط تصرفاته في المستقبل ، فان هذه الاسرة فقدت - وخاصة بعد انتشار الزواج المدني - قوامة الرجل ، أو كادت . وكثيرا ما يكون الزوج بعد ذلك ضعيف الشخصية لا سيطرة له ولا أثر داخل الاسرة ، فلا يعود افراد الاسرة وخاصة الصغار قادرين على ادراك وفهم حقوقهم وواجباتهم ، ولا على التجاوب مع عوامل الضبط في المدرسة أو مكان العمل أو في المجتمع ، حيث لم تربَ فيهم مثل هذه الاستعدادات ، فينشأ الطفل يتبرم ويسخط كلما اصطدم سلوكه بهذه العوامل وينظر اليها على انها شيء موجه ضد حريته ، ويؤدي به ذلك الى الاحساس الخاطيء بالشعور بظلم المجتمع له وقسوته عليه دونما وجه حق ، مما يدفعه الى السلوك المنحرف والممارسات العدوانية . (١)

ويزيد الامر سوءا أن الاسرة في الغرب كثيرا ما تلجأ الى تعويض غياب الام والاب عن الطفل فترات طويلة الى تدليله والمبالغة في تلبية متطلباته المادية ، باعتبارها الجانب الذي يبصرانه ولا يبصران غيره من احتياجاته - فيؤدي ذلك الى الترهل في البناء النفسي للطفل ، والى التعود على أن ينال كل ما يطلب ، وما أن يشب عن الطوق حتى تفاجأه الحياة بأنه ليس جميع ما يطلب ينال ولا كل ما يتمنى يدرك ، فتثور أعصابه التي لم تتعود هذا اللون من الحرمان فيتمرد ، أو تخور قواه وتذوي همته .

وعلى الرغم من كل ذلك فان الوضع في الدول الديمقراطية يختلف عنه في الشيوعية ، فان الاسرة في المجتمعات الديمقراطية يعترف لها بحق حضانة الولد والاشراف عليه والعناية به ما رغبت في ذلك باعتبارها حقا لها

---

(١) انظر الرعاية الاجتماعية للاحداث المنحرفين لمحمد طلعت ، عبد العزيز فتح الباب ، عدلي سليمان : ١٥ .

اما فى الشيوعية فان هذا الحق غير معترف به ، جاء فى الابجدية الشيوعية لماركس: (حين يقول الوالدان : هذا ابنى وهذه ابنتى لا تعنى هذه الكلمة وجود آصرة أبوية فحسب ، بل توحى بأن للابوين حقا فى تربية أولادهما من وجهة نظرهما كما يريدون ، والاشتراكية تأبى الاقرار بهذا الحق للآباء لان الفرد ليس ملك نفسه ولكن ملك الجماعة ، بل هو ملك البشرية كلها .

(ولهذا يجب ان ينتمى الطفل للمجتمع الذى يعيش بين ظهرانيه والذى جاء الى الحياة بفضله) . (١)

والبيت فى الغرب ليس هو المسؤول الوحيد عن انحراف الاحداث ، فان المجتمع أيضا بأعرافه وعاداته وقيمه ووسائل اعلامه ومناهج تعليمه كثيرا ما يرفد البيت فى الاتيان على هذه النفوس الغضة ، أو يضاد البيت اذا كان قد ترك شيئا من الآثار النفسية الايجابية فى نفوس الاطفال . واذا شئنا الدقة فان النظرة المادية التى سيطرت على الفرد والاسرة والمجتمع فى الغرب هى المسؤولة الحقيقية عن كل هذه الآثار ، سواء أتلقاها الطفل عن طريق البيت أم المجتمع . ان الواقع الغربى بما فيه من انحلال وتبرير لهذا الانحلال يتيح للصغار وربما يفرض عليهم من الممارسات العاطفية والجنسية ما لا يتناسب مع أعمارهم الزمانية ونموهم النفسى بعد ، فيحصل الاجهاد الداخلى الذى يساعد فى تحطيم هذه الاعصاب التى ما تزال طرية ، يقول شازال :

(فبلوغ الشباب الجسدى والاجتماعى يحصل اليوم بشكل أسرع من بلوغهم الانفعالى والعقلى . وغالبا ما يحصل لهم أن يدركوا سن البلوغ قبل الاوان ، فى حين يعانون من صعوبات جدية فى المراقبة والانضباط الذاتيين انهم ما زالوا " يشعرون " كالاولاد بينما هم " مطلعون " كالبالغين مما توفره لهم المجلات والوسائل السمعية ـ البصرية الموضوعة فى متناول الانسان

---

(١) من كتاب " الاسلام فى وجه الزحف الاحمر " لمحمد الغزالى : ٣٣

المعاصر . وينتج ذلك اضطرابات يمكن أن تشكل أساسا لردود الفعل المعادية للمجتمع عند المراهقين) . (١)

ورغم كل ما فى المجتمع الغربى من انحراف وتبرير للانحراف فانه لا زال هنالك فارق واضح بين ما يتعلمه الطفل فى البيت والمدرسة أو يسمعه فى الكنيسة - ان كان ممن يزور الكنيسة - وبين ما يتعامل به البالغون من حوله فى البيت وفى الخارج مما يحدث صراعا فى داخل الطفل يكون له اسوأ الاثر على نمو شخصيته ، وما يزال الفارق كبيرا بين ما يتمناه الفرد وخاصة الصغير الذى تتلاعب بعواطفه العروض البراقة الجذابة والخيالية للحياة التى يجدها فى الصحف والرائى والسينما ، وبين الواقع الفعلى مما يجعل هذا الفرد والصغير خاصة يشعر بعدم الاشباع ويثقل الرغبة فى التنافس ، وبالتالى يتكون لديه طموح غير واقعى ومستحيل التحقيق . (٢)

فيكون من نتيجة كل ما سبق مجموعات كبيرة من الاحداث والشباب ، لا يعرفون معنى للحياة ، وتسيطر عليهم فكرة العبث ، وتحس بفراغ داخلى لا بد أن يملأ ، وتؤدى به الانانية ، وشعوره أنه غير متصالح مع نفسه ولا مع المجتمع من حوله ، الى محاولة توطيد الذات واشهارها ، فيندفع لفعل شىء يجذب له الانتباه لانه يحب الظهور ، فيجد فى الانحراف والجريمة طموحه وسلواه . يقول شازال :

(وهؤلاء يرتكبون السرقات ويندفعون الى الوشاية والى تركيب القصص الخرافى ، همهم الاوحد ان يثيروا الانتباه حولهم ، فهم بحاجة الى ان يكونوا ملفتين الى الانظار وان يصيروا " مهمين " و " محبوبين " يسعون الى المواقف المسرحية . . . . فشخصيتهم برمتها تعبر عن حب الظهور) . (٣)

---

(١) الطفولة الجانحة : ٤٣ - ٤٤ .

(٢) انظر علم نفس الشواذ : لمجموعة من الباحثين الغربيين : ١٢١ - ١٢٢ .

(٣) الطفولة الجانحة : ٤٦ .

وهى صفة تتجلى فى الانسان الذى لا يعرف الهدف بصفة عامة ـ وكما سبق لنا ان تحدثنا عن ذلك ـ ولكنها ابرز ما تكون فى فترة الطفولة والمراهقة فتظهر فى الحدث أوضح مما تظهر فى غيره .

وتعرف شوارع ومقاهى ومواخير فرنسا وسويسرا وامريكا وغيرها من دول الغرب العصابات الكبيرة التى تعيش حياة بوهيمية لا معنى لها ، تقضى أوقاتها بين الملل والضيق والجريمة . (١)

ولقد اضحت مشكلة جنوح الاحداث شيئا مثيرا فى الغرب لضخامتها وخطورتها ، ففى امريكا ما زال عدد الاحداث المنحرفين الذين يعرضون على المحاكم فى تزايد مستمر ، وقد بلغ عدد القضايا من هذا النوع سبعمائة وثلاثة وسبعين الف قضية فى عام ١٩٥٩ ، وبلغ حوالى المليون عام ١٩٦٠.(٢) ويدخل دور الحضانة الاجتماعية من الاحداث كل عام مائتان وخمسة وستون الفا . (٣) والعدد فى ارتفاع ، وكل هذه الارقام لا تمثل الاجزاء من الحقيقة فهناك اعداد كبيرة لا يبلغ عنها ، واعداد اخرى لا يتم ادخالها الى دور الرعاية الاجتماعية ، وقد قدرت اللجنة الرئاسية للصحة العائلية أن ثمانية ملايين طفل امريكى بحاجة الى مساعدة عاجلة لعلاجهم من الاضطرابات النفسية ، وقالت : انه نظرا لانتشار التمرد بين أطفال المدارس فقد وقع فى الولايات المتحدة سبعون الف اعتداء على المدرسين ومائة جريمة قتل فى المدارس واتلاف لممتلكات مدرسية تقدر قيمتها ببليون دولار ، وذلك كله فى عام واحد . (٤)

---

(١) انظر التطور والثبات : ١٧٠ .

(٢) انظر المصدر السابق : ١٧١ .

(٣) علم نفس الشواذ : ٨ .

(٤) الاسلام والحضارة ، وقائع اللقاء الرابع لمنظمة العالمية للشباب المسلم من محاضرة بعنوان " دراسة مقارنة للحضارة الاسلامية والحضارة الغربية المادية ودور الشباب " لمحمد منظور ٢ : ٢١ .

(ومشكلة الاحداث تثير الامة الامريكية ولا سيما بسبب امتدادها الى الطبقات العليا في المجتمع ،كما ان هناك نسبة عالية من الانحراف بين الفتيات ويثرن مشكلة كبيرة في كيفية التصرف معهن ،لان معظم مؤسسات الاحداث خاصة بالاولاد) (١)

وقد تبين في حالات كثيرة القي القبض فيها على عدد من الاحداث بسبب جرائم التخريب والسرقة وبيع المخدرات أن هؤلاء الاحداث لم يقدموا على ذلك بسبب الحاجة ، فانهم يتلقون مبالغ مالية كافية ، وانما لانها شيء مثير فحسب ، وقد وافق الكونجرس الامريكي عام ١٩٦١ على تخصيص ثلاثين مليون دولار للانفاق على برنامج مكافحة جرائم الاحداث في السنوات الثلاثة التالية . (٢)

وليست الدول الاوروبية الاخرى بأحسن حالا من امريكا ،فالمشكلة ذات طابع دولي ،كما أكده عدة مئات من المندوبين من جميع انحاء العالم الذين حضروا مؤتمر الامم المتحدة المنعقد بلندن عام ١٩٦٠ ، وذلك لدراسة أساليب منع الجريمة ومقاومة المنحرفين . (٣)

وفي فرنسا كذلك تعتبر مشكلة الاحداث في تصاعد مستمر ، وقد وصل عدد الاحداث المحكومين في عام ١٩٦٧ حوالي خمسة واربعين الفا ، وليس هذا الرقم الا جزءا من الواقع لان هنالك عددا كبيرا من الجرائم التي لم يبلغ عنها ،أو بلغ عنها ولكن لم تتوصل الشرطة للمجرم ،أو اكتفى بادخال الفاعلين دورات تثقيفية ولم يعرضوا على القضاء ،بالاضافة لمن ارتكبوا جرائم لم يكن القانون الفرنسي يعتبرها جرائم كالتشرد وغيره . (٤)

---

(١) صحيفة اخبار اليوم : عن كتاب التطور والثبات : ١٧١.

(٢) التطور والثبات : ١٧٢.

(٣) المصدر السابق : ١٧٢.

(٤) انظر الطفولة الجانحة : ١٣.

الفصل الثالث

أثر الفراغ الروحى

على الدولة والمجتمع فى أوروبا

أثـر الفـراغ الـروحـى على المجتمع والدولة

لا شك ان المجتمع بحر تصب فيه كل تلك العوامل التى تصيب الفـرد والاسرة ، وتجتمع فيه كل النتائج والآثار التى تخلفها تلك العوامل فـــى شخصية الفرد وبنية الاسرة ، ومن هنا فاننا نحتاج الى أن نستصحب هنـــا كثيرا مما تكلمنا عنه فى الفصلين السابقين ، وخاصة الاول منهما وذلك دون أن نعيد هنا ما قلناه هناك ،غير اننا سنبين فى هذا الفصل أن تلـــك الآثار كانت من الاتساع والخطورة بحيث لم تكن تمثل مجرد مشكلة أفـــراد أو قلة محدودة ، وانما كانت من الضخامة والانتشار بحيث اصبحت تهـــدد المجتمعات والدول لكثرة المكتوين بنارها والمصطلين بأورها ، ولكثرة الخسارة الناجمة عن ذلك ، ولضخامة الامكانيات المادية وغير المادية الضائعة والمنفقة لعلاجها .

الاخلاق :

جاءت المسيحية لبنى اسرائيل وقد خشنت طباعهم وانحرفت أخلاقهـم فاهتمت بالجانب الخلقى ، وحثت على التزام الفضائل كالامانة والرفق والعفة والصدق ونحوها ، وكان للتحريف الذى أصاب المسيحية أثره فى رسم صـورة غير واقعية وغير قابلة للتطبيق ،لانها فوق طاقة البشرومخالفة لما فطـــر الناس عليه . ثم كان لانحراف رجال الدين وفسادهم دوره أيضا فـــى تزيين الانحراف عن تعاليم الدين والبعد عن الالتزام بأحكامه بين النـــاس . غير انه بالرغم من ذلك كله فان ايمان الانسان بعقيدة مهما يكن من أمـــره يبقى ضابطا يخفف من انحرافه ان لم يحل بينه وبين الانحراف ، ويترك فى نفسه شعورا داخليا بأنه حين يمارس الانحراف انما يمارس ما لا يليق به ويعرض نفسه لسخط الله وعقوبته،وأن الواجب يقتضى منه أن يفارق ما هو عليه ، ومهمـــا استبد به الانحراف والعصيان ، فانه يبقى مع هذا الشعور معرضا للتوبـــة .

والرجوع عما هو فيه ، طالما انه يرى ان ما هو فيه شر يجب الخلاص منه ، وما دام يحس انه يمارس عملا سيلقى جزاءه . فكان لا بد اذا أريد لخط الانحراف أن يبقى صاعدا ، وان تتزايد سرعته ، لا بد له من الخلاص من الشعور الذى يتركه الاحساس الدينى بأن هذا السلوك أو ذاك هو شى دون ، وانه يمثل شرا وانحرافا ، وان هنالك قيما وأخلاقا هى فضيلة فى ذاتها لا تجوز مخالفتها ، ولا يسوغ لاحد انتهاكها ، فان وقع ذلك فليس هو الا الخطأ والاثم الذى ينبغى الرجوع عنه ، فكان الامر والحالة هذه لا بد له من تبرير فكرى ونفسى يستند اليه هذا الانحراف . ولم يكن القوم يرون سندا أقوى فى عصر النهضة من العلم ، فليستندوا اذن اليه ، وكانت الثورة الصناعية — كما سبق ان تحدثنا (١) — قد ساعدت على ازالة الموانع الاجتماعية من وجه الانحراف ، فلم يبق الا محاربة الشعور النفسى بالتقزز من الانحراف .

وبالطبع لم تتم الامور كلها دفعة واحدة ، وما كان ذلك ممكنا ، ولكنها تمت بالتدريج خطوة تمهد لخطوة .

فقد كان الحكام فى اوربا يمارسون البغى والفساد ، ويلجأون الى أساليب المكر والخداع ، ويحكمون شريعة المصلحة والهوى والعصبية ، ومع ذلك فقد كان للباباوات نفوذ فى الحياة المسيحية يشمل — فيمن يشمل — الاباطرة والحكام ، وان لم يكن يلزمهم أو حتى يطالبهم بانتهاج شريعة الحق والعدل ، الا انه يمارس عليهم نوعا من التوجيه الاخلاقى الذى يحول دون الانفلات العلنى التام من قيود الاخلاق ، ويقع بعد ذلك كثيرا الانحراف والتهتك ، ولكنه يقع فى السر والخفاء ، ومع الاستخفاء ، ويصل أحيانا الامر الى مسامع الناس فيسكتون عنه خوفا أو مداراة ، ولكنهم ينظرون اليه على انه

---

(١) راجع ص ٢٨٥ وما بعدها .

انتهاك للاخلاق ووقوع فيما لا ينبغي .

وكان ميكافيللي الفيلسوف الايطالي الذى ولد عام ١٤٦٩ ، وعاين بعض الباباوات الدهاة الخادعين الذين لا يبالون بشىء فى سبيل تحقيق أغراضهم ، وعاصر المجتمع الايطالي وهو ينحط فى مدارك الفساد السياسى والخلقى ، قد نادى بنظرية مفادها : أن السلطة السياسية ليست هى وسيلة لغايات اسمى منها فحسب ، بل هى هدف فى حد ذاته ، وأكد أن الحاكم ما دام فى سبيل الاستحواذ على السلطة أو المحافظة عليها أو الاستزادة منها ، فان له ارتكاب اى عمل مهما كان شائنا ولا اخلاقى من وجهة نظر الدين أو الاخلاق ، بل ان كل وسائل السياسى من أجل بلوغ هذه الغاية مهما تكن يجب أن تعتبر وسائل شريفة ، ويجب على كل انسان أن يمجدها . وللحاكم - بل عليه - أن لا يلقى اعتبارا لمسألة العدل والظلم أو الرحمة والقسوة ، أو المجد والعار ، لان كل ما يخدم غرضه هو فضيلة . وليس من الضرورى أن يكون كل ما هو فى رأى الدين فضيلة هو فى نظر الدولة كذلك ، بل الصحيح يجب ان يكون على العكس فى كثير من الاحوال وبذلك قرر قاعده " ان الغاية تبرر الوسيلة " . وأصبح الاغتيال السياسى والكذب والخداع والغدر والظلم كلها امور مقبولة ومطلوبة طالما كانت تخدم مسألة السلطة ، فالاستيلاء على السلطة أو المحافظة عليها أو توسيعها هو الميزان والحكم الذى يحدد الوسيلة الشريفة من غير الشريفة بالنسبة للحاكم وليس ذلك للدين أو الاخلاق ، وحث ميكافيللي السياسى على العناية ببث الدين فى النفوس ، حتى لو لم يكن ذلك عن ايمان واقتناع منه ، اذ ليس ذلك متعلقا باعتبار الدين صحيحا فى ذاته وانما باعتباره وسيلة سياسية لتحقيق أهدافه وأطماعه . ويقول : (ان ثمة طريقين لخوض الصراع : الاولى ويمارسها البشر ، وتلتزم بأحكام القانون . والثانية : وتمارسها الوحوش وأساسها القوة المجردة ، ولا تفى الطريقة الشرعية بغاية الحاكم الامر الذى

يدفعه للجوء للثانية . فعليه والحالة هذه أن يستخدم الطريقتين بمعنى ان يحاكى الذئب والثعلب) . (١)

وبهذا خط ميكافيللى فلسفة اخراج سلوك السياسى من دائرة الدين والاخلاق ،أو جعل له اخلاقا خاصة تعاكس الاخلاق المنبثقة من الدين والقائمة على قواعد الايمان والعدل والشرف .

وكانت النظرة المادية التى سيطرت على الفكر الاوروبى وخاصة فى أعقاب الثورة الصناعية ، قد تركت بصماتها على كل جوانب الحياة العامة ، وأحدثت تغييرا فى النظرة الى الاخلاق بصفة كلية ،غير ان الجانب الاقتصادى قد كان أكثر جوانب الحياة تأثرا ،فالاسلوب والوسيلة الاكثر جمعا للثروة وتنميتها والمحافظة عليها هى السائغة والمطلوبة دون غيرها ،ومن هنا كانت الفائدة الربوية والاحتكار وترويج ما لا يحسن ترويجه من مواد الاستهلاك ،بل الغش والخداع كلها فضائل ما دامت تحقق الربح .

فخرج الاقتصاد وقضايا الثروة عن مجال الاخلاق فى اذهان الكثيرين.

وأريد للاخلاق بعد عصر النهضة ان تبنى على أساس جديد ،فلقد كانت الفكرة السائدة قبل عصر النهضة ،والتى تقررها المسيحية ،ان اللّه هو الذى يحدد كون الفعل خيرا أو شرا ،ولو امر تعالى بالشر لكان خيرا ولو نهى عن الخير لكان شرا ،وأمر اللّه ونهيه انما يعرفان بما تنص عليه تلك المصادر المحرفة وبما يقرره رجال الدين المسيحى .

ولما أقصت أوروبا النصرانية عن حياتها واستدبرت كل ما يتعلق بها ، اتجه مفكروها الى ذلك الاساس الذى أقامت النصرانية عليه الاخلاق والقيم بل ومنهج المعرفة ،بالنقد والمعارضة ،فلم يسلموا بأن منبع الاخلاق هو النص ،ولا ان الحكم فى النظر الى الفعل من حيث كونه خيرا أو شرا هو

---

(١) الفكر السياسى : فوءاد محمد شبل : ٢٤٥ .

الدين ، فراحوا ينقبون عن مصدر آخر للاخلاق حيث كانوا لا يزالون يشعرون بأنه لا بد للفرد والمجتمع من اخلاق ، ولا يمكن الاستغناء عنها بالكلية . وتعددت مناهجهم في النظر الى مصدر الاخلاق وطبيعتها ، واختلفت هذه المناهج تبعا لاختلافها في النظر الى مصادر المعرفة . وذلك بالطبع لا يعني انه لم يعد هناك البتة من يصر على أن الدين هو مصدر الاخلاق ، كما لم تكن سيادة الوحي فيما قبل عصر النهضة تعني انه لم يكن هنالك من يضيق ذرعا باعتبار الدين مصدر المعرفة والاخلاق والقيم ، وانما نتحدث عن التيار العام الذي تسير في ركابه جمهرة المفكرين والفلاسفة والعلماء ، ويوجد بعد ذلك من لا يرى رأيهم ويخالفهم فيما يذهبون ، ولكنه لا يكاد يسمع له صوت ، وان سمع فهو ضعيف مغلوب أمام التيار الجارف .

لقد جعل المثاليون من حدسيين وعقليين (١) مصدر المعرفة هو العقل ، فقالوا ان هنالك احكاما بدهية مسبقة تدرك بالحدس ، والاخلاق منها ، فمعرفة الخير والشر انما تدرك بقوة مغروسة في النفس ، وقالوا (ان الاخلاقية تتضمن مبرراتها في ذاتها ، لان الخير يكون خيرا في ذاته لا بالقياس الى منفعة ، ولا بالنظر الى من قرره انسانا كان أو الها ، واذا كانت خيرية الواجب في الافعال تقوم في طبائعها فان العقل هو الذي يكشف عن خصائص الافعال التي توجب وصفها بالخير أو الشر دوما) . (٢)

---

(١) يرى هؤلاء ان العقل هو مصدر كل معرفة يقينية لما فيه من مبادئ فطرية لم تكتسب اصلا لا من الحس ولا من التأمل العقلي ، وذلك كبطلان الجمع بين النقضيين ، ومثل كون أنصاف الاشياء المتساوية متساوية وهي امور تدرك بالحدس دفعة واحدة بلا مقدمات ، وبناء عليها يتم الاستنباط العقلي ، غير ان الحدسيين الخلص يغالون في اهمية هذه الامور متغافلين عن دور التفكير الاستدلالي والتجريب الحسي ، انظر الفلسفة الخلقية نشأتها وتطورها ، توفيق الطويل ١٦٦ - ١٦٧ .

(٢) المصدر السابق : ٢٠٥ .

وبهذا فهم يردون الاخلاق الى محكمة الضمير باعتبارها قوة فطرية يشترك فيها الناس فى كل زمان ومكان ، وأطلقوا على المبادىء الفطرية التى يتوصل بها الى معرفة الخير من الشر ، حسبما يقولون ـ مبادىء الفهم المشترك ، وان قالوا : ان الضمير يمكن ان يُعلَّم . (١)

ورفض هؤلاء اعتبار الدين مصدرا للمعرفة والاخلاق بحجة أن ذلك يؤدى (الى هدم العلم وانهيار البرهان العقلى ويصبح الواجب الضرورى ممكنا) . (٢)

ونتيجة لما يرى أصحاب هذا المذهب من كون الخيرية أو الشرية فى طبيعة الافعال وباطنها ، وليست فيما يترتب عليها من لذات والآم أو منافع ومضار ، فان الفيلسوف العقلى " كانت " نادى بضرورة أداء الواجب لانه واجب بغض النظر عما ينجم عنه من منافع أو مضار .

وطابع هذا المذهب الايمان بقدرة العقل المطلقة والثقة بقدرته فى الحكم على الاحداث ، وبدوره فى تكوين الدولة والجماعة والقانون والاقتصاد والاخلاق على اسس سليمة ، واعتبار الانسانية هى هدف الجميع وليس اللّه ولا المجتمع الخاص أو الدولة الخاصة ، لان تكوين الجماعة الانسانية هو غاية العقل الاخيرة ـ حسبما يقرره الفيلسوف العقلى الالمانى " فيشته " ـ وأكد فلاسفة هذا المذهب ، وخاصة " فيشته " و " هيجل " على ان سعادة البشرية رهن بالعمل المنظم المثمر الذى يرسمه عظماء الانسانية فى الفكر والسياسة . (٣)

والى جانب هذا المذهب ظهر مذهب آخر له به بعض الشبه ، وقد

---

(١) المصدر السابق : ٢٠٢ - ٢٠٣

(٢) المصدر السابق : ٣٠٦

(٣) انظر الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى : ٢٨٢ ، ٢٨٨ ، ٢٩٦ .

دعا أصحابه الى تفسير الاخلاق لدى الانسان بوجود الحاسة الخلقية التى قالوا : انها عبارة عن قوة باطنية يولد الانسان مزودا بها دون الحيوان، وانها حاسة أخرى فى الانسان تختلف عن الحواس المعروفة ، ويتمكن الانسان بواسطتها من ادراك خيرية الافعال وشريتها واصدار الاحكام عليها ، وانها هى التى تغريه بفعل الخير وتباعد بينه وبين الشر ، بغض النظر عن النفع والضرر المترتب على فعل هذا أو ترك ذاك ، وهذه الحاسة متأصلة فى النفس الانسانية ، وتشبه الاحساس بالجمال ، أو قوة التفكير فى النفس ، وتقوى هذه الحاسة بالمران وفى البيئة الصالحة ، وتذبل بالاهمال وفى البيئة الفاسدة ، وهذا هو السبب فى اختلاف نظر الناس الى الفعل الواحد ، كما يتفاوتون فى احساسهم بالجمال ، وفى قدرتهم على التفكير المجرد . (١)

على انه مهما يكن من أمر هذا المذهب والذى قبله ، وفصلهما المعرفة والاخلاق عن اللاهوت ومنازعتهما للنصرانية فى السيادة على ذلك ، فانهما اعترفا بكون العمل حقا فى ذاته أو شرا فى ذاته ، بغض النظر عن الزمان والمكان والمنافع والمضار . كما ان المذهب العقلى – كما ذكرنا – انتهى الى تأييد سيادة الدين مع سيادة العقل عن طريق اعتباره ان الله عقل على يد هيجل . وذلك كله ما لا يقره مذهب الوضعيين على تعدد مناهجهم والذى ينازع المذهب السابق فى تحديد مصدر المعرفة والاخلاق ، فان الوضعيين ينكرون أية معرفة فطرية سابقة على الحس ، لان كل معرفة عندهم لا بد ان تكون عن طريق الحس ، ويقولون : انه ليس هنالك قاعدة للسلوك بدهية أو مطلقة ، بل النتائج والآثار للتمييز بين الخير والشر ، والتجربة هى التى تحدد هذه النتائج والآثار ، فالمسألة معلقة بالنتائج لا بالبواعث . وعلى رأس هوءلاء " توماس هوبز " فيلسوف الانانية (الذى استخف بالفضيلة

---

(١) انظر الفلسفة الخلقية : ٣١١

المجردة عن الهوى ، ورد الاخلاقية الى حب الذات ، وجاهر بأن الغيرية أنانية مقنعة) ، وتابعة لوك الذى قال باختلاف القيم والاحكام الخلقية باختلاف الزمان والمكان . (١)

ويرى اوجست كونت الفيلسوف الفرنسى (١٧٩٨ - ١٨٥٧) وأحد كبار فلاسفة الوضعية الداعية الى الوقوف مع الحس كمصدر للمعرفة والقيم ، يرى أن الفكر يجتاز ثلاث مراحل لكى يستقر فى المرحلة الاخيرة ، ففى المرحلة الاولى يشرح الامور ويعزو أسبابها الى القوى الالهية " الدين ". وفى الثانية يشرح الامور ويعللها بطريقة نظرية ميتافيزيقية أى بالعقل النظرى الخالص. وفى الثالثة يشرحها ويعللها بواسطة الملاحظة والتجربة فحسب ، وهى المرحلة الاخيرة حيث ينتهى وضع الفلسفة فى التوجيه . (٢)

ويرى كونت أن الغاية التى يجب أن يتوجه اليها الفرد هى الانسانية وطالما كانت الانسانية ، وليس ذاته هى غاية الفرد الاخيرة ، فهى معبودة تذهب حريته ، بل وحياته ، من أجل خيرها لتبقى لها الحياة الابدية الخالدة . (٣) وهذه المدرسة تميل الى اعتبار الاخلاق وليدة اجتماع الناس بعضهم ببعض . وتقرر انها ليست موضوعية ولا ثابتة وانما تتغير بتغير الزمان والمكان .

على انه مهما يكن من اختلاف المثاليين العقليين والوضعيين الحسيين

---

(١) المصدر السابق : ١٧٠

(٢) انظر الفكر الاسلامى المعاصر : ٢٦٤ . وقد عبر عن فكرة كونت هذه احد تلاميذه وهو " فيرباخ " بقوله (الله كان فكرتى الاولى . والعقل كان فكرتى الثانية . والانسان بمحيطه الواقعى هو فكرتى الثالثة والاخيرة) . المصدر نفسه : ٢٦٤

(٣) الفلسفة الخلقية : ٢٣١

حول تفسير القيم والاخلاق وتحليلها ومدى حماسةكل منهم لها. هـذا الاختلاف الذى بدا واضحا منذ القرن السابع عشر ، فانهم بقوا متفقين على احترام القيم الموجودة من نحو الصدق والعدل والامانة والاحسان ونحوها أيا كان مصدرها حتى كان القرن التاسع عشر ، وظهرت فرضية دارون القائلة بالتطور ، والتى أكد دارون بموجبها ان الفرق بين الانسان والحيوان فرق درجة وليس فرق نوع ، واخضع الانسان لقانون بقاء الاصلح عن طريق تنازع البقاء ، ولما يكن دارون قد دعا الى تطبيق ذلك على الاخلاق ، بل اعتبر الانسان هو الكائن الاخلاقى الوحيد . (١)

غير ان نيتشه دعا الى تطبيق هذه الفروض - بالطبع ليس على انها فروض وانما حقائق - على الاخلاق ، فأنكر بالتالى وجود قيم مطلقة أو معايير ثابتة لا تتغير فضلا عن انه لا يرجع هذه القيم الى الله أو حتى الى العقل، فأنكر ان هنالك ما هو خير أو حق فى ذاته ، لان هذه القيم تختلف حسب الاحوال والظروف والازمان ، ولم يقف عند هذا فانه قسم الاخلاق الى صنفين : أخلاق السادة وذلك كاحترام القوة ، والقسوة والصراحة ، والنفور من انصاف الحلول وقهر المنافسين والسير على جثتهم من غير رفق ولا رحمة. وأخلاق العبيد وذلك كالصبر والحلم والطاعة والتواضع والتعاطف والدعة وهى التى دعت اليها المسيحية .

ويقع التناقض بين قيم وأحكام السادة وقيم واحكام عبيدهم ، وعن حقد العبيد وحبهم للانتقام من سادتهم مع عجزهم عن ذلك ، تنشأ قيم عليا هزيلة تجعل من الضعف والعجز عن الانتقام فضيلة البعد عن الشر ، وتجعل من الذل طاعة ، وتجعل من العجز عن الانتقام صبرا . وقيم العبيد هذه تتنافى مع قوانين الطبيعة لان قوانين الطبيعة تقضى بانقراض الضعيف

---

(١) الفلسفة الخلقية : ٢٣١ .

وبقاء الاصلح . لكن قيم العبيد ترى مساعدة الضعيف والمعتوه واقامة المستشفيات لهم . وقيم السادة تقضى ان يرد العدوان بمثله ، ولكن قيم العبيد ترى الصبر واحتمال الظلم ، بل وتطالب بمحبة الظالم .

ويرى نيتشه أن الانبياء بمهارتهم جعلوا الاذلاء مصدرا للقيم الخلقية وجعلوا الفقر سمة الفضيلة ، والتمتع بزينة الحياة ومباهجها رذيلة . (١)

وتتابع فلاسفة اوروبا وخاصة من اليهود فى الاجهاض على الاخلاق . فماركس يقرر أن الاخلاق ليست الا انعكاسا للعلاقات الانتاجية المتغيرة وانه من الطبيعى أن يكون لكل مرحلة من مراحل التاريخ أخلاقها الخاصة بها ، والتى تختلف عن اخلاق المراحل الاخرى ، وان الاخلاق من اختراع المستغلين الخداع من أجل تسخير وتخدير ضحاياهم من الفقراء والاجراء لامتصاص جهدهم ، وتوظيفه لمصلحة الاغنياء ، وانه لا فضل لاحد فى تغيير القيم والاخلاق لانه امر حتمى ، فهى لا تشكل سلوك الفرد واتجاه المجتمع.(١)

وجاء دوركايم - وهو يهودى أيضا - بنظرية مفاده ان الافكار والمعتقدات والاخلاق والسلوك الانسانى متغيرة باستمرار ، وذلك بفعل العقل الجمعى الذى يسيطر على البشر فيدفعهم الى القيام بأعمال معينة وهم مجتمعون معا ، لا يقبل احد منهم القيام بها لو طلب له ذلك وحده ، وهذا العقل

---

(١) انظر المصدر السابق : ٢٣٠ - ٢٣٤ .

وبهذا يبدو واضحا مغزى الاشارة التى جاءت فى البرتوكول الثانى من بروتوكولات حكماء صهيون (لاحظوا هنا أن نجاح داروين وماركس ونيتشه قد رتبناه من قبل ، والاثر غير الاخلاقى لاتجاهات هذه العلوم فى الفكر الامى سيكون واضحا لنا بالتأكيد) .

الخطر اليهودى ، بروتوكولات حكماء صهيون ، ترجمة محمد خليفة التونسى : ١٣٢ .

الجمعي الذى يسيطر على البشر فيدفعهم الى القيام بأعمال معينة وهم مجتمعون معا ، لا يقبل احد منهم القيام بها لو طلب له ذلك وحده ، وهذا العقل الجمعي ليس موافقا لعقل أحد منهم ، وهو خارج عن كيانهم ، ويؤثر فيهم جبرا عنهم ، ولا وجود لهذا العقل في الخارج ، فلا يمكن الامساك به وتحديده فضلا عن مساءلته . فالتغيير واقع ولا بد ، والعقل الجمعي هو السبب اذ يقوم بذلك جبرا عن المستجيبين له ولا يمكن السيطرة عليه ولا محاسبته . (١)

وتلقت الاخلاق ضربة قاسية من يهودى آخر هو اليهودى النمساوى سيجموند فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٩) لعلها كانت أخطر الضربات التى تلقتها . والتى اصابت الاخلاق فى اول ما يتبادر الى الذهن من الاخلاق وآخر ما بقى فى حس الناس منها .

لقد أنشأ فرويد نظرية تفسر سلوك الانسان وسائر نشاطاته تفسيرا جنسيا ، وزعم ان الطاقة العظمى لدى الانسان هى الطاقة الجنسية ، وكل نشاطاته وتصرفاته تدور حولها ، منذ ان يولد فهو يرضع ويتحرك ويتبول ويتبرز ويمص ابهامه بلذة جنسية ، فهى المسيطرة على الانسان ولا تخلو منها حتى علاقاته مع أمه وعواطفه تجاه أبيه ، وكل طفل وطفلة يتعرض بسبب هذه الطاقة واصطدامها بالاب لدى الطفل ، وبالام لدى الطفلة الى العقد النفسية ، والاخلاق والدين انما تنشأ من الكبت الجنسى ، وكل الحضارات انما نشأت من النشاط الجنسى وما ينبثق عنه ، والاخلاق كوابت تتسم بالقوة حتى فى صورتها العادية ، ويقول : ان العقد النفسية سببها الكبت الجنسى ، وان التسامى نوع من الشذوذ . (٢)

---

(١) انظر مذاهب فكرية معاصرة : ١١٤ - ١١٨

(٢) انظر المصدر السابق : ١٠٨ - ١١١

وكانت محصلة وهدف كل تلك الفرضيات والنظريات تقديم فلسفة تستند الى العلم وتسوغ الانحراف وترفع الحرج عن مرتكبيه ، وتزيل ما كان عالقا في النفوس من آثار النظرة الدينية والاخلاقية المنكرة للانحراف .

ومع مجيء النظام الراسمالي الذى بنى على اساس الحرية الشخصية وتضخيم دور الفرد على حساب المجتمع . ومع جفاف ينابيع الاخلاقيات والسعار المحموم لجمع المال بأية طريقة ، عمد القوم الى استغلال الغرائز الجامحة والشهوات المتأججة يستدرون بها المال ، ويجمعون عن طريقها القناطير المقنطرة من الذهب ، وراحوا يغرون النفوس الهائجة بالمزيد تلو المزيد ، ولا يفتئون يضرمون نار الشهوة بكل ما استطاعوا من الاساليب ، ولا تكاد النفوس تألف من ذلك شيئا حتى يسعى اولئك الى استحداث الجديد الذى يعقبه جديد ، وفق تخطيط خبيث تولى كبره يهود ، يعمل على استغلال واثارة وتهييج الشهوات في عالم لم يعد فيه شيء قائم بحمية من حريق هذه الشهوات . وتعددت المسارب بتعدد اتجاهات الناس وميولهم واختلفت باختلاف مشاربهم ورغباتهم ، ولكن كلها تلتقي على أساس الشهوات المادية عامة والجنسية خاصة . فهذا يروج في الناس شهوة الخمرة ويستفرغ وسعه في اغراء الناس بها وحملهم عليها ، وذلك يشيع فيما بينهم الازياء الكاشفة الفاضحة ، ويستعمل لعرضها والاغراء بها المتهتكات من الحسناوات اللواتي يغشين بها المجالس والمجامع العامة ، وحرص اخرون على تجارة ادوات الزينة والتجميل ، ولم يدخروا حيلة ولا آلو جهدا في اشاعتها بين النساء لتنضم الى عادة التبرج فتبلغ الاثارة أقصاها ، وسعى آخرون الى اشاعة الصور العارية ، وأقيمت المؤتمرات والمسابقات من أجل انتخاب ما سمي بـ " ملكات الجمال " ، ذلك لان الحضارة الغربية وهواتها في كل مكان لا يعرفون من الجمال الا جمال المادة والغريزة والجسد ، أما جمال الخلق والادب والذوق والروح ، فذلك ما لا يتصورونه . ولم يقف الامر عند

حد حتى قامت تجارة البغاء ، وكثرت د وره ومؤسساته ، وغدت تجارته تجارة عالمية . وكان من وراء كل هذا الفساد والاستغلال للاعراض والعورات أدباء الجنس من أصحاب القصص الغرامية والمقالات الخليعة ، وأصحاب المسارح والمراقص والملاهي ودور السينما ، ومن أصحاب دور النشر ومن رجال الاعلام على تعدد مراكزه ومنابره . (١) ففي امريكا مثلا تشير الاحصائيات الى ان ما لا يقل عن مائتين واربع وستين مجلة اباحية متخصصة تنتشر فيها وحدها . (٢)

ونهض كثير من رجال الفكر هنا وهناك يقدمون الذرائع والمسوغات للانحراف العام والهبوط المتزايد ، ويستحثون ركبه للاسراع ، ولا يتركون بابا دون الاباحية مغلقا الا فتحوه ووقفوا على بابه يزينونه للناس ، ويستعجلونهم لولوجه ، تارة بدعوى ان الحرية والتمتع حق فطرى لكل انسان ، وتارة بدعوى أن القيود الاخلاقية تحول دون نمو الانسان واتساع مداركه ، وتارة تحت شارات ودعاو وأفكار أخرى . المهم أن يتجه الناس الى التعرى والانحلال والاختلاط ، وأن يبتعدوا عن مراعاة قيود الستر والاحتشام والحياء ، حتى ان الحرية الفردية التى حرصوا عليها اذا تعلقت بمعانى العفة والمحافظة ومحاربة الفساد فلا حرمة لها ولا اعتبار ، فهذا الفيلسوف الانكليزى " مل " يصرخ في كتابه " حول الحرية " بوجوب حظر الزواج على كل من لا يستطيع أن يثبت انه يملك من وسائل العيش ما يكفى لحوائج الحياة ، ولكنه يقف في وجه محاربة البغاء بشدة ، بحجة أن في ذلك تحاملا على الحرية الشخصية واهانة للكبار بمعاملتهم معاملة الاحداث . (٣) فالحرية الشخصية شيء

---

(١) انظر الحجاب : ٦٩ - ٧١

(٢) مجلة الامة القطرية عدد ٢٣ (رمضان) لسنة ١٤٠٣هـ ص ٩٢

(٣) الحجاب : ٦٦

مقدس لا يجوز أن يمس بحال اذا كانت تخدم نشر الفاحشة والفساد ، امـــا اذا كانت من أجل الزواج فلا يجوز أن تنال رعاية أو ان يكون لها حرمة .

وطوى دعاة الاباحية الكشح عن نياتهم فى انه لاعتبار لاى شئ يقف فى سبيل نشر الخلاعة والمجون حتى التمسوا كل المعاذير لمن يزنى بالاكراه فهذا رئيس صحيفة " ربيلكان " فى فرنسا — وهو من أبرز رجال الصحافـــة الاوروبية فى مطلع هذا القرن يقول :

(اذا اعوز الفقراء القوت وحملتهم المسغبة على ارتكاب السرقة والقتل والسلب ، قيل هيئوا الخبز يكفوا عن السلب والنهب بأنفسهم . ولكن يا ليت شعرى لماذا تأخذ النفوس هذه العاطفة — من النصح والمؤاخاة — لضـرورة من ضرورات الجسد الطبيعية ، ولا تتسع لضرورة أخرى مثلها — لا تقل عنها خطورة — وهى الحب؟فكما ان السرقة يلجأ اليها المرء من شدة الجوع ، كذلك ينبعث فيه الامر الذى يؤول الى الزنا بالاكراه ، وربما ينتهى بالقتل ، مـن شدة الحاح تلك الضرورة التى ليست أقل ركوزا فى فطرة الانسان من الظمأ والجوع . ان من الحق ان الشباب الذى هو فى صحة ووفرة قوة ، لا يستطيع كبح جماح شهواته العارمة كما لا يستطيع الصبر على جوعه مدة أيام رجاء أن يجد الطعام فى الاسبوع القادم وان افتقار أحدنا الى ما يسكن شهوتــه الجنسية فى بلادنا هذه التى تتوفر فيها كل حاجات الانسان ، لا يقـل خزيا وعارا من فاقة أحدنا من الجوع ، واذا كنا نوزع الخبز مجانا علـى الجياع فيجب علينا ان نمهد الاسباب لاشباع الهالكين من جوع آخر) . (١)

وما هذا الا مثال لما كان — ولا يزال — ينشر فى الصحافة الاوروبية مـن الدعوة الى تقبل الفاحشة وحمايتها والرضى بكل ما تسببه للفرد والمجتمع من دنايا وويلات ، باعتبارها حقا طبيعيا لكل من رام الفاحشة وخلع برقـع

---

(١) المصدر السابق : ٦١ - ٦٢

الحياء ـ وما أكثرهم هناك ـ حتى لو كان فيه اعتداء على حق وحرية طرف آخر ، ولو انتهى الامر الى القتل ـ كما قال صاحب المقال ـ ، وكأنما هذا الماجن الذى يبغى الوقوع فى أعراض الناس مقدس مصان تهان فى سبيله كل الحقوق والاعتبارات .

ونشرت كلية الطب فى جامعة باريس بحثا أعد لنيل شهادة الدكتوراة وكان مما جاء فيه : (اننا نؤمّل أن يأتى علينا زمان ندع فيه الانفة الكاذبة فنصرح فى غير استحياء ولا خجل بأنى مرضت مثلا بمرض الزهرى فى سن العشرين ، كما اننا نقول الان بدون تردد قد بعثونى الى الجبل لكونى مريضا بالسل . ذلك بأن هذه ان هى الا ثمن يؤديه المرء لتمتعه بلذات الحياة . فمن لم يذق مرارتها وقضى شبابه سليما منها ، فانه لا ريب وجود ناقص لم يبلغ كماله بعد ، وقد قصر فى وظيفة كانت من أبسط وظائف الطبيعة لجبنه أو لهمود غريزته أو سوء فهمه الناشىء عن ديانته) . (١)

وهكذا أريد للوضع أن ينعكس فاذا كان المجون بالامس عيبا وعارا فان المحافظة والعفة يجب ان تبدو اليوم نقصا وتقصيرا وضعفا وجبنا وسوء فهم .

وبلغ الامر أيضا ان اصبح البغاء يعتبر من الخدمات العامة التى تقوم مؤسسات الدولة الرسمية بتوفيرها والاشراف عليها ، كما حصل فى فرنسا التى كانت القيادة العامة للجيش فى مطلع هذا القرن تقوم بتوفير نساء لدور بغاء الجند . وانشئت فى البلد المشار اليه أيضا وكالة خاصة وظيفتها تلقى المعلومات من أى رجل عن أية امرأة يرغب فى قضاء شهواته معها ، لتقوم هذه المؤسسة بمراودة المرأة ، وذلك بالطبع مقابل رسم مالى. ولقد بلغ عدد البغايا فى فرنسا قبيل الحرب العالمية الاولى حسبما اعلنته دراسات بعض الباحثين الغربيين نصف مليون ، دعك ممن لم ينلهن الاحصاء ، وممن يمارسن هذه المهنة عن طريق الاخدان وزملاء العمل وفى المسارح والمراقص .

---

(١) المصدر السابق : ٦٢ .

وفى اميركا بلغ عددهن على الاقل نحو العدد المذكور فى فرنسا ، وليست البغي الامريكية أو الاوروبية الا امرأة من سواد الشعب ، وربما من عُلية القوم ، تنتقل من مهنة الى أخرى وتبتلى بعشير سوء فتحترف مهنة البغاء لفترة تطول أو تقصر ، ثم تغادر هذه المهنة الى مهنة أخرى . ومغادرة هذه المهنة هناك لا تعنى أن المرأة قد أصبحت ملتزمة بقيود العفة والحياء .

وللبغاء فى اميركا واوروبا سوق منظمة - شأن المدنية الغربية فى تقديم كل شيء بشوب قشيب - فله مراكز يقوم على ادارة كل مركز منها مجلس تنفيذى ، لهذا المجلس رئيس وأعوان ينتخبون بطريق الاقتراع ، وله مستشارون قانونيون يديرون أعماله ويدافعون عنها من الناحية القانونية اذا تعرضت تصرفاته لمؤاخذات قانونية ، وله نخاسون من الرجال والنساء وظيفتهم مراودة الفتيات عن انفسهن ويقومون بالتجوال فى البلاد من أجل هذا الغرض . هذا بالاضافة لمؤسسات اخرى اخذت أسماء مختلفة مثل بيوت الزيارة ومحلات اللقاء التى تقوم بمهنة تشبه مهمة سابقتها ، فتهيء اللقاءات المطلوبة بين من يريد ومن تريد ؛ وفيهم بالطبع المتزوجون والمتزوجات وقد دل احصاء أجرى فى بعض المدن الاميركية أن فى احداها ثمان وسبعون دارا من تلك الشاكلة ، وفى ثانية ثلاث واربعون ، وفى ثالثة ثلاث وثلاثون . (١)

وقد اثمرت هذه الخبائث للشعوب الاوروبية العلقم وألحقت بها اسوأ الآثار ، فان فرنسا التى كانت فى الحرب العالمية تمتلك خط " ماجينو " الدفاعي الذى يعد من أحصن ما عرف حتى ذلك التاريخ من وسائل التحصينات الحربية انهارت أمام الالمان خلال اسبوعين ، وما ذلك الا بسبب الخوف على مواخير ومراقص باريس ، وبسبب ما أصاب شبابهم من انغماس فى اللذات وانكباب على الشهوات ذهبت معه كل آثار الشجاعة والتضحية فيهم

---

(١) انظر المصدر السابق : ٧٩ - ٨٠ ، ١٠٦ - ١٠٧

ولا تزال فرنسا منذ مطلع هذا القرن تخفف من شروط اللياقة والصحة المطلوبة للجند مرة اثر مرة ، لان عدد الشباب الحائزين على المستوى المطلوب في القوة والصحة لا يزال في تناقص (١) ، ومع كل هذا فما تزال فرنسا ماضية في الطريق الذى أدى بها الى هذه النتائج ، حتى تطلب الامر أن توضع اعلانات في الشوارع العامة تطلب الى سائقى السيارات ان ينظروا امامهم بدلا من الحملقة فى السيقان العارية . (٢)

ولم يكن كل هذا الفساد والتيسير فى ارتكاب الفاحشة لكل من يريدها حائلا دون الاعتداءات الجنسية ، بل الواقع ان هذا الحال المخجل قد عمل على تزايد وكثرة هذه الاعتداءات التى تقع فى السر والعلن ، وذلك هو الامر الطبيعى ، فان الانحراف يبعث على الانحراف ، واثارة الشهوات على تلك الصورة لا تؤدى الى اروائها وتسكينها ، بل الى تأجيجها وزيادة هياجها . ولقد بلغ من كثرة هذه الاعتداءات على السائحات ان اعتدى على فتاة لا يزيد عمرها على اربعة عشر عاما اثنتى عشرة مرة فى يوم واحد في شوارع باريس . (٣)

وفى امريكا صرح كنيدى عام ١٩٦٢ أن مستقبل الولايات المتحدة في خطر ، لان شبابها مائع منحل غارق فى الشهوات ، لا يقدر المسئولية الملقاة على عاتقه وانه من بين كل سبعة شباب يتقدمون للتجنيد يوجد ستة غير صالحين لان الشهوات قد أفسدت لياقتهم الجسمية والنفسية . (٤)

---

(١) انظر المصدر السابق : ٩١ .

(٢) انظر حضارة الاسلام ، العدد الثالث لعام ١٣٧٨ ص ١٥٨ .

(٣) انظر المصدر السابق فى العدد نفسه والصفحة نفسها .

(٤) انظر المصدر السابق ، العدد العاشر ، سنة ١٣٨٤ وفق ٩٦٤ ص ٨٤ .
وانظر خطر التبرج والاختلاط : ١٤٠ .

وفى العام نفسه صرح خروتشوف ان مستقبل روسيا فى خطر لان شبابها لا يؤتمن على مستقبلها ، فهو شباب مائع منحل غارق فى الشهوات. (١)

وفى السويد التى تعد من أكثر بلدان العالم اباحية أعلن " هانزنيستيس" - وقد كان أحد الذين قادوا حملة كبيرة لقيام مجتمع الاباحية من أجل تحقيق الحرية الكاملة للفرد والتى لا تحدها قيود اجتماعية أو اخلاقية - امام احدى المحاكم أن نهجه السابق كان خاطئا ، وانه نادم عليه ، وطالب بفرض قوانين رادعة ضد تجارة الجنس ، وقال : ان الاغلبية تؤيد رأيه لان الانسان لا يشعر بالسعادة فى حياة كل ما فيها مباح . (٢)

غير انه بالرغم من كل تلك النتائج الوخيمة فان تيار الاباحية ماض لا تزيده الايام الا استفحالا وابتكارا لصور أشد تقززا ، حتى لم يعد فى تلك المجتمعات الاتصال الجنسى غير المشروع بين الرجل والمرأة يثير استنكارا ولا استغرابا ، وتفشت الوان الانحراف والفساد بشكل لم يعهد ولم يتوقع حتى فى الازمنة الماضية القريبة . ومن مظاهر هذا الانحراف :

أ — فقد البكارة : وقد دلت الاحصائيات الحديثة على ان العذرية تكاد تكون مفقودة البتة فى بعض الدول الاوروبية ، وانها فى طريقها الى هذا المصير فى الدول الاخرى . وفى روسيا والمانيا شعار تتناقله الالسن ، وهو عار على البنت الروسية والالمانية أن تبقى عذراء وأدوات منع الحمل فى كل طريق . (٣) وأصبح القوم ينظرون الى العفة والعذرية ونحوها على انها من مخلفات القرون الماضية ، ومن علامات التأخر والجهل والرجعية .

---

(١) المصدر السابق . فى العدد نفسه والصفحة نفسها ،

(٢) انظر صحيفة الامة القطرية عدد جمادى الاخره ١٤٠٢هـ رقم ٣٠ ص ٨٥ .

(٣) انظر خطر التبرج والزينة : ١٤١ .

ب ــ حمل غير المتزوجات :

مع كل توفر وسائل منع الحمل والاستخدام الواسع لها ، فان حمل غير المتزوجات منتشر بشكل واسع ، ويتخلص منه عادة بالاجهاض ، أو بزواج الفتاة ممن يقبل الحاق نسب الطفل به ، فان لم يكن هذا ولا ذاك فان سماحة المجتمع تتسع لقبول هذا الطفل ، ما دام الزنا نفسه لم يعد عيبا ، وما دام يرى باستمرار من امثاله الكثيرين ، ومن أمثال أمه الكثيرات . قالت احدى الباحثات الغربيات في ندوة طبية : ان ٦٠٪ من الفتيات اللاتي يعقدن قرانهن الآن في سن السابعة عشرة فما دون هن حوامل يوم زفافهن . (١) وذلك بالطبع لا يعني ان الاربعين بالمائة الباقيات هن أبكار أو لم يمارسن الحياة الجنسية قبل الزواج ، وقد أشارت الاحصائيات الى ان نسبة الحوامل في طالبات المدارس الثانوية في بعض المقاطعات الامريكية قد بلغت ٤٠٪ . وتحتوي المدارس الثانوية التي يوجد فيها اناث في الولايات المتحدة على غرف للولادة ، وموظفين مدربين على أعمال التوليد ريثما يحضر الطبيب. (٢) وقد بلغ عدد الاطفال غير الشرعيين الذين خضعوا للاحصاء الرسمي عام ١٩٥٩ في الولايات المتحدة ٢٢١ ألف طفل (٣) ، وارتفع العدد بعد ذلك ، فقد جاء في احصائية نشرت عام ١٩٧٩ أن عدد اللواتي يلدن سنويا في سن المراهقة من دون زواج ستمائة الف فتاة ، وأضافت الاحصائية انه اذا أضيف الى هذا العدد اللواتي يلدن بعد سن المراهقة بلا زواج فان العدد يتجاوز المليون ، ومعنى هذا ان امريكا تستقبل أكثر من مليون طفل سنويا بلا آباء ، وعلى الدولة ان تقوم باعالتهم ، وربما امهاتهم ايضا ، مما يشكل عبئا ثقيلا على الخزينة الامريكية ، حيث تقدر تكاليف كل طفل من

---

(١) انظر مشكلات الشباب في ضوء الشريعة الاسلامية : عبد الرحمن واصل : ٤٠ ،

(٢) صحيفة المجتمع عدد ٣٧٨ شهر محرم ١٣٩٨ وفق ديسمبر ١٩٧٧ ص ٣٩ ،

(٣) انظر حضارة الاسلام عدد ٣ سنة ١٩٦١ ص ١٠٢ .

هؤلاء على الدولة حوالى ١٨ ألف دولار . (١)

وما زال الرقم فى ارتفاع فقد بلغ عدد الاطفال غير الشرعيين الذين خضعوا للاحصاء فى مدينة نيويورك وحدها عام ١٩٨٣م (١١٢٣٥٣) وهم يشكلون ٣٧٪ من الاطفال الذين ولدوا فى العام المذكور . (٢)

وليست الدول الغربية الاخرى فى هذا بأحسن حظا من الولايات المتحدة .

جـ — الشذوذ الجنسى (اللواط ، السحاق) :

ما زالت جمعيات الجنس تنادى باباحة اللواط وغيره من وسائل الشذوذ بين الرجال والنساء ، وتتولى هذه الجمعيات اصدار العديد من المجلات وتحضى باهتمام رجال الاعلام ، وخاصة فى الرائى ، حيث تقوم هذه الجمعيات بالدفاع عن قضايا الشاذين . وقد وصل الحال بالتشريع الغربى الى اعتبار امر كاللواط ليس بجريمة اذا تم بين بالغين عاقلين . (٣) وقد أدت اباحته الى التوسع فيه ، وأصبح هناك مئات الجمعيات التى ترعى شؤون الشاذين ويقدر عدد هؤلاء الشاذين فى الولايات المتحدة وحدها بـ ١٧ مليونا . وتحوى مدينة لوس انجلوس وحدها حوالى ٣٠٠ ألف منهم ، ولهم فى بعض الجامعات الامريكية منح خاصة بهم ، لا يمكن لشخص أن يحصل عليها حتى يثبت انه شاذ جنسيا ، وفى عام ١٩٨٠م اجتمع السيناتور كيندى بممثلى الشاذين وتعهد بالدفاع عن حقوقهم اذا انتخب رئيسا للجمهورية ، وقد كان فى مقاطعة كويبك وحدها ثلاثة وزراء يفتخرون بأنهم شاذون جنسيا .(٤)

---

(١) انظر عمل المرأة فى الميزان : ١٣١ .

(٢) صحيفة الشرق الاوسط ، عدد ٢٠٨٦ تاريخ ١٧/١١/١٤٠٤ الموافق ١٤/٨/١٩٨٤ .

(٣) انظر حضارة الاسلام العدد الثالث العام ١٩٦١ ص ١٠٢

(٤) انظر عمل المرأة فى الميزان ١٣٣ - ١٣٥ وانظر صحيفة الشرق الاوسط عدد ١٢٧١ تاريخ ٢٢/٥/١٩٨٢ ص ١٦ .

وقد ضبطت الشرطة الامريكية النائب الجمهوري " جون فيسون " وهو يمارس الشذوذ الجنسي في داخل ابنية الكونغرس مع أحد مساعديه . (١)

وقد تولى أعضاء من جمعيات الشاذين رئاسة بعض الاحزاب السياسية الكبيرة كحزب الاحرار البريطاني الذي كان رئيسه لا يخفى انه شاذ جنسيا .(٢)

ومما يذكر في بداية تأليف جمعيات الشاذين في الولايات المتحدة ، انه حين كان الشذوذ ما يزال يرتكب سرا ، عمد أحد الضباط الامريكيين ، وهو يهودي ، الى تعليق لوحة على مكتبه أعلن فيها انه شاذ جنسيا ، فطرد من الجيش ، فما كان من صحيفة التايمز الا ان نشرت صورة الضابط المطرود على غلافها ، ورفعت عقيرتها بالدفاع عن الحرية الشخصية المعتدى عليها في حادثة هذا الشاذ ، ودعي الضابط المذكور الى القاء المحاضرات عن الوقوف ضد الحرية الجنسية ، وعن الاضطهاد والتفرقة على أساس الجنس ونجحت الحملة اليهودية فتكونت الجمعيات التي ترعى هذه الظاهرة وأصدرت هذه الجمعيات صحفا تدافع عنها ، وتولى اعضاؤها أرفع المناصب . (٣)

د ـ الزنا بالمحارم :

نشرت بعض الصحف الغربية عام ١٩٧٩ ملخصا لابحاث قام بها نفر من الاخصائيين من الاطباء والقضاة الاميركيين حول ظاهرة الاتصال الجنسي بالمحارم ، ومما جاء في هذا أن هنالك عائلة من كل عشر عائلات في المجتمع الامريكي يمارس فيها هذا اللون من الانحراف ، وان ٨٥ ٪ من ذلك يتم مع

---

(١) المجتمع عدد ٥١٥ السنة الحادية عشرة بتاريخ ٥ ربيع الثاني ١٤٠١ الموافق ١٠ فبراير ١٩٨١ ص ١٨

(٢) انظر عمل المرأة : ١٣٥

(٣) انظر المصدر السابق : ١٣٥ - ١٣٦ .

الامهات والبنات والاخوات ، ويقول التقرير : ان اصحاب هذا الشذوذ ليس هم من المجرمين ، ولا ممن يعانون من امراض نفسية ، وانما هم من رجال الاعمال والفنيين الناجحين ، ويذكر التقرير أن من هذه الحالات قيام الام بممارسة ذلك مع ابنها الصغير وقيام الاب بممارسته مع ابنته الصغيرة. وتقول بعض المجلات الغربية أن الاعتداءات الجنسية على الاطفال من قبل آبائهم أكثر بكثير مما هو معروف . (١)

ورغم تحذير كثير من الباحثين والاطباء وعلماء النفس بمرارة من الاضرار الصحية والنفسية والاجتماعية القاسية لهذا الشذوذ ، فان بعض الصحف تقود حملة عنيفة لاباحته ، وذلك على أساس أنه أمر واقع . وانه حق للطفل ليتخلص من الكبت الجنسي ، ويتولى كبر هذه الدعوة الفاجرة اليهود بما يملكون من صحف ووسائل اعلام مختلفة .

يقول الانثروبولوجي يهودى كوهين : (ان منع نكاح المحرمات ليس الا من مخلفات الانسان البدائي الذى احتاج لاجراء معاهدات واتفاقات تجارية خارج نطاق الاسرة فقام عند ذلك بمنع نكاح المحرمات ، وبما ان ذلك لم يعد له أهمية فان هذا المنع يصبح امرا قد عفى عليه الزمن) . (٢)

وقد انتجت موءسسة هوليود وحدها ستين فيلما عن نكاح المحرمات.(٣)

وقد ابيح نكاح المحارم فى بعض البلدان الغربية كالسويد التى أباحته مع الاخت ، والدعوة لاباحته مع الام والبنت وشيكة النجاح . (٤)

---

(١) انظر المصدر السابق : ١٤٢ .

(٢) انظر المصدر السابق : ١٤٤ .

(٣) انظر المصدر السابق : ١٤٤ .

(٤) المصدر السابق : ١٤٢ .

هـ ــ الابتزاز الجنسي :

لقد باتت المرأة الغربية العاملة تعاني بشكل مكشوف من هذا اللون من الابتزاز ، حيث يستغل الرجل رئاسته في العمل للمرأة ، ودوره كرئيس في ترقيتها وزيادة أجرها ونحو ذلك مما يتعلق بالعمل ليبتزها جنسيا ، ويدفع المرأة خوفها على مستقبلها وأجرها الى الاعراض عن شكوى رئيسها والرضوخ لمطالبه أو تحمل اهاناته في هذا المجال ، ومع هذا فان حالات كثيرة أدت الى ترك المرأة للعمل ، ووصلت حالات كثيرة أخرى الى القضاء . وتظهر هذه الاعتداءات أحيانا على شكل كلام بذيء ونكات جنسية لاذعة ، حتى أصبحت كثير من النساء العاملات في الغرب يأخذن الحبوب المهدئة قبل الذهاب الى العمل لتستطيع أعصابها احتمال مثل هذا الكلام الفاضح الذي مبعثه ليس الناحية الجنسية فحسب ، حيث يمكن قضاؤها هناك بسهولة ، وانما حب التسلط والرغبة في اظهار القوة والسيطرة من جانب الذكر على الانثى .

وفي عام ١٩٧٨ صدر كتاب لباحثة امريكية اسمها " لين فارليي" بعنوان " الابتزاز الجنسي " الذي أخرج القضية من السرية الى العلنية ، فأثار ضجة كبيرة في الاوساط الاميركية ، وقد وصفته احدى الصحف بأنه مهم جدا وانه أهم ما صدر في هذا الباب ، وقالت : ان أدلته دامغة . وقد أوضحت المؤلفة في كتابها ان هذه الظاهرة منتشرة في المؤسسات العامة منها والخاصة ، وفي الجامعات وفي المستشفيات ، وأقسام الشرطة والقضاء ومكاتب الامم المتحدة والفنادق والبيوت ومختلف أماكن العمل والتوظيف . وأوردت في الكتاب امثلة كثيرة لهذا الابتزاز اللانساني المروع ، والذي أدى بالبعض من النساء الى محاولة الانتحار ، والى الانتحار الفعلي أحيانا. (١)

ومن آخر ما تفتقت عنه هذه العقلية الغربية الجنسية أن اصبحت

---

(١) انظر المصدر السابق : ١٤٧ - ١٥٣.

الفاحشة تمارس باسم العلاج ، فقد نشرت مجلة علم النفس التى تصدر بالولايات المتحدة دراسة أعدها اثنان من أساتذة جامعة كاليفورنيا ، ومما جاء في هذه الدراسة التى أجريت على اربعمائة وستين طبيبا : ان واحدا من كل عشرين من هؤلاء الاطباء لهم علاقات جنسية بمريضاتهم - الى هنا والامر ليس غريبا فى الغرب الذى يعج بالغرائب والعجائب ، وتضيف الدراسة - : ان هذه العلاقة تعتبر جزءا من العلاج . (١)

و - ظهور العراة تماما على المسارح وفى الاماكن العامة وممارسة العمليات الجنسية أمام الجمهور :

ذلك أن الهياج الجنسى لم يعد يوقفه شيء ، فما يكاد يطلب امرا حتى يعتاده ويمله ويطلب ما هو أفحش منه ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ((ان مما ادرك الناس من كلام النبوة الاولى اذا لم تستح فاصنع ما شئت)) (٢) ، وهذا هو حال هذه الجاهلية الغربية ، لقد ودعت كل ما يتعلق بالحياء وقيود الادب ، فلم تعد تتورع عن شيء . فكيف وزمرة يهود لا تكف عن مهمتها فى تزيين وتشجيع كل ما يستأصل الاخلاق والاديان عند الاممين .

(ويكتب بول بيورو أنه ربما تعرض على المنصة نساء عاريات لا تكون على أجسامهن خرقة ثوب ، وقد كتب " أودلف برياسون " فى جريدة طان الفرنسية المشهورة يحتج ويعترض على مثل هذه المنكرات : (لقد بلغ السيل الزبى

---

(١) انظر مشكلات الشباب فى ضوء الشريعة : ٤٠ .

(٢) رواه البخارى فى الانبياء ٦ : ٥١٥ ، وفى الادب ١٠ : ٥٢٣ . ورواه أبو داود فى الادب ٥ : ١٤٨ - ١٤٩ . وابن ماجه فى الزهد ٢ : ١٤٠٠ . وأحمد ٥ : ٢٧٣ .

ولم يبق بعد هذا كله سوى أن يعرض على أنظار الجمهور منظر الفاحشة بعينها ، والحق أن الفن الجميل لن يستكمل بدون ذلك) . (١)

والواقع أن الفن اذا كان لا يستكمل جماله الا بذلك فانه كثيرا ما استكمله وعرضت الفاحشة أمام الجمهور .

وقد نشرت الصحف البريطانية عام ١٩٧٠ أن مدرّسة شابة في الخامسة والعشرين من عمرها ،كانت تدرّس الجنس لمجموعة من المراهقين في احدى المدارس البريطانية ، فكانت تخلع ملابسها أمامهم قطعة قطعة حتى تتعرى تماما ، فقررت ادارة التعليم ووزارة التعليم ايقاف المدرسة المذكورة ما لم تكف عن فعلتها تلك ، وفي اليوم التالي لصدور الامر بذلك نشرت جريدة الديلي ميرور صورة المدرسة عارية في صفحتها الاولى ، وهاجمت الادارة والوزارة لاعتدائهما على حرية المدرّسة وتنكرهما لجهودها في تربية الاطفال تربية سليمة من العقد ، واتهمتهما بالتخلف والرجعية والوقوف ضد العلم ودعت الصحيفة الى قيام المظاهرات تأييدا للمدرّسة العبقرية ، وبالفعل قامت المظاهرات ، ولم تجد الوزارة بدا من الانصياع صاغرة الى الرأي العام والسماح للمدرسة بمواصلة دروسها الجنسية العملية . (٢)

ووصل الحال في المسرحيات الى ظهور الممثلين والممثلات العراة وأداء عروض في منتهى الفحش . ومن هذه المسرحيات : مسرحية " تشي غيفارا " التي عرضت في نيويورك ، وظهر فيها الممثلون عراة ومارسوا عملية الشذوذ الجنسي ـ اللواط ـ أمام أعين الجمهور ، وفي المدينة نفسها ظهر في مسرحية " اوه كالكوتا " عشر شخصيات ، نصفهم من الذكور ونصفهم من الاناث ليقوموا بممارسة الفاحشة أمام جموع المتفرجين والمتفرجات بشكل حيواني

---

(١) الحجاب : ٨٧

(٢) انظر عمل المرأة في الميزان : ١٢٧ - ١٢٨ .

مثير . (١) وما هذه الا امثلة لكثير مما يحصل فى المسارح والملاهى ودور الخيالة .

وفى الدينمارك وصل الامر أن تمارس الممثلة العملية الجنسية مع كلبها الضخم المدرب على ذلك أمام الجمهور وتتحداهم من يبارى الكلب فى ذلك . (٢)

وقد نشرت الصحف أن احدى جلسات الكونغرس الاميركى تعطلت لانشغال الاعضاء بالنظر الى امرأة قد وقفت فى شرفة عمارتها المقابلة للمجلس وهى عارية تماما لا يستر جسدها شىء البتة ، فانشغل الاعضاء بفتنتها ، وتعطلت أعمال أكبر دولة فى العالم ريثما بعث رئيس المجلس من يرجو المرأة ان تدخل الى مسكنها أو تكتسى ليتمكن المجلس من متابعة أعماله . (٣)

الى آخر ما تنشره الصحف من مثل هذا الهبوط والاسفاف الذى يبعث على التقزز والغثيان ، والقوم لم يشبعوا بعد ، وما يمكن لهم أن يشبعوا من ذلك ما داموا لا يرون فى الحياة الا اللذة المادية .

ز ــ تبنى الكنيسة لاساليب الفساد والفحش :

ان كل ما ذكرناه من صور الانحراف على بشاعتها تهون بالنظر الى تملق الكنيسة لشهوات المتهتكين ، لان قبول الكنيسة للانحراف واستغلاله فى جلب الناس اليها ونشر رسالتها بينهم ، يمنح هذا الفساد المبرر والمسوغ الشرعى فى نظر الناس ، ويهدم أية قاعدة نظرية للقضاء عليه ، ويجعلهم يشعرون ان التورع عن الوقوع فى التهتك والمجون شىء لا يجدر التفكير فيه

---

(١) انظر خطر التبرج والزينة : ١٤٦ .

(٢) عمل المرأة فى الميزان : ١٣٨ .

(٣) انظر التفكير الفلسفى الاسلامى : سليمان دينا : ١٧١ - ١٧٢ .

ما دامت الكنيسة نفسها لا تكف عنه ،بل تتبنى أساليبه ، ولسنا نعنى بهذا ما يقع من رجال الكنيسة من انحراف السلوك وفساده ، والذى سبق ان تحدثنا عن الوان ونماذج منه فى العصور السابقة ، وما يزال متفشيا فيما بين رجال الكنيسة مع ما أضفت اليه وعليه القرون الاخيرة من اتساع وانحطاط يضاف الى انحطاطه . (١) وانما الذى نعنيه تبني الكنيسة لاساليب منحطة من أجل ترغيب الناس فى الاقبال عليها ، وهو أخطر من كل الانحراف السابق لرجال الدين ،لان ذلك كله كان يتم فى العصور السابقة على صورة شخصية ، ويتم فى السر والحرج أو على الاقل دون ان يبرر ، وأن يعتبر وسيلة مقبولة من الناحية الدينية ،بل ومطلوبة باعتبارها تخدم رسالة الدين .كما هو الحال فى هذا العصر .

---

(١) ومما نشر من الوان فسادهم فى هذا العصر ما ذكرته الصحف البريطانية كالديلى اكسبرس والديلى ميل عام ١٩٧٠ فى احصائيات وصلت اليها بطريقة بارعة جاء فيها : أن ٨٠٪ من القسس والرهبان مارسوا الجنس أى الزنا ، وما يقرب من ٤٠٪ منهم مارسوا الشذوذ الجنسي . وطالبت الصحيفتان بالغاء نظام الرهبانية لانه مبنى على الكذب والخداع .

وقد نشرت احدى العاهرات الفرنسيات مذكراتها فجاء فيها اسماء ثلاثة باباوات وأحد عشر كردينالا . وذكرت صحيفة نيوزويك أن ان كردينالين فرنسيين مات كل منهما وهو فى حضن عاهرة الى آخر ما تنشره الصحف من هذا القبيل .

انظر عمل المرأة فى الميزان : ١٣٥ .

ان الناس بعد ان استدبروا الكنيسة وتعاليمها ، وخشيت الكنيسة أن يهجروها ، أرادت ان تتشبث بهم وأن تعيدهم الى حظيرتها ، أو على الاقل لزيارتها وحضور صلواتها وتراتيلها ، غير أنها لم تعد تستطيع ذلك عن طريق قرارات الحرمان ، وبواسطة بيع صكوك الغفران . ووجدت أن سوق الرقص والاختلاط والتعرى هى السوق الرائجة ، فلم تتورع فى كثير من الاحيان عن سلوكها لتجذب الناس اليها فيدخلوها ، حتى لو كان حضورهم لسبب ينافى رسالتها . قال الاستاذ سيد قطب ، وقد كان معنيا بدراسة الحياة الاجتماعية الامريكية ومنها الجانب المتعلق بالكنيسة : (وهذه مثلا محتويات اعلان حفلة كنسية كانت ملصقة فى قاعة الطلبة فى احدى الكليات ، لجذب طلبة الكلية وطالباتها الى كنيسة معينة فى المدينة الجامعية الصغيرة : عشاء خفيف . العاب سحرية ، الغاز ، مسابقات . تسلية . رقص) .

(وبعد أن انتهت الخدمة الدينية فى الكنيسة ، واشترك فى التراتيل فتية وفتيات من الاعضاء ، وأدى الآخرون الصلاة ، دلفنا من باب جانبى الى ساحة الرقص الملاصقة لقاعة (الصلاة) . . يصل بينهما باب . . وصعد (الاب) الى مكتبه ، وأخذ كل فتى بيد فتاة ، وبينهم وبينهن أولئك الذين واللواتى ، كانوا وكن يقومون بالترتيل ويقمن .

(وحمى الرقص على أنغام (الجرامفون) وسالت الساحة بالاقدام والسيقان ، والتفت الاذرع بالخصور والتقت الشفاه والصدور . وكان الجو كله غراما . حين هبط الاب من مكتبه ، والقى نظرة فاحصة على المكان ومن فى المكان ، وشجع الجالسين والجالسات ممن لم يشتركوا فى الحلبة ، على ان ينهضوا فيشاركوا . . وكأنما لحظ أن المصابيح البيضاء تزيد نسبتها فتفسد ذلك الجو (الرومانسى) الحالم ، فراح فى رشاقة الامريكانى وخفته يطفئها واحدا واحدا ، وهو يتحاشى ان يعطل حركة الرقص ، أو يصدم (زوجا) من الراقصين فى الساحة . . وبدا المكان بالفعل أكثر رومانسية) الى آخر ما يذكره رحمه الله عن هذا الاب ، واختياره لاغنية غرامية مثيرة تشجع الشباب

على الاندماج اكثر فيما هم فيه . وما يذكره عن اهتمام بعض آباء الكنيسة بالفتيات ذات الجمال الفاتن دون غيرهن بحجة ان مجيئهن الى الكنيسة يدفع الشباب الى دخول الكنيسة وهم يتابعون تلك الجميلات . (١)

ومما جاء في تقرير صدر عن لجنة مجلس الكنائس البريطاني حول الجنس والفضيلة ، ونشر في مجلة التايم عام ١٩٦٦م أن الكنائس (ضد الاستغلال الجنسي ، وانها تبارك الصلة الجنسية في الزواج ، ولكنها ترفض الرأى الداعي الى العفة قبل الزواج والامانة بعده ، وترفض أن تساند رأى الانجيل ضد الزنا الذى تراه مسموحا به في بعض الاحيان ان شكل امتزاجا شاملا بين بالغين راضيين) ويدعو التقرير الى تهيئة وسائل منع الحمل لغير المتزوجات والى التوسع في اباحة الاجهاض ، والى مساواة المرأة بالرجل في الحرية الجنسية . (٢) وذلك بدلا من ان يوصي بدعوة الرجل الى العفة .

ولما نشرت احدى مجلات اللوطية في بريطانيا هجوما على الدين ، لانه يحرم الشذوذ الجنسي ، وبذلك يسبب – والكلام للمجلة – كثيرا من المشاكل للناس ، رد عليها أحد القسس قائلا : (ان الكنيسة الان في حالة مخاض وانه عما قريب ستعترف الكنيسة بالشذوذ الجنسي ، وأن الشاذ جنسيا انسان عادى له الحق اذا اراد أن يصبح قسيسا أو شيئا آخر) . (٣)

وفي كندا قرر اساقفة الكنيسة الانجيلكانية السماح للشاذين جنسيا بأن يصبحوا كهنة . وقال أحد رجال الدين المرموقين هناك : (ان القرار نابع من ادارك الكنيسة بأن الشذوذ الجنسي حقيقة واقعة ، والى حاجة الكنيسة

---

(١) الاسلام ومشكلات الحضارة : ٨٥ – ٨٨ .

(٢) محاضرة للدكتور حسان حتحوت بعنوان " ثورة الجنس في عالمنا المعاصر " منشورة ضمن " الاسلام والحضارة " ٢ : ٢٦٠ .

(٣) عمل المرأة في الميزان : ١٣٤ .

بأن تكون أكثر ليونة فى اتخاذ القرارات . وأضاف ان السماح بالشذوذ سيكون امرا خاصا بين المرشح والاسقف) . (١)

ولم يعد رجال الكنيسة فى سبيل جمع المال يتورعون عن بيع الكنيسة ذاتها أو تأجيرها،حتى سمحت بعض الطوائف فى الولايات المتحدة بتأجير احدى الكنائس للموسات لاقامة اجتماع لهن بهدف تشكيل لجنة للدفاع عن شرف المهنة! . (٢)

ومن المذهلات فى عالم التدين الكنسى فى القرن العشرين ان يقف قس هيكل الكنيسة ليعقد زواج بين رجل ورجل أحدهما يحتل مكانة الانثى ويوقع القس العقد ويباركه ويمهره بخاتم الكنيسة . (٣)

وهكذا اختارت الكنيسة ان تتملق شهوات الناس وتبارك انحرافهم وشذوذهم ، وان تتنازل عما هو من أهم مبادئها ، مقابل ان يدخلها الناس - مهما يكن سبب هذا الدخول ، حتى لو كان ذلك لوجه الشيطان -.

وهكذا انتقلت الكنيسة من النقيض الى النقيض ، فكانت بالامس تستقذر كل صلة بين الرجل والمرأة ، حتى لو كانت عن طريق الزواج ، وقفزت اليوم لتبارك زواج رجل لرجل . ولله فى خلقه شؤون .

ح — تفشى الامراض الجنسية :

لم يكن بد وقد انتشرت الفواحش على هذه الصورة من ان تتبعها نتائجها الطبيعية ، ومن هذه النتائج انتشار الامراض الجنسية التى شاعت

---

(١) صحيفة المجتمع عدد (٤٣٦) تاريخ ١٤ ربيع الآخر عام ١٣٩٩ الموافق ١٩٧٩/٢/١٣ ص ٢٥ .

(٢) المصدر السابق عدد (٤٣٨) السنة العاشرة ، ٢٨ ربيع الآخر ١٣٩٩ الموافق ١٩٧٩/٣/٢٧ ص ٢٢ موضوع ليوسف العظم بعنوان " امريكا من الداخل ".

(٣) المصدر السابق فى الموضع نفسه . وانظر ما نقلته الشرق الاوسط من هذا القبيل فى عددها ١١٨٩ تاريخ ١٤٠٢/٥/٦ هـ .

ارادة الله ان تجعلها مترتبة على الخنا والفجور ،فرغم ما تبذله الدول الغربية من وسائل الرعاية الصحية والمراقبة الطبية لدور البغاء ومكامن الفساد ،ورغم الانتشار الواسع للمضادات الحيوية ،فان هذه الامراض ما تزال تعجل الجزاء لهذه المجتمعات بصورة مفزعة . ففى فرنسا البلد العريق فى الحرية الجنسية اضطرت الحكومة أن تعفى فى العامين الاولين من سنى الحرب العالمية الاولى خمسة وسبعين الف جندى ،لاصابتهم بمرض الزهرى ،حيث انتشر هذا المرض فى الجيش الفرنسى انتشارا مذهلا حتى ان عدد الجنود المصابين بهذا المرض قد وصل فى ثكنة عسكرية واحدة الى اثنين واربعين ومائتين فى آن واحد . ويعتبر هذا المرض هناك من أفتك الامراض ويقدر عدد من يتوفون به سنويا بثلاثين الف من المصابين.(١)

وما هذا الامرض واحد من أمراض كثيرة تترتب على هذا اللون من الحرية.

ويقدر ان حوالى تسعين فى المائة من الامريكيين قد اصيبوا بالامراض الجنسية ، ويموت سنويا ما بين ثلاثين الى أربعين الف طفل بمرض الزهرى الموروث وحده ، وتربو الوفيات المتسببة عن الزهرى وحده على جميع الوفيات الناتجة عن جميع الامراض الاخرى عدا السل هناك . ويقدر المسؤلون أن اكثر من ستين بالمائة ممن هم فى سن الشباب وفيهم المتزوجون قد اصيبوا بالزهرى ، ويتفق أطباء امراض النساء على ان خمسة وسبعين بالمائة من النساء اللواتى أجريت لهن عمليات جراحية على الاعضاء الجنسية هن متأثرات بمرض السيلان . (٢)

ويقول د . براون عضو المركز الامريكى لمكافحة الامراض الجنسية : (أن ستمائة وخمسين الف من الامريكان شبابا وفتيات تحت سن العشرين يصابون

---

(١) انظر الحجاب : ٩٢ .

(٢) القوانين الجنسية : ٣٠٤ ،عن الحجاب : ١٠٩ .

بالزهرى أو السيلان سنويا . وان حالات الزهرى المعروفة قد ازدادت فى عام واحد ٥٥ بالمائة فى نيوجرسى و ٣٣ بالمائة فى مدينة نيويورك) .(١)

ويعلن د . ماكنزى بولوك عضو الجمعية الصحية الامريكية (عن تفاقم الاصابات ويدعو الى اعلان حالات الطوارئ القومية) .(٢)

ويعلم مما أوردته دائرة المعارف البريطانية عن بريطانيا (أنه يعالج فى المستشفيات الرسمية هناك مائتا الف مريض بالزهرى، ومائة وستون الف مصاب بالسيلان فى كل سنة ،بالمعدل وقد اختصت بهذه الامراض الجنسية وحدها ستمائة وخمسون مستشفى ،على انه يفوق هذه المستشفيات الرسمية نتائج الاطباء غير الرسميين الذين راجعهم ٦١٪ من مرضى الزهرى و ٨٩٪ من مرضى السيلان) .(٣)

وما كادت المضادات الحيوية تخفف من حدة هذه الامراض ، وخاصة بعد اكتشاف البنسلين حتى أعلن عن اكتشاف جراثيم جديدة لهذه الامراض قد فقدت حساسيتها للبنسلين ،وأصبح لديها مناعة ضد المضادات الحيوية، ولوحظ التطور فى سن الغالبية من المصابين حيث أصبح هذا السن بين ١٥ - ٢٥ ،وفى سنة ١٩٦٥م كان ٢٧٪ من النساء المصابات هن دون العشرين ،كما لوحظ ارتفاع الاصابة عند الاناث بشكل جاوز الذكور وقد كان فى السابق أقل من الذكور ،ذلك ان المريضة اليوم لم تعد هى بغى الامس ولكنها البنت العادية أو الموظفة أو الزوجة أصابها ما أصابها من مس الاستهتار والمجون .(٤)

---

(١) ثورة الجنس فى عالمنا المعاصر ،ضمن الاسلام والحضارة ٢ : ٢٧٢ ،

(٢) انظر الحجاب : ٩٢ ،

(٣) ٢٣ : ٤٥ عن الحجاب : ١٠٩ .

(٤) انظر الاسلام وتنظيم الاسرة لحسان حتحوت : ٢ : ٣٢٩ - ٣٣٠ .

كما اكتشفت أيضا امراض جنسية جديدة بين الشاذين لم تكن معروفة من قبل مثل التهاب الكبد الفيروسي الذى ينتقل عن طريق الشرج ، ومثل سرطان القناة الشرجية وغَير ذلك من الامراض . (١)

٢ — المشروبات الكحولية :

لا تعرف المتعة المادية القيود والحدود ، حتى لو كانت هذه النشوة على حساب أهم وأشرف ما في الانسان وهو العقل-دعك من الروح فان العقل الحديث لا يكاد يؤمن بكل ما ليس هو بمادى - والذى هو اساس الحضارة والمدنية ، والة التقدم العلمي والصناعي . والخمرة قرين الانحلال ، تغرى به ويغرى بها ، تشيع حيث يشيع ، وينحسر حيث تنحسر ، لان كلا منهما ثمرة الانقياد للهوى والشهوة .

والانسان الغربى المعاصر مغرم بالخمرة تعلقا منه باللذة الآنية ، تشجعه على ذلك اغراءات الدعاية البراقة الزائفة فى الرائى والخيالة والصحافة احيانا ، وفرارا من احساسه النفسى البائس ، وهروبا من مشاكله المتعددة وضعفا منه عن الصمود أمام ضغوط الواقع المريرة أحيانا أخرى . قال " والترج " فى كتابه " علم نفس الشواذ " : (دائما نستدل على وجود المشكلات الشخصية اذا كان الشخص يفرط فى تناول الكحول أو يد من المخدرات المنومة) . (٢)

وما تزال الاحصائيات الرسمية والتقارير العلمية تحذر وتنذر من كثرة معاقرى الخمرة ، ومن الارتفاع الكبير فى اعداد المدمنين عليها الذين لا يكادون يصبرون على فراقها ، ومن خطورة وكثرة الامراض الناشئة عنها ومن فداحة الخسائر والاخطار الناجمة عن انتشارها .

---

(١) انظر عمل المرأة فى الميزان : ١٣٧ .

(٢) ص ٢٠٤ .

ويقدر عدد المدمنين عليها في أوائل الستينات في الولايات المتحدة وحدها بحوالي أربعة ملايين شخص (١)، وفي بريطانيا حوالي نصف مليون (٢)، غير أن السنوات العشرة الاخيرة قد شهدت ارتفاعا كبيرا في أعداد المدمنين، فقد ارتفع العدد في الولايات المتحدة الى عشرة ملايين مدمن، وفي بريطانيا الى حوالي مليون، وهناك اربعة الى خمسة بالمائة من السكان في الولايات المتحدة مدمنين، واثنان بالمائة في بريطانيا مدمنين. وتصل هذه النسبة الى ثمانية بالمائة في بعض بلدان اوروبا. علما بأن المدمنين لا يشكلون الا نسبة صغيرة من الشاربين. (٢) واشارت بعض الدراسات الى انه في كل مائة الف من الامريكيين يوجد ٤٣٩٠ مدمنا. (٣) وفي فرنسا اربعة ملايين مدمن. (٤)

ويقدر ما ينفق على الخمر في الولايات المتحدة بأكثر مما ينفق على التربية والتعليم. (٥)

ويقدر ان ثلاثين في المائة من الاسرة في مستشفيات فرنسا يشغلها مرضى الادمان، وقد انفقت هذه الدولة عام ١٩٧٨ اربعين بالمائة من مخصصات الرعاية الاجتماعية العامة على معالجة حوادث التسمم الكحولي في باريس وحدها. وانفق الضمان الاجتماعي في الدولة ذاتها عام ١٩٧٣م عشرة مليارات من الفرنكات لمكافحة آثار السكر. (٦)

---

(١) الخمرة بين الطب والفقه، محمد على البار : ٢٠٧

(٢) الخمرة بين الطب والفقه : ٢٠٧، نقله عن المرجع الطبي سيسل ولوب.

(٣) المسكرات بين الشرائع والقوانين الجنائية، اسماعيل الخطيب :٤٣،

(٤) الخمر ومضارها على الجسم والعقل : نبيل الطويل . من المقدمة لزهير الشاويش ص ٨ .

(٥) المسكرات بين الشرائع والقوانين : ٤١ .

(٦) الخمر ومضارها على الجسم والعقل، المقدمة : ٨ .

وكان مما أعلنه أحد وزراء الصحة الفرنسيين عن ضحايا الخمر في الخمسينات ممن أدت بهم الى الوفاة في عام ١٩٥٤ حوالى احد عشر الفاً . وارتفع عام ١٩٥٦ الى عشرين الفا . ويقول : انه في عام ١٩٥٧ كان عدد الذين دخلوا المستشفيات لعلاجهم من الامراض الناتجة عن الادمان أكثر من ستة وستين الف شخص . (١)

ومن المعلوم ان عادة الادمان قد توسعت كثيرا وتضاعفت في المجتمع الفرنسي ،كما تضاعفت في غيره بعد الخمسينات ،فلا بد ان عدد الضحايا قد ارتفع ايضا .

وفي روسيا فان الافراط في السكر يعتبر من أكبر المشاكل الاجتماعية، وتذكر مصادر رسمية أن ثلاثة أرباع الجرائم العنيفة وثلثي الحوادث الخطيرة التي تقع في المصانع أو من جراء حركة السير ، ونصف حوادث الطلاق تعزى أسبابها الى السكر . ويقول أحد كبار لجنة التخطيط الحكومية في روسيا (ان التسمم بالكحول أو الافراط في السكر يعتبر أخطر القضايا التي نواجهها والتي تؤثر على الانجاب وارتفاع نسبة الوفيات ، وبالتالي على الاقتصاد الوطني) . (٢)

وأثر الخمر على حوادث السير متوقع ومشاهد فان من يقود سيارة أو قاطرة أو طائرة أو غير ذلك من وسائل النقل ومنتجات التقدم العلمي ، وهو غير مالك لزمام تصرفاته ولا يتمتع بعقله ورشده ،أنى له أن يحافظ على حياته وحياة غيره من الناس الذين يرافقونه في سيارته أو الذين يشاركونه السير على الطريق .

وقد مات في عام ١٩٧٨ في المانيا وفرنسا احد عشر الف في حوادث

---

(١) حضارة الاسلام ،السنة الاولى ١٣٨٠ ص ٨٤٧ .

(٢) صحيفة الرياض ،عدد ٤٩٩٨ تاريخ ١٨ صفر ١٤٠٢هـ الموافق ١٤/١٢/١٩٨١ .

كان سبعون بالمائة منهم مخمورين . (١)

وفي الولايات المتحدة قال تقرير لوزارة المواصلات : (ان الخمر تسهم في قتل ثلاثين الف شخص سنويا في حوادث الطرق ، وان مليونين من الاشخاص يصابون بجروح بالغة في هذه الحوادث) . (٢)

وقد نشرت الصحف السوفياتية انباء القطار الذى ظل يسير حتى تحطم وحطم من فيه ، وذلك بسبب السكر الذى غطى به اثنان من المهندسين المكلفين بتوجيهه . (٣)

ولا يوجد شك في ان الكحول هو السبب الاول لحوادث السيارات والقطارات في اوربا وامريكا وانه يتسبب في ما لا يقل عن خمسين بالمائة من هذه الحوادث . واذا كانت تقارير الشرطة تقل أحيانا عن هذه النسبة فليس مرد ذلك الى القلة الفعلية ، وانما مرد ذلك الى القوانين هنالك التى لا تعتبر وجود حالة السكر بمجرد شرب الخمرة ، بل لا بد ان تصل كمية الكحول الى نسبة معينة حددت بمائة ملجرام في كل مائة سنتي من الدم ، مع انه ثبت علميا وشوهد واقعيا أن أية كمية يأخذها الانسان من الكحول مهما قلت ومهما كان معتادا ، لا بد ان تؤثر على يقظته وتنبهه تأثيرا يختلف في مداه حسب الكمية وحسب الشخص ، ولكنه على اية حال تأثير واقع. (٤)

قال " والترج " : (يعتبر الشراب المفرط أهم عامل في تغيب العمال في المصانع ، ففي كل يوم يتغيب حوالي (١٧٥٠٠٠) شخص عن أعمالهم بسبب الشرب . ويصل مقدار الخسارة السنوية في الصناعة الى أكثر من ستين

---

(١) الخمر ومضارها على الجسم والعقل ، من المقدمة : ٨ .

(٢) معالم الحضارة لعبد الله علوان : ١٧٨ .

(٣) صحيفة الرياض : العدد المشار له قريبا نفسه .

(٤) انظر الخمر بين الطب والفقه : ٤٣ .

مليار عمل يومى) . (١)

واذا كان " والترج " يقول ذلك فيما قبل الستينات ، فلك أن تتصور كم تضاعفت هذه الخسائر مع تضاعف الادمان .

وقد نشرت هيئة الصحة العالمية الخسائر الناتجة عن الادمان فى سنة واحدة كالاتى :

٤٣٤ مليار دولار خسائر الاجور .

١٨٨ مليار دولار بسبب الجرائم .

٨٩ مليار دولار بسبب الحوادث .

٣١ مليار دولار بسبب الرعاية الطبية .

٢٥ مليار دولار بسبب احتجاز اشخاص بالسجون المحلية

٨٦٧ مليار دولار مجموع هذه الخسائر . (٢)

وما أسهل وأسرع ان يتحول من يشرب الخمر الى الادمان الذى لا يستطيع معه ان يفارق الخمر لساعات حتى يعود اليها : وذلك حينما يتعرض لمشاكل اجتماعية أو مالية .

أما عن الاضرار الصحية والنفسية التى تنجم عن الخمرة فهى أكثر من ان نحيط بها فى مثل هذه المناسبة ، فانه لا يكاد يسلم منها عضو من الاعضاء . ومن أهم هذه الاضرار التى كشف عنها العلم : اصابة الجهاز العصبى وخاصة خلايا قشرة المخ التى تتحكم فى التفكير والارادة بالضمور والتأكل ، مما يؤدى الى آثار مفجعة ليس أكبرها الاصابة بالهلوسة وخاصة لدى المدمنين ، وتتأثر كل الاحساسات من السمع والبصر والشم والذوق واللمس من جراء هذا المشروب الخبيث . ومنها أيضا التهاب عصب العين الذى يمكن ان يؤدى الى العمى ، والاصابة بارتعاش العضلات والاطراف ،

(١) علم نفس الشواذ : ٢٠٥

(٢) المسكرات بين الشرائع السماوية والقوانين الجنائية : ٤٣

ومنها شلل الاطراف واصابة الاعصاب الشوكية ، ومنها عدم القدرة على حفظ التوازن أثناء المشى بسبب تاكل عضلات المخيخ ، وضعف الذاكرة وفقدانها أحيانا . ومنها الالتهابات الرئوية ، والتهاب جدران المعدية ، وتقرحات الفم ، والتهاب البلعوم المنتن ، والتهاب المرىء المزمن ،والقرحة المعدية المزمنة ، وقرحة الاثنى عشر ، والتهابات البنكرياس الحادة ، والتهابات الامعاء الدقيقة والغليظة ، وتضخم الطحال ، والقىء وفقدان الشهية واضطراب الجهاز الهضمى .

ومنها : قلة ضغط الدم والشعور بالصداع وجفاف الجلد وتشققاته .

ومنها : تليف الكبد ، واعتلال عضلات القلب الكحولى ، والذى يؤدى احيانا الى الوفاة السريعة . ومنها تصلب الشرايين وجلطات القلب والمخ والذبحة الصدرية ، ومنها فقدان الجسم للمناعة ضد الامراض والجراثيم بسبب ضعف كريات الدم البيضاء عن مقاومتها ، وهذا الضعف ناجم عن الاضرار الكحولية .

ومنها : فقر الدم ونقص الفيتامينات من الجسم ، وتسرب الحرارة . ومنها ايضا ضعف القدرة الجنسية ، وربما العنة ، ويخطىء من يظن أن الخمرة تقوى القدرة الجنسية فانها تثيرها ولكنها تضعفها . (١)

قال د . " سيدنى كانى " فى كتابه " علم السموم " : (ان الخمر هى السبب المباشر فى خمسين فى المائة من مجموع حالات الوفاة التى يفحصها معمل الطب بولاية فرجينيا بالولايات المتحدة) . (٢)

---

(١) انظر الخمرة بين الطب والفقه : ٢٩ - ٣٠ ، ٥١ وانظر كتاب الخمر والحياة للدكتور احمد غلوش ، وكتاب التغذية والمشروبات الروحية للدكتور امين رويحة .

(٢) الخمرة بين الطب والفقه : ٤٢ .

ويقول د . أوبرى لويس أستاذ الامراض النفسية فى جامعة لندن (فى مرجع برايس الطبى وهو أشهر مرجع طبى بريطانى : ان الكحول هو السم الوحيد المرخص بتناوله على نطاق واسع فى العالم كله . ويجده تحت يده كل من يريد ان يهرب من مشاكله) . (١)

هذا بالاضافة لاستهلاك المال فى شراء الخمرة الذى يؤثر لدى الكثيرين على امكانية شراء الاغذية مما يعرض الجسم للمزيد من الضعف ويتعدى هذا الاثر الى الاسرة كاملة بما فيهم الصغار. غير ان هذا ليس هو الاثر الوحيد على أولاد المدمنين من جراء عمل آبائهم ، فان بعض الدراسات الغربية التى أجريت على أكثر من مائتى طفل نصفهم من ابناء السكيرين ونصفهم الآخر من أبناء غير السكيرين ، تبين فيها أن نسبة الوفيات فى السنوات الثلاث الاولى فى أبناء السكيرين ثلاثة أمثالها فى الفريق الثانى . (٢)

وقد ذكر عدد من الاطباء الامريكان الذين يعملون فى مصح شادل لمعالجة الادمان ـ وهو أشهر مصح لمعالجة هذا المرض فى الولايات المتحدة ـ أن نسبة المدمنين بين الاشخاص الذين لهم تاريخ عائلى فى الادمان هى اربعة امثالها عند الاشخاص المنتمين لعائلات من شاربى الكحول العاديين . فهى عند ابناء المدمنين ٦٢٪ بينما عند الفريق الثانى ١٦ ٪ ، كما أجريت تجارب أخرى نقل فيها أولاد المدمنين من بيوت أسرهم وهم فى سن الطفولة وأنشئوا نشأة بعيدة عن الادمان وقد وجد أن نسبة كبيرة منها تحولت الى الادمان بمجرد تعرضها لشرب الخمر . (٣)

---

(١) المصدر السابق : ٢٠٩ .

(٢) المسكرات بين الشرائع والقوانين : ٤ .

(٣) الخمر بين الطب والفقه : ٢٩ - ٣٠ .

مما يدل على الاقل ان ادمان الآباء يزيد من احتمالات ادمان الابناء .

وقد أفادت احصائية أجريت في بعض المستشفيات الامريكية أن (٣٢ ٪ من الاطفال المولودين من امهات مدمنات ولدوا مشوهين و٤٤ ٪ يتمتعون بذكاء أقل من غيرهم ، اضافة الى اصابتهم بامراض القلب والدورة الدموية.(١)

وللخمر ايضا كثير من الآثار النفسية النكدة ، فان شاربها الذى يريدها مهربا من متاعبه ، ومن تضارب يحسه فى داخله ربما لا يدرك مصدره ، لا تزيده الا انطواء على نفسه وسرعة فى الانفعال والاثارة ، وضعفا فى المعنويات وبطء فى التفكير وتقلبا فى المزاج . (٢)

ولا تقف آثار الخمرة على الدولة عندما تلحقه بها من خسارة فى الاقتصاد القومى سواء أكان ذلك بسبب نقص كفاية الشارب أو بسبب تصرفات سكارى فقدوا رشدهم وعقولهم فألحقوا بالممتلكات العامة التلف والدمار ، أو بسبب ما ينفق من مال لمعالجة الآثار الضارة للسكر . بل كثيرا ما تتعدى ذلك الى فضح اسرار الدول وخطط الجيوش ، فان الخمر والجنس هما أكبر وسائل وأدوات شبكات التجسس .

ولا يفى بذكر مساوىء الخمرة الا ما وصفها به رسول الله صلى الله عليه وسلم بكونها أم الخبائث . (٣)

فليدرك من كان له آذان يسمع بها وأعين يبصر بها وفؤاد يفقه به .

٣ — المخدرات :

المخدر كالخمرة يمثل مهربا للاعصاب المحطمة والنفوس المنهكة

---

(١) صحيفة المجتمع عدد ٤٠٦ السنة التاسعة ٢٧ شعبان ١٣٩٨ أول اغسطس ١٩٧٨ ص ٩ .

(٢) انظر حضارة الاسلام عدد ٤ ، ٥ لعام ١٣٩٨ ، آثار الادمان على نفسية المدمن وسلامة نسله لمحمود ناظم نسيمى ص ٦٥ .

(٣) رواه النسائى الاشربة ٨ : ٣١٧ ، ٣١٨ .

المتعطشة للاستراحة من الهم والغم والقلق والتعاسة ، (فان نسبة متعاطي المخدرات بدافع الحزن أو الغربة أو القرف الحقيقي لواقع أيامنا هذه هي النسبة الكبرى) . (١) ذلك ان كلا من المسكر والمخدر يعفي صاحبه من الشعور الداخلي بالمصيبة أو المسؤولية ، ولو الى حين .

ويشكل ادمان المخدرات وانتشارها مشكلة عالمية تفوق مشكلة الخمرة على سعة انتشار الخمرة وفداحة مصيبتها التي تحدثنا عنها ، حتى ما يكاد يمر يوم دون تطالعنا الصحف بنبأ أو انباء عن اكتشاف عصابة أو عصابات لتهريب المخدرات في بلد أو اخر ، وقد تفشى استخدامها بين مختلف الطبقات ، بين الرجال والنساء ، في المصانع والمتاجر والمدارس والبيوت وغيرها من أماكن العمل والاستراحة .

ويقول تقرير عن المخدرات في الولايات المتحدة نشرته صحيفة الشرق الاوسط : (تتعاطى ربات البيوت في لوس انجلوس الكوكايين (مادة مخدرة) لكي يتمكّن من تنظيف منازلهن بشكل أسرع في حين يحتفظ رجال الاعمال بالمخدر في علب ذهبية صغيرة ، ويقدمون لاصدقائهم المخدر) .

وفي التقرير : (ويقدر أحد الخبراء البارزين في هذا المجال وهو الدكتور " رونالد سيجل "(٢) ان هناك على الاقل عشرة ملايين نسمة في الولايات المتحدة يستخدمون الكوكايين بانتظام ، و١٥ مليونا تعاطوا المخدرات في وقت ما ، ويصف الدكتور سيجل هذه الارقام بأنها محافظة الى حد كبير .

(ويقدر مسؤولوا ادارة المخدرات الاميركية أن مدمني الكوكايين في الولايات المتحدة ينفقون ٢٥ مليار دولار في العام على المخدر) .

---

(١) المخدرات : صلاح يحياوي : ١٧ .

(٢) وهو استاذ بقسم علم النفس بجامعة كاليفورنيا .

(وهناك مرضى انفقوا ما بين ٢٠٠٠ و ١٢٠٠٠ دولار فى الاسبوع الواحد على الكوكايين) . (١)

وجاء فى نشرة صدرت فى الولايات المتحدة سنة ١٩٧٠ :

(ان العقاقير الشائعة الاستعمال الآن فى اميركا الشمالية بين المراهقين وطلاب المدارس هى ال .اس. دى . والحشيش ومنبهات الاعصاب وهذه العقاقير موجودة ومتوفرة فى كل مدينة وقرية) . وتقول النشرة أيضا : (ان بائعى المخدرات والمروجين لا زالوا يجوبون المدارس والجامعات والمصانع والحقول يبيعون سمومهم ويربحون .

(أما عدد المتعاطين لهذه العقاقير فمن المستحيل التعرف عليه بالضبط ، وكل رقم يذكر هو أدنى من الحقيقة بكثير ، وان أكثر التقارير فى امريكا تقول ان ٧ - ١٣٪ من طلاب وطالبات المدارس الثانوية قد جربوا أحد هذه العقاقير مرة واحدة على الاقل .

(أما تقديرات جامعة كيوبك بكندا فتقول : ان الرقم يتراوح ما بين ١٥ - ٢٨٪ من طلاب وطالبات المدارس فيها . أما الرقم فيقفز قفزة كبيرة فى المدن المزدحمة مثل نيويورك وبوسطن وسان فرانسيسكو) . (٢)

وقد قدرت الحكومة الامريكية عدد مدمنى المخدرات فى مدينة نيويورك وحدها عام ١٩٥١ ، وذلك بناء على تقارير الشرطة بتسعين الفا . (٣)

وقد ضبطت الحكومة فى الولايات المتحدة عام ١٩٣٦ اربعمائة طن من مادة الحشيش وحدها . وضبطت ستمائة طن من المادة نفسها فى السنوات الخمسة التالية للسنة المذكورة . (٤)

---

(١) عدد ١٢٧١ تاريخ ٢٢/٥/١٩٨٢ .

(٢) دنيا المخدرات وعالم الهلوسة ، فؤاد القسوس : ٣٢ .

(٣) ظاهرة تعاطى الحشيش ، سعد المغربى : ٨٦ .

(٤) المصدر السابق : ٩١ .

وأوردت وكالات الانباء أن اجهزة مكافحة المخدرات فى الولايات المتحدة تمكنت فى العام الماضى من القاء القبض على افراد شبكة لتهريب الهيروين ، وقد بلغت قيمة صفقة التهريب المضبوطة " ١٦٠٠ " مليون دولار ، ووصل عدد المقبوض عليهم فى الصفقة ذاتها الى واحد وثلاثين شخصا ، يعملون فى شبكة مترامية الاطراف فى ثلاث قارات تديرها عائلات ذات تاريخ اجرامى فى الولايات المتحدة وصقلية . (١)

وتنتشر المخدرات فى دول امريكا اللاتينية بشكل واسع ، ويكفى ان نعلم انه فى عام ١٩٤٧ ضبط البوليس فى واقعة واحدة ستة الاف كيلو جرام من الحشيش ، وفى مرات أخرى وصلت الكمية الى ٣٥٠٠ كيلو جرام . (٢)

وقد قامت الامم المتحدة عام ١٩٥٠ باجراء عملية مسح للمتعاطين للمخدرات فى العالم ، فقدرت عددهم بمائتى مليون شخص . (٣)

وحذرت مديرة قسم مكافحة المخدرات فى الامم المتحدة من خطورة تزايد الطلب على المخدرات ، وأكدت أن ذلك يزيد من مشاكل التهريب ومعدلات الجريمة ، وينشر الرشوة والفساد . وأضافت: أن عمليات تهريب المخدرات تخيم على الملاحة البحرية والجوية ، وتتسبب فى تلوث صناعة صيد الاسماك ، وتضع ضغوطا أكبر على رجال الامن والجمارك فى جميع دول العالم . (٤)

---

(١) انظر صحيفة الشرق الاوسط عدد (٩٦١) تاريخ ١٠ رجب ١٤٠٤ الموافق ١١ - ٤ - ١٩٨٤ الصفحة الاخيرة .

(٢) انظر ظاهرة تعاطى الحشيش : ٩١ .

(٣) المصدر السابق : ٨٥ .

(٤) صحيفة الشرق الاوسط عدد ١٥٣٥ تاريخ ١٩٨٢/٢/١ .

٤ ـ القلق والجنون والامراض العصبية :

حين لا يرى الانسان فى الحياة هدفا الا اللذة البدنية ، فما أكثر أساه وما أعمق حزنه ، وما أشد قلقه ، وما أنكد عيشه ، أولا لان هنالك مناطق فى حنايا نفسه وفى دخيلة انسانيته لا تصل اليها المتعة الجسدية ، فلا تسد جوعتها ولا يروى ظمأها ، مهما أكل وشرب وكيفما عربد ، ولا يجلو صداها شىء من المادة ، فلا تزال مبعث هم وغم وحزن وشظف ، قد لا يعرف الكثيرون مع احساسهم العظيم به ، ما مصدره وما سببه ؟ فضلا عن أن يدركوا علاجه .

ثم ان هذا الذى لا يعرف هدفا الا المال وما يحققه من لذائذ جسدية منهوم لا يشبع من جمعه ، ولا يقنع منه بكثير الا ويطلب أكثر ، فما يبلغ حدا حتى يتطلع الى ما فوقه ، فاذا فاته ذلك ـ ولا بد ان يفوته هذا أو ما فوقه أو ما فوقه ـ اعتصر قلبه الاسى ، وأقلقته الخسارة التى لا تعوض ، وفاتته الفرصة التى لن تواتيه مرة أخرى ، لان الحياة فرصة واحدة لا تقبل التكرار فلا بعث ولا آخرة ، ما دامت هذه المعانى كلها خارج نطاق الحس والتجربة فليست فى نظره الا وهم وخداع .

انه لا يعلق أملا الا على الاسباب المادية البحتة ، فاذا لم تفض الى النتيجة فانها الخسارة التى لا يتصور فيها شيئا سوى الفشل التام ، ولا يأمل لهذا الجهد المبذول المهدور من فائدة ، طالما انه لم يحقق هذه الفائدة فى عالم المادة والحس، فأى شىء يمكن ان يخفف من مصيبته ويمده بالصبر والسلوان ؟ انه بين ماض قد انتهى ولكنه يحمل معه ذكرى فرص قد فاتت ولذائذ قد انصرمت ، وحاضر لا يطمئن له لانه يخشى أن يفلت من بين يديه أو ان ينقلب الى شر منه ، ومستقبل هو منه على وجل ، يكتنفه الغموض ويحيط به الشك . وما أعظم بليته ان فقد منافعه المادية فى خسارة مالية أو فقد منصب اجتماعى أو موت حبيب أو فشل فى حب أو نحو ذلك من الاهداف

الدنيوية المحضة ،لان جهده عند ذلك أصبح هباء منثورا ، وكل ما كان من جهده وتعبه وتدبيره لم ينته به الا الى العبث .

فاذا حلت به تلك الحال فبمن يلوذ ؟ وفيمن يحتمى ؟ ومن يخفف عنه مصيبته ويواسيه فى محنته ؟ لا شيء سوى المخدرات والمسكرات أو الانتحار الذى سنتحدث عنه.

غير ان اعصابه لها مدى معين وقدرة على الاحتمال محدودة ،فاذا زاد الامر عن حده فهو الانهيار العصبى المؤدى الى الجنون أو الصرع أو انفصام الشخصية .

ان الانسان بصفته كائنا مسؤولا عن تصرفاته ، ومتحملا لنتائجها لا بد ان يساوره احساس ما بالاسف حين يفشل فى تصرف ما ، وما دام له عواطف انسانية لا بد ان يتأثر بما يتعرض له من أحداث مؤسفة ، وحين يقف الامر عند حده الطبيعى فان هذا الاحساس والشعور نافع فى جملته للحياة، لانه يبعث فى الانسان روح الجد والنزوع الى الافضل ، ولكن حين يتعلق الانسان بالحس المادى ولا يعرف غير المادة هدفا فانه يفقد الضابط الذى يجعل الاحساس بالفشل أو بالحزن أو بالخوف يقف عند حد معين ، دون أن يحطم الاعصاب ، ويبعث على الضنك والانهيار .

وحال الغرب خير شاهد على ذلك .

يقول "كارينجى" معلقا على الهلع الذى أصاب الناس فى امريكا نتيجة لما نشر فى الصحف من أن شخصين قد ماتا من جراء الاصابة بالجدرى ، وما كان من تحذير جاره له : (لقد أقمت سبع وثلاثين سنة فى نيويورك فلم يحدث ان زارنى من يحذرنى من مرض القلق . هذا مع ان هذا المرض قد سبب فى العادة نفسها من الوفيات أكثر بعشرة الاف ضعف مما سببه الجدرى .

(ان كل شخص من عشرة اشخاص فى اميركا مهدد بالانهيار العصبى ومرجع ذلك على العموم هو القلق ، ولهذا ترانى اطرق بابك أيها القارىء

وأحذرك) .

(ان الافا من الشباب رفضتهم اللجنة العسكرية الفاحصة حين تقدموا للانخراط فى الجيش أيام الحرب العالمية الثانية ، لكن عددا قليلا منهم كان سبب رده تشويها فى جسده أوعاهة ملازمة . أما الاكثرون فقد ردوا لان نفسياتهم كانت مريضة) . (١)

ويقول " والترج كوفيل " : (فى كل يوم فى الولايات المتحدة يلتحق حوالى سبعمائة شخص بمستشفيات الامراض العقلية أو الى الخدمات السيكترية فى المستشفيات العامة .

(كما اننا نجد ما يقارب (٨٠٠٠٠٠) سرير فى المستشفيات مشغولة بمرضى يعانون من اضطرابات عقلية (ويمثل هذا العدد تقريبا نصف عدد الاسرة فى كل انواع المستشفيات فى هذا البلد) .

(وهناك كذلك (١٢٠٠٠٠) شخص تحت الرعاية فى موءسسات ضعاف العقول . كما لا يزال هناك (١٠٠٠٠٠) أو أكثر فى طور النقاهة مقيدين فى سجلات مستشفيات الامراض العقلية ويتلقون العلاج فى عيادات للتتبع أو يرعون فى بيوت بديلة .

(ولكن لا تقدم لنا احصائيات المستشفيات الا جزءا من الصورة الكلية لاضطرابات الشخصية والسلوك الشاذ) .

ويقول : (وقد اعتبر مدير احدى المستشفيات العامة الكبيرة أن ٧٥٪ من المرضى الذين ترددوا على قسم العيادة الخارجية فى مستشفاه فى مدى عام واحد ، يعانون اما من اعراض عصابية بحتة ، أو من أعراض عصابية منبنية على مرض جسمى ، أو من اعراض جسمية منبنية على اضطراب عصابى) .

ويقول : (نستطيع ان نلخص مشكلة السلوك الشاذ فى نقطتين

---

(١) دع القلق وأبدأ الحياة : ٢٧ - ٢٨ .

اخصائيتين مقبولتين بصفة عامة يمكن التنبوء بهما في ميدان الصحة العقلية .

(١ — من كل عشرين شخصا يعيشون الان سينتهى الامر بواحد منهم أخيرا الى مستشفى الامراض العقلية ، وسيعانى واحد آخر في وقت ما من حياته - أو على الاقل موءقتا - من اضطراب عقلى ، وان لم يكن هذا الاضطراب خطيرا بشكل يستدعى ادخاله المستشفى . وهذا يعنى ان ١٠٪ من المواليد سوف يعانون في وقت ما من حياتهم من اضطراب عقلى موءقت أو دائم شديد أو خفيف .

(٢ — في كل عام سوف تحتاج أسرة من كل خمسة أسر الى خدمات الطبيب النفسى أو الاخصائى النفسى الاكلينكى أو عيادات الصحة النفسية ان لم تكن في حاجة الى خدمات مستشفيات الامراض العقلية) . (١)

وفي تقرير للاتحاد القومى للصحة العقلية في الولايات المتحدة نشر سنة ١٩٧٤م أن الامراض العقلية توءثر على عشرين مليون امريكى ، وأن هنالك نصف مليون طفل يعانون من امراض عقلية ، وان هذه الامراض هي أهم مشكلة تقابل الشعب الامريكى . (٢)

ويصل عدد المستشفيات المتخصصة في الامراض العقلية هناك حوالى ستمائة مستشفى ، ونظرا للازدحام الشديد على هذه المستشفيات ، فانها تعانى من عجز يقدر بخمسة وخمسين بالمائة في الاطباء ، واربعة وسبعين بالمائة في الاخصائيين النفسيين ، وسبعة وستين بالمائة في الاخصائيين الاجتماعيين السيكاتريين ، وتسعة وسبعين بالمائة في الممرضين النفسيين . ويقدر ذلك النقص في الاطباء في المستشفيات بالارقام - حسبما قدرته الجمعية الامريكية للطب النفسى - بأربعين الف طبيب غير ما تحتاجه العيادات

---

(١) علم نفس الشواذ : اقتباسات من : ٧ - ١٠ .

(٢) معالم الحضارة ، عبد الله علوان : ١٧٩ .

الخارجية والعيادات الخاصة . (١)

ومن أكثر هذه الامراض العصبية تفشيا في الغرب مرض العصاب وهو : عبارة عن مرض وألم يرجع الى جذور نفسية تتمثل في صراع نفسي ربما امتدت اسبابه الى الطفولة . (٢)

وتعاني النساء من هذا المرض أكثر من الرجال (٣) ، ولعل ذلك راجع الى ضعف أعصابهن عن تحمل المشاكل الاجتماعية والنفسية ، ورغم ذلك فاعداد المصابين فيه بصورة عامة مرتفعة في الجنسين . ففي الولايات المتحدة يقدر بعض الباحثين ان عدد المصابين بالعصاب حوالي ثمانية ملايين ، مع اعترافهم ان الحصول على ارقام دقيقة في هذا المجال غير ممكن لان نسبة بسيطة منهم هي التي تقبل في مستشفيات الامراض العقلية ، وتشكل هذه النسبة التي تدخل مستشفيات الامراض العقلية ٥، ٤٪ من المقبولين في المستشفيات لاول مرة . ويمضي معظم المصابين بهذا المرض أوقاتهم في التردد على المستشفيات الاخرى غير المتخصصة بهذا النوع وذلك بحثا منهم عن اي اساس عضوي لامراضهم يتلقون بموجبه علاجا طبيا أو جراحيا ، وعندما يعرفون طبيعة مرضهم فان كثيرا منهم لا يهتم بأي تشخيص نفسي . وتصر بعض التقارير على ان ما بين ٤٠ - ٦٠٪ ممن يترددون على الاطباء العموميين هم مصابون بهذا المرض ، وان ٦٪ من الجهد الضائع في ميدان الصناعة بسبب امراض العمال يرجع في حقيقة امره الى هذا النوع من المرض . (٤)

---

(١) انظر علم نفس الشواذ : ١١ ، ٤١٥ - ٤١٦ .

(٢) انظر معجم العلوم الاجتماعية : ٣٩٣ .

(٣) انظر علم نفس الشواذ : ١٥١ .

(٤) انظر المصدر السابق : ١٥١ .

وفي السويد البلد الغربي ذى الدخل العالي والذى تتوفر فيه كافة التأمينات الاجتماعية الكثيرة والكبيرة ، يقول تقرير صادر عن وزارة الشؤون الاجتماعية هناك : ان خمسة وعشرين بالمائة من السكان مصابون بأمراض عصبية ونفسية ، وأن ثلاثين بالمائة من المصروفات الطبية تنفق على علاج هذه الامراض ، وأن اربعين بالمائة ممن يحالون على التقاعد هم مرضى عقليا . (١)

وفي الارجنتين أعرب مدير الصحة النفسية هناك عن اعتقاده بأن عشرين بالمائة من الشعب الارجنتيني الذى يعد ثمانية وعشرين مليونا يعانون حاليا من اضطرابات نفسية وتوتر عصبي . (٢)

كما سجلت التقارير الرسمية انتشار الاصابة بالصرع في الغرب ، ويقدر عدد هذه الحالات في الولايات المتحدة وحدها ، على أساس من تعداد الذين يرفضهم الجيش ، والمعلومات المتوفرة لدى دوائر الصحة العامة بسبعمائة الف حالة ، ويقدر أن اثنين في المائة ممن يتقدمون الى مستشفيات الامراض العقلية لاول مرة هم مصابون بالصرع ، ولا بد ان نسبة كبيرة من المصابين بهذا المرض لم تشملها تلك الاحصائيات . (٣)

ويعتبر القلق عموما سمة واضحة من سمات هذا العصر ، قال "ج كنيدى" : (أصبحنا جميعا معرضين للقلق لدرجة أن العلماء يطلقون عليه لعنة العصر الحاضر) . (٤) ويقول " رينيه دوبو " : (والجذور العميقة للقلق المعاصر موجودة في البنية النفسية للفرد - كل فرد - من أفراد هذه

---

(١) عوامل النصر والهزيمة : شوقي خليل : ١٣١ .

(٢) الشرق الاوسط عدد ١٩٥٣ السنة السادسة بتاريخ ٢ رجب ١٤٠٤هـ الموافق ٣/٤/١٩٨٤ الصفحة الاخيرة .

(٣) انظر علم نفس الشواذ : ٣٠٣ - ٣٠٤ .

(٤) القلق ، ترجمة جمال زكي : ١١ .

المجتمعات) . (١)

وينعكس أثر ذلك القلق والامراض العصبية والنفسية ـ فيما تنعكس عليه ـ وهي ناشئة اصلا كما تحدثنا عن المادية ،على الانتاج المادي ذاته ، فيؤثر على الاقتصاد بمختلف مؤسساته ،كما يؤثر على الجيش وعلى الامن العام، وعلى الاخلاق، وعلى سائر جوانب الحياة العامة .

ففي امريكا مثلا أوضحت دراسات أجريت على نسبة الغياب في المصانع أن ثلثي العمال الذين يتغيبون عن أعمالهم ترجع أسباب غيابهم الى أمراض عصبية وتقدر الاحصائيات حجم الخسارة اللاحقة بالاقتصاد من جراء هذه الامراض بـ(١٧٥٠٠٠٠٠٠٠) دولار سنويا . (٢)

وقد قدمنا قريبا ما قاله " كارينجي " عن رفض الآف الشباب المتقدمين للانخراط في الجيش في الحرب العالمية الثانية مع شدة الحاجة اليهم وذلك بسبب الانهيار العصبي . ويقول " والترج " : (استبعد حوالي ١٨ ٪ من الرجال الذين استدعوا للخدمة في الحرب العالمية الثانية لانهم غير لائقين انفعاليا أو عقليا .وقبل ان تنتهي الحرب كان أكثر من ثلث الاشخاص الذين طردوا من الجيش لعدم اللياقة الطبية هي حالات عصبية نفسية). (٣)

وقد اصبحت وسائل العلاج النفسي عاجزه عن ان تفعل شيئا ذا قيمة أمام الزيادة الكبيرة المستمرة والمذهلة في أعداد المرضى بشكل يدعو الى الدهشة ، وأصبحت هذه الاساليب والتي غالبا ما تقوم على طريقة التحليل النفسي ،أصبحت مع الايام كأنما تدور في حلقة مفرغة ،ولعل هذا ما دعا " مورر " الى القول : (ان التحليل النفسي ليس عملا ملائكيا ،بل اسلوبا

---

(١) انسانية الانسان : ٤٧ .

(٢) علم نفس الشواذ : ٩ .

(٣) المصدر السابق : ١٠ .

من أساليب الشيطان ، انه ليس طريقا للخلاص بقدر ما هو وسيلة للعبودية والاسترقاق) . (١)

ويسبب القلق وما يرافقه من توتر للاعصاب كثيرا من الامراض الجسمية الخطيرة مثل عسر الهضم ، وقرحة المعدة ، وضغط الدم ، والارق ، وبعض انواع الشلل ، يقول د " كارينجي " : (وقد عانيت بنفسي قرحة المعدة اثنى عشر عاما . وحاولت خبرتي كطبيب في معالجتها ، لكني اخفقت مع انني لم أدخر في سبيل ذلك كل ما وسعني أن أفعل ، وأخيرا وجدت ان القلق هو السبب الاصيل الذي كنت أعاني منه فتركت القلق ، وها أنا لم أعد أشعر بآلام ، وأرى نفسي اتماثل للشفاء .

(ان الخوف يسبب القلق ، والقلق يسبب أعصابا متوترة ، وهو ينهك أعصاب المعدة ، وتنقلب عصارات المعدة الهاضمة الى عصارات سامة) . (٢)

ويصرح د «هارولد ا .س. هابين» أنه بعد اجراء الكشف الطبي على مائة وستة وسبعين شخصا من رجال الاعمال تبين له أن ثلثهم يعاني من أمراض مؤلمة تنشأ عن توتر الاعصاب كالقرحة وضغط الدم واضطرابات القلب، ويسجل هذا الطبيب أساه وحزنه على هؤلاء الاثرياء الذين لم يوفر لهم النجاح والمال والمركز الاجتماعي السعادة التي يتمتع بها العامل العادي فيقول :

(وماذا يستفيد الواحد منهم من ذلك النجاح والمركز الذي يتوصل اليه ؟

(ان الفاعل الذي يشق الارض بمحراثه أو فأسه يأكل ثلاث وجبات مثلهم ، ويرتدي قميصا وسروالا كما يفعلون ، بل انه أهدأ بالا وأقل قلقا وأنا أفضل أن أكون مزارعا صغيرا في احدى ولايات الجنوب فأتمتع بشهية جيدة ومركز عادي ، عن أن أكون مؤسسا لشركة ضخمة أو بانيا لسكة حديد

---

(١) انظر الانسان والصحة النفسية ، مصطفى فهمي : ٢٦٥ .

(٢) دع القلق وأبدا الحياة : ٢٨ .

بينما تنغص قرحة المعدة حياتي بكاملها ،أو أعاني الاضطرابات الكثيرة من جراء اضطرابات القلب) . (١)

ه — كثرة الجرائم :

يدفع الافلاس الروحي الانسان الاوروبي الى الجريمة ،أولا : كبديل للهدف المفقود ، وبحثا عن الشهرة واثبات الذات من ناحية ،وحرصه على المال والمنفعة بأي طريق تم ذلك من ناحية أخرى ،ويشجعه ويغريه بذلك عدم ايمانه الا بالمحسوس ،فالوحي ليس ماديا والآخرة ليست شيئا محسوسا فلا حساب لهما في نظرة . أما احساسه بمصلحة الوطن والمجتمع فهي دوافع ضعيفة لا تصبر ولا تطيق التغلب على شهوة المنفعة الخاصة لديه ذلك بأن اساس اهتمامه بالوطن أو المجتمع انما هو شعوره بأن خيرهما وشرهما ينعكس عليه ،فاذا حصل التعارض بين مصلحته الخاصة ومصلحتهما فلا شك ان ما يصيبه من المنفعة الخاصة أضعاف ما يصيبه من المنفعة العامة التي يشاركه فيها الكثيرون .

ثم ان شعوره بالغربة وعدم التوحد مع المجتمع يكاد يذهب بأية أحاسيس تجعله يحرص على خير مجتمعه ومصلحة وطنه . ويبقى بعد ذلك القانون وما يفرضه من العقاب حائلا بين الفرد وبين الجريمة ،غير ان العقاب القانوني يبقى هو الآخر عاجزا عن الوقوف أمام الازدياد الكبير في اعداد الجرائم وسعة انتشارها . ولسنا ننكر دور العقوبة في مكافحة الجريمة والتخفيف منها ، ولكننا نرى انه مهما كان من شأنها فانها لن تستطيع وحدها ان تضطلع بمسؤولية اقناع المجرمين والمعتدين بالكف عن تصرفاتهم ،وذلك يعود الى كون القانون لا يعاقب الا على الجرائم والمخالفات المضبوطة ،فاذا اطمأن المجرم الى الامن من عدم القبض عليه

---

(١) المصدر السابق : ٢٩ - ٣٠ .

أو توهم ذلك ، وتصور ان بامكانه ان يضلل رجال الامن والقانون ، أو ان يتحايل على النص القانوني ، فلماذا لا يقدم على فعلته ؟ انه يدرك ان القانون ورجاله ليس شيئا لا يمكن الافلات منه ، اذن فليتحين غفوة الرقيب والذى كثيرا ما يغفو وليعجل بارتكاب ما يريد .

ان القوانين السائدة فى اوروبا - وفى غير اوروبا الا من رحم ربى - هى قوانين بشرية ، وذلك يساهم فى نزع هيبتها من النفوس ، لانها ليست معايير متفق عليها ، وانما وضعها نفر من الناس ، مهما يكن من كفايتهم فهم لا يخرجون عن كونهم بشرا ، ولا يستطيعون أن يلزموا الناس بالاقتناع بصوابها ، لان العقول متفاوتة والامزجة مختلفة ، والغايات ليست واحدة ، ومن ثم تجد هذه القوانين التحدى والمغافلة ، وهذا ما أضطر بعض كبار علماء القانون الغربيين الى الاعتراف بأن السبيل الوحيد للوصول الى معايير متفق عليها للقانون هو الاعتراف بالوحى السماوى قانونا . (١)

وتشارك الفلسفات المادية فى تسويغ الانحراف والجريمة والتخفيف من الشعور بالمسوءولية لدى المجرم والمقصر ، لان القيم والاخلاق فى نظرها ليست امورا ذات قيمة اصيلة فى ذاتها ، بل انها كثيرا ما تلقى بالمسوءولية فى ذلك لا على المجرم وانما على المجتمع ذى العرف الرجعى الفاسد ، وليس المجرم المسكين الا ضحية لهذا المجتمع ، وذلك كما تفعل الشيوعية حين تتنكر لمعانى التدين والاخلاق ، وحين تلقى بالمسوءولية على المجتمع وليس على الجانى ، وذلك اذا كان الجانى يرتكب فعلته فى غير المجتمعات الشيوعية .

وقد ظهرت فى اوروبا فى نهاية القرن الثامن عشر نظرية جديدة حول تفسير الجريمة لها دعاتها وأنصارها، ترى ان المجرم انسان مريض يجب ان

---

(١) راجع ص ٣ .

نعالجه لا ان نعاقبه ،وتحيل اسباب الجريمة لا الى ارادة المجرم واختياره بل الى اسباب أخرى . (١)

وتتصاعد اعداد الجرائم فى المجتمعات الغربية مع شيوع وتمكن الفلسفة المادية والعفو على آثار التدين فى تلك المجتمعات .

ففى الولايات المتحدة كان عدد الجرائم التى خضعت الى الاحصاء عام ١٩٦٨م اربعة ملايين ونصف المليون . (٢) بينما قفز الرقم عام ١٩٨١ الى ثلاثة عشر مليونا وثلاثمائة وتسعين الفا ،هذا بالطبع عدا الجرائم التى لم يبلغ عنها . (٣)

ويستفاد من بعض الدراسات التى أجريت هناك أن واحدا وثلاثين بالمائة من النساء القاطنات فى المدن الكبرى يخشين السير بمفردهن فى احيائهن فى النهار فضلا عن الليل ،وأن كثيرا منهن قد لجأن لتعلم فن «الكراتيه»لحماية أنفسهن من الرجال . وقد أظهر استفتاء أجرى هناك أن ١١٪ من الامريكيين يحملون أسلحة للدفاع عن أنفسهم . (٤)

وتقول احدى الدراسات المنشورة فى الغرب ان نسبة حوادث القتل عام ١٩٨٢ فى الولايات المتحدة كان ٩،٨ لكل مائة الف ،وان نسبة حوادث السرقة كانت مائتان وخمسين حالة لكل مائة الف من السكان . (٥)

وفى بريطانيا كان عدد الجرائم عام ١٩٥٦م هو ٦٧٥٦٢٥ (٦) ،وفى

---

(١) انظر الاسلام والعصر الحديث ،وحيد الدين خان : ٢٦ - ٢٧ .

(٢) خطر التبرج والاختلاط : ١٤١ .

(٣) صحيفة المجتمع عدد رقم ٦٢٥ رمضان ١٤٠٣ الموافق يونيو ١٩٨٣ ص ٣٤ .

(٤) الشرق الاوسط عدد ١٧٤٣ بتاريخ ١٤٠٣/١١/٢٩ الموافق ١٩٨٣/٩/٦

(٥) المصدر السابق فى العدد نفسه .

(٦) حضارة الاسلام ،السنة الاولى ١٣٨٠ الموافق ١٩٦٠ العدد الثالث: ٢٤٣ .

عام ١٩٨١ قفز الرقم الى ما يقارب الثلاثة ملايين ،وفي عام ١٩٨٢ تجاوز ثلاثة ملايين (١) .

وأفاد بيان أصدره اتحاد شركات التأمين في بريطانيا انه يقع في البلد المذكور ما معدله سرقة منزل كل خمس دقائق ،وان معدل قيمة هذه السرقات يزيد على مائتي الف من الجنيهات يوميا ،وان هذه السرقات قد ارتفعت خلال عام واحد بنسبة خمسة وخمسين بالمائة . (٢)

ويؤخذ من تقرير أعدته رئاسة البوليس الفرنسي عن الجريمة في فرنسا أنه يقع فيها ما يعادل حادثة سرقة كل دقيقتين ،وحادثة نصب واحتيال كل عشر دقائق ،وحادثة اصطدام سيارة كل نصف ساعة . وحادثة خطف فتاة كل اربع ساعات . (٣)

والملفت للنظر هو اتساع دائرة الجريمة بين النساء في الغرب ،وخاصة في الجرائم التي كان يظن انها حكر على الرجال كجرائم السرقة والقتل والعنف ،حيث دخلتها المرأة ،وما زالت ماضية فيها حتى تجاوزت أعداد جرائمها اعداد جرائم الرجل في كثير من البلدان الغربية . ففي بريطانيا جاء في التقرير السنوى لوزارة الداخلية البريطانية (ان عصابات النساء زادت زيادة خطيرة مما يهدد الامن العام .

(ألقى القبض على ٧٤٢ الف فتاة وسيدة خلال العام الماضي (١٩٦٠) بتهمة السطو والسرقة) . (٤)

---

(١) الشرق الاوسط عدد ١٤٨٠ تاريخ ١٤٠٣/٢/٢ الموافق ١٩٨٢/١٢/١٧ .

(٢) المجتمع عدد ٥٠٤ تاريخ ٢٣رجب ١٤٠١ الموافق ٢٦ مايو ١٩٨١ ص ٢٨ .

(٣) حضارة الاسلام ،السنة الاولى ١٣٨٠ ص ٣٦٤ .

(٤) المصدر السابق ،السنة الثانية لعام ١٣٨١هـ ص ١٠٩ .

وقد صرح بعض المسؤولين البريطانيين بأن عصابات المراهقات والنساء تهدد أمن لندن ، وان نسبة الجرائم التى ترتكبها الفتيات أكثر من تلك التى يرتكبها الفتيان ، وأكد ان ذلك يرجع الى الحرية الفردية التى يتمتعن بها ، ولبرامج التلفزيون الشاذة ولاماكن اللهو والخمر . (١)

وقد تبين من احدى الدراسات انه فى عام ١٩٦٠ كان ٦٠٪ من حوادث السرقة كانت من النساء ، وانهن جميعا لم يكن من المحتاجات . (٢)

ومن الامور الملفتة للنظر فى موضوع الجريمة فى الغرب مساهمة رجال الامن انفسهم بارتكاب الجريمة وعلى نطاق واسع - وهم الذين يفترض فيهم مكافحة الجريمة - وقد تبين فى بعض الحالات ان رجال الامن فى بعض الدول الغربية قد عالجوا الجريمة بجريمة أفظع منها وبتصرف أشد مخالفة للقانون من تصرف المجرم ، وذلك كما حصل عندما أعلن بعض المسؤولين فى البرازيل عام ١٩٦٧ انه قد تم العثور على جثث خمسة وستين متسولا فى نهر جوردا خلال ثلاثة أشهر ، وأعرب المسؤول المذكور عن القلق من أن يكون رجال الامن هم الذين يلقون المتسولين فى النهر ، وقال : انه قد قدم أربعة من رجال الامن للمحاكمة واعترف أحدهم بأنه قد قتل بالرصاص وبالاغراق اربعة عشر متسولا . (٣)

ولعل من بواعث مثل هذه التصرفات من رجال الامن ، بالاضافة لخلو نفوسهم من الرحمة ، كثرة تكرار الجرائم ، ومعاودتها من المجرمين أنفسهم بعد انتهاء فترة العقوبة ، مما يجعل رجال الامن يضيقون ذرعا بهم .

وكثرة تكرار الجريمة من المجرمين الذين سبق ان ضبطت جرائمهم

---

(١) المصدر السابق ، العدد نفسه والصفحة نفسها .

(٢) المصدر السابق ، العدد الاول ، السنة الثانية ١٣٨١هـ ص ١٢٦ .

(٣) المصدر السابق ، العدد الاول والثانى لعام ١٣٨٧ ص ١٦٦ .

وتلقوا العقوبات المقررة ظاهرة ملحوظة في الغرب ، وهي دليل على فشل نظم العقوبات هناك ، وما ذلك الا لان هذه النظم قد صدرت عمن لا يحيط بمجاهيل النفس ولم يسبر أغوارها ، وبالتالي لم يستطع أن يضع العلاج المتناسب مع امراضها .

وتقدر نسبة العائدين في الجريمة في اوروبا من مجرمين سبق ان عوقبوا على جرائمهم بين خمسين الى ستين في المائة ، وتصل أحيانا هذه النسبة في بعض الاقطار الى خمسة وتسعين في المائة . (١)

وتبين ان الجريمة تتصاعد اعدادها وتشتد خطورتها مع اتساع انتشار العلم ، وخاصة الجرائم التي تتعلق بالسرقة والسطو والاحتيال ،كما اصبحت جريمة مخططة ومدروسة - شأن المادية الغربية في كل شيء - قال أحد الباحثين الغربيين ، واسمه " لومبروزو " : (ان انتشار التعليم على نطاق واسع قد أضفى على اجرام العصر طابعه الحالي ، اذ حوله من اجرام عنف وعدوان على الاشخاص الى اجرام مدروس بمنطق ودهاء) . (٢)

وتنعكس آثار الجريمة على الاقتصاد القومي حيث يؤدي ذلك الى اضرار فادحة وخسائر جسيمة وتكاليف باهظة لملاحقة المجرمين وتكثيف اجراءات الامن. ويكفي ان يعلم انه في السويد مثلا يكلف السجين على الخزينة العامة أكثر مما يكلف الشرطي ، حيث يكلف الشرطي ثلاثة ارباع ما يكلفه السجين . (٣)

٦ — الانتحار :

ان الانسان مفطور على محبة الحياة والخوف من الموت ، فهو محب للبقاء والسلامة ، يهون عليه كل شيء في سبيل المحافظة على حياته .

---

(١) أصول واساليب البحث الجنائي العلمي التطبيقي : ٣٤٧ .

(٢) المصدر السابق : ١٤٣ - ١٤٤ .

(٣) عوامل النصر والهزيمة في الاسلام : ١٢٧ .

وتسهم نظرته الى الحياة وتفسيره لنشأتها ونهايتها وهدفها في التأثير على هذه الغريزة النفسية الداخلية المتمثلة في حب الحياة وكراهية الموت ، فتدفعه أحيانا الى المغالاة فيها ، والافراط في اتخاذ ما من شأنه صيانتها ، وتدفعه أحيانا أخرى الى اهدار شأنها وعدم الاهتمام بأمرها ، وربما الى السعي من أجل التخلص منها .

وللمادية أثرها القوى على هذا الشعور المتأصل في الاعماق ، فهي تتجاهل اى هدف أو غاية للحياة ، ولا تؤمن بأى جزاء عليها غير محسوس فيلقى ذلك فيها جملة من الطلع النكد ، كشعور الانسان - كما أشرنا سابقا - أن هذه الحياة هي الفرصة الوحيدة أمامه ، وأن كل ما يصيبه فيها من خسارة مالية أو ضرر بدنى أو فوات فرصة للذة ، شيء لا سبيل الى تعويضه ، لانها فرصة مرت ولن تعود ، وليس لها أى جانب آخر غير منظور أو عاقبة أخرى غير محسوسة يمكن أن تهون من شأن هذه المصيبة . ولا شك أن ذلك يدفعه الى الحرص على استغلال هذه الفرصة فيما يمنحه النفع ويجلب له اللذة ، ولكن حين يفشل في تحقيق شيء من هذا فانه لا شيء لديه يمكن أن يخفف من مصيبته ويمنحه السلوان ، فيشعر انه قد غدا في عذاب داخلى ما أحوجه الى الخلاص منه ، وكثيرا ما يقع اختياره على الموت فينتحر . وهكذا تدفع الاثرة الزائدة والمادية المفرطة الغربى الى ان يفقد الاستعداد لتحمل أية خسارة في الدنيا . ويزيد الامر سوءا - ما أشرنا له من - شعوره بأن حتمية الموت تجعل الحياة لا قيمة لها .

ان محبة الحياة على تلك الصورة العمياء تدفع بالغربى الى التنازل عن الكرامة والشرف والرضا بالذل والشظف من أجل حياة ، أى حياة ، وهي بذاتها التى تدفعه أحيانا الى الانتحار .

ولا يمكن للميزان ان يعتدل بهذه النزعة الا حينما يؤمن بأن هذه الحياة صفحة فيها الحلو والمر والراحة والتعب ، وهنالك صفحة أخرى ستتبعها

لا محالة ، يمكن للانسان ان يتخلص فيها من متاعب وسلبيات ومظالم الاولى) ويجد فيها ما تشتهى نفسه من الراحة التامة والخلود الدائم ، وعندها فقط يمكن للانسان ان يتخلص من التشبث الشديد بحياة لا اعتبار ولا وزن له فيها بأى ثمن كان . ويعتدل به فى خوفه عليها من الموت خوفا ينكدعليه عيشه ويجعله يعاف الحياة برمتها ويلوذ بالموت منها .

كما لا يغفل أثر الاحساس بالذنب فى شيوع هذه الظاهرة الخطيرة جاء فى معجم العلوم الاجتماعية الذى أعدته نخبة من الاساتذة : (وفى مدارس العلاج النفسى يعتبر الانتحار قتلا للذات للتكفير عن الاحساس بالذنب) . (١)

وما تزال نسبة المنتحرين فى الغرب فى تزايد مستمر .

ففى الولايات المتحدة تبلغ حالات الانتحار المسجلة ما معدله اثنان وعشرون الف حالة سنويا ، وتشكل فى العادة ما بين ١٠ - ١٢ لكل مائة الف من السكان (٢) ، ولكن الباحثين يرون أن الرقم الحقيقى لحوادث الانتحار هو فى حدود خمسين الف ، حيث تسجل كثير من هذه الحوادث تحت أسباب أخرى ، وهى فى حقيقتها انتحار . (٣) أما عدد حالات محاولات الانتحار الخاضعة للاحصاء فتبلغ مائة الف حالة . (٤)

بينما تبلغ النسبة المسجلة فى كل من النمسا والمانيا وهنغاريا واليابان وتشيسكلوفاكيا والدانمارك وفنلندا والسويد وسويسرا خمسة وعشرين حالة لكل مائة الف من السكان . (٥)

---

(١) ص ٦٩ .

(٢) الانتحار د . هانكوف عن : معالم الحضارة : ١٧٧ .

(٣) انظر الموت اختيارا : فخرى الدباغ : ٢١٩ ، معالم الحضارة : ١٧٧ .

(٤) انظر الموت اختيارا : ٢١٩ .

(٥) الانتحار عن معالم الحضارة : ١٧٧ .

وفي سويسرا بلغت هذه النسبة عام ١٩٥٦م حوالى ٣٤ حالة لكل مائة الف ، وفي الدانمارك بلغت في العام المذكور أكثر من خمس وثلاثين حالة لكل مائة الف . (١)

وفي عام ١٩٨١ كانت المجر هي أكثر دول العالم وتليها الدانمارك ثم النمسا ، وقد تعدت حالات الانتحار في النمسا التي كان عدد سكانها سبعة ملايين نسمة في العام المذكور الفي حالة ، لكن علماء الاجتماع يصرون على أن العدد الفعلي أكثر من هذا بكثير . (٢)

وفي بريطانيا بلغ عدد حوادث الانتحار المسجلة في بعض السنين أكثر من خمسة الاف ومائتي حالة ، كان فيها أكثر من ثلاثة الاف ومائة رجل وحوالي الفين ومائة من النساء ، وقد كان هناك خمس وفيات انتحار لكل ست وفيات من حوادث الطرق . (٣)

وقد دفع انتشار هذا المرض بعض علماء الاجتماع أن يقولوا انه كالامراض المعدية ينتاب العقل ، كما تنتاب الامراض المعدية باقي الاعضاء ، وقد تفشى بين جيش نابليون بشكل كبير حتى انتحر ستة من حرسه دفعة واحدة فقام باحراق الموضع ، عسى ان يقف باب الانتحار . (٤)

وقد توصل بعض الباحثين في الانتحار (٥) الى الامور التالية :

١ — ان الانتحار يشكّل واحدا بالمائة من أسباب الوفاة بشكل عام .

---

(١) الموت اختيارا : ٢٢١ .

(٢) صحيفة الشرق الاوسط عدد ١٨٢٤ تاريخ ٢٢/٢/١٤٠٤ الموافق ٢٦/١١/١٩٨٣ ، الصفحة الاخيرة .

(٣) حضارة الاسلام ، العدد الثالث ، ١٣٨١هـ ص١١٤ .

(٤) الاشراف الاسلامي : محمد الجيلاني حمزة : ٢٢١ .

(٥) انظر الموت اختيارا للدكتور فخري الدباغ : ٢١٩ - ٢٢٣ .

٢ — ان عشرين بالمائة ممن يتوفون بين سن خمسة عشر وتسعة عشر هم من المنتحرين .

٣ — ان اعلى نسبة للانتحار فى العالم بصورة عامة فى السويد والدنمارك .

٤ — ان المنتحرين بصورة عامة يشكّلون ثلاثة أضعاف القتلة .

٥ — ان سبع الذين يحاولون الانتحار تنتهى محاولاتهم بالموت .

٦ — ان عدد حالات الانتحار بصورة عامة آخذ مع الزمن فى الإرتفاع .

٧ — ان هذه الحالات بلغت فى بعض المدن والاقطار الغربية حدا مذهلا ففى ادنبره مثلا يدخل واحد من كل الف المستشفى لمحاولته الانتحار ، وفى اسكتلندا ارتفعت حوادث الانتحار ما بين عامى ١٩٥٠ - ١٩٦٠ بمقدار خمسين بالمائة ، وفى نيوزلندا وجد أن حوادث الانتحار لا تقل خطرا عن حوادث الطرق .

٨ — ان كثيرا من مشاهير الشخصيات الغربية فى القديم والحديث قد انهت حياتها بالانتحار ، أو حاولت ذلك ، وان منهم القائد والسياسى والدبلوماسى والطبيب والشاعر والاديب والروائى والرسام والمفكر واستاذ الجامعة والغنى وغيرهم . (١)

٧ — الارهاب :

حين يكون الخصم والحكم جهة واحدة فلا يؤمل أى انصاف أو عدل لغير صاحب القوة والصولجان ، ذلك أن الانسان مدفوع بفطرته الى محبة ذاته متعصب لما يخصه ، فان كان النزاع حول مال فهو من وجهة نظره به أولى ، وان كان حول سلطة فهو بها أحق وأجدر ، وان كان حول فكرة ، فانه مهما تجرد ونظر بموضوعية ، ميال لما يهوى أن يكون صحيحا .

---

(١) راجع ص ٢٦٩ وما بعدها .

وفى الحضارة المادية ليس هنالك من ميزان ثابت يمكن أن ترد اليه الامور وان توزن به التصرفات وتحتكم اليه الخلائق الا ما يمكن ان يصوغه الناس لانفسهم من قوانين وتشريعات هى من عمل فئة محدودة من الناس. وهذه الفئة مهما سمت وتجردت لا يمكن لها ان تتخلص من رواسب الانانية ومراعاة مصلحتها هى ، ومراعاة عصبية الدم وعصبية الوطن وعصبية الهوى على حساب غيرها من البشر ممن لا يشاركها تلك العصبيات ، فكيف اذا كانت هذه الفئة هى صاحبة الحكم وبيدها مقاليد الامور ؟

ثم بعد هذا يتولى الانسان الذى دمرت فى نفسه ينابيع الرحمة والعطف والشفقة وكل المعانى الانسانية فى هذا القرن تفسير وتطبيق هذا القانون ، بل وتعديله كلما اقتضى الحال ، يتولى ذلك وهو صاحب السلطة ، وبيده كل وسائل الاعلام على اختلافها ، فيجعل فهمه هو الفهم الصحيح ورأيه هو الرأى الذى لا يحتمل الخطأ ، وما صاحب الرأى الآخر الا خاطىء أو أحمق أو لعله رجعى مأجور وعميل خائن ، هكذا يصور مخالفه من خلال ما يملك من مراكز السلطة ووسائل الاعلام ، فيتسلط عليه يتهمه مرة ، ويضطهده أخرى، ويسومه الوان العذاب والتنكيل تارة ، ويقتله شر قتلة تارة اخرى .

وقد أعلنت الامم المتحدة أن مليونى شخص اعدموا فى العديد من دول العالم دون محاكمة خلال الخمسة عشر عاما الماضية قبل عام ١٩٨٣ وبشكل تعسفى ، وجاء فى هذا التقرير الذى تم اعداده بناء على المعلومات التى أمكن الحصول عليها من المنظمات غير الحكومية (ان عدد الضحايا الذى يبلغ مليونين قد يكون أقل بكثير من الواقع ، نظرا لعدم امكانية التوصل الى معرفة حالات عديدة ، لصعوبة الحصول على معلومات مؤكدة لدى عدد من الدول المتشددة) . (١)

---

(١) الشرق الاوسط عدد ١٥٤٤ السنة الخامسة بتاريخ ٦/٥/١٤٠٣هـ.

وتتصدر أرقام الارهاب السياسي والفكرى قائمة الارهاب في الاتحاد السوفياتي بصورة خاصة وفي الدول الشيوعية والدائرة في فلك الشيوعية بصورة عامة ، فقد نشرت جريدة الديلي تلغراف مقالا بعنوان (ضحايا الماركسية المائة وثلاثة واربعون مليون قتيل) ، وقد اعتمدت في الدراسة المذكورة على مصادر سوفياتية . وتقول الدراسات المتعلقة بهذا الموضوع : ان ضحايا الشيوعية في الاتحاد السوفياتي من قيام ثورة ١٩١٧ ، ومرورا بتصفيات ستالين وحتى عام ١٩٥٩ بلغت حوالي (٦٦٧٠٠٠٠٠) ، وبعد عام ١٩٥٩ بلغت ثلاثة ملايين قتيل ، وفي الصين الشعبية بلغت الضحايا منذ قيام الحكم الشيوعي هناك (٦٣٨٠٠٠٠٠) ، بالاضافة لثلاثة ملايين قتلتهم روسيا في الحرب العالمية الثانية ومليونين ونصف في كمبوديا ما بين ١٩٧٥ - ١٩٧٨ وثلاثة ملايين ونصف في انحاء أخرى من العالم.(١) يضاف الى كل ذلك الملايين التي قتلت أو شردت أو اعتقلت منذ احتلال الروس لافغانستان .

وقد ذكرت صحيفة " باري ماتش " الفرنسية في عددها الصادر بتاريخ ١٩٨١/١/٣١ أن الاتحاد السوفياتي ينفق على الارهاب ما يعادل تسعمائة مليون فرنك فرنسي سنويا ، وذلك عن طريق دعم حركات الارهاب في المناطق التي تقع خارج نفوذه . (٢)

وقد كان للمسلمين في الدول الشيوعية القدح المعلى من الارهاب السياسي والفكرى ، فقتل منهم مئات الالوف وشرد الملايين ، وصودرت أراضيهم

---

(١) العدد صادر بتاريخ ١٩٧٩/٣/١٩ . عن الشيوعية والاديان طارق الحمى : ٥٩ .

(٢) المجتمع عدد ٥١٠ السنة الحادية عشرة بتاريخ ١٥ ربيع الثاني ١٤٠١ ص ١٨ .

وهجروا من مواطنهم ، وفر من استطاع منهم الى خارج الدول الشيوعية. (١)

وتعرضت الملايين للاضطهاد والتعذيب والموت على يد النازية والفاشية في النصف الاول من هذا القرن .

واصطلى الكثيرون بنار الاستعمار الغربي الانجليزي والفرنسي والايطالي والهولندي وغيرها من الدول المستعمرة التي تسلطت على الشعوب المستضعفة تنهب خيراتها ، وتسوم أهلها الخسف والذل ، كما حصل من فرنسا في بلدان المغرب ، وكما حصل من ايطاليا في ليبيا ، ومن بريطانيا وفرنسا في مصر والشام والعراق .

ولم يكن دور المخابرات الامريكية في تدبير الانقلابات العسكرية وفي اغتيال الخصوم ، وفي حبك المؤامرات والدسائس بأقل من دور الاستعمار الانجليزي أو الفرنسي أو الشيوعي .

وكان لليهود أيضا دور خطير في ممارسة الارهاب من خلال الثورات الدموية التي حرضوا عليها وشاركوا في القيام بها كالثورة الفرنسية وغيرها ، ومن خلال المعسكر الغربي ، ومن خلال المعسكر الشرقي ، وبصورة مباشرة أحيانا كما حصل في فلسطين .

وما كان ذلك كله يقع لو كان الانسان يهتدي بهدى السماء ، ويتلقى تصوراته وموازينه ممن هو مبرأ من هوى البشر وجهلهم وعصبيتهم .

٨ — انتشار القمار :

الاثراء وجمع المال غاية المادية التي ما بعدها غاية ، وأقصر الطرق وأسرعها وأقلها جهدا وكلفة هي أحب الوسائل الى النفس التي سيطر على تفكيرها الجانب المادي ، والتي لا تحلم الا بجمع الثروة بين يوم وليلة ، وتسعى

---

(١) انظر الكيد الاحمر : عبد الرحمن حبنكة : ٢٥٣ .

الى ذلك بسبب وبغير سبب . وكسب الالاف ،بل الملايين ، فى جلسة واحدة بلا تعب ولا نصب هو ما يداعب خيال الكثيرين ويمنون أنفسهم به. ولذلك انتشر القمار بأساليبه المختلفة بين الشعوب الاوروبية ، وأنشئت نوادى القمار العالمية فى مختلف العواصم والمدن الكبيرة ، وغدت موردا ماليا ضخما لبعض المقاطعات فى الدول الاوروبية ،كما هو الحال فى مقاطعة موناكو بفرنسا .

وقد ذكر تقرير نشر فى الشرق الاوسط انه قد دفع على طاولات القمار فى لندن وحدها عام ١٩٧٩ مبلغ تسعمائة وتسعة عشر مليون دولار. (١) هذا عدا ملايين أخرى تدفع على مراهنات كرة القدم وسباق الخيل وغيرها .

وما تزال أعداد المقامرين فى الغرب فى ارتفاع مستمر فى كل عام ، ولا أحد من البشر يستطيع وقف هذا السباق .

وتشير احدى الدراسات الهامة التى نشرت فى صحيفة اكسبرس البريطانية عام ١٩٧٣ الى أن الشعب البريطانى يصرف على شرب الخمر ولعب الميسر أكثر مما يصرفه على الاكل واللباس والسكن . وأكدت الصحيفة المذكورة ان ذلك يشكل ظاهرة خطيرة تدل على أن العد التنازلى للحضارة الغربية قد بدأ فعلا ، وان هذه الحضارة آخذة فى الافول السريع . (٢)

وادى انتشار هذه اللعبة الى المساهمة فى توسيع دائرة السرقة والاحتيال ،لان هاوى القمار لا يهمه شيء قدر ما يهمه المال الذى يمكنه من مزاولة هذه الهواية طمعا فى الحصول على الربح ورغبة فى المغامرة. وفى مدينة سان فرانسيسكو القى القبض على راهب بسبب سرقته مبلغ مائة الف دولار

---

(١) فى العدد الصادر بتاريخ ١٤٠٠/٦/٢٧ ،عن عمل المرأة فى الميزان : ١٨٨ - ١٨٩ .

(٢) عمل المرأة فى الميزان : ١٨٩ - ١٩٠ .

من الابرشية التي كان معتكفا بها ، وذلك لتغطية عمليات مقامرة كـــــان يمارسها . (١)

والمفاجأة المثيرة في هذا الموضوع حسبما تروى التقارير الرسمية ، هـي دخول المرأة في الغرب الى عالم القمار بكثافة كبيرة حتى أصبح عدد النساء المقامرات في الاعوام الاخيرة يفوق عدد أمثالهن من الرجال ، وقد أشـار التقرير الذى نشر بالشرق الاوسط ـ والذى أشرنا له قريبا ـ الى انه تبيـن ان سبعين بالمائة من البريطانيات يقامرن باستمرار .

ويعزو بعض علماء النفس هذا الاتجاه لدى النساء بالدرجة الاولى الى التفكك وعدم الاستقرار الذى يسيطر على الاسرة هناك .

٩ ـ السحر والشعوذة :

الايمان بغيب خارج عن حواس الانسان ومدركاته هو استعداد داخلي أصيل في النفس الانسانية ، ويتمثل في الاعتقاد بقوى وتأثيرات خفية يفسـر بها كثيرا مما يعجز عن تفسيره في ضوء المادية ، ويتجه اليها حين يشعـر بعجزه التام وضعفه أمام الصعاب والكوارث التي لا حيلة له في دفعها .

ان في النفس الانسانية ميلا واستعدادا لملاحظة امور وتفسيرها عـن طريق معرفة عللها واسبابها وكشف كل ما يتعلق بها ، كما ان فيها ميـلا واستعدادا للايمان بأمور أخرى دون ادراك كنهها ومعرفة عللها ، تطلـب هذا وترتاح له كما تطلب ذلك وترتاح له ، والخطورة انما هي في طغيـان احدى النزعتين على الاخرى ، فيؤدى ذلك اما : الى تبديد الجهـد وبعثرته في غير فائدة واستهلاك الوقت والاعصاب في غير جدوى ، وذلـك عندما يريد الانسان أن يدرك بعقله المحدود وبوسائله المادية التـي

---

(١) صحيفة المجتمع عدد ٤٣٩ السنة العاشرة بتاريخ ٢٦ جمادى الاولى ١٣٩٩ موضوع الغرب في الميزان ص ٣٨ .

لا تستوعب الا المادة ما فوق ادراكه وما لا تستطيع حواسه وسائر وسائله المادية أن تحوز من معرفته فتيلا أو قطميرا ، فتجعل بذلك عمله عبثا وجهده ضائعا ، وتوقعه في الخطأ والتناقض والاضطراب في النتائج والاحكام. واما ان تجعله يعطل عقله وعلمه ويقع في الخرافات والاضاليل والاباطيل . وذلك حال الحضارة الغربية ، فحينما أرادت ان لا تعترف الا بالحس والتجربة أو بالعقل معهما بالاكثر ، لم تستطع ان تقضي على تلك النزعة المتأصلة في النفس الانسانية والتي تهفو الى الايمان بغيب وراء الحس والعقل ، فما كان منها الا ان استبدلت تقديسا بتقديس واذعانا باذعان ، فكفرت بالله وآمنت بغيره من نحو الطبيعة أو الزعيم أو الانسانية أو غير ذلك من مقدسات الوثنية الحديثة ، وتفجرت تلك النزعة في نفوس كثير من الغربيين في شكل ايمان بالسحر والشعوذة والخرافة ، والاعتقاد بتأثير الارواح والاشباح ، ومنذ نهاية القرن الماضي انتشرت في الغرب جمعيات كثيرة مهمتها العناية بما سمي ب" استحضار الارواح " واستخبارها عن احوال الموتى وأحوالهم واستشارتها في أمور كثيرة ، وانفقت على ذلك أموالا طائلة ، وروجت لها بالدعايات العريضة . ولم يكن كل ذلك يقوم الا على السحر والشعوذة والخرافة .

وما تزال أمم كثيرة في الهند والصين وفي افريقيا وفي مناطق اخرى من العالم تعتنق الوثنية كعبادة البقر في الهند ، وكالبوذية في الصين، والمدهش أن هذه الاديان تجد لها تجاوبا في الشعوب الاوروبية ، فتجد من يدخل البوذية وغير البوذية من الوثنيات التي عفى عليها الزمان فرارا من الافلاس الداخلي الذي أحدثته الحضارة المادية .

ولقد كان التقديس الاعمى والعبودية النفسية الوثنية واضحة في الصينيين عندما كان ماوتسي‌تونج يغتسل في نهر فهب أهل البلدة جميعا يلقون بأنفسهم في مياه النهر ليمس الماء الذي اغتسل به الزعيم

أجسادهم . (١)

وفي باريس يتمتع السحرة والمشعوذون بمستوى معيشي مرتفع ، بسبب كثرة زبائنهم ، فقد تبين أن حوالي ربع مليون نسمة من أهالي هذه المدينة يلجأون لاستشارات السحرة . (٢)

وقد نشرت مجلة الجديد اللبناني دراسة مدعمة بالارقام عن انتشار السحر في العالم الغربي ، ومما جاء في هذه الدراسة (٣) :

يقول المركز الميتافيزيقي في سان فرانسيسكو : ان خمسة وستين بالمائة من مبيعات مكتبته في الوقت الحاضر هي من الكتب والمجلات التي تتحدث في السحر والشعوذة والاديان والعبادات السرية الغربية ، ويعطي هذا المركز دروسا تستغرق يوما واحدا في قراءة الحظ والكف مقابل خمسة وعشرين دولارا.

ومما أفادته تلك الدراسة أن تجارة الكتب المذكورة تنتشر في نيويورك وتحتل الصدارة على الكتب والمجلات العلمية والادبية وحتى على القصص البوليسية ، وقد عمدت دور النشر الكبرى الى نشر الكتب السحرية . وتعتبر رواية " طارد الارواح " أكثر الكتب رواجا . وقد بلغ الامر ان قام عدد من الجامعات الاميركية بتضمين مناهجها الرسمية دروسا حول أوجه علم الغيب

وعن بريطانيا أفادت المجلة المذكورة أن موجة السحر هناك عمت، فانتشر فيها كثير من مراكز السحر والشعوذة حتى غدت بريطانيا بؤرة يتجه اليها هواة السحر في اوروبا وامريكا . وللسحرة هناك رابطة يقوم أقدم رؤسائها بمقابلة الهواة الزائرين . ولم يتخلف رجال الدين هناك عن ركوب هذا

---

(١) اسس في التصور الاسلامي : محمد عبد القادر أبو فارس : ١٢٨ .

(٢) جماعات الفجر : صبحي حنا .

(٣) عن صحيفة البلاغ الكويتية عدد ١٦١ جمادى الاولى ١٣٩٢ الموافق تموز ١٩٧٢ ص ٤٣ - ٤٤ .

التيار - شأنهم في مماشة كل امر واقع مهما يكن - فأوصى مجمع ديني عقد مؤخرا هناك بتعيين طارد للارواح في كل أبرشيه .

وقد خصصت الاذاعة الفرنسية برنامجا اسبوعيا للساحرة المشهورة " مادام سوليى " وذلك من أجل تقديم النصح والمشورة .

وعن المانيا الغربية ذكرت الدراسة ما قاله الصحافي الالماني " هورشت كناوت " : (ان حوالي ثلاثة ملايين شخص يزاولون نوعا أو آخر من السحر وعلم الغيب بصورة منظمة ، وحوالي سبعة ملايين يعطفون على العلوم السحرية) .

وأضافت الدراسة أيضا أن الحال في سويسرا وايطاليا يشبه المانيا وفرنسا وبريطانيا حيث تتفشى خرافات السحر ليس بين الفلاحين والعمال فحسب ، بل في أوساط الاطباء والمحامين والطلبة الجامعيين وكثير من الاثرياء ، وتجد لها مرتعا خصبا في العاطلين عن العمل من الجنسين .

١٠ — التمييز العنصري :

حين يؤمن البشر باله يخلق ما يشاء ويختار ، ويتصف بالكمال في ذاته وصفاته وأفعاله ، ويفردونه بالعبادة والتشريع ، عند ذلك يمكن لهؤلاء البشر ان يشعروا بالتكافىء بينهم ، وان يحققوا العدل والانصاف والمساواة في مجتمعاتهم ، في النظرية ، وفي التطبيق والواقع ، فلا يحابي أحد على حساب أحد لمجرد لونه أو عرقه أو طبقته أو البقعة التي يسكنها ، ذلك ان هذه الاعتبارات كلها لا كسب للانسان فيها ولا اختيار .

كما ان من غير المستساغ أن يكون اساس الارتباط والتألف بين الانسان والانسان امرا لا حيلة لاحد فيه ، ولا قدرة على تغييره ، ولا امكان لاعادة النظر فيه . ومن ثم يكلف الانسان في تلك الحالة أن يألف عرقا معينا أو لونا معينا أو بقعة معينة ، يحبها ويدافع عنها وينصرها وينتصر لها ، لا لشيء الا لان قدره أن يكون على هذا اللون ، أو يولد من ذلك الجنس ، أو ان

ظروفه قد الزمته بالعيش في مكان دون آخر ، وبممارسة مهنة دون سواهـا وكفى . وكلها اعتبارات ليس مما يصير بها الانسان انسانا ، فهو انسان بغض النظر عن لونه أو عرقه أو وطنه .

ان التمايز بين الناس ، والتفاضل بينهم يجب ان يكون على اساس مما هو من اختيارهم وكسبهم ، وكذلك بالنسبة لرابطة الانتماء وشعور الولاء . وعليه فلا شيء مما ذكرنا يصلح رابطة تجمع ولا اساس للتفاضل .

اما فكر الانسان وعمله فذلك من اختياره وكسبه ، ولهذا يصلحا اساسا للتمايز ورابطة للتجمع والانتماء ، وما يحسه ويدركه الانسان من انسجام روحي ونفسي بينه وبين الذين يشاركونه هذه المعاني هو مما يليق اعتباره رابطة أخوة وتآلف لانه يحس به عن اقتناع وارتياح .

وهذه الاعتبارات من الفكر والروح والسلوك مفتوحة لكافة الاجناس والالوان والبقاع ، وليست موصدة في وجه أحد ممن شاء أن ينتمي اليها ويولي وجهه شطرها .

ثم بعد هذا كله يبقى صمام الامان وضابط الامن للبشر ممن لا يشارك هؤلاء المتألفين حسب تلك الوشائج ، لا يشاركهم اعتقادهم وفكرهم ، من ان يتعصبوا عليه لانفسهم أو لفكرهم ، أن تكون هذه الرابطة والاعتقاد الذى تنبثق منه قائما على الايمان بالله وافراده بالتشريع ، فتكون الحدود واضحة والامور مضبوطة ، ولا تعد عصبتهم تحقق لهم شيئا لاحق لهم فيه ، ما داموا لا يستطيعون التشريع ، وما دام المبدأ الذى يخشى تعصبهم له ينكر عليهم هذا الجور .

اما في الغرب الذى جحد الله ، أو اعترف به الها في السماء دون الارض ، فان الامر مختلف ، لقد عرفت اوروبا التجمع والولاء والتمايز على اساس الطبقية في القديم منذ الامبراطورية الرومانية ، فكان ينظر الى الانسان على اساس من الطبقة التي ينتمي اليها ، حيث قسم المجتمع الى

طبقات منها طبقة الاشراف وطبقة العبيد ، وعرفت اوروبا هذا اللون من الطبقية أيضا فى العصر الحديث كما فى الشيوعية التى ترى الحياة صراعا بين طبقة الراسماليين وطبقة الصعاليك " البروليتاريا " ، والصعاليك كلهم شرفاء الا أن يكونوا أعداء للحزب الشيوعى ، والاغنياء كلهم شياطين الا ان يكونوا من أنصار هذا الحزب . كما عرف الغرب التجمع العنصرى على اساس من سيادة الجنس الرومانى على غيره الاجناس منذ الامبراطورية الرومانية ، وذلك واضح فى كتابات افلاطون ، وعرفه فى العصر الاخير فى القوميات الاوروبية وحركة الاستعمار الحديث .

واذا كان الغرب قد عرف العقيدة كرابطة للتجمع والمتمثلة فى النصرانية فى فترة من تاريخه فانه قد فقد صمام الامان الذى يحول دون طغيان أئمة وأتباع هذه العقيدة على غير قومهم ممن لا يشاركهم الايمان بهذه العقيدة ، أو حتى على قومهم ممن يشاطرونهم الاعتقاد ، ولكنهم يخالفونهم فى أمور أخرى ، فقدت اوروبا ذلك الصمام المتمثل فى طرح الهوى والجهل الانسانى وفى الاحتكام الى شرع لا عصبية فيه ولا انحياز ، وليس ذلك الا شرع الله تعالى ، وهو ما لم تعرفه اوروبا فى تاريخها .

ولم تزل اوروبا متأثرة بفكرة سيادة الجنس الرومانى وشرفه على سائر الاجناس ، وخاصة فى عصر النهضة التى صاحبها احياء الآداب الاغريقية القديمة . وبالرغم من كل ما نادى به الفلاسفة والمفكرون من الدعوة الى الاهتمام بفكرة الانسانية ومن الدعوة الى المساواة والى الحرية ، فانهم لم يكونوا ينظرون الى الشعوب الاخرى نظرتهم الى الشعوب الاوروبية ، اذ كان المراد من المطالبة بتلك الحقوق من الناحية الفعلية مجرد تحقيقها للشعوب الاوروبية . فهذا مونتسكيو أحد كبار مفكرى فرنسا يقول فى كتابه " نظرات فى أسباب عظمة الرومان "

(اذا كان على أن ادافع عن حقنا المكتسب فى اتخاذ الزنوج ذوى

البشرة السوداء عبيدا ، فانني اقول : ان شعوب أوروبا ـ وقد أفنت سكان أمريكا الاصليين لم يكن أمامها الا أن تستعبد شعوب افريقية ، لكي تستخدمها في استصلاح أرجاء امريكا الشاسعة ، وما شعوب افريقية الا جماعات سوداء البشرة ، من أخمص القدم الى قمة الرأس ، ذات أنوف فطساء الى درجة يكاد يكون من المستحيل ان نرثي لها !! . وحاشا لله ذي الحكمة البالغة أن يكون قد أودع روحا ـ أو بالاخص روحا طيبة ـ في جسد حالك السواد !) . (١)

وعلى انغام الشعور بتلك المنزلة للعرق الآرى الذى اعتبر أساس الحضارة قامت فلسفة نيتشه القائل : ان الانسان الاعلى " السوبرمان " سيولد في المانيا ، حيث جذوره وتربيته ، والذى تنبأ بعودة المانيا الى قوتها وبطشها ، تلك الفلسفة التي نفحت هتلر بذلك الشعور المغالي في مكانة العرق الآرى ، وبدعوته الى صيانة ذلك العرق عن الاختلاط بما هو دونه فيقول ـ محذرا من الزواج بين الآرى وغيره ـ (ان التزاوج بين كائنين متفاوتي القيمة ، هو تحد لارادة الطبيعة التي تسعى الى رفع مستوى الكائنات ، وهذا لا يتحقق الا بانتصار من اختارتهم الطبيعة ، فالقوى مدعو للسيطرة على الضعيف ، واذا لم يحافظ البشر على هذا النظام الاساسي ، فان تطور الكائنات سيصاب بنكسة خطيرة) . (٢)

وقد تجلت هذه الصورة للتمييز على أساس اللون أوضح ما تكون بين الاجناس الاوروبية البيضاء وبين من يعايشونهم من السود ، ويتفشى هذا اللون من التمييز في الولايات المتحدة كبرى دول العالم ، حيث يمارس ذلك

---

(١) فضل الحضارة الاسلامية والعربية على العالم ، زكريا هاشم زكريا : ١١٢ وعلامات التعجب مضافة .

(٢) كناحي

بصورة مغالية جدا ، فيتلقى السود في بلادهم من البيض أقسى المعاملة ، لا من شخص ، ولا من بضعة أشخاص ، قد اعتراهم الخطأ وحادوا عن المنطق والصواب ، وانما من الجماهير بصفة عامة ، ومن أولى الامر والمسؤولين الحكوميين ومدراء الجامعات ورجال الفكر ، ويصل الامر في بعض المقاطعات الى حد حظر دخول السود الى المطاعم المخصصة للبيض ، ورفض الطلبة البيض السماح لزملائهم السود بمشاركتهم مقاعد الدراسة في المدارس والجامعات ، وتخصيص مقاعد معينة في وسائل المواصلات العامة للبيض وأخرى للسود ، فالدرجتان الاولى والثانية للبيض ، والثالثة للسود ، وكذلك الحال في المسارح ، بل وفي الكنائس حيث تخصص كنائس للبيض وأخرى للسود، أو يخصص وقت معين لهؤلاء ووقت آخر لاولئك ، ولا يسمح في بعض الولايات الامريكية للاطباء السود بمعالجة البيض الا حين الضرورة ، ولا يجوز للشرطة السود ممارسة وظائفهم في أحياء البيض . والزواج بين البيض والسود ممنوع بقوة القانون في الولايات الجنوبية كلها ، وفي اثنتي عشرة ولاية في الشمال .(١) وليس الرأى العام في الولايات الاخرى التى لم ينص قانونها على هذا الحظر بأقل استنكارا لهذا الزواج منه في الولايات التى تمنع ذلك .

وقد كان من راى بعض المفكرين الامريكيين نقل السود الى افريقيا وجزائر الهند الغربية لتوطينهم هناك ، وذلك باعتبارهم أصلا مجلوبين من تلك البلاد من أجل العمل في امريكا في قرون سابقة . (٢)

ولما دعا الرئيس الامريكي روزفلت الزعيم الاسود الكبير " بوكر واشنطن " الى تناول الطعام بدار الرئاسة تكريما له نشرت الصحف في شماتة أن ثلاثة فنادق في ولاية مساشوتس رفضت السماح له بالنزول فيها . (٣)

---

(١) انظر الاسلام والتفرقة العنصرية ،عبد الحميد العبادى : ٤٢

(٢) انظر المصدر السابق : ٤٤

(٣) انظر المصدر السابق : ٤٢

وتناقل الصحف كثيرا من الحوادث الناتجة عن كبرياء الامريكى الابيض، ومن ذلك حادثة الطالبة السوداء التى تقدمت بطلب للقبول فى الجامعة فى عام ١٩٥٥ ، فرفضتها الجامعة بسبب لونها ، ولما أصدرت المحكمة قرارا يلزم الجامعة بقبولها ، قامت مظاهرة عنيفة انتظم فيها حوالى سبعة الاف متظاهر تهتف ضد الفتاة ، وتنادى بشنقها ، وتعرضت الفتاة نفسها للتهديد من المتظاهرين وللاعتداء عليها برجمها بالحجارة حتى قامت الجامعة بفصلها ، ولما رفعت الفتاة قضيتها مرة أخرى للمحكمة وقررت المحكمة وجوب استئناف الطالبة لدراستها ، عقدت ادارة الجامعة اجتماعا بعد صدور قرار المحكمة بساعات وقررت فصلها بالاجماع، متذرعة بأن الطالبة قد اتهمت المسؤولين بالجامعة تهمة باطلة حين ادعت أن المظاهرات قامت بتحريض منهم ، وادعت أن قرار المحكمة باعادة الطالبة الى الجامعة يعرض حياة الطالبة للخطر . (١)

وبعد سنة ونصف من الحادثة المذكورة حاول قس زنجى ادخال بعض الاطفال السود الى مدرسة للبيض ، فهاجمه عشرون شخصا مسلحا وضربوه بالسكاكين والسلاسل الحديدية . (٢)

ولما جلست امرأة زنجية فى ولاية الاباما فى المقاعد المخصصة للبيض فى سيارة عمومية ، ورفضت الانتقال الى المقاعد المخصصة للزنوج ، اقتادتها الشرطة ، وقدمت الى القضاء فأدينت . فقرر الزنوج فى الولاية مقاطعة الحافلات العامة احتجاجا على قرار المحكمة ، فما كان من هيئة المحلفين الا أن أصدرت قرارا باعتبار هذه المقاطعة غير مشروعة ، متغاضية عن كل ما سمى بالحرية الشخصية ، واعتقل على أثر ذلك أكثر من مائة من الزنوج

---

(١) انظر حقوق الانسان فى الاسلام ، على عبد الواحد : ٣٩ - ٤١

(٢) انظر المصدر السابق : ٤١

المتزعمين للمقاطعة وقدموا للمحاكمة ، وذلك في عام ١٩٥٦ . (١)

ويصر بعض حكام المقاطعات الامريكية على تحدى قرارات المحاكم وأوامر البيت الابيض المتعلقة بالسماح للزنوج بدخول مدارس البيض، وذلك كما فعل أورفال فوباس حاكم ولاية اركنساس في عهد ايزنهاور ، الذى هدد باستخدام القوات النظامية للحيلولة دون تنفيذ قرار من ذاك القبيل . (٢)

وفي مدينة ناشفيل نسف الجمهور مدرسة ودمروا معظم مباني مدرسة أخرى لوجود طالب زنجي في كل من المدرستين . وهدد زعيم التفرقة العنصرية انه لن يتورع عن استخدام المشانق والرصاص والديناميت للحيلولة دون دخول أولاد الزنوج الى مدارس البيض . (٣)

وليس هذا الشعور بقاصر على الامريكيين بل هو شعور الاوروبي أيضا، ولا أدل على ذلك من روح التعالي والتفرقة على أساس من اللون التي تمارسها الاقلية البيضاء ذات الاصل الاوروبي في جنوب افريقيا ضد الاكثرية من السود ، مما يزيد في حدته على ما هو موجود بين الامريكيين . ويشكل هؤلاء البيض في جنوب افريقيا خمس السكان ، غير ان ما يخصهم من الدخل القومي يشكل خمسة وسبعين بالمائة ، مقابل خمسة وعشرين بالمائة هي ما يخص بقية السكان ، والزواج ممنوع بين البيض والسود ، ولكل منهما أحياء خاصة ، وقد تبين أن نسبة الاصابة بمرض الدرن تمثل بين البيض اقل نسبة في العالم ، على حين تمثل نسبة الاصابة بالمرض ذاته في البلد نفسه أعلى نسبة له في العالم (٤) ، وما ذلك الا بسبب التمايز الكبير في الرعاية

---

(١) المصدر السابق : ٤١ - ٤٢

(٢) المصدر السابق : ٤٣

(٣) انظر المصدر السابق : ٤٣

(٤) انظر الاسلام والمشكلة العنصرية : ٢٢

الصحية التى تقدم للطرفين، وللتفاوت الواسع فى المستوى المعيشى لهما .

١١ — ظهور الجنس الثالث :

كان من آثار الحضارة المادية على النفوس ان جعلتها مولعة بالتغيير والتجديد – كيفما كان هذا التغيير – انه شعور الملل الذى يسيطر على الاعصاب ، والتطلع الدائم للجديد يدفعها باستمرار لازدراء الحالة الراهنة المألوفة وطلب غيرها ، ولم يقف الامر عند حدود ، ذلك ان الغربى متبرم من كل شيء ، لا يريد ان يقف فى وجه تحقيق اطماعه وأمانيه شيء ، لا قيم ، ولا اعراف ، ولا عادات ، بل حتى ولا موانع فى الخلقة والتكوين . ولهذا اشتهت المرأة الغربية ان تعمل كما يعمل الرجل ، وان تتصرف كما يتصرف ، بل وأن تشعر كما يشعر ، وتشبهت به بالفعل فى كل ذلك ، واسعفها دعاة المساواة بكل ما استطاعوا من حجج منطقية أو زعموا لها ذلك لتزيين الامر للمرأة ، وزادتها ظروف المجتمع المادى الصناعى اغراء وتشجيعا على ذلك .

ولكنها مع هذا لم تستطع ان تتخلص من شعورها الفطرى كانثى ، وانما صادمت هذا الشعور الفطرى مما ساهم فى زيادة قلقها ونكدها . ومما أثّر سلبيا على نمو هذه الخصائص الانثوية فى داخلها ، حتى أصبح علماء الاجتماع وعلماء النفس يلاحظون تغيرا بطيئا فى كيان الانثى بدأ يظهر واضحا يتمثل فى نقص المواليد بين العاملات ، وفى ضمور خصائص الانثى فيهن . تقول الدكتورة بنت الشاطىء وهى تحكى شهادة طبيبة غربية من فينا عن ظهور جنس ثالث فى الغرب : (وكان المظنون ان هذا النقص اختيارى محض وذلك لحرص المرأة العاملة على التخفف من أعباء الحمل والوضع والارضاع تحت ضغط الحاجة والاستقرار فى العمل . ولكن ظهر من استقراء الاحصاءات أن نقص المواليد للزوجات العاملات ، لم يكن أكثره عن اختيار بل عن عقم استعصى علاجه . وبفحص نماذج شتى منوعة من حالات العقم اتضح أنه فى الغالب لا يرجع الى عيب عضوى ظاهر . مما دعا العلماء الى افتراض

تغير طارئ على كيان الانثى العاملة نتيجة لانصرافها المادى والذهنى والعصبى -عن قصد أوغير قصد- عن مشاغل الامومة ودنيا حواء ، وتشبثها بمساواة الرجل ، ومشاركته في ميدان عمله) . (١)

وعلل العلماء ذلك بكون (الوظيفة هى التى توجد العضو) ، ولما كانت وظيفة الامومة لدى المرأة هى التى تميزها بالخصائص الانثوية ، فان الانصراف التدريجى للمرأة عن الامومة لا بد ان يصاحبه ضمور فى تلك الخصائص .

(وثارت اعتراضات منها : أن كثرة العاملات ينفرن من العقم ويشتهين الولد . ومنها : أن المجتمع الحديث يعترف بالام العاملة ويحمى حقها فى العمل ، ويتيح لها بحكم القانون ، فرصة الجمع بين شواغل الامومة وواجبات العمل . ومنها : أن عهد المرأة بالخروج من دنياها الخاصة لا يتعدى بضعةأجيال ، على حين يبلغ عمر الخصائص الانثوية فيها ما لا يحصى من دهور وأحقاب .

(وكان الرد على هذه الاعتراضات : أن اشتهاء الزوجة العاملة للولد يخالطه دائما الخوف من أعبائه ، والاشفاق من أثر هذه الاعباء على طمأنينة مكانها فى محل العمل . ثم ان الاعتراف بالعاملة الام قلما يتم الا فى حدود ضيقة ، وتحت ضغط القانون . وما أكثر ما يجد أصحاب العمل فرصتهم لتفضيل غير الامهات . وأما قصر عهد المرأة بالخروج فيرد عليه بأن هذا الخروج -على قرب العهد به- قد صحبه تنبه حاد الى المساواة بالرجل واصرار عنيد على التشبه به ، مما عجل ببوادر التغيير ، لعمق تأثير فكرة المساواة على أعصاب المرأة وقوة رسوخها فى ضميرها .

(وما يزال المهتمون بهذا الموضوع ، يرصدون التغيرات الطارئة على

---

(١) عن الاسلام ومشكلات الحضارة : ١٥٧

كيان الانثى ، ويستقرئون فى اهتمام بالغ دلالات الارقام الاحصائية لحالات العقم بين العاملات ، والعجز عن الارضاع لنضوب اللبن ، وضمور الاعضاء المخصصة لوظيفة الامومة) . (١)

وتشير صحيفة لوموند الفرنسية بعد ان تحدثت عن النقص المستمر فى مستوى الخصوبة لدى المرأة الفرنسية الى أن ذلك يرجع (الى ان المرأة العاملة تفضل تحسين وضعها الاقتصادى والاجتماعى بدلا من ان تنجب مزيدا من الاطفال ، حتى لقد قيل انه ظهر فى فرنسا ، وفى مجتمعات غرب أوروبا عموما جنس ثالث لا هو من الذكور ولا من الاناث ، ظهر بين النساء اللاتى شغلهن العمل عن الانوثة) . (٢)

غير أن الامر لم يكن مقصورا على المرأة ، فكان شأن الرجل الغربى شأنها يشتهى ان يغير وأن يخالف المألوف ، فرام قوم ان يغيروا جنسهم ويتحولوا اناثا ، وبلغ الامر حد ما نقلته بعض الصحف عن قيام مظاهرات من هوءلاء الفتية المتشبهين ببنات حواء حول مبنى البرلمان الايطالى ، يطالبون بالاعتراف لهم بتغيير الجنس من الذكر الى الانثى ، واثبات ذلك فى حفائظ النفوس وجوازات السفر الخاصة بهم ، فما كان من البرلمان المتعاطف مع الميول الانثوية والمحترم للحريات الشخصية الا أن وافق على ذلك .

لكن ذلك كله لا يقوى على تغيير الفطرة وتبديلها ، وانما يمسخها فقط فيباعد بين الذكورة والرجولة فى اشخاص هوءلاء الشاذين ، ويصيب خصائص الذكورة فيهم بالضمور والخمول ، فكأنما احدهم من جنس ثالث لا هو بالرجل ولا بالانثى ، وكذلك الامر بالنسبة للمرأة ، فكأنما هى جنس ثالث بل رابع ليست بالمرأة ولا بالرجل . وما ذلك الا عقوبة من عقوبات مصادمة الفطرة البشرية .

---

(١) عن المصدر السابق : ١٥٧ - ١٥٨

(٢) علم الاجتماع السكانى ، عبد المجيد عبد الرحيم : ١٩٣

١٢ — شيخوخة المجتمعات :

كان من أثر ما تحدثنا عنه من انخفاض مستوى الاخصاب عند النساء في الغرب ، واستعمال وسائل منع الحمل والاجهاض بشكل واسع ، والعزوف عن الزواج ، والزهد في الانجاب ، والاقتصار على أقل عدد ممكن من الذرية ان تغيرت تركيبة المجتمع ، فزادت نسبة المسنين فيه على حساب النقص في نسبة الشباب ، ومن المعروف أن الشباب هو الطاقة المنتجة ، على حين يضعف الانتاج وربما ينعدم مع التقدم في السن ، وبهذا فان طبقة الشباب تنوء بحمل أكبر ، وذلك بالطبع يوءثر على الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية بل والنفسية .

في شمال غرب أوروبا ووسطها

وقد بينت بعض الدراسات أن نسبة الكبار* الذين تزيد أعمارهم عن ستين عاما يشكلون ١٤٪ على حين لا تزيد هذه النسبة في دول الشرق الادنى على ٦٪ . (١)

وقد وضح أن مسألة تحديد النسل أكثر قبولا وأوسع انتشارا لدى الفئات ذات الثقافة العالية والتعليم ذي المستوى الجيد ، وصاحبة القدرة على الرقي العلمي ، وهذا يعني انخفاض نسبة هذه الفئة في المجتمعات الغربية في مقابل الفئات الاخرى الاقل تعليما ، وهو من العوامل التي ساهمت في نقص نسبة الذكاء وقلة اعداد الاذكياء هناك — كما سبق ان تحدثنا عن ذلك (٢) — .

يقول الاستاذ " وارين تومسن " الخبير الامريكي الشهير في احصائية السكان : (ان الذين هم أقل ثقافة اسرهم كبيرة ، والذين هم أكثر ثقافة أسرهم صغيرة) . (٣)

---

(١) علم الاجتماع السكاني : ١٩٥

(٢) انظر ص ٢٦٧ .

(٣) حركة تحديد النسل : ١٥ .

ويقول الدكتور " سيلدون " : (ان طبقة العمال والفلاحين هي التى يتزايد أفرادها فى ظروفنا الراهنة ازاء طبقة المثقفين والغنيين العليا، وهذه الغلطة هى حقيقة حياتية اساسية فيما يتعلق بالتناسل الانسانى) .

ثم يضيف : (هناك حقيقة مرة قد ظهرت بما أجرى من التجارب الطبية فى أمريكا هى ان مستوى الذكاء العام فى هذه الايام منخفض بالقياس الى سنة ١٩١٦) . (١)

ظهرت هذه الآثار وكثير غيرها بفعل وجود ذلك النقص الخطير فى الحضارة الغربية المعاصرة . ولسنا نزعم بهذا ان كل شخصية تعرضت لشىء من هذه الآثار المدمرة ما كانت لتتعرض له لولا هذا النقص ، وانما الذى نؤكده ، انها ما كانت لتتحول الى تيارات عامة بهذا الشكل الواسع لولا جدب هذه الحضارة ، وكان يمكن ان تبقى لولا ذلك الاصابة بهذه الامراض تمثل حالات فردية محدودة لا تساوى شيئا الى الواقع الراهن .

---

(١) تحديد حركة النسل : ١٥ . انظر ص ٢ .